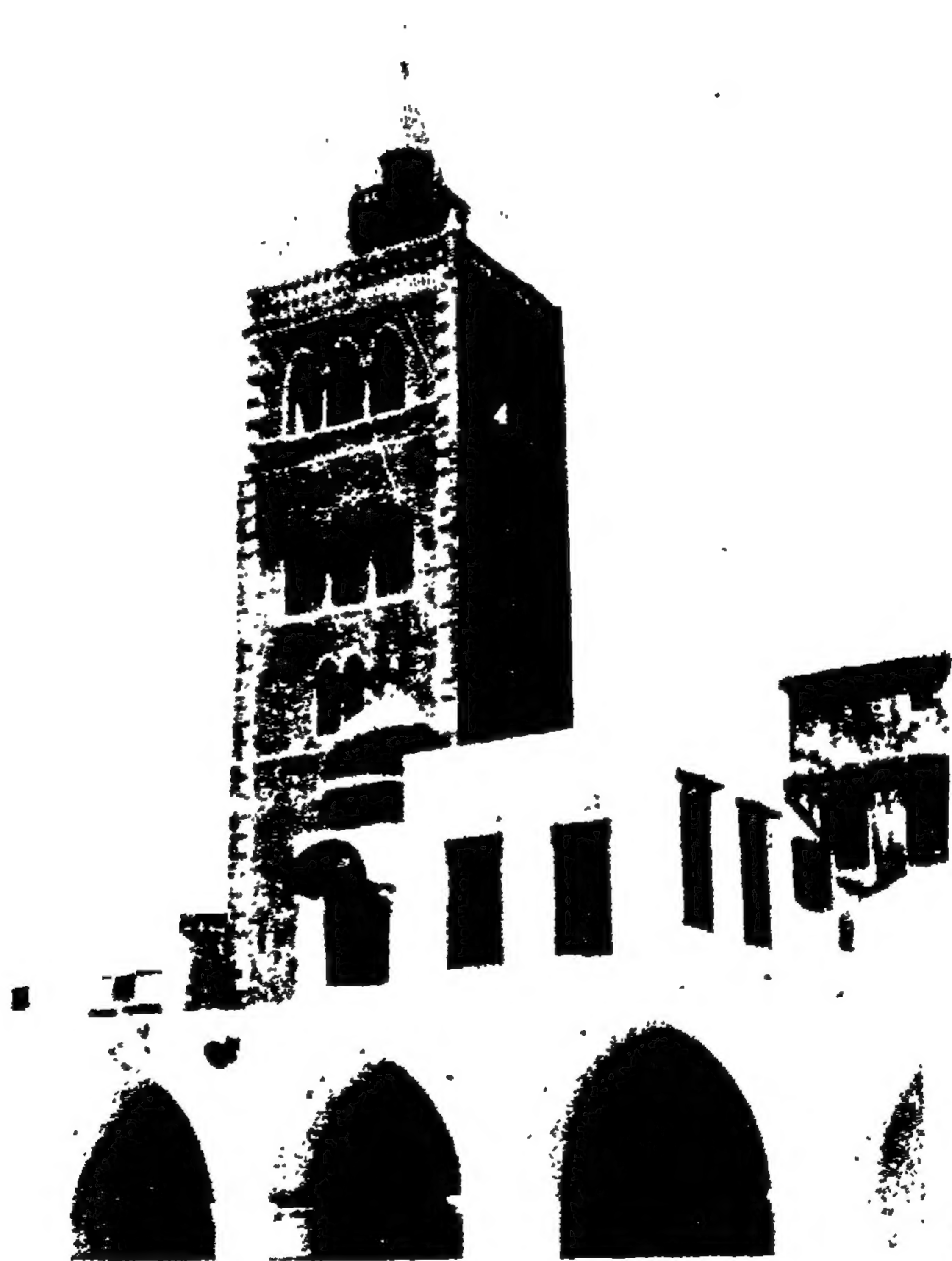


طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي



الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر

ب. ٩٤٧٣ - الإسكندرية

عبد العزيز سام

أستاذ التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

طرابلس الشام في

التاريخ الإسلامي

956.920

3

س ١
٤

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سام

أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

المعهد العام لكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف 956.9203
ص ٢٣
رقم التسليم ٦١٢٧

Library of the
University of Alexandria
(GOAL)
Library of the
University of Alexandria

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر

ت: ٢٩٤٧٢ - الإسكندرية

مقدمة

تعتبر مدينة طرابلس اللبنانية ، أو طرابلس الشام على حد تسمية مؤرخي العرب - تميزا لها عن طرابلس الغرب بالملكة الليبية - من ييز المدن العربية الهامة المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، التي لعبت دورا خطيرا في تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، وقد ساعد موقع هذه المدينة في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط تقريبا ، بالاضافة الى امكاناتها الاقتصادية الوفيرة ، على الازدهار الحضارى الذى أصابته في العصر الاسلامى ، وعلى المكانة الرفيعة التى تبوأتها هذه المدينة العظيمة بوجه خاص في عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة .

ولقد شهدت مدينة طرابلس منذ الفتح العربى الأول فى خلافة عثمان ابن عفان ، حتى الفتح العثمانى فى سنة ٩٢٢ هـ أحداثا تاريخية عديدة ، فكانت من بين مدن الشام التى ارتبطت بمصر الاسلامية فى عصر الدولتين الطولونية والأخشيديّة ، وفى القسم الأول من عصر الدولة الفاطمية ، وأخيرا فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة ، كما تمتعت بالاستقلال فى امارّة بنى عمار ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وأصبحت أيام الحركة الصليبية مركزا لكوئتية طرابلس ما يزيد على مائة وثمانين عاما (٥٠٢ - ٦٨٨ هـ) . وقد سجلت معظم هذه الأحداث آثارها فى البناء العمرانى للمدينة فى العصر الحاضر ، وفى كثير من منشآتها الاسلامية الباقية التى تكتظ بها المدينة ، فبينما نستطيع أن نميز الطابع المملوكى واضحا فى الآثار الدينية وبعض الآثار الحربية ، نطالع الطابع الصليبي فى القلعة الموسومة باسم قلعة صنجيل نسبة الى مؤسسها ريموند دى سان جيل ، كوفت دى تولوز ، كما نطالع

في مئذنة الجامع المنصوري الكبير ، وفي بوابتي هذا الجامع وفي بعض الآثار الأخرى مثل واجهة حمام عز الدين .

وعلى الرغم من تلك الخصائص التي تتميز بها مدينة طرابلس في العصر الإسلامي . والتي نسنهوى الباحث لأصالتها وتنوعها مع طرافتها . فإن تاريخ هذه المدينة لم يحظ — في العصر الإسلامي — بعد بما يستحقه من دراسات علمية منظمة . فقد انصرف اهتمام الباحثين بوجه خاص الى العصر الذي أصبحت فيه طرابلس مركزا لامارة صليبية في ظل الأسرة التولوزية أولا ثم الأسرة البوهمندية الأنطاكية .

ذلك الهزال الشديد الذي تعانيه الأبحاث المفردة عن طرابلس كان عاملا رئيسيا وحافزا لاهتمامي بدراسة هذه المدينة في العصر الإسلامي . فقد اجتذبتني آثارها الإسلامية الرائعة ، واستهواني تاريخها الوسيط الحافل بالأحداث السياسية الهامة . ما دفعني الى المساهمة في الكتابة عنها . وكان لزياراتي المتكررة الى عاصمة شال لبنان أثر كبير في البحث المتواضع الذي نشرته في مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية في سنة ١٩٦٣ . وفي المحاضرة التي ألقيتها — بدعوة من جمعية مكارم الأخلاق الطرابلسية — في هذه المدينة العريقة في مايو سنة ١٩٦٤ ، وأخيرا في هذا البحث موضوع الدراسة .

ولقد قسمت البحث الى قسمين : القسم الأول — وهو القسم الرئيسي — خصصته لدراسة تاريخ المدينة في العصور الإسلامية ، والقسم الثاني أفردته لدراسة بعض مظاهر الحضارة في طرابلس وصور من آثارها في العصر الإسلامي .

أما القسم الأول فيقسم ست فصول ورعتها على النحو التالي ، وذلك بعد التمهيد

أولا — طرابلس منذ الفتح العربى حتى استقلالها عن الدولة الفاطمية.

ثانيا — طرابلس امارة عربية مستقلة فى ظل بنى عمار .

ثالثا — سقوط طرابلس فى أيدي الصليبيين .

رابعا — امارة طرابلس الصليبية .

خامسا — استرداد المسلمين لطرابلس

سادسا — طرابلس فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة .

أما القسم الثانى الخاص بحضارتها وبآثارها الاسلامية فيتضمن

ثلاثة فصول .

أولا — بعض مظاهر الحضارة فى طرابلس الاسلامية .

ثانيا — المساجد والمدارس .

ثالثا — الآثار الحربية والمدنية .

والله هو الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية فى ٢ مايو سنة ١٩٦٦ .

تمهيد

(١)

اسم طرابلس وتفسيره

ورد اسم طرابلس في بعض المصادر العربية بإضافة ألف مهموزة «أطرابلس» ، ويشير السمعاني الى أنه قد تسقط الألف منها لتمييز اسم طرابلس عن بلدة أخرى معروفة باسم أطرابلس «١» في المغرب «٢» ، غير أن ياقوت ينكر سقوط الألف من طرابلس الشام ، ويعيب على المتنبي حذفها منها في قوله :

(١) هي مدينة قديمة بأرض المغرب فينيقية أو قرطاجنية البناء ، أسست في عصر غير معروف ، بعد تأسيس كل من صبراتة ولبدة ، وكانت تسمى «أويا» أو «أوايات» ، وهي لفظة بربرية على الأرجح ، ثم حرف الرومان هذا الاسم الى أوا ، ومعناها بالآغريقية ثلاث مدن . غير أن هذا الاسم ما لبث أن تحول الى تريبوليتانوس نسبة الى الخط الدفاعي الذي أقامه الرومان في القرن الثالث الميلادي لحماية المنطقة الواقعة بين خليجي سرت الصغير والكبير (قابس) من هجوم القبائل البربرية ، وعرف هذا الخط الدفاعي باسم ليمس تريبوليتانوس . هذه اللفظة تعني اقليم المدن الثلاث : لبدة وأويا وصبراتة ، ثم اختصر الاسم بالتدريج الى تريبوليس ، ثم عربت اللفظة عند الفتح العربي الى طرابلس . وقد ذكر البكري أنها بزيادة ألف قبل الطاء (أنظر : البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ - أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي تاريخ طرابلس الغرب . المسهمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من من الأخبار ، نشره الاستاذ الطاهر أحمد الزاوي ، القاهرة ١٣٤٩ هـ - الطاهر أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٤ ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٥ ، ص ١٤٢ - جورجى نينى ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ص ٣٧١ .

أكارم حسد الأرض السماء بهم . . . وقصرت عن كل مصر طرابلس^(٢)»
ومنعا للبس والخلط بين المدينتين اتفق على تسمية طرابلس الشامية
بـطرابلس الشام ، بينما عرفت طرابلس الليبية بـطرابلس الغرب ، لوقوعها
في غرب العالم الاسلامي .

ولا شك أن لفظة طرابلس اغريقية ومعناها « ثلاث مدن » ، وهو
تفسير شاع بين المؤرخين الذين يرجعون أصل هذا الاسم الى الاغريق ،
استنادا على أن مدينة طرابلس لم تكن في بداية أمرها سوى ثلاثة أحياء
مسورة متحاذية هي : حي الصوريين ، وحي الصيداويين ، وحي
الأرواديين ، فقد ذكر القلقشندي نقلا عن الحميري في الروض المعطار
« ومعنى أطرابلس فيما يقال ثلاث مدن ، وقيل مدينة الناس »^(٤) ، وكذلك
أشار ابن تغرى بردى نقلا عن شرف الدين محمد بن موسى المقدسى في
السيرة المنصورية الى أن طرابلس « كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة
باللسان الرومي »^(٥) .

ولكن مدينة طرابلس الشام مدينة فينيقية ، أسست في تاريخ غير

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة بيروت ١٩٥٥ ، ج ١ ، مادة أطرابلس
وكتاب المشترك وضعها والمفترق صقعا ، نشره وستنفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٦ .

(٤) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٢ .

(٥) أبو المعاسن ، النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ،
ج ٧ ص ٣٢٢ .

معروف على وجه الدقة ، وأغلب الظن أنها أسست في القرن السابع قبل الميلاد ، وهو موضوع سأقوم بدراسته فيما بعد . ولما كانت طرابلس من انشاء الفينيقيين ، فلا بد أنه كان لها اسم فينيقي ، أقدم من اسمها الذي عرفت به في العصر الفارسي وهو « أثر » فمن المعروف أنه أطلق عليها هذا الاسم السامي « أثر » بعد أن أصبحت تمثل اتحاد المدن الفينيقية بأحيائها الثلاثة في السنة الأولى من عصر الملك أرتخشستا الثالث أو كوس Artaxerxes III Ochus (٣٥٩ ق م — ٣٣٨ ق م) ، ونطالع هذا الاسم على بعض العملات التي يرجع تاريخها الى ١٨٩ — ١٨٨ ق م ، وإلى جانب هذا الاسم الفينيقي السامي « أثر » أطلق عليها الاغريق اسم تريبوليس «^٦» . ومع ذلك فان الاسم الفينيقي القديم ما زال غير معروف لدينا «^٧» ، وان كان الأستاذ الدكتور أنيس فريجه يرجح أن يكون اسم « تربيل » Tûr Bîl أى جبل الاله بيل هو هذا الاسم الفينيقي القديم الذي عرفت به منذ تأسيسها ، ثم أضيفت اليه اللاحقة الاغريقية S . ويستند الاستاذ فريجه في هذا الرأي الى حقيقة جغرافية هامة ، فبالقرب من

(٦) فيليب حتى ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجه .
والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩ ص ١٨٨ .

(٧) Dussaud (René) : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Publications du Haut Commissariat de la République Française en Syrie et au Liban, Bibliothèque archéologique et historique, t. IV, Paris, 1927, p. 75.

طرابلس جبل يسمى « تريل » أى جبل الله «^٨» . وليس من المستبعد أن يكون « تريل » هو الاسم الفينيقي القديم لطرابلس ، بل اننى أميل الى الأخذ بهذا التفسير ، لأن لفظة « تر » لفظة فينيقية معناها الجبل ، وتقابلها لفظة « طور » بالعربية بمعنى الجبل الذى يكسوه الشجر «^٩» ، كما هو الشأن فى طور سيناء «^{١٠}» ، وجبل تريل الذى أشار اليه الأستاذ فريجة يقع شرقى مدينة طرابلس ، ولعل اسم طور بيل أو تريل حرف فيما بعد فى العصر الاغريقى بعد أن أضيفت اليه اللاحقة الاغريقية الى تريبوليس تأكيدا لوجود ثلاثة أحياء فى المدينة تمثل المدن الفينيقية الثلاثة صور وصيدا وأرواد ، فأصبحت لفظة تريبوليس Tripolis اليونانية التى تتشابه فى نطقها مع تريل تعنى المدينة ذات الأحياء الثلاثة ، ثم عربت اللفظة الاغريقية الى طرابلس على نحو ما حدث فى تسمية طرابلس الغرب .

== أنظر أيضا :

لوريس لورث ، مشاهدات فى لبنان ، من كتاب سورية اليوم ، ترجمة الأستاذ كرم البستاني ، بيروت ١٩٥١ ص ٦ ، جورجى بنى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٧١ — دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طرابلس (En. Islam)

(٨) أنيس فريجة ، أسماء المدن والقرى اللبنانية ، وتفسير معاليها ، منشورات الجامعة الأميركية فى بيروت ، بيروت ١٩٥٦ ص ٢٠٧

(٩) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة طور ، مجلد ٤ ، طبعة بيروت ص ٤٧

(١٠) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سينا ، مجلة العلوم ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥ ص ١

وهناك من أمثلة هذا التحريف اسم الفسطاط الذي أطلقه العرب على
حاضرة مصر الإسلامية ، فبتلر Butler يعتقد أنها مشتقة من اللفظة اللاتينية
Fossatum ومعناها الحصن ، بدليل وجود حصن بابليون قريبا من
الموضع الذي أقيمت فيه الفسطاط ، بينما تعنى كلمة فسطاط بالعريّة
الخيمة أو المعسكر ، وابتكر الرواة لتبرير هذه التسمية العربية قصة
أسطورية : قصة اليمام الذي أفرخ في فسطاط عمرو «(١١)» ، ولفظة فاس
لفظة بربرية، ولكن الرواة ابتكروا لتبرير معناها العربي قصصا كثيرة «(١٢)»:

(١١) ذكر ابن عبد الحكم أن الفسطاط انما سميت كذلك لأن « عمرو
ابن العاص لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال من بها من الروم ، أمر
بنزع فسطاطه ، فاذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرم
منا بمتحرم ، فأمر به ، فأقر كما هو ، وأوصى به صاحب القصر ، فلما قفل
المسلمون عن الاسكندرية ، فقالوا : أين نزل ؟ ، قالوا : الفسطاط ،
لفسطاط عمرو الذي كان خلفه » (ارجع الى ابن عبد الحكم ، فتوح مصر
والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٣٣) .
وقد شاعت هذه الرواية في المصادر العربية تفسيراً لاسم الفسطاط (راجع
محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية ، وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة
١٩٣١ ، ص ١٣ وما يليها — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية
١٩٦١ ، ص ٤٠ — السيد عبد العزيز سالم ، تخطيط مدينة الاسكندرية
وعمرانها في العصر الاسلامي ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٢) .

(١٢) ابن أبي زرع ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار
ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس ، نشره تورنبرج ، أبساله ، ١٨٤٣ —
الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشره الفريد بل ،
الجزائر ، ١٩٢٢ .

والبصرة من بصراثا عربت الى البصرة «^{١٣}» وفسرت اللفظة المعربة
تفسيرات كثيرة ، وكذلك بغداد الفارسية «^{١٤}» ، وسامرا «^{١٥}» ، وغيرها
من المدن الاسلامية .

-
- (١٣) يعقوب سر كيس ، مقال عن « البصرة » مجلة سومر ، ج ١
مجلد ٤ ، بغداد ١٩٤٨ .
- (١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، مادة بغداد .
- (١٥) ذكر المؤرخون أنها لما عمريت وازدهرت سميت بسرور من رأى ،
واختصر الى سر من رأى ، ولما خربت واستوحشت ، سميت ساء من رأى ،
واختصرت الى سامرا ، وأعتقد أنها اشتقت من اسم Castellum Sumere
أو حصن سومر (أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، بيوت الله مساجد
ومعاهد ، ج ٢ ، ١٩٥٩ ، ص ٢٢٢) .

(٢)

موقع طرابلس وأثره في كيانها الاقتصادي

تقع مدينة طرابلس الحالية « على سفح ذيل من أذيال لبنان »^(١٦) ، بحيث لا تبعد عن البحر بأكثر من كيلو مترين ، ويخترقها نهر قاديشا (المقدس) الذي يعرف في الوقت الحاضر باسم نهر أبي علي «^(١٧)» ، ويجري هذا النهر في واد عميق ، يعتبر من أشد أودية لبنان وعورة وعمقا ، ومن أكثرها روعة وجمالا ، ويبدأ هذا الوادي عند سفح غابة الأرز ، وينحدر انحدارا سريعا في انحناءات وتعرجات متواصلة الى أن ينتهي بسهل طرابلس عند الساحل ، ويصل عمق وادي قاديشا في بعض أجزائه الى ١٧٠٠ قدم «^(١٨)» . ويشق هذا الوادي نهر قاديشا المذكور ، الذي ينبع من مغارة بأدنى غابة الأرز تعرف بمغارة قادشا ، وتزيد مياه هذا النهر ببراغدين

(١٦) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري
الدمشقي ، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، نشره مهران ،
ليبرز ، ١٩٢٣ ، ص ٢٠٧ .

(١٧) أعتقد أنه سمي كذلك نسبة الى الأمير فخر الملك أبي علي عمار
آخر أمراء بني عمار الذين استقلوا بحكم طرابلس فيما بين عامي ٤٥٩ هـ ،
٥٠١ هـ . ولقد احتفظ هذا النهر باسمه السرياني « قاديشا » حتى وقتنا
هذا ، وشاعت تسميته بذلك الاسم في العصر الوسيط بسبب التجاء رهبان
الموارنة في كهوفه ومغاوره .

(١٨) فيليب حتى ، لبنان في التاريخ ، ص ١٦ .

صغيرين أحدهما يسمى رشعين والثاني يقال له المخاضة «١٩» • وعندما يصل النهر الى طرابلس يشق المدينة من الجنوب الى الشمال بحيث يقسمها الى مركزين عمرانيين متميزين يتدرجان في الارتفاع : أحدهما على الضفة اليسرى من النهر ، ويعرف اليوم بتلة أبي سمرة التي كانت تسمى في زمن الصليبيين بتلة الحجاج *Mons Peregrinus* ، وقد أقيم على هذه التلة قلعة صليبية ما زالت تعرف حتى اليوم باسم قلعة صنجيل نسبة الى مؤسسها ريموند دي سانجيل كونت دي تولوز • والمركز العمراني الثاني يقع على الضفة اليمنى من نهر أبي على ، ويطلق عليه اسم تلة القبة «٢٠» • ومياه نهر أبي على تصل الطبقات العليا من دور طرابلس المرتفعة ، التي يرقى اليها بالدرج «٢١» •

وبعد أن يجتاز نهر أبي على طرابلس يتجه شمالا بين بساتين ومروج خضراء الى أن يصب في البحر شرقي الميناء ، وكان من آثار اختراق هذا النهر لمدينة طرابلس أن كثرت بساتينها ومزارعها في العصور التاريخية

(١٩) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٧٢

Robert Boulanger. Liban, " les Guiders bleus " Paris (٢٠)

1955, p. 117

وقد ورد اسم القبة في نص لابن الشحنة الحلبي عن بدر الدين بن حبيب (ارجع الى : محمد بن الشحنة الحلبي ، كتاب الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب نشره يوسف سرقيس ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ٢٦٤) •

(٢١) ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ٢٦٣

المختلفة ، وازدادت بذلك ثروتها الزراعية والتجارية خاصة في العصر الاسلامي اذ اشتهرت طرابلس بزراعة البرتقال والحضيات بوجه عام وقصب السكر والفواكه «٢٢» وتعتبر زراعة الحضيات في الوقت الحاضر من أهم الموارد الاقتصادية في طرابلس «٢٣» . أما اقليم الكورة التابع لطرابلس قديما وحاليا ، فقد اشتهر بزراعة الزيتون «٢٤» ، ويمند السهل المغروس بأشجار الزيتون اليوم من الكورة الى عكار ، وهو لذلك يعتبر من أوسع سهول الزيتون في العالم «٢٥» .

ومدينة طرابلس الحالية محدثة الانشاء ، أسسها المماليك في سلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي افتتح طرابلس في سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) في الموضع الذي كان يقوم فيه الربض الصليبي بأدنى قلعة

(٢٢) الادريسي ، وصف فلسطين والشام من كتاب نزهة المشتاق ، نشره جوانيس جيلدميستر Joannes Gildemeister بعنوان Idrisi, Palaestina et Syria, Bonnensis, 1885 ص ١٧ — ابن شداد ، (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي الحلبي) ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، نشره الدكتور سامي الدهان ، المعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٦٢ ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٤ — نخبة الدهر ، ص ٢٠٧ .

(٢٣) حلیم أبو عز الدين ، محاضرة بعنوان محافظة الشمال ، من سلسلة محاضرات في : لبنان في محافظات ، بدار الندوة ، السنة ١٥ ، النشرة ٢٤١ ، بيروت ١٩٦١ ص ٥٩ .

(٢٤) الادريسي ، المرجع السابق ص ١٧ — حلیم أبو عز الدين ، محافظة الشمال ، ص ٦١

(٢٥) جورجى ينى ، ص ٣٧٣ — حلیم أبو عز الدين ، ص ٦٢

صنجيل «٢٦» . أما مدينة طرابلس القديمة التي ظلت قائمة في عصر الصليبيين ، فقد خربتها جيوش السلطان قلاوون ، فدثر عمرانها وتلاشى ، في الوقت الذي عمرت فيه المدينة المالكية الجديدة .

وطرابلس القديمة ، التي كانت تعرف بالمينا ، شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، وتبعد عن مدينة طرابلس المجددة بنحو ثلاث كيلومترات ، وما زالت تؤلف حتى اليوم مركزا عمرانيا قائما بذاته ، ولكنه يعد حيا ثالثا من أحياء طرابلس بعد أن امتد العمران من طرابلس إليها . وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن طرابلس تنقسم الى مركزين عمرانيين منفصلين : المدينة والمينا (أو المينة) وإن كان عمرانهما يتجه حاليا الى الاتصال بسبب النمو العمراني السريع الذي تشهده طرابلس في سائر الاتجاهات ولا سيما بامتداد الطرق الثلاثة المؤدية الى المينا ، عبر بساتين البرتقال التي اشتهرت طرابلس بزراعتها في كل العصور «٢٧» .

ويمتد بازاء المينا في البحر صف من أربعة جزر صغيرة تبعد عنه بنحو عشرة أميال كانت تسمى في أيام الإمبراطورية البيزنطية على الترتيب من الشمال الى البر : « جزيرة النرجس » ، وهي صغيرة خالية ، « وإليها جزيرة العند » ، ثم

Van Berchem & Fatio: Voyage en Syrie, dans Mémoires (٢٦)
de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37, le
Caire, 1914, p. 116.

Le Liban, face à son développement, Publication de (٢٧)
l'Institut de formation en vue du développement, Beyrouth, 1963 p. 67

اليها جزيرة الراهب ، ثم اليها جزيرة أرذقون «^{٢٨}» . وأكبر هذه الجزر الأربعة جزيرة سساها ابن الفرات وغيره باسم جزيرة النخلة «^{٢٩}» ، تتصل بها ثلاثة جزر صغار فيما بينها وبين الساحل ، وما زالت هذه الجزيرة الكبرى تحتفظ باسمها القديم ، وفيها منارة لهداية السفن وحمايتها من الاصطدام برأس طرابلس «^{٣٠}» ، ولعلها هي نفس الجزيرة التي ذكرت في بعض المصادر باسم جزيرة سان نيقولا «^{٣١}» ، وكانت تقوم بها كنيسة ذكرها أبو الفداء باسم سنطماس «^{٣٢}» . وهناك قريبا من هذه الجزيرة جزيرة أخرى تعرف اليوم بجزيرة الأرانب يقصدها الناس للنزهة والفرجة .

كانت طرابلس في العصر الاسلامي مدينة عظيمة لها رساتيق وضياع وكور جليلة الشأن ، وكانت تضم في زمن الادريسي (في النصف الاول من القرن الخامس الهجري) عدة حصون وقلاع داخلية في أعمالها ، منها أنف الحجر (أنفة) ، وحصن القالمون (القلمون حاليا) ، وحصن أبي

(٢٨) الادريسي ، ص ١٨

(٢٩) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، ونجلا عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ ، مجلد ٨ ، ص ٨٠ — كتاب نخبة الدهر ، ص ١٤٢ .

(٣٠) لويس لورته ، مشاهدات في لبنان ، ص ٢٠ ملحوظة ٢

(٣١) جورجى ينى ، ص ٣٩٣ — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٧٥ .

(٣٢) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩ ، ج ٤ ص ٢٤

العدس ، وأرطوسية ، ومن ضياعها الكبرى أربعة منها قرية الشفيقة :
والراعية والزيتونة والحدث «^{٢٢}» . وفي عصر بني عمار ،
عندما لم تكن طرابلس سوى إمارة صغيرة ، كانت تضاف إليها مدن جبلة
وعرقا وجبيل ، بخلاف الكور والرسانيق المتصلة بها في الجنوب الشرقي
مثل بشرى والحدث ، وفي الجنوب مثل البترون . ومن أعمالها في عصر
المماليك . حصن البترون وأنفة وأنطرطوس وحصن عرقا وحصن حلبا ،
وكان لكل من هذين الحصنين مراكز كثيرة منها جون ورجلية ومرقية وجومة
عكار وجومة بشرية والكورة والحدث بأذيال جبل لبنان ، وحصن عكار
وحصن الاكراد . ثم أضيفت الى طرابلس أعمال مستجدة هي قلاع
الدعوة ، منها الخوابي والكهف والقدموس والعليقة والمنيقة ومصيايف
وبلاطنس وصهيون والبقية «^{٢٤}» . وسنعود الى دراسة هذه الاعمال
عند حديثنا عن طرابلس في عصر المماليك .

ومن الناحية الجغرافية نلاحظ أن اقليم طرابلس يتميز بوجود
منخفض يقع بين جبال لبنان المرتفعة وجبال النصيرية التي ترتفع
على مسافة ضئيلة من الساحل الشرقي للبحر المتوسط . هذا المنخفض
هو المعروف بممر حمص ، ويتجه اتجاهها غربا شرقيا ، وقد لعب هذا
الممر في العصور القديمة دورا هاما ، فقد اجتازته الجيوش المصرية

(٣٣) الادريسي ، ص ١٨ Dussaud, topographie historique, ١٠. 77

(٣٤) نخبة الدهر ص ٢٠٨

القديمة للاستيلاء على قادش ، وهي مدينة هامة كانت تتصل بفينيقيًا عن طريق هذا الممر «٣٥» ، وكانت تقوم على حماية الممر المؤدى الى البحر المتوسط عن طريق وادى النهر الكبير (الأليوثيروس) «٣٦» • كذلك يربط هذا الممر بلاد الشام الواقعة فيما وراء نهر الأورنت (العاصي) بالاقليم الساحلى • ويتكون هذا الاقليم من سهول ساحلية ضيقة منها سهل مرقية فى الشمال وسهل جبيل فى الجنوب •

وأعظم السهول الساحلية فى اقليم طرابلس السهل الواقع على مصب النهر الكبير وروافده ، وعليه تقع مدينة عرقا وثغر أنطرسوس ، وليست لمرافئ هذه الثغور الساحلية مثل جبيل والبترون وأنفة اليوم أهمية من الناحية الملاحية ، لأنها اذا كانت تصلح فى الماضى كمراسى للسفن الصغيرة ، فانها لم تعد كذلك فى العصر الحاضر «٣٧» ، أما مرفأ طرابلس فأفضل بكثير من هذه المرافئ جميعا «٣٨» ، ولذلك حرص المسلمون منذ الفتح العربى

(٣٥) لما كان هذا الممر معبرا سهلا للغزاة ، فقد اهتم الصليبيون بتحسينه فى القرن الثانى عشر الميلادى بقلاع وحصون منيعة لا ترام ، منها حصن الأكراد وحصن عكار وغيرهما (راجع Dussand, p. 80)
(٣٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث : سورية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١١

(٣٧) Donald Harden, The Phoenicians, London, 1963, p.27

(٣٨) Jean Richard, le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris, 1945, p. 1

على تحصينه بالأبراج الساحلية ، كما حرص الصليبيون على حمايته من الناحية البرية ، فأقاموا له قلعةً صنجليل القائمة على تلة الحجاج •

وعلى الرغم من خصوبة الأراضى الواقعة على ضفاف الأنهار ، وفي السهول الساحلية ، إلا أن الأراضى المزروعة باقليم طرابلس ، لم تكن تقوى بحاجته مما جعل طرابلس تعتمد لتدعيم اقتصادها على التجارة البحرية ، فأصبحت تعمل على تصريف منتجاتها الزراعية كالحمضيات والزيتون ، ومنتجاتها الصناعية كالحرير والزيت والصابون الى الأسواق الخارجية •

(٣)

تاريخ طرابلس القديم

أشرنا فيما سبق الى أن مدينة طرابلس مدينة فينيقية الانشاء ،
أسسها الفينيقيون في تاريخ لا يمكننا تحديده على وجه الدقة ، على
امتداد الساحل الشمالى لشبه جزيرة الميناء ، وأشرنا أيضا الى عدم توصلنا
الى معرفة اسمها الفينيقى القديم ، وان كنا نرجح رأى الدكتور أنيس
فريجة في احتمال تسميتها بتريل . وعلى هذا الأساس فأننى أميل الى
تسميتها بتريل أو طوريل ، في الفترة الواقعة ما بين انشائها الى أن
تأسست فيها الأحياء الثلاثة الممثلة لمدن فينيقيا الكبرى : صور وصيدا
وأرواد . ولم تكن طوريل في هذا العصر القديم سوى قرية صغيرة لاحظ
لها من الأهمية ، ولم تبدأ طوريل تأخذ طريقها في الظهور الا بعد أن
أصبحت مركزا للاتحاد الفينيقى الذى يضم المدن الثلاثة المذكورة التى
رأت ضرورة اقامة مركز لهذا الاتحاد يرعى مصالحها كمدن فينيقية
مستقلة «٣٩» . وقد وقع اختيار ممثلو هذا الاتحاد على قرية طوريل لهذا
الغرض باعتبارها موضع غير معروف ، تجنبنا لعوامل النزاع والخلاف التى
يمكن أن تنشب لو أن هذا الاتحاد أقيم فى إحدى هذه المدن . وأطلق

(٣٩) جورجى ينى ، ص ٣٧٤ - فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ،

على مدينة طور بيل اسم سامى هو أثر ، وقد بدل هذا الاسم فيما بعد الى تريبوليس وهى لفظة اغريقية تعنى المدينة الثلاثية أو الثلاث مدن ، تعبرا عن الأحياء الثلاثة التى أصبحت تتألف منها المدينة ، وكان يحيط بكل من هذه الأحياء سور قائم بذاته «٤٠» . ووردت أسماء هذه الأحياء فى حويلات آشور نصربال على هذه الصورة : مخلات ومايز وكاير «٤١» . وهكذا أقيمت مدينة أثر أو طرابلس وأصبحت مركزا للاتحاد الفينيقى ، ومقرا لاجتماع المؤتمر الفينيقى العام ، وهو مؤتمر كان يعقد فى أوقات الخطر ، ويحضره نحو ثلاثمائة عضو يمثلون المدن الفينيقية الثلاثة المذكورة ، للبحث فى المشاكل التى تتعلق بمصالح البلاد «٤٢» . وكانت المدن الفينيقية فى العصر الفارسى تتمتع بحرية كبيرة فى التجارة واستقلال جزئى ، ويبدو أن التدخل المتواصل الذى كان يقوم به الملك أرتخشستا الثالث فى شؤون هذا المؤتمر ، وأعمال العنف التى يمارسها الفرس وتسلطهم فى البلاد ، يبدو أن كل ذلك أثار عوامل الثورة فى النفوس . فعندما انعقد المؤتمر فى سنة ٣٥٢ - ٣٥١ ق م فى طرابلس ، تباحث المؤتمر فى ضرورة المحافظة على استقلال مدنها ، ورفع راية الثورة بطبيعة الحال ضد السيادة الفارسية ، ولم تلبث نيران الثورة ضد الفرس أن اشتعلت بادىء ذى بدء

Bruce Condé, Tripoli of Lebanon, Beirouth, 1961, p.9 (٤٠)

Dussaud, Topographie historique, p. 75 (٤١)

(٤٢) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها
فى العصر الإسلامى ، ص ٤٥

في الحي الصيداوى بطرابلس ، ومن هناك امتدت امتدادا سريعا حتى وصلت الى مدينة صيدا (صيدون) ، أولى مدن فينيقيا في العصر الفارسي . وكان ملك صيدا المقام الأول بين ملوك المدن الفينيقية «^{٤٣}» ؛ ولذلك ما كاد تنس ملك صيدا يتزعم الثورة ضد الفرس حتى انتشرت سريعا في البلاد واجتاحت الساحل الفينيقى كله ، وقد أيده ملك مصر نكتانيو الأول ، وأمدته بجيش مؤلف من ٤٠٠٠ من مرتزقة الاغريق «^{٤٤}» ؛ وتمكنت تسبع مدن فينيقية من طرد ممثلى الفرس فيها ، وأعلنت بذلك استقلالها . فاضطر ارتخشستا - أمام هذه الحركة الاستقلالية - الى الخروج من بابل على رأس جيش كثيف قوامه ٣٠٠ ألف من المشاة ، و ٣٠ ألف من الفرسان ، قاصدا مدينة صيدا عاصمة الايالة السورية والمركز الرئيسى للثورة الوطنية ، وقد تسكنت الجيوش الفارسية من استرجاع صيدا بعد أن أبدى أهلها مقاومة عنيفة واستبسلوا في الدفاع عنها ، فأحرقوا الأسطول الراسى في المرفأ . ولما قنطوا من الدفاع عن مدينتهم بعد أن خذلهم ملكهم تنس ، أغلقوا دورهم على أنفسهم وأشعلوا فيها النيران ، واستسلموا للموت حرقا اذ أنفوا أن يتعرضوا لانتقام المحتلين ، ولذلك فان صيدا لم تستسلم للفرس بل أقدمت على الانتحار

(٤٣) غالب الترك ، محافظة الشمال ، من سلسلة محاضرات : لبنان

في محافظاته ، ص ٨٦

Bovier — Lapierre & Gauthier & Jouget : L'Egypte, dans (٤٤)
 Précis de l'histoire d'Egypte, t. I, le Caire, 1932, p. 224.

على حد تعبير الأستاذ غالب غالب الترك «٤٥» • وما ان دخل الفرس المدينة حتى قتلوا من سكانها الذين أفلتوا من الحرق نحو أربعين ألفا ، ونصبوا على المدينة ملوكا اختيروا وفقا لرغباتهم ، نذكر منهم ايثاجوراس الثاني القبرصي الأصل «٤٦» • وخافت المدن الفينيقية الأخرى أن تنتهي الى هذا المصير «٤٧» ، فاستسلمت للفرس طائفة بعد سقوط صيدا العاصمة مباشرة •

وما أن تمكن الاسكندر من سحق الفرس في موقعة ايسوس حتى زحف على فينيقيا ، واستقبله أهل البلاد في لهفة وفرحة ، ورحبوا به ترحيبا بالغا ، ووجدوا فيه مخلصا لهم ومحررا من نير الفرس واستبدادهم: وما لبثت طرابلس أن استسلمت لعساكره المظفرة في سنة ٣٣٣ ق م شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الساحل الفينيقي ، مثل ماراثوس وأرواد وبيبلوس وصيدون • أما صور ، التي كانت قد استعادت مكائنها بعد أن خربتها جيوش نبوخذ نصر ، فقد ظلت وحدها تقاوم جيوش الاسكندر ، اذ كانت تنافس أثينا في السيادة البحرية ، وكانت في اعتبار الاسكندر مفتاح الطريق الى الهند «٤٨» • وحاصرها الاسكندر حصارا

(٤٥) غالب الترك ، ص ٨٦

(٤٦) Jacques Nantet, Histotre du Liban, Paris, 1963, p. 27

(٤٧) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٨

Jacques 'Nantet, op. cit. pp. 27 , 28

(٤٨)

بحريا وبريا محكما دام سبعة شهور انتهت بسقوطها في سنة ٣٣٢ ق.م ،
وقد انتقم منها بأن تركها وراءه خرابا ، وذبح رجالها ونساءها وأطفالها .
وبينما أخذت مدينة صور تنهض من عثرتها وتسير بخطى حثيثة نحو
الازدهار ، بفضل تفوقها البحري ، وبفضل ما كانت تنتج من الأصباغ
الأرجوانية ، كانت فينيقية تمر بأحداث خطيرة ، استمرت حتى قدوم
الرومان في سنة ٦٤ ق.م ، فمنذ الاستيلاء على صور حتى وفاة الاسكندر
في سنة ٣٢٣ ق.م كانت الادارة اليونانية تثبت أقدامها في البلاد وتتحكم
في كل شيء على الرغم من الاستقلال الذاتي الذي تمتعت به صيدا في
هذه الفترة ، واحتفاظ جيل بعض الوقت بأسرتها التقليدية «^{٤٩}» . وكانت
المدن الفينيقية قد آلت بعد وفاة الاسكندر الى أخيه لاوميدون حتى سنة
٣١٨ ق.م ، غير أن بطليسوس الذي فاز بصر عند توزيع امبراطورية
الاسكندر بين ورثته ، وأتيجوناس الذي كان سلطانه سائدا في آسيا
الصغرى ، تمكنا من ابعاد كل من سلوقس ولاوميدون ، واشتبكا بعد ذلك
في معركة عنيفة في سهل البقاع .

وقد قام أتيجوناس باعداد أسطول مسلح ، فأقام لذلك دورا لصناعة
السفن في طرابلس وجبيل وصيدا ، وجمع ملوك فينيقيا وزحف من صيدا
على صور ، وحاصرها ١٤ شهرا الى أن سقطت في سنة ٣١٢ ق.م ، ولكن

صور لم تلق السلاح بعد سقوطها ، وأصبحت فينيقيا ممزقة بين الخصمين
الكبيرين • وبعد مصرع أتيجوناس في معركة ابسوس سنة ٣٠١ ق.م
استولى البطالمة على البقاع الذي استمر في حوزتهم حتى سنة ١٩٨ ق.م ،
بينما أخذت المدن الفينيقية تتصارع فيما بينها ، ثم عاد السلوقيون الى
الظهور من ٢٨٠ ق.م الى ١٩٨ ق.م وتمكنوا من الاستيلاء على صور ،
وبسط سلطانهم بعد ذلك على كل فينيقيا ما عدا البقاع الذي ظل في أيدي
البطالمة ، الى أن انتصر أنطيوخوس الثالث السلوقي على بطليموس
الخامس في موقعة بانياس سنة ١٩٨ ق.م ، وهي الموقعة التي حددت مصير
فينيقيا • وشهدت البلاد في عصر السلوقيين عهدا من الهدوء واسترجعت
فيه وحدتها ونظامها ، وعمل السلوقيون على تمكين سلطانهم عليها عن
طريق تقسيمها الى ولايات متعددة ، وتمتعت طرابلس بدورها بنوع من
السيادة والتفوق أخذت تمارسهما على غيرها من المدن ، خاصة عندما
استقر ديمتريوس الأول بن سولوقس «٥٠» وجعلها بالأبنية الفخمة • وفي
هذا العصر السلوقي دمرت بيروت سنة ١٤٠ ق.م نتيجة للخلافات التي
أضعفت امبراطورية السلوقيين ، وتعرضت البلاد للغارات الأرمنية • وعلى
الرغم من الطابع الهليني الذي أخذ يشمل كل مناحي الحياة مادية
وأدبية «٥١» ، فإن الجوهر الفينيقي القديم ظل سليما ، واحتفظ الساميون

(٥٠) Ibid. p. 29 — جورجى ينى ، ص ٣٧٦

(٥١) تحول الاله ملقارت الى هرقلس ، وبعل الى زيوس ، وعشتروت

بعاداتهم الموروثة • وكانت حركة التأغرق حركة ظاهرية أكثر منها واقعية ،
فقد أخذت المدن السورية القديمة التي تأغرقت تسترد شخصيتها السامية
من جديد ، باستثناء مدينة تريبوليس التي ظلت تحتفظ باسمها الاغريقي
وهو الاسم الذي عربه الفاتحون العرب الى طرابلس «٥٢» •

ثم دخلت تريبوليس سنة ٦٤ ق.م في فلك الامبراطورية الرومانية ،
فقد ذكر يوسيفوس اسم طرابلس عند الفتح الروماني ، وأشار الى أن
بومبي عند مروره على طرابلس قتل حاكمها ديويوس ، ولعل هذا القتل
كان من بين الذين رفعوا راية العصيان على الرومان ، فلاذ بالجبال المحيطة
بطرابلس عند اقتراب جيوش بومبي «٥٣» •

وعلى الرغم من أن مدينة طرابلس لم تلعب في العصر الروماني دورا
تاريخيا هاما ، ولم تظهر بالمكانة السامية التي ظفرت بها بعض مدن لبنان

الى افروديت ، وأخذت الألعاب الاوليمبية تمارس في صور ، وأخذ
الفلاسفة الرواقيون أتباع زينون يقومون بيث تعاليمهم الفلسفية في هذه
المدينة وفي صيدا ، وتحولت الأسماء السامية لبعض المدن الى أسماء هلينية
مثل حماة التي سميت بأينفانية ، وأثر (طرابلس) التي سميت بتريبوليس •
(٥٢) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٢٧٨ •

(٥٣) جورجى ينى ، ص ٣٧٦ •

الأخرى مثل بيروت التي كان قد خربها الانغريق «٥٤» ، وأظنحت تُولف مركزا ثقافيا بارزا في سورية ، وصيدا التي أوجد فيها الرومان نوعا من الحكم الجمهوري الديموقراطي ، وأقيمت بها مدرسة فلسفية أرسطوطاليسية ، وبعلبك التي أصبحت مركزا دينيا هاما . ومع ذلك فقد اهتم الرومان بطرابلس ، فجملوها بأبنية رائعة ، وزودوها بمعابد كثيرة خصصت لعشوت و يوسكوريس وزيوس ، ضاعت معالمها في الوقت الحاضر ، وان كانت ما تزال في نواحيها بعض آثار رومانية كمعبد يزيزا من أواخر القرن الاول ، ومعبدى عين عكرين من القرن الثانى والثالث ، ومعبد السفيرة في قضاء الضنية «٥٥» .

وأصبحت طرابلس في عهد الامبراطور الرومانى موريقان (٤٥٠ — ٤٥٤م) بزلزال عنيف ، دمر كثيرا من منشآتها ، ودك مبانيها «٥٦» . الا أن

(٥٤) أعيد بناء بيروت على أيدي قوات ماركوس أجريبا غرب المدينة القديمة في عهد الامبراطور أغسطس قيصر ، وعرفت باسم « جوليا أوجستا فيلكس » ، وارتفعت بذلك الى مصاف المستعمرات الرومانية ، وأصبحت بيروت مركزا علميا متألقا ، فقد أسس فيها سفيروس الكسندر سنة ٢٢٢ مدرسة للحقوق ، وأصبحت بذلك إحدى مدن ثلاث في الامبراطورية الرومانية يدرس فيها التشريع الرومانى (ارجع الى

(Emile Yanni, Beyrouth, dans Physionomies du Liban, p. 10)

(٥٥) خليل أبو عز الدين ، محافظة الشمال ، ص ٤٦

(٥٦) لويس لورته ، مشاهدات في لبنان ، ص ١٩

المقاومة العنيفة التي قابلت بها طرابلس الجيوش العربية الاسلامية الفاتحة؛
تدل دلالة واضحة على أنه أعيد بناؤها من جديد قبل الفتح العربي «^{٥٦}» •

Sobernheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. II, (٥٧)
1909, p. 38

تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٠ Bruce Condé, op. cit. p. 10.

الباب الأول

تاريخ طرابلس في العصر الاسلامي

الفصل الأول

طرابلس منذ الفتح العربى حتى استقلالها عن
الدولة الفاطمية

(١) فتح العرب لطرابلس

(٢) طرابلس منذ خلافة معاوية الى قيام الدولة الفاطمية فى مصر

(٣) طرابلس فى النصف الأول من العصر الفاطمى

الفصل الأول

طرابلس منذ الفتح العربى حتى استقلالها عن الدولة الفاطمية

(١)

فتح العرب لطرابلس

ما أن انتهى المسلمون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبى سفيان همه الى فتح مدن الساحل الشامى ، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد افتتح صيدا وعرقا وجبيل وبيروت - وهى سواحل - « فتحا يسيرا » ، ولم يلق خلال هذه الفتوحات مقاومة ذات شأن من جانب سكان هذه المدن التى جلا معظمهم عنها ، وكان يزيد يقيم على الحصن « اليومين والأيام اليسيرة » ، فربما قوتل قتالا غير شديد وربما رمى » ، وقد ساعده على فتح هذه السواحل أخوه معاوية ، بل ان معاوية نفسه هو الذى تولى فتح عرقا (أو عرقة) فى ولاية أخيه يزيد « (١) » . ويبدو أن طرابلس استعصت على المسلمين فى ولاية يزيد لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، فقد ذكر

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٥٠ . وقد لعبت عرقة دورا هاما منذ أقدم العصور حتى نهاية عصر الحركة الصليبية ، فقد ورد ذكر عرقة فى رسائل تل العمارنة باسم أركاتا ، وفى النصوص الآشورية جاء اسمها أركة ؛ وفى العصر الرومانى كانت هذه المدينة مركزا دينيا هاما

(Dusaud, op. cit. p. 80)

البلاذرى نقلا عن أبى حفص الشامى عن سعيد عن الوضين أن « يزيد بن أبى سفيان وجه معاوية الى سواحل دمشق سوى أطرابلس ، فانه لم يكن يطمع فيها » (٢) ، وكان فتح طرابلس يستلزم حصارا من البر والبحر فى آن واحد ، قد يطول أمده ، كما حدث فى حصار المسلمين لقيسارية الذى دام نحو من سبع سنوات ، ولذلك رأى يزيد أن يرجىء فتح طرابلس الى أن تتوفر له الامكانيات ، فلم يكن للعرب بعد خبرة بالحصار البحرى ، ثم أن طرابلس بالذات كانت تتطلب لفتحها حصارا بحريا خاصا ، لأنها كانت تمتد على شبه جزيرة المينا ، وكانت تصلها الامدادات البيزنطية بانتظام عن طريق البحر . غير أن يزيد لم يظن الى أن المدينة على الرغم من حصاتها ، واتصالها البحرى بالروم مهدة بقطع اتصالها برىا مع غيرها من المدن ، وأن فى امكان المسلمين أن يعزلوها عن المناطق والنواحي المجاورة ، ويقطعوا عنها المياه التى يزودها بها نهر قاديشا ، فيضايقوا سكانها ، وقد يدفعهم ذلك الى التسليم .

ولم يطل العهد بيزيد ، اذ توفى فى آخر عام ١٨ هـ بدمشق فى طاعون عمواس ، وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق والساحل . ورأى معاوية الذى شارك فى فتح مدن الساحل الحالة السيئة التى آلت اليها تحصينات هذه المدن الساحلية ، فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب ، بعد موت يزيد:

يصف له حال هذه السواحل ، ويقترح عليه انشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر ، فرد عليه عمر يأمره « بمرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، واقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها ، ولم يأذن له فى غزو البحر » « ٢ » . وعمل معاوية برأى عمر ، فحصن الثغور الاسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ، ويقومون بحراستها فى المناظر والأبراج .

ولكن البيزنطيين كانوا يعتمدون على قوتهم البحرية ، فلم تمض أعوام على فتح المسلمين للسواحل حتى تمكن الروم من التغلب على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر بن الخطاب ، أو أول خلافة عثمان ابن عفان ، ذلك أن قسطنطز الثانى منذ أن ظفر بعرش الامبراطورية البيزنطية وهو يسعى سعيا متواصلا لاسترداد مصر والشام ، معتمدا فى ذلك على تفوق البيزنطيين البحرى على المسلمين : ففى سنة ٢٥ هـ أرسل قسطنطز تسعة بحرية مزدوجة الهدف ، فقد قسمها الى حملتين : حملة لمهاجمة الاسكندرية ، وقد نجحت هذه الحملة فى الاستيلاء عليها ، ولكنها أخفقت بعد ذلك عندما تسكن عمرو بن العاص من ايقاع الهزيمة بالبيزنطيين عند نيقوس ، واستطاع بذلك أن يسترجع الاسكندرية « ١ » ، والحملة

(٣) البلاذرى ، ص ١٥٢

(٤) ابراهيم أحمد العدوى ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٦١ — نفس المؤلف ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٢ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص ٤٢

الثانية وجهها الى سواحل الشام ، وقد نجحت هذه الحملة في استرداد بعض مواضع من الساحل الشامى ، ولكن معاوية يتصدى للروم ويسترجع هذه المواضع بدوره ، ثم يرمها ويشحنها بالمقاتلة ويوزع عليهم القطائع •

وعندئذ رأى ضرورة اصطناع سياسة بحرية مجاراة للروم حتى يتهيأ له افتتاح طرابلس المنيعه ، ويضمن بفضل هذه السياسة الدفاع عن السواحل • وكان الخليفة عثمان بن عفان قد أطلق له العنان فى ادارة بلاد الشام وفقا لما يشتهي ، فعمد الى انشاء أسطول بحرى فى دار الصناعة بعكا ، واستعان فى صناعة هذا الأسطول ببعض الملاحين من بلاد الشام ومصر ، واستخدم فى صناعته أشجار الأرز بجبل لبنان •

أخذ معاوية يفكر تفكيراً جدياً فى محاصرة طرابلس بعد أن تهيأت له السفن ، ويذكر البلاذرى أنه وجه لذلك الغرض « سفيان بن مجيب الأزدي الى طرابلس ، وهى ثلاث مدن مجتسعة ، فىنى فى مرج على أميال منها حصناً سى حصن سفيان «٥» ، وقطع المادة عن أهلها من البحر «٦» :

(٥) يقصد السهل الخصب الممتد على ضفاف نهر قادشيا قبل أن يصب فى البحر ، وأغلب الظن أن هذا الحصن أقيم فى نفس الموضع الذى أقيم فيه حصن صنجيل ، فيما بعد ، عندما قام ريموند دى سان جيل الصليبي بمحاصرة طرابلس ، ولا بد أن يكون ريموند الصنجيلي قد تنبه الى أهمية انشاء مثل هذا الحصن فى ذلك الموضع ، بعد أن استعصت عليه طرابلس عدة مرات ، فمن هذا الموضع يستطيع أن يشرف على المدينة الواقعة فى الميناء ، ومنه أيضاً يستطيع أن يقطع عنها الميرة والمياه اذا شاء •

(٦) نفهم من ذلك أنه حاصر طرابلس من البحر أيضاً ، ومعنى ذلك

وغيره ، وحاصرههم » «^٧» • ولم يكن المسلمون حتى ذلك الحين قد
تمرسوا في شؤون البحر ، فهم على كل حال مبتدئون في ثقافته ، ويبدو أن
البداءة ستظل غالبية عليهم حتى بعد انتصارهم في موقعة ذات الصواري ،
ونلاحظ أن الفضل في هذا الانتصار يرجع قبل كل شيء إلى تحويلهم
للموقعة البحرية إلى موقعة برية ، فقد ربطوا سفنهم فيما بينها وتحولت
المعركة على هذا النحو إلى ما يشبه المعارك البرية • ولا بد أن يكون عدد
السفن العربية المحاصرة لطرابلس صغيرا أو أنها كانت ملازمة للشاطئ ،
حتى نفسر ما حدث بعد ذلك ، فإن البلاذري يذكر أن أهل طرابلس
« لما اشتد عليهم الحصار ، اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى
ملك الروم يسألونه أن يمددهم أو يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها إلى
ما قبله ، فوجه اليهم بمراكب كثيرة ، فركبوها ليلا وهربوا ، فلما أصبح
سفيان — وكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصن المسلمين فيه ، ثم يغدو
على العدو — وجد الحصن الذي كانوا فيه خاليا ، فدخله » «^٨» •

فليس هناك تفسير آخر لوصول سفن بيزنطية إلى الميناء في غفلة من
المسلمين إلا بقلة السفن العربية القائمة بالحصار ، ومهارة السفن البيزنطية

أن عددا من سفن المسلمين رابطت على الساحل أمام الميناء حتى تمنع
وصول السفن البيزنطية إليه •

(٧) البلاذري ، ص ١٥٠

(٨) نفس المرجع ، ص ١٥١

فى التسلل الى الميناء وحمل من شاء من أهل طرابلس الى القسطنطينية .
ونستنتج من هذا النص أن هذه السفن البيزنطية رغم كثرتها — حسب
ما ورد فى النص — كانت عاجزة عن حماية سكان طرابلس لأمد طويل ،
ذلك أن حصار المسلمين البرى كان قد أرهقهم ارهاقا شديدا ، ودفعهم
على الرغم من وصول النجدة البيزنطية الى الخروج عنها .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كتب سفيان بن مجيب الى معاوية عامل الشام
بدمشق يبشره بفتح طرابلس وحصنها ، « فأسكنه معاوية جماعة كبيرة
من اليهود ، وهو الذى فيه الميناء اليوم » ثم أن عبد الملك بناه بعد
وحصنه «^٩» .

ويبدو أن معاوية قد أدرك أن اليهود قوم لا هم لهم الا تأمير
مصالحهم الخاصة ، وأن كثيرا منهم لم يتورع عن خيانة البيزنطيين
والانضمام الى صفوف العرب ، فهو لم يجح فى فتح قيسارية الا لأن
يهوديا أتى المسلمين ليلا فدلهم على طريق فى سرب فيه ماء يؤدى الى داخل
المدينة «^{١٠}» ، كما أن اليهود والسامرة لم يأنفوا من الاشتغال أدلاء
وعيونا للعرب نظير اعقائهم من جزية الرؤوس ومنحهم الأراضى «^{١١}» ،
لذلك أسكنهم معاوية فى مدينة طرابلس .

(٩) المرجع السابق — تاريخ ابن الفرات ، ج ص ٧٦

(١٠) نفس المرجع ص ١٦٨

(١١) نفس المرجع ص ١٨٧

(٢)

طرابلس منذ خلافة معاوية الى فتح الفاطميين لمصر

— انتقاض طرابلس على الأمويين :

أصبحت طرابلس بعد ذلك قاعدة بحرية ودار صناعة لتوافر أخشاب الأرز اللبناني ، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان ومن خلفه من بنيه ومن بني مروان . وكان معاوية يوجه اليها كل عام جماعة كثيفة من الجند بشحنها بهم للدفاع عنها اذا ما أغار عليها الروم من البحر ، كما كان يولى عليها عاملا من قبله . وكانت حامية طرابلس تقيم بالمدينة فترة الصيف ، ثم يقفل الجند عن طرابلس الى دمشق عندما ينغلق البحر ، وتصب الملاحه فيه بسبب الأنواء والعواصف ، فيبقى العامل في قصره لا يفارقه مع عدد قليل من الجند ، وتغلق أبواب المدينة «١٢» .

ويبدو أن طرابلس انتقضت على معاوية في أول خلافته ، وتمكن بعض الروم من ذبح عاملها واحراق قطع من الأسطول الاسلامي الراسي في مينائها «١٣» ، ولكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة ، ولعل ذلك كان حافزا على قيامه بنقل جماعة من الفرس ، والأساورة الى سواحل الأردن والشام في سنة ٤٢ هـ «١٤» ، ومن بينها طرابلس ، فقد ذكر اليعقوبي

(١٢) البلاذري ، ص ١٥١ — تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٦

(١٣) جورجى ينى ، ص ٣٧٨

(١٤) البلاذري ، ص ١٣٩

في كتابه البلدان أن « مدينة طرابلس وأهلها قوم من الفرس كان معاوية ابن أبي سفيان نقلهم اليها » « ١٥ » .

ويرى الأب لويس شيخو أن بنى أمية سلموا سواحل الشام للفرس لحراستها من غزوات المردة الذين استقدمهم ملوك القسطنطينية للدفاع عن لبنان وكليكية من غزوات العرب ، وإن بيروت بقيت تحت حكم أمراء الفرس الذين منهم الأرسلائيون والتنوخيون ، ولما صار الأمر لبني العباس أقرروا الأمراء المذكورين في حكمهم على الساحل « ١٦ » ، ومعنى هذا أنه ينسب الأرسلائين والتنوخيين الذين نزلوا بسواحل لبنان الى الفرس . ولكن الأستاذ محمد عزة دروزة لا يقبل ذلك الرأي ولا يعقله ، فليس من الممكن في اعتقاده « أن يجلب معاوية عقب فتح بيروت الذي تم في خلافة عمر جماعة من الفرس ، لأن الفرس لم يكونوا قد خضعوا للسلطان العربي وأسلموا بعد ، وصاروا موضع اعتماد لقتال المردة والروم والدفاع عن السلطان العربي ، ولا تستقيم الرواية كذلك حتى على فرض القول بأن معاوية جلبهم في عهد ملكه ، لأن الأمويين كانوا يتبعون سياسة عربية ، فلم يكن من المعقول أن يأتوا بجماعة من الفرس ، ويسكنوهم في سواحل

(١٥) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٣٧

(١٦) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٨٩٨

الشام ليتقوا بهم ، والعرب في أوج قوتهم وقدرتهم ونشاطهم » (١٧) .
ويعتمد الأستاذ دروزة في ذلك على ما ذكره الشدياق ، اذ ينسب أعيان
التنوخين والأرسلانيين الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي (١٨) ،
ويذكر أنهم قدموا من العراق مع خالد بن الوليد الى بصرى لنجدة أبي
عبيدة بن الجراح (١٩) ، ونحن نميل الى الأخذ بما ذكره الشدياق ، فهو
أقرب الى المنطق والصواب . ولقد حرص معاوية بن أبي سفيان على
تحصين سواحل الشام ؛ ففى جبلة أقام حصنا خارجا عن الحصن الرومي
القديم ، وفي أنطرسوس ومرقية وبلنيس أسس تحصينات هامة .

وفي خلافة عبد الملك بن مروان ثار أهل طرابلس ، وتحصنوا في داخل
أسوارها ، ولم يتمكن الأمويون استرجاع طرابلس الا في خلافة الوليد
ابن عبد الملك . وفي انتفاض أهل طرابلس يذكر البلاذري ثلاث روايات
تنظمها كما يلي :

الرواية الاولى : أنه في خلافة عبد الملك ، « قدم في أيامه بطريق من
بطارقة الروم ومعهم بشر منهم كثير ، فسأل أن يعطى الأمان على أن يقيم

(١٧) محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى
القرن الرابع عشر الهجري ، دمشق ١٩٥٩ ج ١ ص ١٥٤

(١٨) الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل
لبنان ، بيروت ١٩٥٤ ج ١ ص ١٣٣ ، ٢٦٦

(١٩) نفس المرجع ص ١٤٠

بها ويؤدي الخراج • فأجيب الى مسأله • فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تحين قفول الجند عن المدينة ، ثم أغلق بابها ، وقتل عاملها ، وأسر من معه من الجند ، وعدة من اليهود ، ولحق وأصحابه بأرض الروم • فقدر المسلمون بعد ذلك عليه في البحر وهو متوجه الى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة فقتلوه • ويقال : بل أسروه وبعثوا به الى عبد الملك فقتله وصلبه » « ٢٠ » •

الرواية الثانية : جاء فيها « وسمعت من يذكر أن عبد الملك بعث اليه من حصره بأطرابلس ، ثم أخذه سلماً ، وحمله اليه فقتله وصلبه • وهرب من أصحابه جماعة فلحقوا ببلاد الروم » « ٢١ » •

الرواية الثالثة : جاء فيها : « وقال علي بن محمد المدائني ، قال عتاب بن ابراهيم : فتح أطرابلس سفيان بن مجيب ، ثم نقض أهلها أيام عبد الملك ، ففتحها الوليد بن عبد الملك في زمانه » « ٢٢ » •

أما الرواية الأولى فنستبعد وقوعها لأنها رواية يغلب عليها طابع الروايات الأسطورية ، واثنا تساءل : هل كان المسلمون من الغفلة بحيث يقبلوا نزول بطريق بيزنطى وفي صحبته عدد كبير من الأعوان في طرابلس؟

(٢٠) البلاذري ، ص ١٥١ — تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧

(٢١) نفس المرجع

(٢٢) نفس المرجع

دون أن يفرضوا عليهم حراسة أو يضعوهم تحت المراقبة ؟ وهل كان عدد المسلمين في طرابلس قليلا لدرجة أن ينجح هذا البطريق هو ونفر من أعوانه في قتل والى المدينة وأسر من معه من الجند ؟ وما المغزى من انتقاض البطريق بعد عامين من اقامته بطرابلس ثم فراره بعد ذلك منها الى بلاد الروم ؟ وكيف تم للمسلمين القبض عليه بعد أن فر في عرض البحر الى بلاد الروم ؟ ونخرج من ذلك كله بأن هذه الرواية تتضمن من التشويق وعناصر المفاجأة ما تتضمنه الروايات القصصية ، فهي لذلك لا يعتد بها .

وتبقى بعد ذلك الروايتان الثانية والثالثة ، وكلتاهما مستساغة مقبولة ، ولكننى أميل الى الأخذ بالرواية الثالثة ، فهي رواية ذات اسناد كامل ، وليست رواية شفوية ، ثم انها بدأت بذكر حقيقة ثابتة وهي افتتاح طرابلس على يدى سفيان بن مجيب ، يضاف الى ذلك أن ابن الفرات ذكرها الى جانب الرواية الأولى المستبعدة ، فقال : « وقيل انما تغلب عليها ، وقتل من بها بعد وفاة أمير المؤمنين عبد الملك ، ثم فتحها ولده أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك » (٢٣) .

وظلت طرابلس منذ أن استرجعها المسلمون في خلافة الوليد تابعة لدمشق ، يتولاها نائب عن الخليفة ، وكانت تعتبر من سواحل دمشق

حاضرة الخلافة الأموية ، وعملا من أعمالها «٢٤» ، فقد أشار الاصطخرى (المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) الى أن طرابلس ثغر تابع لدمشق «٢٥» . ولما كانت طرابلس عملا يتصل بدمشق العاصمة ؛ فقد تهتم بها خلفاء بنى أمية ، فحصنوها ورمموا ما وهى من عمرانها وحصونها وشحنوها بالمقاتلة تأهباً لمواجهة أى هجوم بيزنطى من جهة البحر ، كما حدث فى خلافة عمر بن عبد العزيز عندما أغار الروم على ساحل اللاذقية فى سنة ١٠٠ هـ ، فهدموا المدينة وسبوا سكانها «٢٦» .

ب - طرابلس فى عصر الدولتين الطولونية والاختشيدية :

ولما قامت الدولة العباسية ظلت طرابلس تابعة لولاية دمشق ، وكل ما طرأ من تغيير أن دمشق لم تعد عاصمة الخلافة ، وإنما كان يتولى شؤونها عامل من قبل الخليفة العباسى ، كان من جملة اختصاصاته الاشراف على سواحل دمشق ، ومن بينها طرابلس ، وعلى هذا النحو لم تعد طرابلس مركزا لوال أو نائب للخليفة كما كان الحال فى العصر الأموى . ومع ذلك فقد تابع الخلفاء العباسيون السياسة الأموية فى الحرص على

(٢٤) نفس المرجع

(٢٥) الاصطخرى (أبواسحق ابراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١

(٢٦) البلاذرى ص ١٥٧

تحصين السواحل كلها بالحصون والمراقب خشية قيام البيزنطيين بالغارة عليها ، فأبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها ، فعمرها وحصنها ، وبنى ما احتاج الى البناء منها . ولما استخلف المهدي أتم ما كان المنصور لم يستكملة في أيامه ، وزاد في شحنها بالجند ، وكذلك أمر المتوكل على الله في سنة ٢٤٧ هـ بترتيب المراكب في جميع السواحل وشحنها بالمقاتلة «٢٧» .

واستمرت طرابلس تابعة لوالى دمشق الى أن تسكن الأمير أحمد ابن طولون في سنة ٢٦٤ من الاستيلاء على دمشق وحمص وأنطاكية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت طرابلس تابعة لبنى طولون في مصر . ولا شك في أن طرابلس كانت من بين السواحل السورية التى اهتم بها ابن طولون، ولكن المصادر العربية تصمت صمتا مطبقا عن ذكر أعماله في بلاد الشام بوجه خاص ، باستثناء تنف قليلة من الأخبار ، فابن طولون هو الذى عمل على تسوير عكا وشد سلسلة في مينائها لمنع السفن من اجتيازه «٢٨» ، وخماروية أسس قصرا خارج دمشق على نهر ثورة ، أدنى ديرمران ، وفيه قتل في ٧٢ ذى القعدة سنة ٨٢ هـ (٢٩) .

(٢٧) نفس المرجع ص ١٩٣

(٢٨) معجم البلدان ، مادة عكا

(٢٩) سعيد بن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق

والتصديق ، بيروت ، ١٩٠٥ ج ٢ ص ٧٢

ولم تلبث طرابلس أن أصبحت تابعة من جديد للدولة العباسية بعد أن تمكن القائد محمد بن سليمان من إزالة الدولة الطولونية ، الى أن أصبح محمد بن رائق الخزرى يتولى أمر الشام بتقليد من الخليفة العباسى الراضى ، فأصبحت تابعة له ، حتى بعد هزيمته على أيدي الاخشيديين فى سنة ٣٢٨ هـ ، فقد اتفق مع محمد بن طعج على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية الواقعة شمالى الرملة نظير أن يدفع له الأخشيد جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار . غير أن الاخشيد لم يلبث أن ضم أملاك ابن رائق بعد وفاته ، وظفر فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ بتقليد من الخليفة العباسى المستكفى أقره فيه على ولاية مصر والشام «٣٠» . ولكن سلطان الأخشيديين على دمشق وأعمالها لم يلبث أن تزعزع بعد أن انهزمت قواتهم على أيدي الحمدانيين عند بلدة الرستن «٣١» ، واستيلاء سيف الدولة على دمشق . ولما استرد الاخشيد دمشق على أثر انتصاره على الحمدانيين فى واقعة قنسرين سنة ٣٣٣ هـ ، ووفقا للصلح المنعقد بين الأميرين فى ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ ، أصبحت للاخشيد دمشق وأعمالها بما فى ذلك طرابلس ويروت «٣٢» . وظل

(٣٠) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى على بلاد الشام والعراق ،

القاهرة ١٩٥٩ ص ١٧

(٣١) كامل حسين بن محمد الپالى الحلبى ، نهر الذهب فى تاريخ

حلب ، حلب ١٩٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ — جمال سرور ، ص ١٣

(٣٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٧

سلطان الاخشيديين على دمشق بين مد وجزر الى أن تمكن الفاطميون من الاستيلاء عليها في سنة ٣٥٩ هـ . وكان من بين عمال دمشق في عهد الاخشيديين محمد بن يزداد ، والحسين بن لؤلؤ ، ويانس المؤنسي « ٣٣ » ، وكان يتولى طرابلس من قبل عامل دمشق في سنة ٣٥٨ هـ ، وهي السنة الاخيرة من العصر الاخشيدى وال اسمه أبو الحسن أحمد بن نحرير الأرغلى ، كان قد طرده أهل طرابلس لجوره ، فأقام في قلعة عرقا « ٣٤ » ، وأصبح أهل طرابلس بلا وال . وفي هذه الأثناء أغار البيزنطيون بقيادة الامبراطور نقفور فوقاس على بلاد الشام ، وكان هذا الامبراطور قد وجه كل همه لمحاربة المسلمين ، فغزا الشام غزوات متتاليات ففي سنة ٣٥١ هـ استولى على أهم مدن الثغور ، وفي سنة ٣٥٧ انتهز فرصة تنازع قواد الترك على الوصاية على أبي المعالى سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني ودخل الشام من جديد ، فخافه أبو المعالى ، فخرج من حلب الى بالس ، واستخلف على حلب قرعوية الحاجب ، « فواقعه قرعوية بعسكر حلب ، فأسر قرعوية ، ثم أفلت ، فانهزم أصحابه ، وأسروا الروم جباة من غلمان سيف الدولة ، ثم أن نقفور ملك الروم خرج الى معرة النعمان ففتحها ، وأخرب جامعها ، وأكثر دورها ، وكذلك فعل بمعرة مصرين ، ولكنه أمن أهلها من القتل ، وكانوا ألفا ومائتى نفس ، وأسروهم وسيرهم الى بلد الروم . ثم سار الى كفر طاب ، وشيزر ، وأحرق

(٣٣) عبد الكريم غرايبة ، العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١ ، ص ١١٧

(٣٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، كتاب تاريخ يحيى ، نشره الأب

لويس شيخو ، ص ١٣١

جامعها ، ثم الى حماة ففعل كذلك ، ثم الى حمص وأسر من كان صار الى تلك الناحية من الفلة ، ووصل الى عرقة ففتحها ، وأسر أهلها ، ثم نفذ الى طرابلس ، وكان أهلها قد أحرقوا ربضها ، فانصرف الى جبلة ففتحها ، ومنها الى اللاذقية » (٣٥) . وذكر يحيى بن سعيد الأنطاكي ، أنه لما نزل طرابلس في ١٠ من ذي الحجة سنة ٣٥٧ هـ ، أقام عليها تلك الليلة ، وأحرق ربضها » (٣٦) . أما أبو المحاسن ، فقد ذكر أنه استولى على ربض طرابلس » (٣٧) . وربض طرابلس المذكور كان يقع في الموضع الذي قامت فيه مدينة طرابلس المملوكية ، وكان غير مسور ، ولذلك تعرض لغارة البيزنطيين .

(٣٥) ابن العديم الحلبي (كمال الدين أبي القاسم عمر) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامي الدهان ، ج ١ دمشق ١٩٥١ ، ص ١٥٨ .

(٣٦) يحيى بن سعيد ، كتاب تاريخ يحيى ، ص ١٣١ .

(٣٧) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٣)

طرابلس في النصف الأول من العصر الفاطمي

(منذ خضوعها للدولة الفاطمية الى استقلالها في عهد بني عمار)

١ - استيلاء الفاطميين على طرابلس :

لم يكد جوهر الصقلي ، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، ينجح في فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، ويتمكن من اقامة الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر مصر بدلا من الخليفة العباسي ، ويشرع في تأسيس القاهرة المعزية لتكون مركزا للخلافة الفاطمية ، حتى أخذ يولي وجهه شطر بلاد الشام ، ويتطلع لفتحها ، للقضاء على بقايا النفوذ الاخشيدى فيها ^(٣٨) ، ولتأمين حدود مصر من جهة الشام ، والوقوف أمام الروم والقرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا بلاد الشام وأوقعوا الهزيمة بقوات الاخشيديين في سنة ٣٥٧ هـ ^(٣٩) . ولم يمض عام واحد على استقرار جوهر في مصر حتى سير حملة الى الشام في أواخر سنة ٣٥٩ هـ ، بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي ، الذي تمكن من دخول دمشق في المحرم سنة ٣٦٠ هـ على أثر انتصاره على

(٣٨) السيد عبد العزيز سالم ، الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الاسلامي ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو سنة ١٩٦٤ ، ص ٢ .

(٣٩) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ١٦

الاخشيدين في موقعتين حاسمتين : الأولى في الرملة ، والثانية في طبرية .
ولم يكتف جعفر بذلك ، بل سير من دمشق عسكريا عظيما مع غلامه فتوح
الى أنطاكية في سنة ٣٦٠ هـ ، ونازلها فتوح خمسة أشهر ، ولكنها استعصت
عليه ، واضطر الى العودة الى دمشق عندما استدعاه جعفر لمواجهة الخطر
القرمطي (٤٠) . فلقد ثار أهل دمشق على جيش جعفر مرتين ، لعبثهم
بالنظام ، واثناكهم حرمة بيوتهم من جهة ، ولأن أهل دمشق كانوا سنيين
متطرفين في عدائهم للشيعة ، والتسوا بمعونة الحسن بن أحمد القرمطي ،
وتضامنوا جميعا مع زعماء العرب في الشام من بنى عقيل وبنى طيء ، ونجح
هؤلاء المتحالفون في هزيمة جعفر وقتله في واقعة الدكة بالقرب من دمشق
في سنة ٣٦٠ هـ ، وأدت هذه الهزيمة الساحقة التي منى بها جيش الفاطميين
إلى انحصار النفوذ الفاطمي الى مصر ، وأصبحت معظم بلاد الشام تابعة
للقرامطة الذين أقاموا الدعوة في بلادها باسم الخليفة المطيع العباسي ، منذ
سنة ٣٦٠ هـ الى أن تمكن الفاطميون بقيادة أبي محمود بن ابراهيم بن
جعفر بن فلاح من استرجاع دمشق وأعمالها في سنة ٣٦٣ هـ .

أما طرابلس فقد دخلت في فلك الدولة الفاطمية منذ دخلت جيوش
جعفر بن فلاح دمشق في سنة ٣٦٠ هـ فأقر على إقليم الغرب بما فيه طرابلس

(٤٠) المقرئزي ، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء ، تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٧٨ - تاريخ يحيى بن سعيد ،
ص ١٣٩ .

وبيروت وصيدا الأمير عز الدولة تميم بن النعمان بن عامر بن هانيء
التنوخى الذى قدم ولاءه للفاطميين «١» . وعلى الرغم من الهزيمة التى
أوقعها القرامطة وحلفاؤهم العرب بقوات جعفر ، وانحسار النفوذ الفاطمى
عن الشام ، فإن عز الدولة أمير العرب ظل مقيما على ولائه للفاطميين .
فلما نجح الفاطميون بعد ذلك فى استرداد دمشق فى رمضان ٣٦٣ هـ عهد
المعز الى ريان الخادم بولاية طرابلس «٢» ، وأصبحت طرابلس منذ ذلك
الحين ولاية قائمة بذاتها لا تتبع دمشق ، « وكانت قبل ذلك مضافة
اليها » «٣» . ولم يطل العهد فى طرابلس بالقائد ريان ، فقد عهد اليه المعز
الفاطمى بمهمة مطالعته بحقيقة الأحوال فى دمشق بعد أن بلغه ثورة أهلها
على سياسة الظلم والبطش التى يجرى عليها عسكر المغاربة ، وفشل
القائد أبى محسود مقدم الجيش الفاطمى فى كف أهل الفساد . وظل ريان
الخادم مقيما بدمشق الى أن تمكن أبو منصور التركى المعروف بأفتكين
(أو الفتكين أو هفتكين) الذى قدم الى دمشق مع ثلاثمائة من فرسانه
سنة ٣٦٤ هـ من دخولها برغبة أهلها «٤» . وكانت مدينة طرابلس وقتئذ
تابعة للأمير عز الدولة تميم الذى كان مقيما فى بيروت ، قاعدة إمارة

(١) الشدياق ، أخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٨٦ — محمد عزة دروزة ،
العرب والعروبة ، ج ١ ، ص ١٧٧

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٠

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧ — ابن شداد ، الأعلاق
الخطيرة ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٦

(٤) ابن القلانسى ، ص ١٢

العرب ، فلما تضامن الأتراك بزعامة أفتكين والقرامطة بزعامة الحسن ابن أحمد ، ونجحوا في إيقاع الهزيمة بجيش جوهر في الرملة وعسقلان ، أبحر الأمير عز الدولة تميم ، وظالم بن موهوب العقيلي من بيروت الى مصر ، فرحب بهما الخليفة العزيز ولاطفهما .

ب - ولاية الفاطميين على طرابلس بعد ريان الخادم :

رأى العزيز بالله أن يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف لاسترجاع النفوذ الفاطمي في الشام ، فجعل جوهرًا على مقدمة الجيش ، وزحف بجيوشه نحو الشام ، وفي الرملة وقعت بين جيش أفتكين يؤيده القرامطة وبعض قبائل العرب في الشام وبين قوات العزيز بالله موقعة عنيفة في المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ، وفيها انتصر الفاطميون انتصارًا حاسمًا وأوقعوا الهزيمة بقوات أفتكين والقرامطة ، وقد اشترك الأمير عز الدولة تميم مع الفاطميين في هذه الموقعة ، وأبدى من الشجاعة والاقدام ما اجتذب بهما إعجاب العزيز ، فكافأه العزيز بأن ولاه إمارة الغرب وبيروت «^{٤٥}» . أما طرابلس فقد أسندت ولايتها بعد ريان الخادم الى عدد من الولاة نذكرهم بالترتيب التاريخي كما يلي :

١ - القائد نزال الكتامي

من وجوه قواد عيسى بن نسطورس وزير العزيز بالله ، ومن أقدر صناعته وخواصه (٥) ، وتولى بعد ريان الخادم ، وورد ذكره في ذيل تاريخ

(٤٥) الشدياق ، أخبار الأعيان ، ج ٢ ص ٢٨٨

(*) الروذراوري ، ذيل كتاب تجارب الأمم ، ج ٣ ، طبعة مصر

١٩١٦ ص ٢٠٩ .

دمشق في سنة ٣٧٨ هـ ، وقد استمر القائد نزال في ولاية طرابلس فترة طويلة دامت ثمان سنين (حتى ٣٨٦ هـ) ، ويعتبر من أبرز ولايتها في العصر الفاطمي وأكثرهم كفاية ، وقد اشترك في سنة ٣٧٨ هـ في اخماد حركة منير الصقلي بدمشق الذي كان قد خرج على الخليفة العزيز بالله «٤٦» . كذلك ظهرت حنكته السياسية وحسن تصريفه للأمور في الأحداث التي جرت في شمال الشام في ذلك الوقت «٤٧» .

٢ - جيش بن محمد بن الصمصامة :

كان قد تولى أمر دمشق قبل القائد أبي محمود في سنة ٣٦٣ هـ ، وذلك بعد أن صرف القائد ظالم بن موهوب عن ولايتها ، ثم تولى أمر طرابلس لفترة قصيرة من سنة ٣٨٦ هـ .

٣ - علي بن جعفر بن فلاح :

قلده أخوه سليمان بن جعفر القائد ولاية طرابلس بعد أن صرف عنها جيش بن الصمصامة وذلك في خلافة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ «٤٨» .

٤ - الأمير تميم التنوخي :

ولى أمر طرابلس بعد علي بن جعفر بن فلاح في نفس عام ٣٨٦ هـ «٤٩» .

(٤٦) يحيى بن سعيد ، ص ١٧٣

(٤٧) ابن القلانسي ، ص ٣٠ - ٣٤

(٤٨) ابن القلانسي ، ص ٤٨

(٤٩) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٩

٥ - ميسور الخادم :

صرف الحاكم تميما عن طرابلس وولاها لقائده ميسور الصقلي
سنة ٣٨٧ هـ «٥٠»

٦ - القاضي ابو الحسن علي بن عبد الواحد بن حيدرة الكتامي :

تولى أمر طرابلس في سنة ٣٨٧ ، ويعتبر من أعظم ولاة الفاطميين على
طرابلس (٣٨٧ - ٤٠٠ هـ) وقد اشترك مع ابن الصمصامة في محاربة
الدوقس عظيم الروم ، الذي نزل في عسكر كثيف الى الشام على حصن
أفامية «٥١» كذلك خرج بأسطول طرابلس في سنة ٣٨٧ هـ لمحاصرة العاقلة
الثائر على الفاطميين في مدينة صور «٥٢» .

٧ - القائد ابو سعادة :

كان الوالى الرسمى لطرابلس فيما بين سنتي ٤٠٠ ، ٤٠٧ هـ ، وقد
اشترك مع القاضي علي بن عبد الواحد بن حيدرة لنجدة مرتضى الدولة
منصور بن لؤلؤ أمير حلب ضد أبي الهيجاء ، وكان القاضي ابن حيدرة

(٥٠) المقرئى ، اتعاط الحنفا ص ٣٠٠ ، ملحق ٢ - ابن القلانسي

ص ٥١ الشدياق ص ٢٨٩

(٥١) ابن القلانسي ص ٥١

(٥٢) نفس المرجع

المذكور هو المستولى وقتئذ « على النظر في طرابلس وفي سائر
الحصون » « ٥٣ » •

٨ - مختار الدولة بن نزال الكتامي :

ولى أمر طرابلس في سنة ٤٠٧ هـ « ٥٤ » ، وقد ظل يتولى أمر طرابلس
حتى توفي في سنة ٤٦٢ هـ ، وعندئذ أعلن القاضي أبو طالب بن عمار
استقلاله عن الخلافة الفاطمية « ٥٥ » •

ج - غارات البيزنطيين على طرابلس :

اولا - حملة ابن الشمشقيق سنة ٣٦٥ :

كان الامبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس *Zimiskes* الذى يعرف
في المصادر العربية باسم ابن الشمشقيق قد وطد العزم على القيام بحملة
صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين في الشام « ٥٦ » سالكا في ذلك نهر
السبيل الذى سلكه الامبراطور تقفور فوقاس من قبل • وقد وفق
ابن الشمشقيق في اختيار الوقت المناسب للشروع في هذه الغزوة ، فقد
كان الفاطميون يواجهون وقتئذ متاعب لا حصر لها في الشام ، اذ خرجت

(٥٣) ابن العديم ، ج ١ ص ٢٠٠ - يحيى بن سعيد ، ص ٢١٠

(٥٤) ابن العديم ، ج ١ ص ٢١٥

(٥٥) Wiet, Banū 'Ammār, in Ency. of Islam, new édition, Vol. I, p. 448

(٥٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٤

دمشق من سلطانهم ، ووقعت في يد أفتكين التركي «٥٦» كانت الفرصة مواتية لابن الشمشقيق لكي يغزو بلاد الشام ، ويدخل بيت المقدس ، ففي سنة ٣٦٥ هـ « خرج ابن الشمشقيق الى الثغور ، فاستولى على أكثرها ،

(٥٧) هو الحاجب أبو منصور الفتكين المعزى ، أختير زعيما للأتراك في بغداد بعد وفاة سبكتكين المعزى ، على أثر عصيائه لعز الدولة بختيار ، ولكن الفتنة بين الأتراك والديلم لم تلبث أن احتدمت بعد خلع المطيع ، فزهد الفتكين في الإقامة ببغداد وخرج منها بفرقة من رجاله عدتها ٣٠٠ فارس ، ونزل بظاهر دمشق ، حيث طلب منه أهلها أن ينزل في بلدهم ويتولى أمورهم ويكف ما لحقهم على أيدي العسكر المغاربة من ضرر ، فأجابهم الى ما التمسوه . ولم يشأ الفتكين أن يدخل في حرب سافرة مع الفاطميين في الوقت الذي لم يكن قد تمكن بعد من تثبيت أقدامه في دمشق ، فتظاهر بالولاء للفاطميين ، « فأجابه المعز بالقبول ، ودعاه لزيارته » ، وعندئذ أدرك أن الخليفة ينوى اجتذابه الى القاهرة ليقضى عليه ، فأعلن عن عدائه للفاطميين ، بأن أمر بذكر الخطبة للخليفة العباسي الطائع ، واتجه الى صيدا ، واستولى عليها ، ثم زحف الى عكا ، ومنها الى طبرية . ولما قدمت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي ، وحاصرت دمشق ، استنجد الفتكين بالحسن بن أحمد القرمطي ، فأنجده ، واضطر جوهر الى الانسحاب الى الرملة ومنها الى عسقلان ، فتحصن فيها ، وحاصرت قوات الأتراك والقرامطة . وحاول جوهر أن يتفاهم مع الفتكين ، ودعاه الى الصلح ، وما زال به حتى أجابه الى طلبه نظير قدر معين من المال ، واشترط عليه أن يخرج من باب عسقلان من تحت سيف الفتكين ورمح الحسن بن أحمد ، وأرغم جوهر على قبول هذا الشرط المهين ، وعاود الفاطميون الكرة ، وخرج العزيز بنفسه في هذه المرة ، واشتبك في معركة عنيفة بالرملة مع الفتكين والحسن القرمطي فانتصر العزيز ، ووقع الفتكين بين يدي العزيز أسيرا ، فعفا عنه وأحسن معاملته . (ارجع الى ابن القلانسي ص ١٧ ، ١٨ - جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ص ٤٣)

واضطر بعض بطون العرب الى الدخول في طاعته ، ثم افتتح حمص ، واستولى على بعلبك ، وواصل زحفه الى دمشق «^{٥٨}» فلم يجد أفتكين بدا من الدخول في طاعته ، وأعلن له الولاء ، وتعهد بدفع مائة ألف درهم ، ولكن ابن الشمشقيق الذي أعجبه منه اخلاصه وولاءه ، أعفاه من هذا المال «^{٥٩}» .

ثم سار الامبراطور البيزنطي جنوبا بحذاء الساحل فوصل الى صيدا ، وخرج والى صيدا ، أبو الفتح بن الشيخ ، فهاداه وهادته على

(٥٨) ابن القلانسي ، ص ١٢ . يصور ابن القلانسي كيف أذل أفتكين نفسه أمام الامبراطور البيزنطي ونزل على حكم اشارته للحفاظ على ولايته في دمشق ، فيذكر أنه « خرج لمقابلة الملك في ثلثمائة غلام في أحسن زى وعدة ، واصطحب مع أشراف البلد ، وتوسط ابن الزيات ، بينه وبينهم على تقرير مائة ألف درهم ، وسار ابن الشمشقيق الى دمشق لمشاهدتها ، فلما وصل اليها ونزل بظاهرها ، استحسن ما رآه من سوادها ، وتقدم الى أصحابه بكف الأذية عن أهلها ، وترك الاعتراض لشيء من عملها ، ودخل الفتكين والشيوخ الى البلد لتحصيل الملاطفات التي يخدم مثله بمثلها ، وتحصيل المال . ولما خرج الفتكين تظاهر بالتذلل لابن الشمشقيق ، وترجل له ولأصحابه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، فسر الملك ، وأمرهم بالركوب ، وكان الملك فارسا يحب الفرسان ، فلبس الفتكين بين يديه لعبا استحسنه ، وشاهد من فروسية الفتكين ما أعجبه ، فتقدم اليه بالزيادة في اللعب ، ففعل ، وأثنى الملك عليه ، فقال : هذا غلام نجيب ، وقد أعجبني ما شاهدته منه » (ارجع الى ابن القلانسي ، ص ١٤) .

(٥٩) نفس المرجع

مال «٦٠» وما ان وصلت جيوش ابن الشمشقيق الى قيسارية واستولت عليها حتى ارتد الامبراطور مسرعا الى الشمال ، فحاصر بيروت وافتتحها عنوة ، ولم يكن مصير جيبيل بأحسن من مصير بيروت ، وأخيرا وصلت قواته أمام طرابلس مرهقة مكدودة بعد هذه الغزوة الطويلة ، وحاصرت طرابلس ، ولكنها لم تستطع أن تدخلها لمناعة أسوارها وحصاتها ، واشتبكت حامية المدينة ، يعاونها الأسطول الفاطمي مع القوات البيزنطية في قتال عنيف انتهى بهزيمة البيزنطيين «٦١» . وعادت الحامية الفاطمية الى التحصن في المدينة ، وطال حصار ابن الشمشقيق لطرابلس ، فاستمر أربعين يوما يقاتل أهلها ويقاتلونه دون أن يصل الى نتيجة «٦٢» ، ولما أدرك استحالة دخولها ، رأى الانصراف عنها ، فرفع الحصار ، ورحل الى أنطاكية في طريقه الى بلاده حيث توفي في العام التالي .

ثانيا - حملة بسيل الثاني الأولى (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) :

كان بسيل الثاني مشغولا بمحاربة البلغار عندما وصله ملكويا السيرافي ، رسول سعيد الدولة أبي الفضائل الجمداني صاحب حلب

(٦٠) ابن القلانسي ، ص ١٤

(٦١) محمد جمال الدين سرور ، دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣١ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٦

(٦٢) ابن القلانسي ، ص ١٤

يستغيث به من جيوش الفاطميين التي تهاجم حلب بقيادة منجوتكين .
وكان من الطبيعي أن يتحرك بسيل لدفع الخطر الفاطمي عن حدود بلاده،
ونجدة حليفه الحمداني ، فزحف بجيش كثيف نحو بلاد الشام ، ونزل
بحلب ، ثم واصل السير إلى شيزر وحاصرها ، فاضطر صاحبها منصور
بن كراديس ، أحد قواد العزيز بالله الفاطمي إلى طلب الأمان نظير مال
وثياب قدمهما إلى بسيل ، وسلم إليه الحصن «٦٣» . ثم حاصر حمص
وافتحها عنوة ، ثم افتتح رمنية ومن هناك زحف تجاه طرابلس ،
وهي على حد قول ابن القلانسي ثغر « برى بحرى متين القوة
والحصانة ، شديد الامتناع على منازلته » «٦٤» فحاصره أكثر من أربعين
يوما ، وقد بذل ما شاء أن يبذله من الجهد في سبيل افتتاحه ، أو تقب
ثغرة يصل إليه منها ، ولكنه أخفق في سعيه ، واضطر إلى الرحيل إلى بلاد
الروم . ويذكر يحيى بن سعيد الأنطاكي ، أنه « نزل على طرابلس
وحاصرها ، وخرج إليه المظهر بن نزال (لعله المظفر) وجماعة من وجوه
أهلها ، وطرحوا أنفسهم بين يديه ، وأعلموه أنهم في طاعته ، فخلع عليهم
وأحسن إليهم ، وعادوا إلى البلد على أن يسلموه إليه . وكان في البلد
قاضي يعرف بعلمه ، بن عبد الواحد بن حيدرة من أهلها ، فأغلق هو والرعية
الباب في وجوههم ، وأخرج عيال المظهر بن نزال من البلد ، فأخذهم وسار

(٦٣) نفس المرجع ص ٤٣ — أبو المحاسن ، ج ٤ ص ١٢١

(٦٤) نفس المرجع ص ٤٤

مع الملك ونزل على حصن أنطوطوس وعمره في ثلاثة أيام ، وكان قبل ذلك خراباً ، وشحنه بالأرض والمقاتلة ، ورحل الى أنطاكية ، وولى عليها بطريقاً دوقساً يسمى ذاميانوس وغزا ذميانوس الدوقس في أول سنة من ولايته طرابلس وكبسها ليلاً ، وأخذ ربضها وأسر كثيراً وعاد بعد ثلاثة أشهر الى عرقة ، وسبى جماعة منها ، وغزا في السنة الثانية من ولايته الى طرابلس ، وسبى من بلادها كثيراً » « ٦٥ » .

ثالثاً - حملة بسيل الثاني الثانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) :

عز على الخليفة العزيز بالله أن يتراجع جيشه الى دمشق ، وعظم عليه أن يتوغل البيزنطيون في الشام على النحو الذي وضعناه ، فاستقر رأيه على الخروج بنفسه على رأس حملة برية لفتح حلب وإرسال أسطول ضخم الى طرابلس . وفي نفس الوقت انتهز فرصة عودة بسيل الثاني الى بلاده وأمر قواته بمهاجمة أنطاكية . أما عن مشروع حملته البرية فلم يتهياً له أن يتحقق ، اذ ما كاد يصل الى بلبس حتى اعتل علة شديدة ، فتوفي في سنة ٣٨٦ هـ ، وأما الأسطول فقد تعرضت قطعة لعاصفة عاتية حطمته بالقرب من طرابلس وأسر الروم بعض رجاله » « ٦٦ » .

أخذ بسيل يفكر من جديد في غزو الشام فأخذ يترقب الفرص للتدخل

(٦٥) يحيى بن سعيد ، ص ١٧٧

(٦٦) نفس المرجع ، ص ١٧٨

الحزبي ، وحدث في سنة ٣٨٧ هـ أن ثار بمدينة صور ملاح يعرف باسم العلاقة ، تمكن هو ورفاقه من قتل قواد الحامية الفاطمية ، واستقل بالمدينة ، فأرسل برجوان الخادم جيشا بقيادة جيش بن الصمصامة وياقوت الخادم وأبى عبدالله الحسين بن ناصر الدولة لمنازلة صور وفتحها ، ثم سير عشرين سفينة حربية مشحونة بالرجال لمحاصرة صور من البحر ، وكتب الى والى طرابلس على بن حيدرة والى والى صيدا ابن شيخ بالابحار بأسطوليهما الى صور ، فاستغاث العلاقة بالامبراطور بسيل ، فيسير اليه « عدة مراكب في البحر مشحونة بالرجال ، والتقت هذه المراكب مع مراكب المسلمين ، فانهزم الروم »^(٦٧) ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين رجلا ، وتمكنوا من اقتحام صور ، وأسروا العلاقة «^(٦٨) » . وفي هذه الأثناء استغل بسيل هذه الفرصة وأمر الدوق داميانوس الدلاسنوسي ، الذي يسمى في المصادر العربية بالدوقس عظيم الروم «^(٦٩) » ، بمهاجمة أراضي المسلمين ، فتصدت له القوات الفاطمية وأنزلت به الهزيمة .

بعد هذه الهزائم المتواصلة اضطر الامبراطور الى معاودة الغزو بنفسه ، ففي سنة ٣٨٩ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٩٩٩ م) سار الى شيزر

(٦٧) ابن القلائسي ، ص ٥٠

(٦٨) ابن القلائسي ، ص ٥٠ — عبد الكريم غرايبة ، العرب والأتراك ، ص ٢٢٢ وما يليها .

(٦٩) يحيى بن سعد ، ص ١٧٧

وحاصرها ، فسلمها ابن كراديس بالأمان ، وشحنها بسيل بالأرمن ، ثم انتقل منها الى حصن أبى قيس ، فاستولى عليه بالأمان ، ثم استولى على حصن مصياف وأخربه • وزحف الى رمنية ، فأحرقها وسبى أهلها ، ومضى في طريقه يحرق ويدمر ويسبى حتى بلغ حمص فنزلها ، وأحرق من اعتصم من أهلها بكنيسة مار قسطنطين ، وسار الى بعلبك ، فاستولى عليها ، ومن هناك تتبع الطريق الساحلى ، فأحرق عرقة ، وهدم حصنها ، ثم نزل على طرابلس في ذى الحجة سنة ٣٨٩ هـ • وهاجم عسكره حصن طرابلس ، وكان يقع وفقا لوصف ناصرى خسرو في الجانب الشرقى من المدينة ، وكان مبنيًا من الحجر المصقول ، وبأعلاه شرفات تتوزع بينها المقاطلات الحجرية والعرادات «٧٠» ، وخندق الروم جول معسكرهم ، ثم قطعوا قناة الماء التى تصل الى الحصن وفي هذه الأثناء ، وافاه شلنديان يحملان زادا وعلوفة ، فتقوى بهما عسكره ، فسير سرية الى بيروت وجبل ، فأغارت عليهما ، وأسرت عددا من أهلها • ثم نشب القتال بينه وبين حامية حصن طرابلس برا وبحرا في مستهل المحرم سنة ٣٩٠ هـ ، فقتل كثير من أصحابه ، وهكذا عجز بسيل للمرة الثانية عن اقتحام طرابلس ، فاضطر الى الرحيل في ٥ من المحرم الى أنطاكية عن طريق اللاذقية «٧١» •

(٧٠) ناصرى خسرو ، سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ،

القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣

(٧١) ارجع الى : أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٢٠

— يحيى بن سعيد ، ص ١٨٤ — أسد رستم ، الروم والعرب ، بيروت

١٩٥٦ ج ٢ ص ٥٦ — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٦٩

الفصل الثاني

طرابلس إمارة عريضة مستقلة في ظل بني عمار

(١) المرحلة الأولى : ٤٦٢ — ٤٩٢ هـ

(٢) المرحلة الثانية : ٤٩٢ — ٤٩٥ هـ

(٣) المرحلة الثالثة : ٤٩٥ — ٥٠١ هـ

الفصل الثاني

طرابلس امارة عربية مستقلة في ظل بني عمار

(١)

المرحلة الاولى : ٤٦٢ - ٤٩٢ هـ

١ - تأسيس الامارة :

تمكن الفاطميون في عصر الحاكم بأمر الله من السيطرة التامة على بلاد الشام «١» ، بعد أن عقد مع الامبراطور البيزنطي بسيل الثاني هدنة لمدة عشر سنوات ، وبعد أن قضى على حركة بني جراح الطائيين في فلسطين ، وعلى سلطان الحمدانيين في حلب . وفي عهد الظاهر لأعزاز دين الله تمكن بنو مرداس السكلايين من تأسيس امارة لهم في حلب ، واضطر الخليفة الفاطمي الى محاربتهم حيناً ، ومسالمتهم حيناً آخر ، مما أتاح الفرصة لنشر الاضطراب في هذا القسم الشمالي من بلاد الشام . وقد أدت هذه الفوضى المستحكمة في فلسطين وحلب ، بالإضافة الى الضعف الذي منيت به الدولة الفاطمية منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الى طمع السلاجقة في الاستيلاء على حلب ودمشق . ففي سنة ٤٦٢ أعلن أمير حلب محمود بن صالح المرداسي ولاءه للسلاجقة،

(١) عبد المنعم ماجد ، الحاكم بأمر الله الخليفة المقتري عليه ، القاهرة

وفي سنة ٤٦٥ هـ عهد ملكشاه الى أئمز التركمانى المعروف بالأفيسى بالاستيلاء على الشام ، ففتح الرملة وبيت المقدس ، وتمكن من افتتاح دمشق فى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكتف أئمز بذلك ، بل هاجم مصر ، وتوغل فى أراضيها ، ولكنه لم يلبث أن انهزم على أيدي الفاطميين ، وفر الى غزة ومنها الى دمشق . ولما حاصرت القوات الفاطمية فى دمشق ، زحف لنجدته تاج الدولة تنش بن ألب أرسلان — وكان يحاصر حلب — وتمكن تنش من دخول دمشق فى سنة ٤٧١ هـ ، وقتل أئمز . وكان الفاطميون ما يزالوا يحتفظون ببعض السواحل السورية ، فوجه السلاجقة همهم الى الاستيلاء على تلك السواحل ، وتمكن تنش بساعدة نواب ملكشاه فى حلب والرها من الاستيلاء على حمص وعرة وأفامية ، ولما قتل تنش فى سنة ٤٨٨ هـ ، اقتسم ولدان رضوان ودقاق بلام الشام ، فاستقل رضوان بولاية حلب ، وقنع دقاق بولاية دمشق ، ولكن الخلاف لم يلبث أن نشب بين الأخوين ، واتفق الأفضل شاهنشاه وزير المستعلى هذه الفرصة ، فحاول استرجاع النفوذ الفاطمى على الشام ، وتمكن فى سنة ٤٨٣ هـ من الاستيلاء على بيت المقدس بعد أن تغلب على ايلغازى وسقمان ابنى أرتق «٢» .

(٢) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى على بلاد الشام ، ص ٥٩ —
٦٥ — عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة
١٩٦١ ، ص ١٠٠

وفي الوقت الذي بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتخلخل ، وتتجلى نوايا السلاجقة ومطامعهم في الشام ، كان قاضي طرابلس أبو طالب الحسن بن عمار «^٣» يراقب هذه الأحوال السيئة ، فأخذ يعمل من جهته على الافادة من هذه الاضطرابات ، ليحفظ لطرابلس استقلالها بين هذه الأنواء والعواصف الهوجاء ، ولاشك أن القاضي المذكور لم يكن من الشخصيات البارزة في طرابلس فحسب بل في بلاد الشام كلها ، بدليل أننا نراه في سنة ٤٥٩ هـ يقوم بالتوسط بين محمود بن نصر المرداسي بحلب المعروف بمحمود ابن الروقلىة وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، فقد بعث المستنصر الى محمود بن نصر ، « يطالبه بحمل المال وغزو الروم ، وصرف ابن خاقان ومن معه من الغز ان كان على طاعته ، فأجاب : بأننى التزمت على أخذ حاب من عمى أموالا اقترضتها وأنا مطالب بها ، وليس في يدي ما أقضيها عما أصرفه لغيره ، وأما الروم منذ هادتهم مدة وأعطيهم ولدى رهينة على مال اقترضته منهم فلا سبيل الى محاربتهم ، وأما ابن خاقان والغز معه فيدهم فوق يدي » وعندئذ أمر المستنصر بالله بدر الجمالى واليه على دمشق بمحاربته ، فتدخل القاضي ابن عمار بينهما وأصلح الحال «^٤» .

(٣) ذكر المقرئى أنه القاضي الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله ابن محمد بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن أدريس بن أبى يوسف الطائى ، وأنه توفي بطرابلس الشام في ليلة السبت نصف رجب سنة ٤٦٤ هـ (أنظر : المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٦٦)

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٧٩

ولا شك أن القاضي ابن عمار لم يكن قد أعلن بعد استقلاله بطرابلس في هذا التاريخ (٤٥٩ هـ) ، كما يزعم الدكتور عبد الكريم غرايبة «٥» فمن الثابت تاريخيا أنه أعلن استقلاله في سنة ٤٦٢ هـ على حد قول ابن القلانسي «٦» .

ويعلق الأستاذ جاستون فييت على ذلك بقوله : « لم يحدد تاريخ استقلال الحسن بن عمار مؤسس هذه الأسرة بطرابلس بعد ، ويعتقد سوبرهايم أن ذلك تم في منتصف القرن الخامس الهجري ، فإن الذهبي المؤرخ يؤكد أن ابن عمار قاضي طرابلس استولى على شؤون الحكم في طرابلس في سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) وكانت هذه السنة سنة نكبة على الدولة الفاطمية ، إذ أعلنت دمشق وصور وقلسطين استقلالها في هذا التاريخ » «٧» . ويذكر ابن القلانسي أن ثمرى صور وطرابلس قد تغلب عليهما قاضياهما ، وأصبعا « ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش ، بل يصانمان الأتراك بالهدايا والملاطفات » «٨» . وفي موضع آخر يذكر ابن القلانسي أن ابن أبي عقيل استولى على صور ، وأن القاضي ابن عمار استولى على

(٥) عبد الكريم غرايبة ، العرب والأتراك ، ص ٢٤٠

(٦) ابن القلانسي ، ص ٩٧

(٧) Gaston Wiet, Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu 'Ammār, dans Mémorial Henri Basset, publ. par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, t. XVIII, Paris 1928, p. 280

(٨) ابن القلانسي ، ص ١١٢

طرابلس ، وأن ابن حمدان استولى على الرملة والساحل ، ولم يبق لأمير الحيوش بدر الجمالي سوى عكا وصيدا «٩» .

كان ابن عمار هذا رجلا عاقلا سديد الرأي ، وكان فقيها شيعيا ، فاستقل بمدينة طرابلس ، وتلقب بأمين الدولة ، والتزم سياسة حيادية ازاء الفاطميين والسلاجقة ، فهو على الرغم من خروجه على الدولة الفاطمية لم يعلن عداؤه لها ، حتى لا يثير عليه أهل طرابلس الذين كانوا يميلون الى الفاطميين ، كما أنه لم يتورط في الخضوع للسلاجقة ، فاكفى بملاطفتهم بالهدايا ، وستتطور هذه السياسة في عهد جلال الملك خليفته من بعده .

وفي امارة أمين الدولة أبي طالب بن عمار لجأ الى طرابلس سديد الملك بن منقذ صاحب شيزر سنة ٤٦٥ هـ فرارا من محمود بن نصر بن صالح المرداسي ، الذي استقل بحلب ، متبعا سياسة حفظ التوازن بين جبهة مصر الفاطمية والسلاجقة «١٠» ، فوجد سديد الملك في طرابلس البلد الأمين الذي يمكن أن يقيم فيه آمنا من محمود بن نصر «١١» ، وفي ذلك دليل آخر على أن أمين الدولة ابن عمار كان يتبع سياسة حيادية بين المعسكرين السلجوقي والفاطمي ، فعلى الرغم من اتفاقه في سياسته مع ابن نصر

(٩) نفس المرجع ص ٩٧

(١٠) عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمي ، ص ٧٣

(١١) ابن العديم الحلبي ، ج ٢ ص ٣٥

المرداسي ، فقد أبى أن يسلم اليه سديد الملك بن منقذ ، ومع ذلك ،
وبفضل سياسة أمين الدولة ، فإنه نجح في احتفاظ طرابلس باستقلالها في
تلك الآونة المشحونة بالاضطرابات « ١٢ » .

وعمل ابن عمار على رفع طرابلس الى مصاف الحواضر الشامية
الكبرى ، فأسس بها دار العلم التي حوت من الكتب ما يزيد على مائة
ألف كتاب ، وكان ابن عمار نفسه كاتباً قديراً ، فهو الذي صنف كتابه
« ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح » « ١٣ » . وتوفي أمين الدولة
ابن عمار في رجب سنة ٤٦٤ هـ بعد عامين فقط قضاهما في اماره
طرابلس .

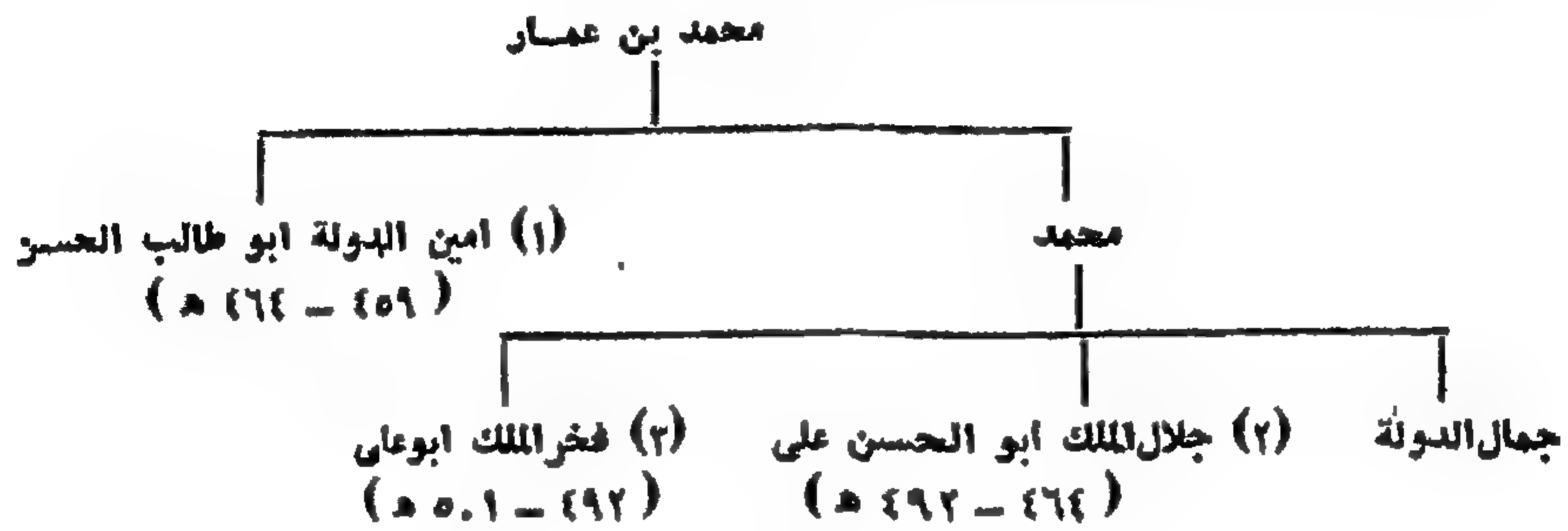
ب - عصر جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار (٤٦٤ - ٤٩٢ هـ) :

يغلب على الظن أن أمين الدولة بن عمار توفي دون أن يعقب ، فقام
النزاع على اماره طرابلس بعد وفاته بين ابني أخيه محمد ، وهما فخر
الملك أبو علي وجلال الملك أبو الحسن علي ، وذلك بعد أن استبعد محمد
أخو أمين الدولة . ويرجع الفضل الأعظم في حسم هذه المشكلة الى سديد

(١٢) ذكر ابن العديم ان بني عمار كانوا ينفرون من الشاعر أبي
الفتيان بن حيوسي « لميله الى الدولة المصرية » ، فأشار عليه سديد الملك
بن منقذ الذي كان يقيم بطرابلس بأن يقصد محمود بن نصر المرادسي بحلب
(ابن العديم ج ٢ ص ٤٠) .

(١٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧

الملك بن منقذ الذي أيد جلال الملك على بن عمار ، وعاضده بماليكه «١٤» ؛ وقد كان لذلك أكبر الأثر في تعظيم جلال الملك لابن منقذ ، فارتفعت مكانته عنده ، حتى أصبح شريك له في اماره طرابلس «١٥» .



ويعتبر جلال الملك أعظم أمراء بنى عمار على الإطلاق ، فقد تمكن من تدعيم مركزه في طرابلس خلال ثلاثين عاما وسط العواصف السياسية التي كانت تجتاح بلاد الشام . وتدل الأحداث التي وقعت في عصره على حنكته السياسية وعلى براعته في تصريف الأمور ، فلقد رأينا أن عمه أمين الدولة اتبع سياسة حيادية بين المعسكرين الفاطمي والسلجوقي ، وحافظ على هذه السياسة حتى وفاته ، وفي أيام جلال الملك كانت اماره طرابلس محط أنظار كل من الفاطميين الذين فقدوا معظم أملاكهم في الشام ، والسلاجقة الذين تسكنوا من بسط نفوذهم في دمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ، ففي بداية امارته أظهر ميلا نحو الفاطميين حين لا يكتسب عداوتهم؛

(١٤) نفس المرجع ص ٧٧ — ابن العديم ، ج ٢ ص ٣٥ — أبو الفداء؛

ج ٤ ص ٩٧ — ابن لأثير ، ج ٨ ص ١١١

Wiet, Banu 'Ammar, Ency. of Islam

(١٥) ابن العديم ، ج ٢ ص ٣٥

فعندما لجأ اليه صهره الأمير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي خوفاً من أن يقع في أيدي الفاطميين فيقتلوه ، لم يتردد جلال الملك في تسليمه للسلطات الفاطمية بالقاهرة ، حيث اعتقل وهلك في معتقله قتلاً بالنعال في سنة ٤٨١ هـ ، « ١٦ » ولدينا عملة من طرابلس باسم المستنصر بالله بتاريخ ٤٧٥ هـ مما يدل على محافظته على علاقات الود مع الفاطميين « ١٧ » . ويبدو أنه سلك هذا المسلك حتى يجنب نفسه عدااء الفاطميين ، ولا يثير عليه أهل طرابلس الذين كانوا يظهرون ميلهم للفاطميين « ١٨ » . وقد عثر في طرابلس على نقش من الكتابة الكوفية في لوحة حجرية مكسورة نصها :

« بسم » (الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من) « آمن بالله واليوم » (الآخر وأقام الصلوة وآتى الزكاة ولم) « يخش الا الله فعسى أو » (لك يكونوا من المهتدين هذا ما أنشأ) « تقربا الى الله تعالى ورغبة في ذ » (وابه القاضي . . . جلال الملك) « أبو الحسن على بن محمد بن ع » (مار . . . في سنة . . . وأ) « ربع مائة وجرى ع » (لى يدي . . .) « ١٩ » .

(١٦) ابن القلانسي ، ص ٩٦

(١٧) عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر ص ١٨٤

(١٨) Wiet, Une inscription, p.284

(١٩) Repertoire Chronologique d'Epigraphie arabe - Ibid. p. 279 t. 8, p. 42

ونلاحظ في النص السابق أن الكتابة المنقوشة على اللوحة هي الكتابة النسخية المحصورة بين أقواس صغيرة .

ولقد قام الأستاذ قبيت بدراسة هذا النص ، ويعتقد أن هذا النص أول وثيقة أصلية من أسرة بنى عمار ، ويستنتج من تسجيل اسم أمير طرابلس فقط دون ذكر اسم الخليفة العباسي أو الخليفة الفاطمي أن بنى عمار كانوا منفصلين سياسيا عن الدولة الفاطمية ، ودفعهم هذا الموقف الى التطلع نحو بغداد بطبيعة الحال ، ولكن هذا التطلع كان يحوطه الحذر؛ لأن أهالي طرابلس كانوا يميلون الى الفاطميين « ٢٠ » .

ويذكر ابن الأثير أن السلطان ملكشاه السلجوقي أمر قسيم الدولة آقسنقر والى حلب ، وبوزان صاحب الرها أن يصحبا أخاه تاج الدولة تتش في غزوه لسواحل الشام التابعة للدولة الفاطمية ، والسير معه الى مصر ، فزحفوا بجيوشهم الى بلاد الشام في سنة ٤٨٥ هـ ، ونزل تتش على حمص فاستولى عليها ثم تغلب على عرقة عنوة ، واستولى على قلعة أقامية، ثم توجه الى طرابلس فنازلها ، ونصب عليها المجانيق ، « فرأى صاحبها جلال الملك بن عمار جيشا لا يدفع الا بحيلة ، فأرسل الى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله ، فلم ير فيهم مطمعا ، وكان من قسيم الدولة آقسنقر وزير له اسمه زرين بكر ، فراسله ابن عمار ، فرأى عنده لينا ، فآتمغه وأعطاه ، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة في اصلاح حاله ليدفع عنه ، وحصل له ثلاثين ألف دينار وتحف بمثلها ، وعرض عليه

المنشير التى بيده من السلطان بالبلد «٢١» ، والتقدم الى النواب بتلك البلاد بمساعدته والشد معه ، والتحذير من محاربته ، فقال آقسنقر لتاج الدولة تتش لا أقاتل من هذه المناشير بيده ، فأغلظ له تاج الدولة وقال : هل أنت الا تابع لى ، فقال آقسنقر : أنا تابعك الا فى معصية السلطان ، ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة الى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد بوزان أيضا الى بلاده ، فانتقض الأمر «٢٢» .

وبينما كان جلال الملك يدعم استقلال امارته أمام السلاجقة والفاطميين على السواء ، مع اتباعه لسياسة الحذر المقررون بالكياسة السياسية ، نراه يعمل على توسيع رقعة امارته ، فيضم جبلة الى أملاكه فى سنة ٤٧٣ هـ ، ففى هذا العام وثب أبو محمد عبد الله منصور بن الحسين التنوخى المعروف بابن صليحة قاضى جبلة عليها ، واستعان بالقاضى جلال الملك بن عمار فى تخليص المدينة من الاحتلال البيزنطى ، وتمكن بفضل هذه المعونة من اخراج الروم ، فانتقلوا الى طرابلس ، بينما آلت جبلة الى ابن عمار «٢٣» . وستظل جبلة تابعة لبنى عمار الى أن يتمكن تاج الملوك بورى بن طغتكين أتابك دمشق من دخولها فى سنة ٤٩٤ هـ فى اشارة فخر الملك بن عمار .

(٢١) أى تقليده اماره طرابلس

(٢٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ١٦٠ ، ١٦١ حوادث

٤٨٥ — النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٣٣

(٢٣) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١١١

(٢)

المرحلة الثانية : ٤٩٢ - ٤٩٥ هـ

١ - طرابلس في ظل فخر الملك بن عمار :

لما توفي جلال الملك في شعبان سنة ٤٩٢ هـ خلفه على اماره طرابلس أخوه فخر الملك أبو على بن محمد بن عمار ، آخر أمراء بنى عمار في طرابلس وقد كان فخر الملك أمير سىء الحظ على الرغم من سطوته الحربية ، فقد اتفقت بداية امارته مع دخول الصليبيين في بلاد الشام ، وقد جاهد فخر الملك ضد الصليبيين جهاد الأبطال ، ودافعهم عن مدينته بقدر ما كان لديه من امكانيات ، وضرب المثل الأعلى في الصبر والمجادة والاستبسال فأخرت مقاومته العنيفة الفتح الصليبي لطرابلس سبع سنوات كاملة . وكان في مقدور طرابلس أن تصمد أمام الصليبيين فترة أطول ، بل كان من الممكن أن تستعصى عليهم لو كان لديها أسطول قوى ، ولو كان السلاجقة أو الفاطميون قد مدوا له يد المساعدة ، ولو لم تقابل شجاعة فخر الملك وبطولته بالخيانة والعدو ، فتضيع عليه الامارة في الوقت الذي كان يتباحث فيه مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه لانتقاذ طرابلس .

وعلى الرغم من الظروف السيئة التي أحاطت بعهدده منذ أن تولى الامارة حتى انتزعت منه ، فقد تمكن فخر الملك من المحافظة على استقلال

طرابلس ، الا أن مدينة جبلة التي كان أخوه جلال الملك قد ضمها الى مارتته لم تلبث أن شقت على فخر الملك عصا الطاعة ، فقد رأينا أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحة انتزعها من البيزنطيين وسلمها لقمة سائغة لجلال الملك بن عمار ، فكافأه ابن عمار بأن أقره على ولايتها . فلما توفي ابن صليحة خلفه على ولايتها ابنه أبو محمد من قبل أمير طرابلس ، وكان شابا محبا للجندية ، ويظهر أنه أبدى بعض التصرفات التي استهجنها فخر الملك فعمل هذا على القبض عليه ، وعندئذ أعلن أبو محمد العصيان ، وأقام الخطبة للخليفة العباسي . وكان ذلك كفيلا بإثارة الأمير فخر الملك عليه ، ولكنه لم يشأ أن يهاجمه فيكون ذلك مبررا كافيا لحمل السلاجقة على الوقوف ضده ، واكتفى بأن حرض دقاق بن تنش على محاصرته ، فاستجاب دقاق لذلك ، ولكنه لم يظفر منه بشيء » (٢٤) . والى هنا تركه فخر الملك لشأنه ، فأقام أبو محمد بجبلة مطاعا ، الى أن نزلت الحملة الصليبية الاولى في الشام ، وزحف الصليبيون بعد استيلائهم على أنطاكية جنوبا ، فلما حوصرت جبلة اتفق القاضي أبو محمد معهم على أن يدفع لهم قدرا من المال وعددا من الخيل على أن يفكوا الحصار ، وما ان زال هذا الخطر الصليبي مؤقتا حتى بادر أبو محمد فأرسل الى طغتكين بدمشق في شعبان سنة ٤٩٤ هـ يلتمس منه انفاذ من يثق به ليتسلم منه ثغر جبلة ، ويتولى حمايته . فأجابه طغتكين أتاك

دمشق الى طلبه ، وسير اليه ولده تاج الملوك بوري ، الذي تسلم جبلة .
أما أبو محمد فقد مضى الى دمشق بماله وأهله ومنها رحل الى بغداد
وبها السلطان بركياروق «٢٥» . ولكن تاج الملوك بوري أساء الى أهل جبلة ،
واستبد بهم ، وجرى في أحكامه على الظلم والعسف ، فشكا أهل جبلة
ما أصابهم وما نزل بهم على أيدي بوري وأصحابه الى الأمير فخر الملك
بن عمار ، والتمسوا منه ، لقربه منهم أن يساعدهم في تخليصهم من هذا
الطاغية ، ويرسل اليهم عسكريا يحررهم من نير حكمه . فوعدهم فخر الملك
باجابة مطلبهم ، وتحقيق رغبتهم ، فسير الى جبلة فرقة من عسكريه ، انضم
اليها الأهالي ، وحملوا على بوري وأصحابه الأتراك فهزموهم هزيمة
نكراء ، وقبضوا على بوري وحملوه أسيرا الى طرابلس . ولم يشأ فخر
الملك أن يسيء معاملة تاج الملوك بوري حتى لا يكسب عدااء أييه طغتكين ،
فيوجه همه اليه ، ويقصده بالغزو ، وإنما حرص على ارضائه ، فأكرم
بوري غاية الاكرام ، وأحسن اليه ، وأعاده مكرما معززا الى أييه
بدمشق ، وكتب يعتذر اليه ، ويصور له الموقف على حقيقته ، ويبرر
تدخله في جبلة بخوفه من سقوطها في أيدي الصليبيين «٢٦» . وقد كان
لذلك التصرف الحازم من جانب فخر الملك أثر كبير في ابقاء طغتكين على

(٢٥) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ — أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٢٩

ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٩٩

(٢٦) ابن القلانسي ، ص ١٤٠ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٠

علاقات الود بينه وبين بنى عمار ، فعندما توجه اليه فخر الملك مستقبلا بطلب النجدة على الصليبيين ، لم يتردد طغتكين فى تلبية ندائه .

وبذلك أمكن لفخر الملك أن يسترجع جيلة ويضمها الى امارته بطرابلس ، فأصبحت تضم جيلة وأنطرطوس وعرقه وطرابلس وجيبل . وكانت عرقه حصنا من الحصون المنيعة التى تحصى اقليم طرابلس ، ولذلك حرص الصليبيون على مهاجمة عرقه ، وان كان سقوطها قد تم فى رمضان سنة ٥٠٢ هـ قبل سقوط طرابلس نفسها بثلاثة أشهر . وأما جيبل فقد سقطت قبل ذلك فى ٤٩٧ هـ وأما انطرطوس فقد سقطت قبل ذلك فى سنة ٤٩٥ هـ بينما لم تسقط جيلة الا بعد سقوط طرابلس بأحد عشر يوما .

وسرى فخر الملك — بعد أن يفقد امارته بطرابلس عقب الانقلاب الداخلى الذى حدث فى سنة ٥٠١ هـ يقنع بجيلة ، فيقوم بامارتها الى أن تسقط فى أيدي الصليبيين فى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ بالأمان فيخرج منها سالما الى شيزر حيث يعرض عليه صاحبها محمد بن على بن منقذ أن يقيم عنده ، فيعتذر له ويستقر به المقام أخيرا فى دمشق فى كنف طغتكين ، الذى يقطعه عملا كبيرا من أعمال دمشق هو الزبدانى وذلك فى المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ويظل فخر الملك مقيما فى اقطاعه الى أن يتوفى فى سنة ٥١٢ هـ .

ب - الصليبيون فى الشام :

بينما كانت اماره طرابلس تؤول بعد وفاة جلال الملك الى أخيه فخر الملك ، كانت الحملة الصليبية الأولى تأخذ طريقها الى بلاد الشام عن طريق القسطنطينية . ومن المعروف أن هذه الحملة الصليبية الأولى

كانت تتألف من فريقين من الصليبيين : الأول ، غير نظامي ، وهو فريق العامة الذين استجابوا لدعوة بطرس الناسك ، وقد ركزت ريجهم ، فأبيدوا تساما على أيدي السلاجقة بسبب اختلافهم ، وعدم تجانسهم ، وروحهم الفوضوية ، وانتهت هذه الفئة من الصليبيين « الى ما يشبه الانتحار الذي ساقه اليها عدم نظامها » « ٢٧ » . أما الفريق الثاني ، فكان قوامه الأمراء الأقطاعيون سواء من الفرنسيين أم الايطاليين أم النرمنديين ، وقد حافظ هذا الفريق على النظام ، واستعد لمحاربة المسلمين بالسلح والعدة ، واشترك في هذا الفريق شخصيات صليبية كبرى نخص بالذكر منها : كونت فيرماندوهيج الكبير ، أصغر أبناء هنري الأول ملك فرنسا ، وشقيق فيليب الأول ملكها ؛ ثم جودفروي دي بويون ، دوق اللورين الأدنى ، وأخواه : أستاش الثالث المعروف بكونت بولونيا ، وبلدوين ؛ ثم بوهند النرمندي ، وابن أخيه تنكريد ؛ ثم ريموند الرابع كونت دي تولوز المعروف بالصنجيلي نسبة الى مقاطعة سان چيل بفرنسا ؛ ثم روبرت كونت دي نورماندي ، أكبر أبناء وليم الفاتح « ٢٨ » .

وما أن سقطت نيقية في أيدي الصليبيين ، حتى اتفق الرأي على الاتجاه نحو أنطاكية . وتم الاشتباك الثاني مع السلاجقة بالقرب من اسكى شهر (دوريليم) في ٤ يوليو سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) ، وفيها انهزم

(٢٧) حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٦٤

(٢٨) نفس المرجع ص ٦٤ — ٦٨

المسلمون هزيمة نكراء ، وتواصلت انتصارات الصليبيين في قونية وهرقلية؛ وعندئذ انقسم الصليبيون الى قسمين : قسم بقيادة بلدوين دى بويون وتنكريد وبوهمند النرمندي ، وكانت وجهته النواحي الشرقية من آسيا الصغرى ، والقسم الثانى يتألف من معظم الجيش الصليبي ، وكانت وجهته أنطاكية . هذا الفريق الأعظم كان هدفه الأساسى أنطاكية ثم الأراضى المقدسة فى بيت المقدس . وليس من شأننا أن نروى قصة سقوط أنطاكية، وإنما قصدنا أن نشير الى خطط سير الحملة الصليبية الأولى، ثم نقف عند وصولها الى طرابلس لنتتبع الصراع طويل الأمد الذى قام بين الصليبيين والمسلمين حول هذه المدينة بالذات .

سقطت أنطاكية فى أيدي الصليبيين فى ٧ يونيو سنة ١٠٩٨ (٤٩٢ هـ) بسبب تراخى أمراء الشام المسلمين فى نجدتها «^{٢٩}» ثم تمكن جماعة من أتباع الكونت ريموند الصنجيلى برئاسة ريموند يليليه من الاستيلاء على قلعة تل منسى ، وفى ١١ سبتمبر توغلت قوات ريموند الصنجيلى فى الأراضى الاسلامية ، واستولت على بلدة البارة «^{٣٠}» وفى أول نوفمبر ، عقد اجتماع

(٢٩) ذكر الدكتور عمر كمال توفيق أن بوهمند تواطأ مع أحد قواد الحامية الاسلامية بأنطاكية الذى أدلى له سلماً تسلقه بوهمند ورجاله الى برج المدينة وفتحوا أحد أبوابها (راجع : مملكة بيت المقدس الصليبية الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٥)

(٣٠) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨ . ص ١٠٦ .

في أنطاكية حضره رؤساء الحملة الصليبية ، لتقرير خط سير الحملة . وفي هذا الاجتماع ظهر الخلاف بين يوهند وصنجيل ، ثم عقد اجتماع آخر تقرر فيه أن تقوم بعض قوات الصليبيين بمهاجمة معرة النعمان ، فزحف ريموند الصنجيلي ، وروبرت دي فلاندر اليها ، وأدركهما يوهند بعد ذلك ، وحاصروا المدينة زهاء أسبوعين ، ثم دخلوها في ١١ نوفمبر ، واقتربوا فيها من الفطائع وأعمال القتل وسفك الدماء ، ما تجزع له النفوس . وفي المعركة نشب النزاع من جديد بين يوهند وريموند ، وانضم عامة الفرنجة الى ريموند وقودوه عليهم في زحفهم الى بيت المقدس ، بعد أن اتضح لهم انحراف يوهند عن الغاية الأساسية من الحركة الصليبية . ولم يتردد ريموند الصنجيلي في قبول هذه المهمة ، وزحف بجموع الصليبيين من معرة النعمان الى كفر طاب ، وانضم اليه هناك روبرت الترمندى وتنكريد . وفي المعركة وكفر طاب ، بدأت رسل بعض الامارات الاسلامية الصغيرة تفقد معنيتهم خضوعها للصليبيين ، حفاظا على استقلالها وتأمينا لسلامة سكانها من أعمال العنف التي يقوم بها الصليبيون ، فقد أصبح أصحاب هذه الامارات الصغيرة ، بعد اتصالات الصليبيين المتواصلة على السلاجة يدركون ضرورة مسالمة هؤلاء الغازين عن طريق الاتفاق معهم^(٣١) ، وأول من وفد من رسل هؤلاء الأمراء رسل أمير شيزر^(٣٢) .

(٣١) سميد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ -

P. Roussel, Histoire des Croisades, Paris 1957, p. 101

(٣٢) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١٠٧

رأى الصليبيون أن يتجهوا من شيزر الى الجنوب الغربى بحذاء الساحل ، اذ أرغمتهم على اتخاذ هذا الاتجاه ، طبيعة البلاد الجغرافية ، والظروف السياسية المحيطة بهم ، ثم انهم كانوا يعتمدون في زحفهم على تلقى الامدادات من السواحل عن طريق الأساطيل الايطالية «^{٣٣}» .

غير أن تنكريد عارض رأى صنجيل في التزام الساحل ، ورأى أن حصار المدن الساحلية يحتاج الى توضيحات كثيرة ، واقترح أن يتوجه الصليبيون رأسا الى بيت المقدس سالكين في ذلك جوف البلاد ، اقتصادا للوقت .

وأخذ الصليبيون برأيه ، فمروا بقلعة مصياف في ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، (٤٩٣ هـ) وعقدوا مع صاحبها اتفاقا ، ثم زحفوا الى بعين ثم رفية ومنها الى البقعة «^{٣٤}» ، فاحتوى سكان هذه المنطقة بحصن الأكراد ، وعندئذ طوَّقه الصليبيون ، واستولوا عليه في ٢٩ يناير «^{٣٥}» . ونلاحظ أن الصليبيين في زحفهم نحو بيت المقدس لم يلقوا من الصعوبات مثلما كانوا يلقونه في المراحل السابقة ، فقد آثر كثير من أمراء المسلمين المفاوضة ، وأنفذوا رسلهم لمسالمتهم ، ففي قلعة الكرك (حصن الأكراد) استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمين حمص يحملون الهدايا والأموال لموادعة الصليبيين ومهادنتهم .

(٣٣) Rousset, Histoire, p. 101

(٣٤) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ص ١٦٤

(٣٥) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٢٢٩

ج - موقف فخر الملك من الصليبيين :

زحف الصليبيون من حصن الأكراد الى قلعة عرقة ، وكانت تابعة لفخر الملك صاحب طرابلس ، وكانت عرقة مدينة في غاية الحصانة والمتعة ، فحاصرها الصليبيون في منتصف فبراير سنة ١٠٩٩ (٤٩٣ هـ) ، وظلوا يحاصرونها شهرين ، فعمل فخر الملك على اقتدائها واقتداء غيرها من المدن التابعة له ، وبعث رسالة الى الكونت ريموند يسأله المواعدة والإرتباط معه برباط المسودة « ٣٦ » ، فأرسل ريموند رسلا الى طرابلس للاتفاق مع أميرها ، واسترعى نظر هؤلاء الرسل عظم ثروة طرابلس الزراعية ، إذ دخلوها في فصل الربيع ، وأشجار الفاكهة قد أثمرت ، والمروج قد اخضرت ، وشاهدوا قصب السكر لأول مرة وذاقوه فأعجبوا به « ٣٧ » . ويبدو أن ما كانت عليه طرابلس من مظاهر الازدهار والرخاء أطمعت رسل ريموند في هذه البلاد ، فصرحوا بأن ريموند لا يقبل مسألة أمير طرابلس الا اذا اعتنق النصرانية « ٣٨ » . وأشاروا على ريموند بتشديد الضغط على فخر الملك . وبينما كانت معظم قوات الصليبيين تحاصر عرقة ، كان فريق آخر منهم يهاجم أنطوطوس التابعة لفخر الملك ، ولم تلبث هذه المدينة أن سقطت في أيديهم في ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ م « ٣٩ » ، وتيسر للصليبيين

(٣٦) أعمال الفرنجة ، ص ١٠٩

(٣٧) جورجى ينى ، ص ٣٨٠

(٣٨) أعمال الفرنجة ص ١٠٩

(٣٩) Rousset, op. cit. p. 101

بذلك الاتصال بالسفن الايطالية • أما عرقة فقد طال حصار الصليبيين لها الى أربعة شهور دون أن يؤدي هذا الحصار الى نتيجة • وكان بوهيند قد انتهز فرصة اشتغال منافسة ريموند الصنجيلي في حصار عرقة ، لكي يطرد أصحاب ريموند من أنطاكية ويستأثر وحده بملكية هذه المدينة • أما ريموند فقد تخلى نهائيا عن المطالبة بحقه في أنطاكية ، اذ أخذ يرنو بعينه الى امارة طرابلس القنية • ولما لم يجد بدا ، أمام اجماع أمراء الحملة ، من رفع الحصار عن عرقة لم تابعة الزحف الى بيت المقدس ، عقد اتفاقية مع فخر الملك ، بمقتضاها يقوم ابن عمار بتزويد الصليبيين بالميرة ، كما يتعهد بالتنصر اذا تمكن الصليبيون من الظهور على خليفة مصر ، في الحرب التي أعدها لهم ، واذا تمكنوا من التغلب على بيت المقدس «٤٠» وقد أعطى فخر الملك الصليبيين ١٥ ألف دينار ، وخمس عشرة هدية ، وعددا من الجياد والحمير ، وبعض الأقمشة ، وسلمهم أكثر من ٣٠٠ حاج كانوا في أسره ، ووجه معهم أدلاء من المسلمين ليرشدوهم على أحسن المسالك وأكثرها أمنا الى بيروت «٤١» •

وبعد أن تم الاتفاق بين الطرفين على هذا النحو ، رحل الصليبيون في ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وملكوا الطريق المارة بالبترون فجبل فيروت ،

(٤٠) Ibid, p. 102 — أعمال الفرنجة ص ١١٣ •

(٤١) جورجى ينى ص ٣٨٠ — أعمال الفرنجة ص ١١٣ — حسن حبشى — الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٧٠

فى طريقهم الى بيت المقدس • ولقد عاب بعض المؤرخين موقف فخر الملك الضعيف ازاء الصليبيين من الاستسلام المخزى ، ولكننا يجب ألا ننسى أنه لم يقف هذا الموقف الا بعد أن وجد نفسه وحيدا أمامهم • فقد رأينا حرصه على الاحتفاظ باستقلال طرابلس وسط النزاع القائم بين الفاطميين والسلاجقة ، كما أنه كان حريصا على حقن دماء المسلمين ، وعدم خوض معركة لن يضمن فيها غير الفشل ، واذا كان فخر الملك قد هادن الفرنجة على النحو المهيّن الذى ذكرته ، فانما فعل ذلك حتى يتأهب لحصار طويل الأمد ، فيحصن مدينته ، ويزودها بما يمكن أن تحتاج اليه من ميرة وسلاح • وقد دلت الأحداث التالية على بعد نظره ، فعندما عاد الصليبيون لمواجهته ، وجد نفسه مضطرا الى أن يتخلى أولا عن سياسته الحيادية بين المعسكرين الفاطمى والسلجوقى ، فيلقى نفسه فى أعضان القوى الاسلامية المجاورة له ، ثم يواجهه الحصار الطويل الذى فرضه ريسوند الصنجيلى على طرابلس بروح عالية • ويمكننا أن نعتبر اذن الاتفاقية التى عقدها مع ريسوند فى سنة ٤٩٣ ، والوعود التى وعده بها نوعا من الدبلوماسية التى أثبتت الأيام براعته فيها •

د - سقوط بيت المقدس وموقف الفاطميين :

سارت الحملة الصليبية من طرابلس جنوبا الى قيسارية مارة بجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا • وبالقرب من ثغر أرسوف انحرف الفرنجة شرقا نحو بيت المقدس ، وتركوا فى الرملة التى هجرها المسلمون حامية

لتأمين الطريق الذي يربط بيت المقدس بالساحل • وفي ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ م وصل الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس وشرعوا على الفور في حصارها «٤٢» •

وكانت بيت المقدس قد آلت منذ شهر شعبان سنة ٤٩١ هـ الى الفاطميين الذين رغم ضعفهم تسكنوا من انتزاعها من السلاجقة ، فقد استغل الأفضل شاهنشاه النزاع القائم بين دقاق ورضوان ابني تنش ، وحاصرها وضرب سورها بالمجانيق ، وتمكن عسكره من دخولها ، وتولاها من قبله عامل اسمه افتخار الدولة • وكانت أنباء الزحف الصليبي على سواحل الشام تصل تباعا الى السلطات المصرية ، دون أن يقوم المسؤولون في الدولة الفاطمية بأي عمل حاسم ضد الصليبيين • والواقع أن الدولة الفاطمية كانت تنظر منذ البداية الى الصليبيين على أنهم حلفاء طبيعيون ساقهم القدر للتكيل بالسلاجقة ، خصوم الفاطميين من الناحيتين السياسية والمذهبية ، لذلك لا نعجب اذا رأينا الأفضل يادر بارسال سفارة الى الصليبيين في أنطاكية ، في صفر سنة ٤٩٢ للاتفاق معهم ضد السلاجقة ، على أن تحتفظ مصر ببيت المقدس ، وتسمح للحجاج بزيارة الأماكن المقدسة ، وينفرد الصليبيون بأنطاكية «٤٣» • ومع أن هذا الموقف يمكن اعتباره موقفا مخزيا من جانب الأفضل فاننا نلتبس له العذر في ذلك ، فقد كان يظن أن هذه الحملة الصليبية كالحملات البيزنطية السابقة ، ولا شك أن ترحيب الصليبيين بهذه السفارة الفاطمية ، يعبر عن وقفة فهم

(٤٢) Rousset, op. cit. p. 102

(٤٣) حسن الجبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٠٨

على حالة الانقسام والتفتت المتفشية في قوى المسلمين ، وقد كتبوا ما بأنفسهم ، ولم يفصحوا عن نياتهم في فتح بيت المقدس «^{٤٤}» .

وكان افتخار الدولة ، قد فطن الى خطة الصليبيين في الاستيلاء على بيت المقدس ، فاتخذ أهبطه للدفاع عنها ، « فسمم الآبار وقطع موارد المياه ، وأخفى المواشى ، وطرده جميع من بالمدينة من المسيحيين ، واهتم بتقوية الأسوار ، واعتمد في الدفاع عنها على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان » «^{٤٥}» . أما الصليبيون فقد قسموا قواتهم الى فرق اتخذت كل منها موقعا من السور تأهبا للهجوم ، وحاصروا المدينة أكثر من أربعين يوما ، وشرعوا هجومهم الفعلى على المدينة في ١٣ يوليو سنة ١٠٩٩ م بعد أن أقاموا برجين يطلان على المدينة ، أحدهما على باب صهيون ، والآخر على باب العمود ، وتمكن مقاتلة أحد البرجين من الصاqqه بالسور ، ولم يلبث الصليبيون أن اقتحموا المدينة ، ودخلوها في ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ م (٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ) . ويذكر ابن الأثير ، أنهم قتلوا كل من كان في المدينة « ولبث الفرنج يقتلون المسلمين أسبوعا ، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا ، وأخذوا من الصخرة أكثر من أربعين قنديلا من الفضة ، وأخرى من الذهب » «^{٤٦}» . ولم ينكر المؤرخ

· Rousset, op. cit. p. 103

(٤٤)

(٤٥) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ص ١٧٤ — سعيد عاشور

الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٤١

(٤٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، حوادث ٤٩١ هـ ، ص ١٨٩

وليم الصوري أمر هذه المذبحة فقد وصف المدينة بأنها أصبحت « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » (٤٧) .

ويعلق روسيه Housset على هذه المذبحة بقوله : « ولا يمكن أن يرر الصليبيون بحال من الأحوال المذبحة المروعة التي قاموا بها خلال الأيام التي تبتعت دخولهم بيت المقدس ، ولم تكن هذه المذبحة جريمة فحسب ، وإنما كان خطأ سياسيا لا يغتفر ، فقد جعلت من الفاطميين أعداء ألداء للصليبيين . » وإنما تتعجب اذ نشاهد بعض المؤرخين يقصون مشاهد المذبحة دون أن يستنكروا بشاعتها ، فإن ماثيو الرهاوى يزعم أن جود فروى ذبح ٦٥ ألف مسلم في المعبد ، وكذلك يصف ألبرت ديكسن المحاربين اللاتين وهم يقتلون النساء والأطفال » (٤٨) .

ولم يسكت الأفضل بعد الفتح الصليبي لبيت المقدس أكثر مما سكت ، فخرج على رأس جيش كثيف الى عسقلان لاسترداد بيت المقدس ، وذلك في رمضان سنة ٤٩٢ هـ ، وأقام في عسقلان انتظارا للنجادات التي وعده بها عرب فلسطين ، وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم ما فعلوه ويهددهم (٤٩) . ولكنه أخطأ خطأ كبيرا بهذا الانتظار الطويل ، اذ أتاح لقوات الصليبيين أن تجمع شتاتها ، وتباغته بإلهجوم ، وتهزمه في عسقلان ،

(٤٧) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٤٤

(٤٨) Rousset, op. cit. p. 104 et. sq.

(٤٩) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي ص ٦٨

ويذكر ابن القلانسي أن سيوف الفرنج تمكنت من المسلمين ، « فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر » « ٥٠ » . وحاصر جودفروي عسقلان ، ولما رأى أن أهل المدينة ينوون التسليم لريمند الصنجيلي ، خاف أن يقوم ريمند بأشياء امارة صليبية في فلسطين ، فطلب منه أن يتخلى عن عسقلان ، فاضطر ريمند الى الانسحاب مع بقية أمراء الصليبيين ، وعلى هذا النحو لم يتمكن جودفروي من أن يفتتحها وحده ، فانسحب بدوره « ٥١ » . وكان جودفروي قد اختير ملكا على بيت المقدس في ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ ، كما اختير أرنولف مالكورن بطريقا لبيت المقدس في أول أغسطس من السنة ، ولم يطل العهد بجودفروي ، اذ توفي في العالم التالي ، وكان من الطبيعي أن يخلفه أخوه بلدوين بلدوين أمير الرها على ملكة بيت المقدس ، فقدم من الرها ومر بأنطاكية واللاذقية ، ثم بمدينة طرابلس حيث أكرمه أميرها فخر الملك ، وأمدّه ورجاله بكل ما كانوا في حاجة اليه من ميرة وغذاء ، وتعهد بأن يحيطه علما بتحركات عدوهما المشترك : دقاق ملك دمشق . ثم يذكر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن سبب هذا التقارب بين الصليبيين وبنى عمار أن العداة كان مستحكما بين سلاجقة دمشق وبنى عمار ، مما دفع عرب طرابلس الى السعى لمخالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف في وجه السلاجقة « ٥٢ » .

غير أننا لا نطالع في المصادر العربية ما يشير من قريب أو بعيد الى

- (٥٠) ابن القلانسي ، ص ١٣٧
 (٥١) سعيد عاشور ، ج ١ ص ٢٥٨
 (٥٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

وجود مثل هذا العداء المستحكم . صحيح أن فخر الملك بن عمار كان يسمى الى المحافظة على استقلال امارته ، ولكن ذلك لم يمنعه من التقرب الى السلاجقة ، وقد أشرنا من قبل ، كيف أنه أحسن معاملة تاج الملوك بوري بن طغتكين أتابك دمشق حتى لا يفسد العلاقات بينه (أى ابن عمار) وبين طغتكين والد بوري . وليس أدل على قيام العلاقات الودية بين الطرفين من توجه فخر الملك بطلب المعونة الى طغتكين فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) عندما نزل ريموند الصنجيلى على طرابلس وحاصرها ، فبادر عسكر دمشق بتلبية ندائه واجابته الى ما التمس ، ونهض عسكر دمشق الى طرابلس ، وانضم الى هذا العسكر جناح الدولة حسين أتابك صاحب حصص «٣» . وفى سنة ٤٩٨ هـ قدم الملك رضوان بن تاج الدولة تتش لانقاذ طرابلس من الصليبيين النازلين عليها. «٤» . وهناك دليل آخر على استمرار علاقات المودة بين دمشق وطرابلس ، وهو أن فخر الملك عندما ضاع ملكه فى طرابلس وجيلة ، اختار أن ينزل فى كنف طغتكين فى دمشق ، وقد رحب به طغتكين وأقطعه أعمال اقليم زبدانى بدمشق .

وخرج بلدوين من طرابلس ، وتابع سيره الى بيت المقدس ، حيث نودى به ملكا عليها فى ديسمبر سنة ١١٠٠ م .

هـ - ريموند الصنجيلى وبداية الحصار على طرابلس :

كان ريموند دى سان جيل ، كونت دى تولوز من بين زعماء

(٥٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٠ ، ١٤١ - سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ، ص ٢

(٥٤) ابن العديم الحلبي ، ج ٢ ص ١٥٠

الصلبيين ، الذين اشتركوا في الحملة الأولى • وكان قبل مغادرته لبلاده ، قد قطع على نفسه عهدا ألا يعود الى بلاده ، لذلك حمل معه زوجة ورحل من كوتيته بعد أن عهد بإدارة شؤونها الى ابنه الأكبر برتران • وقد لعب ريموند الصنجيلي دورا هاما في الحركة الصليبية «^{٥٥}» ، وعندما ساهم في افتتاح أنطاكية كان يأمل أن يقتسمها مع بوهمند ، غير أن بوهمند استأثر بها وحده ، ولما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه امارة في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب ، حول بارة ومعرة النعمان ، لاحقه بوهمند مرة ثانية ، ونافسه في الاستيلاء على معرة النعمان ، وأرغمه على التخلي عنها في يناير سنة ١٠٩٩ م • ولما استولى ريموند على أنططوس وحاصر عرقة أملا — هذه المرة — في تأسيس امارة على الساحل الأوسط لبلاد الشام • ولكن زعماء الحملة الآخرين لم يتركوه على حصارها ، وألحوا عليه في مواصلة السير الى بيت المقدس • ولما أراد أن يستولى على عسقلان وأرسوف بعد ذلك لم يسكنه جودفروي من تحقيق هدفه «^{٥٦}» • وعندئذ رأى ريموند أن ينقل نشاطه الى شمال الشام ليعمل بمساعدة حلفائه البيزنطيين على الحد من قوة بوهمند أمير انطاكية «^{٥٧}» • ورحل ريموند بعد ذلك الى القسطنطينية ليتفق مع الامبراطور الكسيوس كومنين على خطة تتيح له تحقيق هذا الهدف • وما كاد يصل الى القسطنطينية حتى بلغه نبأ وقوع بوهمند في أسر الملك غازي كمشتكين ابن الدانشمند صاحب سيواس ، أثناء ذهابه الى ملطية لمساعدة أميرها الأرمني ضد

(٥٥) Rousset, op. cit, p. 73

(٥٦) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤

(٥٧) نفس المرجع ص ٢٥٩

السلاجقة»^(٥٨) واستدعى الصليبيون في أنطاكية تنكريد ابن اخت بوهمند للقيام بالوصاية على امارة أنطاكية في أثناء فترة الأسر وتابع تنكريد أعمال بوهمند العدائية ضد البيزنطيين، فاستولى على طرسوس وأذنة والمصيصة. وفي سنة ١١٠٢ م هاجم اللاذقية التي كان ريموند قد افتتحها سنة ١٠٩٨ م^(٥٩)

وبينما كان ريموند الصنجيلي يسعى بمساعدة الامبراطور البيزنطي لاتخاذ اجراء حاسم ضد تنكريد وصلت الحملة الصليبية الثانية الى القسطنطينية ، وتوطن ريموند للاشراف عليها . وعلى الرغم من الكارثة التي منيت بها هذه الحملة على أيدي سلاجقة الروم في غضون عام ١١٠١ م، فقد نجح ريموند في جمع فلولها الناجين ، والابحار بهم الى السويدية ميناء أنطاكية في أوائل ١١٠٢ م تمهيدا للسير بهم الى بيت المقدس . وهناك قبض تنكريد على ريموند ، واعتقله في قلعة أنطاكية ، ثم أفرج عنه على أساس أن يتنازل عن حقه في أنطاكية واللاذقية . ومنذ ذلك الحين أخذ ريموند يعمل جديا لتكوين امارة لنفسه .

وكان من الطبيعي أن يفكر ريموند في الافادة من فلول الحملة الصليبية المتجهة الى بيت المقدس في تحقيق أغراضه ، وكان أول هدف له الاستيلاء على أنطربوس التي استردها فخر الملك بن عمار أثناء اشتغال ريمند بقيادة الحملة الصليبية الثانية في آسيا الصغرى . وقد تمكن ريموند من الاستيلاء عليها في ربيع الآخر سنة ٤٩٥ هـ (فبراير ١١٠٢ م) بمساعدة فلول الحملة الثانية ، وبفضل استعانته بأسطول جنوى كان مارا بسواحل

(٥٨) نفس المرجع ص ٢٨٢

(٥٩) نفس المرجع ص ٣٤٦

الشام «٦٠» • وما ان افتتحها ريموند حتى جعلها قاعدة لامارته المستقبلية في هذا الاقليم • ويذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٤٩٥ (١١٠٢) أن صنجيل الأفرنجي « سار في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس » «٦١» • والواقع أن الجيش الذي كان يقوده من بقايا الحملة الصليبية الثانية ، قد تخلى عن ريموند بعد فتح أنطربوس ومضى هذا الجيش الى بيت المقدس • ولم يبق لدى ريموند سوى فئة قليلة لا تتجاوز ثلثمائة رجل «٦٢» • وغلبت على صنجيل روح المغامرة ، فهاجم بهذا العدد القليل من المقاتلة مدينة طرابلس وحاصرها ، فاستنجد ابن عمار بصاحب دمشق على دفع ابن صنجيل النازل في عسكره من الأفرنج على طرابلس ، كما استنجد بجناح الدولة صاحب حمص • ووصلت عساكر حمص ودمشق الى أنطربوس ، واشتبكت مع الأفرنج ، فانهزم عسكر المسلمين ، وقتل منهم أعداد كبيرة ، وعاد فلهم الى دمشق وحمص في ٢٢ جمادى الآخرة «٦٣» • أما ريموند فقد عاد من جديد الى طرابلس لاستئناف الحصار • فكتب فخر الملك بن عمار مرة ثانية الى أميري دمشق وحمص ، فجاء عسكرهما ، للدفاع عن طرابلس «٦٤» • ولكن المردة الموارنة هبوا من المناطق الجبلية باقليم طرابلس لنجدة صنجيل • والواقع أن هؤلاء الموارنة تواقوا مع

(٦٠) Heyd, histoire du Commerce du Levant, t. 1, Leipzig, 1885, p. 139

(٦١) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٣٢

(٦٢) ابن الأثير، الكامل، حوادث ٤٩٥ — سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٥٦

(٦٣) ابن القلانسي ، ص ١٤١

(٦٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢ —

Recueil des historiens des Croisades, t. III, p. 524

الحركة الصليبية منذ بدايتها، وساعدوا الصليبية في محاربة المسلمين، وكانوا يبعثون معهم الأدلاء والمرشدين ليهدوهم الى عورات البلاد والمسالك الحسنة، وينجدوهم في الوقائع، ويمدوهم بالميرة «٦٥» • ويشير الأستاذ فيليب حتى الى أن العلاقة الودية من الموارنة والصليبيين بدأت في عصر مبكر، « وكان ذلك لما قدموا للحملة الصليبية الأولى أدلاء يرشدونهم الى الطرق والمعابر، وقد أرسلوا فرقة من الشباب المتطوعة الى مملكة بيت المقدس » «٦٦» • ولقد عرف الموارنة الذين يسكنون جبال طرابلس « بالرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق » «٦٧» • وأدرك ريموند صعوبة الاستيلاء على طرابلس لمناعتها، وتوافد النجدات اليها، فقنع بها عرضه عليه فخر الملك من جزية مالية وبعض الخيل، وانسحب بعد ذلك الى أنطربوس «٦٨»، وأرجأ مسألة فتح طرابلس الى أن تتوفر لديه القوة والسلاح والميرة •

(٦٥) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ ص ٢٥٠ — محمد عزة دروزة؛ العرب والعروبة ج ١ ص ٥٠٠
 (٦٦) فيليب حتى، لبنان في التاريخ، ص ٣٩٢
 (٦٧) ابن الشحنة، ص ٢٦٤
 (٦٨) سعيد عاشور، ج ١ ص ٣٥٦

(٣)

المرحلة الثالثة : ٤٩٥ - ٥٠١

١ - الحصار الصليبي الثانى حول طرابلس سنة ٤٩٧ :

ظل صنجيل مقيما فى أنطربوس منذ عام ٤٩٥ هـ الى عام ٤٩٧ هـ ، ولكنه مع ذلك لم يكف فى هذه الأثناء عن شن الغارات على طرابلس ، ومهاجمتها من حين الى حين ، وتهديدها بالحصار . ولكن طرابلس كانت مدينة مفتوحة من البحر ، لا تعبأ بهذا الحصار البرى الموقوت ، فكانت السفن تحصل اليها من البحر ما تحتاج اليه من مؤن وأقوات ، وكان فخر الملك يرسل أصحابه فى المراكب للاغارة على البلاد التى بيد الافرنج فيقتلون من يجدوه أمامهم «٦٩» .

وانتهز صنجيل وصول بعض قطع بحرية جنوية فى ميناء اللاذقية فى ربيع الأول سنة ٤٩٧ هـ ، تحمل تجارا وأجنادا وحجاجا ، فاستعان بهم لمحاصرة طرابلس برا وبحرا ، فسار اليها وأقام عليها الحصار من البر والبحر ، ولكنه لم يجد فيها مطمعا «٧٠» ، فالمدينة حصينة للغاية ، وفخر الملك قد اتخذ أهبطه لحصار طويل ، فانتقل هو ومن معه من الفرنجة الى جبيل ، وشدوا عليها الحصار البرى والبحرى ، وقاتلوا أهلها قتالا عنيفا ، وكانت جبيل تابعة لابن عمار ، فاستبسل أهلها فى الدفاع عنها ، فلما رأوا عجزهم عن المقاومة ، والصمود أمام هجمات الفرنج ، فاوضوه فى التسليم ،

(٦٩) ابن الأثير ، ج ٨ ، حوادث ٤٩٦ ، ص ٢١٩

(٧٠) نفس المرجع ص ٢٢١ - أبو الفداء ج ٤ ص ١٣٤

واشترطوا عليه أن يؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ، فأجابهم الى ذلك ، ودخلها «٧١» . ولكنه نكث بعهده معهم ، فاستولى على أموالهم عن طريق العقوبات التي فرضها عليهم ، وكافأ صنجيل الجنوية الذين ساعدوه في الاستيلاء عليها بأن منحهم ثلث جيبيل ، وباستيلاء ريموند على جيبيل ، أصبح يطوق امارة طرابلس من الشمال ومن الجنوب ، كما أنه وضع بذلك حدود الكوتية الصليبية التي يعمل جاهدا على تكوينها «٧٢» . ولم يبق أمامه الا الاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها التي ستكون قاعدة لتلك الكوتية . ولما كانت طرابلس محصنة تحصينا طبيعيا يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها ، فقد أصبح من الضروري أن يرجئ ذلك الى فرصة مواتية ، عندما يتصيد بعض السفن الجنوية للاستعانة بها في الحصار . وسنرى كيف يعمد ريموند الى اقامة قلعة على تلة أبي سمرة لكي يحكم الحصار عليها من البر .

وفي جيبيل وصله رسل بلدوين ملك بيت المقدس يطلبون منه أن يبادر بنجدته في حصار عكا ، فزحف بجيشه ، وساهم في حصارها برا وبحرا ، واستمات والى عكا زهر الدولة بنا في الدفاع ، وقاتلهم المرة بعد المرة ، ولكنه عجز عن مواجهة حشود الصليبيين ، خاصة بعد أن انضمت اليها قوات ريموند ، فاضطر الى الخروج من المدينة ، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها قهرا «٧٣» .

(٧١) يخلط ابن الأثير بين جيبيل وجيلة في كثير من المواضع .

(٧٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٠

(٧٣) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٢١

عاد صنعيل الى استئناف حصاره لطرابلس ، وفي نيته هذه المرة أن يستولى عليها ، وقبل أن يشرع في هذا الحصار ، أخذ يؤسس حصنا يشرف منه على المدينة ويكون مركزا عسكريا للحصار المقبل . واختار لهذا الحصن موقعا استراتيجيا هاما ، على تلة أبي سمرة الحالية ، الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشا وهي التي كانت تعرف بتلة الحجاج Mons Peregrinus . وفكرة اقامة حصن خارج مدينة طرابلس لاحكام الحصار عليها بريا والتحكم في الطرق الرئيسية المؤدية اليها ، فكرة قديمة ، طبقها من قبل سفيان بن مجيب الأزدي عند قيامه بمحاصرة طرابلس كما سبق أن رأينا ، وطبقها عن الرحمن الناصر في الأندلس عندما حاصر مدينة يشتر قاعدة الثائر عمر بن حفصون في سنة ٣١٦ هـ «٧٤» ، وسيطبقها أيضا عبد المؤمن بن علي ، خليفة الموحدين ، عندما يحاصر مدينة مراکش «٧٥» .

ومن المحتسل أن تكون آثار برج سفيان ما تزال ماثلة في ذلك الوقت ، فأوحت الى ريسوند بفكرة انشاء قلعته ، ومن المحتسل أيضا أن

(٧٤) أنشأ عبد الرحمن الناصر قلعة تجاه يشتر سماها حصن طنجيرة (أنظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، في ذكر أخبار المغرب ، طبعة بيروت ، ١٩٥٠ ، ج ٢ ص ٢٦ — مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، نشرها الأستاذان ليثي بروقتسال ، وغرسية جومث ، مدريد ١٩٥٠ ص ٥٨ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٨٣) .

(٧٥) اليذق (أبوبكر الصنهاجي) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق الأستاذ ليثي بروقتسال ، باريس ١٩٢٨ ص ١٠٢

يكون قد أسس حصنه الصليبي في نفس الموضع الذي كان يقوم عليه برج سفيان . وفكرة الحصن فكرة صائبة من الوجهة العسكرية ، وسيطبتها الصليبيون بعد ذلك في سنة ٥٠١ هـ عندما يقوم بلدوين بحصار مدينة صور ، فإن ابن القلانسي يذكر أنه « قصد ثغر صور ، ونزل بازائه ، وشرع في عمارة حصن بظاهرها على تل المعشوقة » (٧٦) .

بدأ صنعيل العمل سريعا في انشاء حصنه الموسوم باسمه ، وانشاء ربح أدناه لسكنى عسكره حتى يتمكن بعد ذلك من ضرب حضاره على المدينة . وقبل أن يتم بناء الحصن الصنجيلي ، فاجأه الأمير فخر الملك بن عمار بغارة على غرة ممن فيه ، فقتل من به ، ونهب حاميته ، وأحرق الحصن وأخربه بعد أن نهبت قواته ما كان فيه من السلاح والمال ، في ١٩ ذي الحجة سنة ٤٩٧ هـ (٧٧) .

ويذكر المؤرخون أن صنعيل وقف على بعض سقوف حصنه المحترقة ، فانخسف به ، فأصيب بحروق شديدة سببت له الوفاة بعد عشرة أيام من الغارة الاسلامية ، وقيل توفي في ٤ جمادى الأولى سنة ٤٩٨ هـ (٢٨ مارس سنة ١١٠٥ م) ، وحمل جثمانه الى بيت المقدس حيث ووري التراب (٧٨) . ويبدو أنه كان قد صالح ابن عمار قبل وفاته على أن يكون لصنجيل ظاهر طرابلس ، ولا يقطع الميرة والمطافرين عن المدينة (٧٩) .

(٧٦) ابن القلانسي ، ص ١٥٩

(٧٧) نفس المرجع ص ١٤٦ — سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٦ — أبو الفداء ج ٤ ص ١٣٨ — أبو المحاسن ج ٥ ص ١٨٨ .

(٧٨) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٣٨ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٥

(٧٩) ابن القلانسي ، ص ١٤٧ — سبط بن الجوزي ، ج ٨ ص ٨

ب - فخر الملك يقاوم وليم جوردان (السرداني : ٩٨) - ٥٠١ هـ / ١١٠٥
- ١١٠٨ م

كان ريموند دى صنجيل قد عهد الى ابنه الأكبر برتران بحكم
امارة تولوز ، فظل برتران يحكم تلك الامارة في حياة أبيه ، وبعد وفاته
بثلاث سنوات • الا أن حكم برتران لم يكن يستند على أسس سليمة
لأنه لم يكن ابنا شرعيا لريموند ، ولذلك استدعى أهل تولوز الفونس
جوردان الابن الشرعي الأصغر لريموند الصنجيلي سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ،
وتم الاتفاق بين الأخوين في ذلك التاريخ على أن يرث برتران أملاك أبيه
في الشام ، بينما يرث الفونسو امارة تولوز «^{٨٠}» •

أما في طرابلس فقد اختار فرسان ريموند دى صنجيل وليم جوردان ،
ابن أخت ريموند خلفا له ، لصعوبة استدعاء برتران القائم بحكم ممتلكات
أبيه في الغرب ، في هذا الوقت بالذات • ولقد قام جوردان بمهمة خير
قيام ، وبذل كل جهوده لتحقيق أمنية خاله المتوفى في احكام الحصار على
المدينة تمهيدا للاستيلاء عليها ، ويبدو أنه حافظ على استمرار العلاقات
الودية التي كانت قائمة بين ريموند والامبراطور البيزنطي الكسيوس
كومنين • ويذكر ابن الأثير ، أن « ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية
ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس ، فحملوها في
البحر » «^{٨١}» • ولكن أسطول طرابلس تصدى لهذه السفن البيزنطية ،
واشتبك معها في قتال بحري عنيف ، انتهى بهزيمة البيزنطيين ، وتمكن

(٨٠) سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٦٧ ملحوظة ١

(٨١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥

أسطول المسلمين من الاستيلاء على قطعة من الأسطول البيزنطى وأسر من كان فيها «٨٢» .

وفى هذا العام (٤٩٨ هـ) اشتد حصار الصليبيين على طرابلس ، من البر والبحر ، وعانى أهل طرابلس من هذا الحصار ، ولم يجد الأمير فخر الملك بدا من ارسال رسله الى أمراء السلاجقة يستنجد بهم لمساعدته على كشف غمته بمهاجمة الصليبيين المحدثين بمدينة . وكان من بين من استنجد بهم ابن عمار الأمير سكرمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وماردين بديار بكر ، والأمير جكرمش صاحب الموصل ، والمملك فخر الملوك رضوان ابن تاج الدولة تتش صاحب حلب ، والأمير ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . واتفق الأميران سكرمان ابن أرتق وجكرمش على الجهاد ونصرة أهل طرابلس ، أما الأمير ظهير الدين فقد اشتد عليه المرض حتى أشفى على الموت ، ولم يكن فى وسعه بذل المساعدة لابن عمار فى تلك الآونة بالذات ، بل انه كان فى حاجة الى من يحمى دمشق أثناء مرضه . ويذكر ابن القلانسى أنه كتب بدوره الى الأمير سكرمان يستدعيه فى عسكره ليوصى اليه بأمر دمشق «٨٣» ، ووصل هذا العرض الى سكرمان فى نفس الوقت الذى قرر فيه السير للجهاد ، فرأى أن يستفيد أولا من عرض ظهير الدين ، وبادر بالسير نحو دمشق ، وعبر الفرات الى القريتين من عمل حمص . ويبدو أن ظهير الدين ندم على تسرعه بدعوة سكرمان وخوفه رجاله من عاقبة مجيئه الى دمشق ، وبينما كان يتدبر الأمر ورد عليه خبر وفاة الأمير

(٨٢) نفس المرجع

(٨٣) ابن القلانسى ، ص ١٤٧ بـ ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٢٧

سكمان في القريتين في صفر سنة ٤٩٨ هـ ، وعوده عسكره الى كيفا «٨٤» .
أما الملك رضوان بن تش صاحب حلب ، فقد خرج في شهر رجب سنة
٤٩٨ هـ وهو عازم على قصد طرابلس لمعاونة فخر الملك بن عمار على الافرنج
النازلين عليه «٨٥» . وكان أهل حصن أرتاح من الأرمن قد سلموه حصنهم
لما شملهم من جور الصليبيين ، وبينما كان رضوان يتأهب للسير الى
طرابلس ، بلغه وصول جيش تنكريد (طنكري) مع جيش كبير بغية
استرجاع أرتاح ، فاصطدم معهم في معركة ضارية في ٣ شعبان انتهت
بهزيمته ، وقتل من أصحابه ما يقرب من ثلاثة آلاف «٨٦» . ويذكر
الاستاذ الدكتور سعيد عاشور أن ابن عمار لم يطلب المعونة من طغتكين
أتاك دمشق وحلب بسبب ما وقع بين الطرفين من خلاف وعداء ، أو من
الفاطميين الذين يتوثبون لانتزاع طرابلس من بني عمار «٨٧» . واعتقد
أن ابن عمار لم يتردد في الاستنجاد بطغتكين ، إلا أن هذا — وقد اشتد
عليه المرض — لم يكن في حالة تسمح له بمد يد المساعدة لابن عمار ،
فغارات الصليبيين كانت تجتاح بلاده ، والمرضى قد اشتد عليه ، ولأدري
السبب في قيام الخلاف والعداء بينه وبين ابن عمار ، فالمصادر العربية
كلها لا تشير بشيء من هذا الخلاف ، بل على الضد من ذلك نشاهد
طغتكين سنة ٥٠١ هـ يبالغ في غم ابن عمار بكرمه ، عندما يزوره هذا
في دمشق وهو متوجه الى بغداد . أما أنه يستنجد بالفاطميين فأمر طبيعي

(٨٤) ابن القلانسي ، ص ١٤٦ ، ١٤٧

(٨٥) نفس المرجع ص ١٤٨ — ابن العديم ، ج ٢ ص ١٥٠

(٨٦) نفس المرجع

(٨٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٣

لأن الفاطميين كانوا يشتهون الاستيلاء على طرابلس وانتزاعها من أمرائها المستغلين ، بل انهم كانوا لا يترددون في محاربتهم لو استطاعوا الى ذلك سبيلا .

واشتد الأمر على أهل طرابلس بسبب الحصار البرى والبحرى الذى كان يفرضه وليم جوردان على طرابلس ، وضافت عليها الأقوات ، وقلت ، واشتد الأمر على ابن عمار وأهل ثغر طرابلس ، « وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وخرمهم ، فجلا الفقراء ، وافقر الأغنياء ، وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأى سديد »^(٨٨) . وكان لابد لابن عمار من أن يواجه هذه الأزمة الاقتصادية المستحكمة التى تخلفت من الحصار الصليبي ، فيبادر بمصادرة أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء على نحو يتسق والنظام الاشتراكي الاسلامي ، ونلاحظ أنه لم يقدم على هذا الاجراء الا بعد أن اشتدت الضائقة بالفقراء ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفاء ، فلما قلت الأموال عنده ، شرع يقسط على الناس ما يخرج في باب الجهاد ، فأخذ من رجلين من الأغنياء ما لا مع غيرهما ، فخرج الرجلان الى الفرنج وقالوا ، ان صاحبنا صادرنا ، فخرجنا اليكم لنكون معكم ، وذكرنا له أنه تأتيه الميرة من عرقة والجبل ، فجعل الفرنج جمعا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء الى البلد ، فأرسل ابن عمار ، وبذل للفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين اليه فلم يفعلوا ، فوضع عليهما من قتلها غيلة . وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام ، وأكثرها تجملا وثروة ، فباع أهلها من الحلوى والأواني

(٨٨) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٣٥

الغريبة ما لاحد عليه ، حتى بيع كل مائة درهم فترة بدينار ، وشتان بين هذه الحالة ، وبين حالة الروم أيام السلطان ألب أرسلان » (٨٩) .

ونستخلص من هذا النص ثلاثة حقائق هامة : الأولى أنه على الرغم من طول الحصار الذي فرضه الصليبيون على طرابلس فإن المدينة كانت تصلها الامدادات بانتظام من عرقة عن طريق البحر ومن الجبال المحيطة بطرابلس عن طريق البر ، ولا شك أن السبب في ذلك يرجع قبل كل شيء الى عدم اعتماد الصليبيين على أسطول بحرى يربط على مدخل الميناء ، وعلى جوانب المدينة المطللة على البحر . أما الحقيقة الثانية فهي شجاعة ابن عمار وأهل طرابلس ، ومضاء عزيمتهم ، وصبرهم على الجوع والمكاره على الرغم من طول أمد الحصار ، وقلة الأقوات ، وكان ذلك سببا في امتداد أمرهم وطول مقاومتهم للصليبيين حتى سنة ٥٠٣ هـ وينبغى أن نخرج من حسابنا فئة الأغنياء الذين نكبهم ابن عمار بمصادرة أموالهم الكثيرة ، ولا شك أن هؤلاء الأغنياء المصادرين ، أصبحوا يؤلفون طبقة متوترة ناقمة على ابن عمار وحكمه ، ولم يتردد بعضهم في الاتصاف بالأعداء والانضمام الى صفوفهم . والحقيقة الثالثة : أن طرابلس كانت في عصر بني عمار مدينة كثيرة الخيرات والثروات بشهادة ابن الأثير ، وقد تجلّى ذلك الثراء في اقبال الأهالى على بيع تحفهم وحليهم مقابل

ما يسد ومقهم من الغذاء . ويفضل هذه الثروات تمكن أهل طرابلس من التعامل مع أعدائهم من الصليبيين أنفسهم ومن البيزنطيين ومن البنادقة ، فان ابن الأثير ، يذكر في حوادث سنة ٥٠١ هـ أنه « لما طال حصار الفرنج لمدينة طرابلس على ما ذكرناه ، ضاقت عليه الأقوات وقلت ، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد ، فمن الله عليهم سنة ٥٠٠ هـ بميرة في البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة ، فاشتدت قلوبهم ، وقووا على حفظ البلد بعد أن كانوا استسلموا » « ٩٠ » .

الفصل الثالث

سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين

(١) الانقلاب الداخلي في طرابلس وسقوط أسرة بني عمار

(٢) استيلاء برتران بن منجيل على طرابلس في سنة ٥٠٢ هـ

(٣) عوامل سقوط طرابلس

الفصل الثالث

سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين

(١)

الانقلاب الداخلي في طرابلس وسقوط أسرة بني عمار

١- خروج فخر الملك بن عمار إلى بغداد لاستنصار الخليفة العباسي المستظهر

والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (١٠٨٠ هـ / ١١٠٨ م) :

طال ترقب فخر الملك لوصول الامدادات من بغداد دون مجتدوى ، وكان ما يزال يأمل في مساعدة السلطان محمد بن ملكشاه له ، فلما بلغه النظام الأمور للسلطان السلجوقي ، وقضائه على كل مخالف ، عزم على الخروج إليه بنفسه ، ليعرض عليه ما ارتكبه الصليبيون من الفساد في البلاد ، وينتصر به ، وكان لابد له قبل أن يقدم على هذه الخطوة من تدبير أمر طرابلس أثناء غيابه فقد يطول غيابه في بغداد ، ويتأزم الموقف في طرابلس ولم يجد فخر الملك من يثق به من أهله وذويه سوى ابن عمه أبا المناقب الذي وثق به ، فاستنابه عنه بطرابلس مع جملة من وجوه أصحابه فخص بالذكر منهم سعد الدولة فتيان بن الأعز «١» ، وقيل ابن الأعسر «٢» ، ورتب

(١) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧

(٢) ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٩

معه الأجناد برا وبحرا ، ومبالغة منه في الاحتياط أطلق لهم رواتب ستة أشهر مقدما ، « وجعل كل موضع الى من يقوم بحفظه ، بحيث أن ابن عمه لا يحتاج الى فعل شيء من ذلك » (٢) ، ثم استحلهم (٣) . فلما تميا له ذلك ، أتقذ الى دمشق يستدعى وصول الأمير أرتق بن عبد الرازق ، أحد أمراء دمشق ، اليه ، ليخاطبه فيما أزمع عليه ، فأجابه أرتق الى ذلك ، واستأذن من ظهير الدين طمكتين أمابك دمشق في ذلك ، فأذن له ، ووصل الأمير أرتق الى طرابلس ، وقابل فخر الملك وهو يتأهب لمخادرة طرابلس سالكا الطريق البرى الى بغداد ، وفي صحبته نحو ٥٥٠ فارس وراجل ، ومعه هدايا وتحف جليلة ليقدمها الى السلطان عند مقابله له (٤) . ويذكر ابن الأثير أن فخر الملك بن عمار « استصحب معه من الهدايا ما لم يوجد عند ملك مثله من الأعلاق النفيسة ، والأشياء الغريبة ، والخيول الرائقة » (٥) واجتمع فخر الملك مع أرتق ، واتفق معه على أن ير فخر الملك بدمشق في صحبته .

ووصل فخر الملك الى دمشق ، وكان في استقباله ظهير الدين طمكتين بنفسه ومعه المسكر ، ونزل أمير طرابلس في مرج باب الحديد بظاهر دمشق ، وبالنح ظهير الدين في اكرامه ، وتناهى في احترامه ، « وحمل اليه أمراء العسكرية ، ومقدموه ، من الخيل والبغال والجمال وغير ذلك مما يمكنهم

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٠ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

(٤) نص ابن الجوزي في *Recueil des Historiens des Croisades*

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٦٠

(٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

حملة ، واتحافه به « ٧ » . ولقد دعاه طغتكين الى دخول دمشق والاقامة فيها بعض الوقت بقصد الراحة ، فاشتراط عليه ابن عمار أن يقيم يوما واحدا ، وانتهاز طغتكين هذه الفرصة ليعبر له عن مودته له فأقام له مأدبة جليلة ، واحتفى به غاية الاحتفاء ، وأدخله حمامه « ٨ » .

وجاءته الأنباء وهو بدمشق أن ابن عمه أبا المناقب استغل فرصته غيابه ، وقتل سعد الدولة ، وأعلن خروجه على الأمير فخر الملك ، فما كان من فخر الملك الا أن كتب الى اتباعه بطرابلس يأمرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الخوابي « ٩ » من حصون الأسماعية ، التابعة لامارة طرابلس ، ففعلوا ما أمرهم به . وعلى الرغم من انزعاج الأمير فخر الملك ، وشعوره بالقلق على مصير امارته ، فانه لم يتردد في متابعة السير الى بغداد لاستنفار الخليفة والسلطان ضد الصليبيين . وأبدى طغتكين رغبته في صحبة فخر الملك الى بغداد ، غير أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لخوفه من سعايات بعض حساده في بلاط السلطان ، وأغلب الظن أنه خاف أن ينقلب عليه أهل دمشق كما فعل أهل طرابلس بفخر الملك . ومع ذلك ، فقد أوفد معه ابنه تاج الملوك بوري ، وحمله كثيرا من الهدايا والتحف من الخيول والثياب ليقدمها الى السلطان ، واستوزر له أبا النجم هبة الله بن محمد ابن بديع ، وجعله مديرا لأمره ، وسفيرا بينه وبين السلطان « ١٠ » .

(٧) ابن القلانسي ، ص ١٦٠.

(٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

(٩) ابن القلانسي ، ص ١٦١ — ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ — ابن

الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

(١٠) ابن القلانسي ص ١٦١

غادر فخر الملك دمشق وفي صحبته تاج الملوك بوري في ٨ رمضان سنة ٥٠١ هـ ، فلما وصل الى بغداد ، احتفل السلطان بتلقيه أروع احتفل السلطان بتلقيه أروع احتفال وأفخمه ، اذ أمر كافة الأمراء باستقباله واكرامه ، « وأرسل اليه شبارته «١١» وفيها دسته الذي يجلس عليه ليركب فيها ، فلما نزل اليها قعد بين يدي موضع السلطان ، فقال له من بها من خواص السلطان : قد أمرنا أن يكون جلوسك في دست السلطان » «١٢» . وعندما قابل فخر الملك السلطان أنعم عليه ، وغمره بالاكرام ، واحتفى به ، وأرسل الخليفة المستظهر بالله اليه كبار خاصته وعظماء دولته لمقابلته وتهيئة أسباب الراحة له . وحرص فخر الملك على أن يجتمع بالسلطان ويصور له حقيقة الأوضاع في طرابلس ، وما يعانيه في مجاهدة الفرنجة ، وذكر له قوة عدوه وامتداد حصاره لمدينة طرابلس ، واختتم حديثه ملتصقا أن ينجده السلطان وينتصر له ، وأبدى استعداده للاتفاق على عسكر السلطان ، فوعده السلطان بالنصرة له «١٣» .

اغتر الأمير فخر الملك بوعود السلطان محمد المعسولة ، وزاد أمله في انجاد السلطان له بعد ما شاهد من خفاوته به تلك الحفاوة التي لم يكن يتوقعها . وطال لبث الأمير في بغداد منتظرا عودة عسكر السلطان من الموصل ، اذ كان قد أسلمهم لآخماد ثورة جاولي سقادة ، فلما طال مقامه دون جدوى ، سئم الإقامة ، واشتد به القلق على أحوال طرابلس ، فقرر

(١١) لعلها مزكية السلطان أو مخففة

(١٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

(١٣) نفس المرجع

العودة الى بلاده • فعاد الى دمشق في منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ «١٤» •
وهناك علم نبأ الانقلاب الذي قام به أهل طرابلس ضد بنى عمار ،
واعلانهم الولاء للخليفة الفاطمى ، فلم يجد بدا من السير الى جبلة ،
وأمدّه الأمير طغتكين بفرقة من عسكر دمشق لتساعده فى دخول جبلة .
فدخلها ، وأطاعه أهلها •

ب - انصواء طرابلس للفاطميين (٥٠١ - ٥٠٢ هـ) :

اختلف المؤرخون فى رواية تفاصيل الثورة التى قام بها أبو المناقب
ابن عمار والتى انتهت بدخول طرابلس فى فلك الدولة الفاطمية ، فابن
القلانسى يذكر أن أبا المناقب « أظهر الخلاف له والعصيان عليه ، ونادى
بشعار الأفضل بن أمير الجيوش بمصر ، فلما عرف فخر الملك ما بدا منه ،
كتب الى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الخوابى ، ففعل
ذلك ... وأتخذ أهل طرابلس الى الأفضل بمصر يلتمسون منه انقاذ وال
يصل اليهم فى البحر ومعه الغلة والميرة فى المراكب ، لتسلم اليه البلد ،
فوصل اليهم شرف الدولة بن أبى الطيب «١٥» واليا من قبل الأفضل ومعه
الغلة • فلما وصل اليها ، وحصل فيها قبض على جماعة أهل فخر الملك
ابن عمار وأصحابه وذخائره وآلاته وأثاثه ، وحصل الجميع الى مصر
فى البحر » «١٦» •

(١٤) ابن القلانسى ، ص ١٦١

(١٥) هو شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى

(١٦) ابن القلانسى ص ١٦١

ويقول ابن ميسر في ذلك : « نافق أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الملك ، ونادى بشعار الأفضل ، وسير اليه أن يحضر لتسليم طرابلس ، فسير اليه الأفضل الأمير شرف الدولة بن أبي الخطيب ، فلما وصلها نقل حريم فخر الدولة بن عمار وأولاده وأمواله وذخائره الى مصر » « ١٧ » .

ويتفق ابن الأثير مع ابن القلانسي وابن ميسر في أن أبا المناقب أظهر الخلاف لفخر الملك ونادى بشعار المصريين ، وأن أهل طرابلس هم الذين راسلوا الأفضل أمير الجيوش في مصر يلتمسون منه أن يرسل اليهم واليا من قبله ويزوده بالميرة والغلال وما تحتاج اليه طرابلس في حصارها ، فسير اليهم شرف الدولة المذكور ، الذي قبض فور وصوله الى طرابلس على جماعة بنى عمار ، وسيرهم الى مصر مع ما استولى عليه من تحف ابن عماره وذخائره « ١٨ » .

أما المؤرخ الوحيد الذي يأتي برواية مختلفة كل الاختلاف عن الروايات السابقة هو ابن الفرات « ١٩ » ، الذي يروي النص التالي : « . . . فجلس أبو المناقب في بعض الأيام وعنده وجوه طرابلس وأكابرها ، فخلط في كلام ، فذهاه سعد الدولة بلطف ، فجرد سيفه ، وضرب سعد الدولة فقتله ، وانهزم من كان في المجلس ، وقام أبو المناقب ، وصعد على السور ، وصفق بابطيه ، فقبض عليه أهل البلد وحيسوه ، ونادوا

(١٧) نص ابن ميسر في كتاب

Croisades, t. III, p. 468

(١٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥١

(١٩) أتى ابن شداد في الأعلام الخطيرة بنص مماثل

بشعار الأفضل بن أمير الجيوش شريك الخليفة الفاطمي صاحب مصر ،
وذلك في شهر رمضان سنة ٥٠٠ هـ . . . ولما نادوا بشعار الأفضل وبلغه ذلك
جهز اليهم جيشا في البحر ، وقدم عليهم تاج العجم ، فلما وصل الى
طرابلس ، أخذ جميع الأموال ، وما يحفظ به البلد ، وبلغ الأفضل أنه يقصد
العصيان بطرابلس ، فقبض عليه على ما كان فصله ، وولى بدر الدولة ،
وفي بعض النسخ شرف الدولة بن أبي الطيب الدمشقي . فوصل الى
طرابلس ، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم من طول الحصار ، ثم رأوا
من خلفه ما رغبتهم عنه ، ونفروهم منه ، فعزموا على طرده ، ثم رأوا ابقاءه
لأنهم لا ملجأ لهم الا من جهة المصريين . ثم وصلت مراكب من مصر
بالغلات والرجال ، فقرر المذكور مع مقدمي الأسطول القبض على أعيان
البلد وأصحاب فخر الملك بن عمار وحريمه ، فأخذهم ، وسيرهم في البحر
الى مصر المحروسة ، وبعث ما كان في طرابلس من السلاح والذخائر ما لم
يكن عند أحد من الملوك مثله ، وبعث مائة ألف دينار عينا ، فلما وصلوا
الى مصر اعتقل الأفضل أهل بنى عمار » (٢٠) .

ووجه الاختلاف في رواية ابن الفرات عن الرواية الواردة في النصوص
الثلاثة الأولى ينحصر في النقاط الأربعة الآتية :

الأولى : أن نص ابن الفرات يصور محاولة أبي المناقب الخروج على
فخر الملك ، فقبض عليه أعيان المدينة ، ولم يتضمن النص مناداته هو بشعار
الأفضل ، كما هو وارد في الرواية التي تتضمنها النصوص الثلاثة الأولى .

(٢٠) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ — الأعلام الخطيرة ، ج ٢
قسم ٢ ص ١١٠ .

الثانية : أن الأهالي هم الذين نادوا بشعار الأفضل وكتبوا اليه ،
ويؤيد ذلك سبط بن الجوزي في مرآة الزمان « ٢١ » •

الثالثة : أن الأفضل سير لهم تاج العجم ، الذي حاول العصيان عليه
والانتزاع بطرابلس ، وهذه النقطة غير مذكورة في الرواية الأولى •

الرابعة : أن أهل طرابلس تقموا على شرف الدولة بن أبي الطيب ،
وعزموا على طرده ثم أحجموا عن ذلك حتى لا يثيروا عليهم الأفضل
فبعاقبهم أشد العقوبات •

ورواية ابن الفرات تتضمن كثيرا من التفاصيل المعقولة ، أما الرواية
الأولى فمبتورة وموجزة في آن واحد ولذلك فهي ناقصة مشوهة •
وأغلب الظن أن فخر الملك علم وهو بدمشق في طريقه الى بغداد بهذا
الخبر ، وأيقن بضياع ملكه ، فزاده ذلك اصرارا وعزما على السير الى
السلطان ملكشاه ليساعده في استرجاع امارته ، ودفع الصليبيين عن
طرابلس في وقت واحد ، فالمهمة فيما يبدو كانت مزدوجة ، ولكنه لم ينجح
فيها ، وعاد بخفي حنين ، وقنع بامارة جبلة الى أن استولى عليها
الصليبيون وظلت طرابلس موالية للفاطمين حتى سقطت في أيدي
الصليبيين على نحو ما سأذكره فيما بعد •

(٢)

استيلاء برتران بن صنجيل على طرابلس في سنة ٥٠٢ هـ

١ - الموقف حول طرابلس بعد وصول برتران :

واصل وليم جوردان بعد وفاة ريموند الصنجيلي الحصار على طرابلس ما يزيد على سنتين حافظتين بالأحداث ، اختتمها بفتح مدينة عرقة ، وكانت عرقة من أعمال طرابلس ، وكان يتولاها من قبل فخر الملك بن عمار غلام من غلمانه ، استقل بها في الوقت الذي شقت فيه طرابلس عصا الطاعة على فخر الملك ، ولما انقطعت الميرة والأقوات عن عرقة بسبب عيث الفرنج في نواحيها ، وأحس بعجزه عن حمايتها والحفاظ عليها ، لم يجد من يثق في قدرته على الدفاع عنها من أمراء المسلمين غير طغتكين أتابك دمشق ، فكتب اليه يلتمس منه المعونة على دفع الفرنج عنها ، وانقاذ من يتسلمها منه ، « ولئن يأخذ المسلمون هذا الحصن خير له دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج » « ٢٢ » . توجه اليه طغتكين قائدا اسمه اسرائيل في ثلاثمائة رجل ، فتسلم منه الحصن سنة ٥٠٢ هـ . وعزم طغتكين على زيارة عرقة لمشاهدة تحصيناتها وتفقد أسوارها والاشراف على تقويتها بالرجال والعدة استعدادا لمواجهة الحصار الصليبي ، فسار بعد شهرين ، في ٤ آلاف فارس ، وافتتح حصن الأكمة . فلما علم وليم جوردان بهذه الأخبار وهو

(٢٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٦ (حوادث سنة ٥٠٢ هـ)

مقيم على حصار طرابلس ، خرج في فرقة من رجاله عدتها ثلثمائة فارس ، واشتبك مع جيش طغتكين ، فهزمه في شعبان سنة ٥٠٢ هـ ، وطارده الى حمص . ثم عاد فحاصر عرقة واستولى عليها بعد ثلاثة أسابيع في رمضان سنة ٥٠٢ هـ (ابريل ١١٠٨ م) بالأمان « ٣٣ » .

ثم ترك ولیم جوردان بمرقة حامية من الصليبيين ، وعاد الى طرابلس لمتابعة الحصار . وكان يأمل أن يتوج جهوده بفتح المدينة على يديه ، بعد أن بذل قصارى جهده في حصارها . ولكن حدث ما لم يكن في حسابه ، اذ وصل الى طرابلس في ذلك الوقت منافس خطير أطاح بأمل جوردان في فتح طرابلس ، وتأسيس اماره صليبية باسمه ، ذلك هو برتران الابن الأكبر لريمند الصنجيلي ، الذي اضطر الى التخلي عن حكم اماره تولوز لأخيه الأصغر الفونس جوردان ، نظير أن يرث هو أملاك أبيه في الشام . ويبدو أن برتران كان قد فكر قبل وصوله الى طرابلس في ضرورة الاستعانة بأحد الأساطيل الايطالية حتى يعجل بفتح طرابلس ، فخرج من بلاده على رأس جيش عدته أربعة آلاف فارس ، يحملهم أسطول مؤلف من أربعين سفينة ، وعرج وهو في طريقه الى طرابلس على جنوة حيث تفاوض مع حكومتها فيما يمكن أن تقدمه من مساعدات في سبيل محاصرة طرابلس من البحر ، وفي نفس الوقت كان ولیم جوردان قد بعث

(٢٣) ابن القلانسي ص ١٦٢ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٦ — سعيد

عاشور ، ج ١ ، ص ٣٦٦

أحد سفرائه الى جنوة لنفس الهدف . الا أن وجود برتران بنفسه في جنوة جعله يكسب الجولة ويفوز بتعهد من حكومة جنوة تلتزم فيه بمساعدته في الاستيلاء على طرابلس ، وفي الحصول على تركة أبيه في الشام ، على أن ينح الجنوية نظير ذلك امتيازات تجارية واسعة النطاق في طرابلس «^{٢٤}» .

وفي شعبان سنة ٥٠٢ هـ وصل برتران « في جملة ستين مركبا في البحر مشحونة بالآقرنج والجنوين » «^{٢٥}» ، وتعيّد أن يرسو بهذا الأسطول في ميناء السويدية بدلا من أنطرطوس ، لكي يقابل تنكريد ويطلبه بحصة أبيه في أنطاكية واللاذقية . فأبدى تنكريد موافقته ولكنه اشترط على برتران في مقابل ذلك أن يساعده في حملته التي ينوى القيام بها ضد البيزنطيين في المصيصة وبطبيعة الحال رفض برتران هذا الشرط ، فاستشار بذلك غضب تنكريد ، الذي طلب منه الرحيل على الفور . وعلى أثر ذلك أبحر برتران في أسطوله البروقسي الجنوي الى أنطرطوس «^{٢٦}» ، حيث طالب وتليم جوردان بأنطرطوس وجبيل وعرقه باعتباره صاحب الحق الوحيد في تركة أبيه . فاعترض عليه جوردان ورفض أن يسلمه شيئا منها ، وهنا احتدم الخلاف بين برتران وجوردان ، فاستنجد جوردان بتنكريد

(٢٤) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

Ileyd, Histoire du Commerce du Levant, t. 1, ..p- 140.

(٢٥) ابن القلانسي ص ١٦٣ — سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ١٧ — أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٩ . ويذكر الدكتور سعيد عاشور أنه وصل في ثمانين سفينة (ج ١ ص ٣٦٨)

(٢٦) سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٦٨

بعد أن تعهد له أن يصير تابعا له • وعلى هذا الأساس ، وعده تنكريد بالسير في جيشه للدفاع عن حق جوردان في المدن التابعة له • وأسرع برتران في العمل ، فبادر بالسير في أسطوله إلى طرابلس ليحاصرها من البر والبحر ، وفي الوقت نفسه كتب إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس يدعوهُ للحضور لمساعدته في النزاع القائم بينه وبين وليم جوردان ، ويخبره في نفس الوقت بمناصرة تنكريد لوليم جوردان عليه ، ويعده بالتبعية له إذا تمكن من فض النزاع لصالحه • فلم يتردد بلدوين عندما بلغته الرسالة في الحضور إلى طرابلس على الفور في مقدمة فرقة من خمسمائة فارس • وفي قلعة صنجيل تم اجتماع بلدوين ببرتران فوعده بلدوين بالانتصار لقضيته وفي مقابل ذلك حلف له برتران بيمين الولاة (٢٧) • ثم ان بلدوين استدعى أمراء الفرنج لبحث الموقف وتصفية النزاع ، فقدم بلدوين دي بوج ، ووليم جوردان ، وتنكريد • وبفضل جهود بلدوين ملك بيت المقدس ، صالح جوردان برتران على أساس تقسيم التركة بين المتنازعين ، فكان نصيب جوردان عرقة وأنطوطوس • اللتين إفتحها بعد وفاة ريمند • بينما ظفر برتران بجيل وقلعة صنجيل وطرابلس التي اتفق الجميع على أن يتعاونوا على فتحها ، كما تقرر أنه إذا توفي أحدهما دون أن يعقب ولداً فإن الآخر يرثه في ممتلكاته (٢٨) •

(٢٧) نفس المرجع ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ • ويقول ابن القلائسي في ذلك أنه وقع بين ريمند بن صنجيل (يقصد برتران) وبين السرداني (يقصد وليم جوردان) مشاجرة ، ووصل طنكري (يقصد تنكريد) صاحب أنطاكية إليه لمعوثته للسرداني ، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره ، فأصلح بينهم (أنظر ابن القلائسي ص ١٦٣ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩)

(٢٨) سعيد عاشور ج ١ ص ٣٧٠

ب - الحصار الثالث وسقوط طرابلس في أيدي الصليبيين في سنة ٥٠٢ هـ :

تضامن أمراء الفرنجة جميعا على فتح طرابلس ، فالأسطول البروقنسي
الجنوى كان يحاصرها من البحر ، وتنكريد صاحب أنطاكية ، وبلدوين
صاحب مملكة بيت المقدس ، وبرتراند بن ريسوند الصنجيلي كانوا
يحاصرونها بحشود الصليبيين مجتمعة من البر . وشرع الصليبيون في
في التضيق عليها منذ أول شعبان سنة ٥٠٢ هـ الى ١١ ذى الحجة سنة
٥٠٢ هـ ، وقطعوا عنها الاتصال تماما من البر والبحر . ثم اقترب المحاصرون
الصليبيون من أسوار المدينة ، وأسندوا أبراجهم عليها ، واستمات أهل
طرابلس في الدفاع عن مدينتهم ، وابتكر بعض أهل الصناعات من رجالها
طريقة تهدف الى احراق الأبراج الصليبية ، وتعطيل الكباش المخصصة
لنطح الأسوار لنقبها ، وهي طريقة أثبتت جدواها عندما طبقها هؤلاء
الطرابلسيون وقت حصار الصليبيين لمدينة صور سنة ٥٠٥ هـ . وقد
وصف ابن القلائسي هذه الطريقة العربية المبتكرة وصفا طويلا ، فيذكر
أحد هؤلاء الرجال - وكان بحريا من طرابلس - عمد الى خشبة طويلة
جافة قوية أقامها في برج البلد الذي بازاء برج الافرنج ، وفي رأسها
خشبة على شكل الصليب ، طولها أربعون ذراعا ، تدور على بكر
بلولب كيف ما أراد متوليها على مثال ما يكون في الصواري
البحرية وفي طرف الخشبة التي تدور سهنم حديد ، وفي
طرفها الآخر حبال مدارة بها على ما يريد متوليها . وكان يرفع فيها جرار
الكور والنجاسه ليشغلهم بطرح ذلك عليهم في البرج عن الكباش
وعسد البحرى الى سلال العنب والقفاف فيجعل فيها الزيت والغير والسراقة
والقلفونية وقشر القصب ويطلق فيها النار ، فاذا علقت بذلك وقع ذلك في

الآلة المذكورة حتى يوازي برج الافرنج ، فتقع النار في أعلى البرج ،
فيادر برفع أخرى ، ومع هذا كان يرمى أرضا بالزيت المغلى في قدور
صغار على البرج ، فيعظم الوقيد ، وبذلك احترق البرج الافرنجى « ٢٩ » .

ولكن أبراج الفرنج على أسوار طرابلس تكاثرت ، وتضافرت جهود
الصليبيين في الهجوم في الوقت الذي أخذ الأسطول الجنوى يحكم
الحصار على طرابلس من البحر ، ويقضى على أى محاولة تسلل من جانب
السفن الاسلامية ، لامداد المدينة بالميرة . وسقط في أيدي أهل طرابلس
اذ رأوا اقتراب مقاتلة الفرنج من أسوار المدينة ، وكانوا قد كتبوا منذ
شهور مضت الى مصر يستجدون وزيرها الأفضل ، ويسألونه أن يسدهم
بالأقوات والمؤن ، وأقاموا ينتظرون ورود السفن الفاطمية ، وهضت
الأيام والامدادات لا تصل والأمل يذبل ويذوى ، والمقاومة تفتر ، وكلب
العدو يستأسد . فقر عزم واليها على التسليم بعد أن يئس من وصول
السفن الفاطمية ولكن نفرا من أهل طرابلس عز عليهم أن ينتهى كفاحهم
على هذه الصورة ، فأبوا الاستسلام وآثروا المضى في المقاومة حتى النهاية .
ومن الغريب أن يكون والى طرابلس الفاطمى نفسه هو الذى دعا للهزيمة
والاستسلام وعارض فكرة المعارضة ، ولكن يبدو أن اجماع أهل طرابلس
على مواصلة الدفاع والجهاد حملة على أن يستأمن لنفسه وللحامية الفاطمية
من العدو ، فان ابن القلانسى يشير الى أن « واليها وجماعة من جنده

كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها ، فلما ملكت أطلقوا ووصلوا الى دمشق بعد أيام » «^{٢٠}» ، ويؤيد ذلك ما ذكره يوسفوس بن كريون المؤرخ اليهودي اذ يقول : «وكان واليها قد استأمن قبل فتحها في جماعة من الجند فلحقوا بدمشق » «^{٢١}» . كذلك يشير أبو الفداء الى أن بعض أهالي طرابلس كانوا « قد طلبوا الأمان ، وخرجوا منها الى دمشق قبل أن يسلكها الفرنج » «^{٢٢}» . ويأتي ابن الأثير بعبارة تقترب معنى ولفظا من عبارة ابن القلانسي «^{٢٣}» . ونستنتج من نص أبي الفداء أن انقساما حدث في داخل طرابلس ، فكان الوالي والحامية الفاطمية ينادون بالتسليم ، بينما أصر أهالي طرابلس على الاستمرار في النضال ، ولا تفسر خروج الوالي وجنده قبل دخول الفرنج الا بأحد أمرين : اما أن أهل طرابلس لم يقبلوا أن يبقى بين ظهرانيهم جبناء ودعاة هزيمة ، فأرغموهم على الخروج منها أو أنهم خرجوا من تلقاء أنفسهم بعد أن استأمنوا على أرواحهم ، ومضوا الى دمشق ، كما نستنتج من نص ابن القلانسي وابن الأثير أن ابقاء الصليبيين على والي طرابلس وجنوده بعد فتح المدينة يعني أن الوالي المذكور اتصل بهم في السر وأمن على نفسه وعلى جنده ، ومنه علم الفرنجة بالخلاف القائم في المدينة ولذلك فرجوا عنه وعن جنده بعد دخولهم طرابلس . وأيا ما كان

(٣٠) ابن القلانسي ، ص ١٦٣

(٣١) جورجى يني ، ص ٣٨٣

(٣٢) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣

(٣٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩

الأمر فإن موقف والى طرابلس كان موقفا مخزيا ، فقد كان في امكانه بث روح المقاومة في نفوس أهل طرابلس ، وكان في مقدور الحامية أن تلهم أهل البلد القوة والحساس والجلد على القتال ، ولذلك لم تستطع طرابلس أن تقاوم الصليبيين طويلا بعد ذلك .

ومضت أيام وهجمات الفرنج على سور طرابلس تشتد ، وانتهزوا فرصة الارتباك الداخلي الذي سببه خروج الوالى والحامية الفاطمية ، فشددوا القتال ، وحملوا حيلة رجل واحد «^{٣٤}» في يوم الاثنين ١١ ذى الحجة « وهاجموها من الأبراج ، فملكوها بالسيف في ١١ من ذى الحجة ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودقاتر دار عليها ، وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يجد عدده ولا يحصر فيذكر » «^{٣٥}» . ويعلق ابن الأثير على ما فعله الصليبيون بأهل طرابلس بقوله : « ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة ودور العلم الموقوفة ما لا يحصى ولا يحصى ، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة » «^{٣٦}» .

ويختلف المؤرخون العرب في تحديد سنة سقوطها ، فبعضهم يحدد

(٣٤) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٨٠

(٣٥) ابن القلانسي ، ص ١٦٣

(٣٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٩

سنة ٥٠٢ هـ ومنهم ابن القلانسي «٣٧» ، وسبط بن الجوزي «٣٨» ، وابن شداد «٣٩» ، وأبو المحاسن «٤٠» . وبعضهم الآخر يجعل سقوطها في سنة ٥٠٣ هـ ، ومنهم أبو الفداء «٤١» ، والحافظ الذهبي «٤٢» ، وابن الأثير «٤٣» ، وابن الفرات «٤٤» . ولكن ابن الأثير يناقض نفسه بعد ذلك ، فمن المعروف أن الصليبيين افتتحوا جبلة بالأمان بعد طرابلس في المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ولكن ابن الأثير بينما يذكر أنها سقطت في ٢٢ من ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ ، وإن صاحبها فخر الملك بن عمار خرج منها إلى دمشق بعد ذلك نجده يذكر تاريخ خروجه - في موضع آخر - في المحرم سنة ٥٠٢ هـ «٤٥» وتصحيحها ٥٠٣ هـ . ونسيل في تحديد سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين إلى الأخذ بتاريخ ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ التي ذكرها الفريق الأول من المؤرخين ، وعلى هذا الأساس تكون جبلة قد سقطت في ٢٢ من ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ ، ويكون خروج فخر الملك بن عمار إلى دمشق واقطاعه أعمال الزبداني في المحرم سنة ٥٠٣ هـ .

-
- (٣٧) ابن القلانسي ، ص ١٦٣ .
 (٣٨) مرآة الزمان ج ٨ ص ١٧ .
 (٣٩) ابن شداد ، ج ٢ قسم ٢ ص ١١١ .
 (٤٠) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٠ .
 (٤١) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣ .
 (٤٢) الحافظ الذهبي ، العبر في خبر من غير ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٣ ج ٤ ص ٦ .
 (٤٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩ .
 (٤٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ .
 (٤٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩ .

(٣)

عوامل سقوط طرابلس

١ - ضعف الجبهة الاسلامية :

كانت الدولة الفاطمية في مصر تعاني وقت دخول الصليبيين في بلاد الشام من الضعف السياسي والانقسامات المذهبية ، وأخذت منذ ظهور السلاجقة في الشام تفقد أملاكها تدريجيا ، ولم تستطع - أمام الدفع السلجوقي - أن تحتفظ طويلا بالسواحل الشامية على الرغم من الجهود التي بذلها بدر الجمالي في هذا السبيل ، فقد تمكن تاج الدولة تتش من الاستيلاء على حمص وعرة وأفامية ، واقتسم ابنه دقاق ورضوان الشام بعد مقتله في سنة ٤٨٨ هـ فاستقل رضوان بحلب وانفرد دقاق بدمشق . وأدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة من الناحيتين السياسية والمذهبية الى عدم تناسك المسلمين وتضامنهم أمام الغزو الصليبي ، وكان ذلك نذيرا بما حل ببلاد الشام من نكبات على أيدي الصليبيين . ولو أن الفاطميين اتفقوا على السلاجقة على دفع الخطر المشترك لكان من الممكن أن تفشل الحملة الصليبية الأولى ، ولاستعصى على الصليبيين أن يخرقوا جبال طوروس الى الشام ، ولكن ما حدث كان مؤسفا ومخزيا في آن واحد ، فإن الأفضل لم يتردد في السعي للتحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة ، وقد ذكرت من قبل كيف عبر رسله الى زعماء الصليبيين في أنطاكية عن فرحتهم لسقوطها في أيديهم .

ولو أن الدولة الفاطمية كانت قوية الجانب ، تستطيع وحدها أن تتحمل مهمة الدفاع عن بلاد الشام لكان الأمر قد هان ، ولكننا اغتفرنا لها ما اجترمته ولكن الدولة الفاطمية كانت قد بلغت في أيام الأمر بأحكام الله درجة كبيرة من الضعف والانحلال ، وأخذت تسير بخطى حثيثة نحو نهايتها المحتومة ، فمن انقسامات مذهبية الى حروب داخلية • وبينما كان الصليبيون يؤسسون لأنفسهم مملكة في بيت المقدس وامارتين في الرها وأنطاكية ، ويحاصرون طرابلس تمهيدا لجعلها مركزا لامارة ثالثة ، كان الأفضل رجل مصر الأقوى مشغولا بحاربة النزارية والقضاء على أعدائه وأعداء المستعالية في الداخل ، بعد أن فشلت قواته التي أرسلها الى عسقلان مؤخرا في مواجهة الصليبيين •

ولو أن دعاة الأفضل وأنصاره في طرابلس لم يتدخلوا في استقاط فخر الملك لكان من الممكن أن تطول مقاومة المسلمين فيها ، ولكن تدخله عجل بالنهاية ، ذلك أن طرابلس أصبحت بعيدة عن جيوش الفاطميين ، وأصبح من العسير عليهم أن يدافعوا عنها ، فقبول الفاطميين لمهمة يعرفون مقدما عجزهم عن أدائها خطأ جسيم ارتكبوه ، ويعتبر نقطة سوداء في تاريخهم •

والى جانب الفاطميين ، أوجه تبعة سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين الى السلاجقة ، فعلى الرغم من مسير فخر الملك الى السلطان السلجوقي بنفسه ، مع علمه بالانقلاب الداخلى الذى قام به أبو المناقب وأهل طرابلس

لصالح الفاطميين على أثر خروجه منها ، وعلى الرغم من الهدايا الكثيرة التي حملها معه للسلطان محمد وللخليفة ، وعلى الرغم من تعهده للسلطان بنفقات الجند الذين يسرون معه لرفع الحصار الصليبي عنها ، فإن السلطان السلجوقي تقاعس عن نجدة ، بحجة اشتغال جيشه باخماد ثورة جاولي شقاوة بالموصل . ولذلك فالسلاجقة على الرغم من موافقهم المشرفة في بلاد الشام أمام الصليبيين لا يمكن اعفائهم من تبعة سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين .

ب - استهتار الفاطميين بالموقف في طرابلس :

لما تضافرت جهود الصليبيين لمحاصرة طرابلس من البر والبحر ، وتشددوا في الأحكام الخناق عليها ، لم يجد أهل طرابلس من البر والبحر ، يطلبون العون منه سوى سلطات القاهرة ، فتوجهوا اليها بصيحات الاستنجاد ، وأرسلوا رسلهم الى الأفضل يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والرجال والسلاح ، ولو أن الحكومة الفاطمية اتخذت وقتئذ اجراء سريعا خاسما لتموين طرابلس ونجدها لأمكن للمدينة أن تقاوم الصليبيين ، فأسوارها منيعة ، وأهلها يأتقون الاستسلام والهزيمة ، ويدافعون عنها في بسالة رائعة مدت أمد الحصار الصليبي الى سبع سنين كاملة . ولكن استهتار الأفضل بنجدة طرابلس ، وتلكأه في ارسال المؤن ، وجهل الخليفة الفاطمي بحالة طرابلس السيئة ، لصغر سنه ، واستبداد الأفضل بأمور الدولة ، كان من العوامل الرئيسية في سقوط المدينة . ونستنتج من نص

لابن الأثير اذ يقول : « وكان سبب تأخره (أى الأسطول) أنهم فرغوا منه ومن البحث عليه ، واختلفوا فيه أكثر من سنة ، وسار ، فردته الريح ، فتعذر عليهم الوصول الى طرابلس ليقضى الله أمرا كان مفعولا » (٤٦) نستنتج من ذلك النص أن الاجراءات الخاصة بجمع قطع الأسطول الذي أعده الأفضل لنجدة طرابلس من الموانئ المصرية استغرقت وقتا طويلا ، وأن خلافا نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته ، ودام هذا الخلاف ما يقرب من سنة ، وأن ريحا مضادة لسير الأسطول عرقلت سيره الى طرابلس وردته « (٤٧) » ، فوصل الأسطول بعد أن سقطت طرابلس ، وجبله كذلك ، في أيدي الصليبيين . ويشير ابن القلانسي الى هذا الأسطول عقب سقوط طرابلس بقوله : « ووصل عقيب ذلك الأسطول المصري ، ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ، ومراكب ، وعدد ، وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالعدة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله ، ووصل الى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها ، وأقام بالساحل مدة ، وفرقت الفلة في جهاتها ، وتسك به أهل صور وصيدا

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٥٩

(٤٧) ابن القلانسي ، ص ١٦٣ — ابن الجوزي ، ص ١٧ — أبو

الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣

وان كان أبو المحاسن يذكر أن أسطول مصر وصل الى مياه طرابلس « وصار كلنا سار نحو البلد رده الفرنج الى مصر » ، أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٩

وبيروت ، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الافرنج ، ولم يسكن
الأسطول المقام ، فأقلع عائدا عند استقامة الريح الى مصر » (٤٨) .

وهكذا كان تأخير مصر في ارسال الأسطول سببا في وصوله الى
ساحل صور بعد سقوط طرابلس بنحو ثمانية أيام وهو ان دل على شيء
فعلى مدى استهانة المسؤولين وقتئذ في مصر الفاطمية ، واستهتارهم
بالموقف ، وكان في امكان هذا الأسطول انقاذ صيدا من الحصار الصليبي ،
ولكن قادته بعد أن وزعوا الميرة في ساحل صور أسرعوا بالعودة الى
مصر » (٤٩) .

ويندد أبو المحاسن بعدم اكتراث الفاطيين بالفرنج ، ويصور هذه
اللائية في الدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : تقاعدهم عن المسير مدة
طويلة ، وضعف العسكر الذي أرسلوه مع الأسطول ، وعدم خروج
الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس . ويقول أبو المحاسن تعليقا على وصول
الأسطول الفاطمي متأخرا : « ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر
بالفرنج من كل وجه : الأول من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة ،
والثاني لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر
الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال ، والثالث
لم لا خرج الوزير لأفضل ابن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان

(٤٨) ابن القلانسي ص ١٦٤

(٤٩) نفس المرجع ص ١٧١

فعل والده بدر الجمالي في أوائل الأمر ، هذا مع قوتهم من المساكر
والأموال والأسلحة » (٥٠) .

وليس لدينا ما ندافع به عن الحكومة الفاطمية في مصر في تقاعسها
عن تلبية نداء أهل طرابلس في سرعة تتناسب مع الظروف القاسية التي
تعرضت لها طرابلس بسبب الحصار الصليبي ، وإذا كان ابن الفرات قد
أورد رواية تتضمن سخرية لاذعة لموقف الفاطميين من طرابلس (٥١) ،
وعلى الرغم من وضوح عامل الاختلاق في هذه الرواية ، فإنها تعبر عن
حقيقة لا شك فيها وهي استهتار الفاطميين بالخطر الصليبي ، وهو استهتار
ظهر منذ أن وطئت قوات الصليبيين أرض الشام .

ج - مساعدة الجنوية والمردة للصليبيين :

قدم الجنوية لريمند الصنجيلي ومن خلفه خدمات جلية لتأسيس

(٥٠) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٩
(٥١) يقول ابن الفرات : « وحكى أن السبب في أخذ طرابلس أنه
لما ضايقها الفرنج كتب من بها الى الديار المصرية يستنجدون خليفتهما ،
ويسألون الميرة ، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة ، فبينما
هم في ذلك ، اذا بمركب قد أقبل ، فما شكوا أن فيه نجدة ، فطلع منه
رسول وقال : قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة ، وأنها
تصلح للخدمة ، وقد أمر بارسالها اليه ، وأرسلوا اليه من حطب المشمش
ما يصنع منه عيدان للملاهي ، فعند ذلك أيسوا من نصره ، وضعفت قواهم
وخارت نفوسهم وذلوا وملكها الفرنج في التاريخ المذكور » ابن الفرات
ج ٨ ، ص ١٧٩

امارة طرابلس الصليبية ، ففي رجب سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤) وصل أسطول
چنوى فى البحر الى ظاهر اللاذقية مشحون بالتجار والأجناد والحجاج ،
يقوده هيو امبرياتشى ، واستعان بهم ريموند الصنجيلى فى محاصرة
طرابلس ، وبفضل هذا الأسطول تمكن من افتتاح ثغر جبيل فى هذه السنة،
وقد كافأ ريموند الجنوية على خدماتهم بأن أعطاهم الحق فى ثلث مدينة
جبيل ، وقد مهد ذلك التنازل من جانبه ، فيما بعد ، لأن تصبح جبيل
نفسها مستعمرة چنوية لها أهميتها ، تحت اشراف أسرة امبرياتشى «^{٥٢}» .

وفى أثناء قدوم برتران بن ريموند الصنجيلى الى طرابلس ، مر بچنوة
وأجرى مباحثات مع حكومة چنوة التى عرضت عليه مساعداتها البحرية
فى الاستيلاء على طرابلس وحصوله على تركة أبيه ، مقابل أن يقوم برتران
بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة فى طرابلس «^{٥٣}» . وقد لعب هذا
الأسطول الجنوى دورا هاما فى منع وصول الأسطول الفاطمى الى طرابلس
وبذلك ساهم فى احكام الحصار حول المدينة من البحر ، وقد طالب
الجنوية برتران بثمان خدمتهم ، وفقا للاتفاق الذى أبرم بينه وبين حكومة
چنوة فى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) ، فتقرر أن يمنح الجنويون ثلث طرابلس
مكافأة لهم على خدماتهم «^{٥٤}» ، كما أصبحت جبيل مستعمرة چنوية ،

(٥٢) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٥٩

(٥٣) نفس المرجع ، ص ٣٦٨

(٥٤) ابن القلائسى ص ١٦٣

ونجح أميرها هيوج امبرياتشيو في الحصول على حق الحكم الوراثي فيها من جنوة ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوة «٥٥» .

والى جانب الجنوية قدم المردة الموارنة بجبال طرابلس (جبل سير ، واهدن ، وصقع الضنية ، وبشرى ، وجييل) مساعداتهم للصليبيين في فتح طرابلس ، فقد أمدوهم بالميرة ، وساهم بعضهم في مقاتلة المسلمين . ويشير الشدياق الى مساعدة أمراء المردة لبلدوين في منازلة بيروت ومحاصرتها من البر والبحر في سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) «٥٦» . ولما حاول السلاجقة استنقاذ بعض المدن الاسلامية المحاصرة ، زحف المردة الى قتالهم عند شيزر سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) وأرغسوهم على النكوص الى العراق «٥٧» . ولاشك أن انضواء فئة من أهل البلاد الى الصليبيين ومساعدتهم لهم ماديا وأديا ، كان له أثره الكبير في التفوق الحربى الذى أحرزه الصليبيون ، خاصة وأن هؤلاء المردة كانوا يشتهرون بقدرتهم الفائقة فى الرمى على القوس الثقيل بالنشاب ، وسرى فيما بعد فى عصر المماليك كيف أن هؤلاء المردة سيقومون بدور خطير فى تأخير استرداد المسلمين لمدينة طرابلس .

(٥٥) سعيد عاشور ، ص ٣٧٣

(٥٦) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٤

(٥٧) الشدياق ، ج ١ ص ٢٥٠

د - استيلاء الصليبيين على المدن المحيطة بطرابلس :

أحدث سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين دويًا هائلًا في بلاد الشام، فقد انتهزت له مقاومة المسلمين في كثير من المدن الساحلية التي كانت منتعصية على الصليبيين ، فاستغل تنكريد فرصة الاضطراب الذي شل البلاد وقتئذ ، فنزل على ثغر جبلة ، وفيه فخر الملك بن عمار ، وحاصرها حصارًا شديدًا ، ثم دخله في ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ بعد أن بذل لأهله الأمان «^{٥٨}» . ونشط برتران من جهته ، فزحف بحشود الصليبيين إلى بلدة رمنية ، وحاصرها ، فخرج طفتكين للدفاع عنها : وفاوضهم في التخلي عنها ، فاشتروا أن يكون لهم الثلث من استغلال إقليم البقاع ، وأن يسلم إليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار ، وأن يقدم أهل مصياف وحصن الأكراد وحصن الطوفان مالا معينًا للصليبيين كل سنة «^{٥٩}» . وفي ٢١ شوال سنة ٥٠٣ هـ تمكن الصليبيون من دخول بيروت عنوة «^{٦٠}» . وفي سقوط بيروت يذكر ابن القلانسي أن الملك بغدوين (بلدوين) وابن صنجيل (برتران) نزلا على ثغر بيروت برا وبحرا ، وعاونهما جوسلين صاحب تل باشر ، وحاصروا بيروت ، وشرع الصليبيون في عمل البرج ونصبه على سور بيروت ، فلما أتموا صنعه زحفوا به ، ولكن أهل بيروت قذفوه بحجارة المجانيق ، فكسروه ، فشرع

(٥٨) ابن القلانسي ، ص ١٦٤ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩

(٥٩) ابن القلانسي ص ١٦٥

(٦٠) نفس المرجع ص ١٧١

الصليبيون في عمل غيره ، كما قام برتران بعمل برج آخر . وفي ذلك الوقت وصل من مصر أسطول قوامه ١٩ سفينة حربية ، وتغلب الأسطول المصرى على مراكب الفرنج ، واستولى على بعضها ، وبذلك تمكنوا من انقاذ أهل بيروت بالميرة والعدة ، فقويت نفوسهم على القتال ، وعندئذ أنقذ الملك بلدوين الى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية ، فقدم منهم عدد كبير فى ٤٠ سفينة ، فزحف الصليبيون برا وبحرا فى ٢١ من شوال سنة ٥٠٣ هـ ، ونصبوا على السور برجين ، واشتد القتال ، فقتل مقدم الأسطول المصرى وعدد كبير من المسلمين ، وأيقن المسلمون بالهزيمة ، وتمكن الصليبيون من دخولها عنوة «٦١» .

وذكر الشدياق أن الأمير شجاع الدولة هو الذى تولى الدفاع عن المدينة ، وإن الصليبيين قوبلوا بمقاومة شديدة فاضطر بلدوين الى الاستنجد بفرنج السواحل وأمراء المردة ، وبهذه النجادات شدد الفرنج الحصار عليها ، ففتحوها فى ٢٣ ابريل سنة ١١١٠ (٥٠٣ هـ) «٦٢» .

وبسقوط بيروت ، استأصل الصليبيون مراكز المقاومة حول طرابلس وبدأت طرابلس عهدا جديدا من تاريخها فى ظل الصليبيين .

(٦١) ابن القلائسى ص ١٦٨

(٦٢) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

الفصل الرابع

طرابلس كوتية صليبية

- (١) نشأة الكوتية وحدودها الجغرافية
- (٢) قمامصة طرابلس من البيت الطولوشى
- (٣) أمراء طرابلس من البيت النورمانى بأنطاكية
- (٤) علاقة كوتية طرابلس بالدول المسيحية المجاورة
 - أ - علاقة الكوتية بالدولة البيزنطية
 - ب - علاقة الكوتية بمملكة بيت المقدس
 - ج - علاقة الكوتية بامارة أنطاكية •
- (٥) نظم الحكم والحضارة فى كوتية طرابلس الصليبية
 - أ - الكونت وملكاته
 - ب - مقدمو الكوتية
 - ج - النظام الحربى
 - د - النظام المالى
 - هـ - الكنيسة
 - و - منظمات الرهبان العسكريين
 - ز - سكان طرابلس الأصليين
 - ح - الحياة الاقتصادية فى الكوتية
 - ط - الحياة العلمية •

الفصل الرابع

طرابلس كوتية صليبية

(١)

نشأة الكوتية وحدودها الجغرافية

أصبحت طرابلس مركزا لكوتية صليبية يحكمها البيت الطولوثي حتى سنة ١١٨٧ م ، ثم البيت البوهمندي بأنطاكية حتى سنة ١٢٨٧ ، ثم أصبحت بعد ذلك قومية مستقلة ، لم تلبث أن دخلت في حماية جنوة عامين الى أن تحررت أخيرا في سنة ١٢٨٩ م على أيدي المماليك . ويرتبط قيام كوتية طرابلس الصليبية بريموند الصنجيلي قومص (كونت) طولوشة، Raymond IV de Saint - Gilles, Comte de Toulouse الذي يرجع اليه الفضل الاعظم في تخطيط حدودها التي وصلت اليها الكوتية في عهد خلفائه ، وان كان يطمح في انشاء امارة كبرى غنية تكون شيزر الخصبة محورها ، واللاذقية حدها الغربي .

ولم تحظ كوتية طرابلس ، آخر الامارات اللاتينية التي تكونت في الشام في أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، بنصيبها من الدراسة الكاملة ، ذلك لأن مؤرخي الحركة الصليبية كانوا يعتبرونها عملا من أعمال مملكة بيت المقدس ، أو مجرد امارة صغيرة أقل شأنا من الامارات الثلاث الأخرى « ١ » . والواقع أن هذه الكوتية الصغيرة كانت ، على ضبالة

(١) Jean Richard, Le Comté de Tripoli sous la dynastie

Toulousaine, Paris, 1945, avant - propos, p. I

مساحتها ، تتسم بظابع خاص ميزها عن غيرها من الامارات الصليبية
فمؤسسها كان ينتمى الى أسرة پروقنسية بينما كان مؤسسو الامارات
الأخرى ينتمون اما الى شمال فرنسا أو الى ايطاليا النورماندية «٢» ، ثم
انها تتميز بموقعها الجغرافى الرائع ، فهي تشغل موقعا استراتيجيا هاما
من بلاد الشام ، أهلها للنهوض والبقاء ، بحيث تسيطر على كل من الطريق
الساحلى فى الشام ومنطقة وادى الأورنت بحاضرتة حصص ، وهى المنطقة
التي يطلق عليها الفرنجة اسم « لاشاميل » (أى الناقة) «٣» . ويضاف
الى ذلك أن جبال النصيرية (أو البهرة) فى الشمال ، وسلسلة جبال لبنان
فى الجنوب كانت تؤلف حدا طبيعيا يمنع اللاتين المقيمين غربا من غارات
حكام دمشق «٤» ، ويحمى الكوتية من الشرق ومن الشمال «٥» .

كانت كوتية طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى تمتد
على شريط ساحلى يزيد اتساعه فى الشمال عنه فى الجنوب ، ويقع بين
البحر وجبال لبنان . وتتميز الكوتية بوجود منفذ أو معبر يعرف بمنفذ
حصص يتجه من الغرب الى الشرق ، ويقع بين جبال لبنان المرتفعة وجبال
النصيرية التى ترتفع على مسافة قصيرة من الساحل الشرقى لحوض البحر
المتوسط ، ويربط هذا المنفذ المنطقة الساحلية بالجوف السورى عن طريق

Ibīd, (٢)

Steven Runciman, A history of the Crusades, vol. (٣)

II, Cambridge, 1952, p. 57

Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, (٤)

1907, p. 52 - Jacques Nantet, His. de Liban, Paris 1963, p. 60

Grousset, op cit, p 129 (٥)

وادي الأورنت • وتتألف منطقة الساحل من سهول ساحلية ضيقة على مصبات الأنهار ، وهي سهل مرقية في الشمال ، وسهل جيل في الجنوب «٦» • وإلى جانب هذه السهول الساحلية يمكننا إضافة سهل هام تكون بفضل رواسب النهر الكبير وروافده ، وفيه قامت مدينتا عرقة وأنطربطوس ؛ ولذلك فإن المناطق الخصبة الوحيدة في كوتية طرابلس الصليبية هي سهل النهر الكبير وخاصة القسم الأعلى من وادي البقيعة الواقع بين جبال النصيرية في الشمال وجبل عكار في الجنوب «٧» ، أما فيما عدا ذلك فمناطق فقيرة غير صالحة للزراعة ، لا تضمن إمداد الكوتية بالميرة والأقوات ، وهذا يفسر اعتماد كوتية طرابلس على الموارد الخارجية التي كانت تصل إليها من أوروبا أو من جزيرة قبرص ، كما يفسر أيضا ضرورة اعتماد الكوتية على التجارة كمصدر رئيسي لحياتها «٨» •

وجبال النصيرية سلسلة جبلية ينخفض ارتفاعها في القسم الجنوبي بحيث تصبح صالحة للعبور عن طريق ممرات تحميها بعض القلاع والحصون مثل قلعة صافيتا ، وحصن ابن الأحمر ، وحصن دي لوكاميل المعروف في المصادر العربية بـ حصن الأكمة •

وكانت الكوتية تشرف على شيزر والطريق الموصل بين حمص

(٦) J. Richard, op. cit. p. 1.

— فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٣٢

(٧) J. Richard, op. cit. p. 1, 2

(٨) Ibid p. 3

وحماة بواسطة قلاع الحصن الشرقي وبعرين ورفنية ، كما كانت تشرف في الشمال على الاسماعيلية الحشيشية عن طريق قلاع مرقية والقلعة والمرقب ، مما دعا هؤلاء الاسماعيلية الى انشاء امارة لهم حول قلاع لا ترام ، تعرف بقلاع الدعوة ، نخص بالذكر منها مصياف ، والقدموس ، والرصافة ، والكهف ، والخوابي «٩» . ولكن الاسماعيلية اضطروا الى الدخول في حماية الاستتارية ، نظير أن يدفعوا لهذه المنظمة جزية سنوية «١٠»

وكانت الحدود الشمالية لكوتية طرابلس تمتد بين مرقية والمرقب بحذاء نهر بانياس ، وكانت مدينتا رفنية وبعرين تقعان على الطرف الشمالي للمنفذ المؤدى الى سهل البقعة الذي كان يحميه حصن دى فوتين ، بينما كان حصن الأكراد ، الذي كان يعرف عند البروقنسيين في القرن الثاني عشر الميلادي باسم le Crat ، ثم حرف فيما بعد الى اسم Crac des Chevaliers فكان يقع عند الطرف الجنوبي لهذا المنفذ . ويتولى الدفاع عن هذه المنطقة من المنفذ حصنان هما حصن البقعة المعروف بأعناز وحصن فليزيوم ، بينما كانت تقوم خلفهما قلعتا العريمة «١١» وعرة «١٢»

(٩) Lammens, La Syrie; Précis historique. Beyrouth,

1921, p. 221

Ibid. p. 221 (١٠)

(١١) تقع العريمة على نهر الأبرش شمالى عرة

(١٢) عرة مدينة كانت تابعة لكوتية طرابلس ، استولى عليها الصليبيون في سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) وازدهرت في العصر الصليبي ، ويصفها الادريسي بأنها مدنة عامرة بالسكان ، مبنية على سفح أكمة وفيها حصن شامخ ، وتقع عرة على نهر سمي باسمها . ولقد آلت الى فرسان الاسسارية وأصبحت اقطاعا مستقلا (Nantet, op. cit p. 61)

وغيرهما من الحصون التي تؤلف الخط الدفاعي الثاني عن الكوتية «١٣». إلا أن القلاع المشرفة على الوديان العليا من الأنهار التي تصب في البحر المتوسط ، وسلسلة التحصينات الدفاعية عن الكوتية ما تلبث أن تقل إذا انحدرنا جنوبا من عكار ، فلا نميز منها سوى قلعتين هما : بشرى «١٤» والمنيطرة . ويلى ذلك الحدود الجنوبية للكوتية ، ويحدها نهر المعاملتين ، الذي يسر بجونية الواقعة شمالي بيروت . وإلى الشرق من سلسلة جبال لبنان المرتفعة يقع أخدود وادي الليطاني ومنابع نهر الأورنت ، وهو المنطقة المعروفة بإقليم البقاع ، ومركزه بعلبك ، حيث يصل المرء إلى جيل عن طريق المنيطرة ، وإلى طرابلس عن طريق بشرى ووادي نهر قاديشا . ويشق نهر الأورنت ، طريقه بصعوبة في قلب الهضاب الجيرية الواقعة إلى الشمال من سهل البقاع ، ثم يصل بعد مروره بحصن وحماة إلى منخفض آخر هو منخفض شيزر ، الذي يفصل بين جبل السناق وجبال النصيرية .

وعلى هذا النحو كانت حدود كوتية طرابلس بوجه عام تمتد من قلعة المرقب شمالا إلى جيل وجسر نهر المعاملتين جنوبا «١٥» ، ومن وادي الأورنت شرقا إلى الساحل غربا ، فهي تكاد تشغل كل القسم الشمالي من جمهورية لبنان في الوقت الحاضر ، بالإضافة إلى قسم من الجمهورية السورية .

J. Richard, p. 3 (١٣)

(١٤) بشرى بلدة تقع على ربوة بين سلسلة من الجبال المرتفعة وتشرف على وادي قاديشا ، وبجوارها غابة الأرز (راجع : حلیم أبو العز محافظة الشمال ، ص ٥٠)

Lammens, op. cit. p. 220 (١٥)

(٢)

قمامة طرابلس من البيت الطلوشى

١ - ريموند دى سان جيل :

ريموند الرابع كونت دى سان جيل الملقب فى المصادر العربية بصنجيل هو ابن بونز دى طولوشة والمودى دى لامارش ، وقد اقتسم ريموند مع أخيه وليم الرابع أملاك أبيهما بونز . ولما توفى وليم فى سنة ١٠٩٣ م ، آلت أملاكه الى ريموند ، وأهمها كونتية طولوشة والبيجوا وكاركاسيس . ولقد مكنته شجاعته وحماسة الدينى لخوض غمار الحرب المقدسة ، خاصة بعد أن اشترك فى سنة ١٠٨٥ م مع نصارى اسبانيا فى محاربة المسلمين فى الأندلس ، من أن يظهر سريعا كبطل من أبطال المسيحية ، ويزعم بعض المؤرخين أنه هو الذى حث البابا أوربان الثانى على تنظيم الحملة الصليبية الأولى ، وأنه ألح عليه لعقد مجلس دينى للدعوة اليها ، ولكن ثبت أن هذا الزعم لا يستند على أساس تاريخى سليم .

والواقع أن البابا بعد رحيله من پوى فى ١٥ أغسطس ١٠٩٥ زار ريموند فى سان جيل ، واتفق معه على أن يشترك فى هذه الحملة ، وأن ريموند تطوع للاشتراك فى الحملة الصليبية بعد انقضاء مؤتمر كليرمون فى ١٨ نوفمبر بأيام مما لا يدع مجالا للشك فى أن ريموند كان على علم سابق بهذه الخطوة قبل انعقاد المؤتمر بوقت كاف «١٦» .

(١٦) جوزيف نسيم ، الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، عدد ٢٦ ، الاسكندرية ١٩٦٣ ص ٢٠٢ - عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٩

غير أنه غلبت على محاسن ريموند صفات الزهو ، والترفع ، والطموح ، والحققد ، والعناد ، وهى صفات كان لها أعظم الأثر فى اخفاقه مستقبلًا فى تحقيق آماله «١٧» ، وعلى الرغم من تقواه ، فقد اتهم بالبخل والطموح ، كما كانت تسود رجاله البروقنسين روح المادة أكثر من روح الجهاد «١٨» .

ولقد رأينا كيف اشترك ريموند فى الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أقسم أن يرحل عن بلاده الى الأبد دون أن يعود اليها ، وأن يكرس حياته الباقية فى خدمة الحركة الصليبية . وكان قد عهد الى ابنه برتران (من زوجة غير شرعية) بشؤون بلاده ، ولكن ريموند سينجب ولدا آخر من زوجته الكوتيسة البيرة فى تلة الحجاج ، أثناء فترة حصاره لطرابلس ؛ هو الفونس جوردان .

ولم يتها لريموند أن يشهد فتح طرابلس التى ستصبح فى عهد خلفائه قاعدة الكوتية الطولوشية اذ توفى متأثرا بحروقة التى أصيب بها على أثر غارة قام بها بنو عمار فى ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ م «١٩» .

٢ - السردانى وليم جوردان ونزاعه مع برتران بن ريموند الصنجيلى :

كان الفونس جوردان ، المعروف فى المصادر العربية باسم الفنش ،

J. Richard, p. 4 (١٧)

Edward Gibbon, The history of the decline and fall (١٨)
of the Roman Empire, vol. VI, London, p. 280

Runciman, op. cit. p. 61 (١٩)

وقت وفاة أبيه صبيا ، الأمر الذي أدى الى اقصائه عن امارة كوتية طرابلس ، التي شرع أبوه في تكوينها ، بينما نجح وليم جوردان كونت دي سردانية ، وحفيد رنجارد خالة ريموند دي سان جيل في الظفر بها . وكان وليم قد وصل الى تلة الحجاج بعد وفاة ريموند مباشرة قادما من أوربا ، ويبدو أن الفرسان البروقنسيين انتهزوا فرصة وجوده بينهم لكي يختاروه كافلا أو وصيا على الفونس جوردان الطفل « ٢٠ » .

ولقد امتنع وليم جوردان السرداني عن التلقب بلقب الامارة ، وترك هذا اللقب لوريث من أعقاب ريموند المتوفى . غير أن بعض بارونات طولوشة أرسلوا يستقدمون الفونس جوردان ، عندما علموا بأنه الابن الشرعي لريموند ، ولم تزهّد الكونتيسة البيرة في أن يرث ابنها أملاك أبيه في جنوب فرنسا ، اذ آثرتها على السيادة الموقوثة في الشرق ، فرحلت معه الى طولوشة ، ويبدو أنها أبرمت مع برتران بن ريموند اتفاقا بمقتضاه يتنازل برتران عن حقه في حكم أراضى أبيه في أوربا لأخيه الفونس ، نظير أن يتنازل الفونس جوردان عن حقه في أملاك أبيه في المشرق « ٢١ » .

رحل برتران الى المشرق في صيف عام ١١٠٨ م في رفقة ولده بونز ، وقد عزم على أن يستكمل كوتيته المستقبلة بانتزاع مدينة طرابلس من أصحابها بنى عمار ، ولعله كان يتوقع بعض المتاعب من جانب السرداني وليم جوردان ، فاصطحب معه جيشا يتألف من أربعة آلاف من الخيالة

(٢٠) Richard p. 5 - Ibid p. 61

(٢١) Runciman, op. cit. p. 65

والرجالة ، تحملهم أربعون سفينة . وكان برتران يعلم تمام العلم بأن طرابلس التي تحاصرها قوات وليم جوردان لم تسقط بعد ، وأن الاستيلاء عليها يتطلب أسطولاً يحكم الحصار عليها من البحر حتى لا تصل اليها الميرة والأقوات من مصر . ولما كان المستعمرون الصليبيون مقاتلة برية لا رجال بحر ، فقد استلزم الأمر استخدام أسطول قوى لهذا الغرض « ٢٢ » ، وهذا يفسر نزول برتران في جنوة ، ونجاحه في أن يسبق وليم جوردان بعقد اتفاقية مع حكامها في هذا الشأن ، وبمقتضى هذه الاتفاقية يساعد الجنوية برتران في فتح طرابلس نظير امتيازات تجارية هامة يحصل عليها الجنوية في طرابلس . ولما أبحر برتران من جنوة متجها إلى الشام كان يصحبه أسطول جنوى ضخيم ذكر ابن القلانسي أنه يتألف من ستين مركبا مشحونة بالافرنج والجنويين « ٢٣ » ، وأرسى برتران في السويدية ميناء أنطاكية ، وطالب طنكري (تنكريد) بنصبيه في أنطاكية . ولكن طنكري

(٢٢) Ibid. p. 314

راجع فضل أساطيل البيازنة والجنوية والبنادقة في الاستيلاء على أنطوطوس سنة ١١٠٢ م في (Heyd, op. cit. p. 139 ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٥٥) وفي فتح حيفا في سنة ١١٠٠ (سعيد عاشور ، ج ١ ص ٢٧٦) وأرسوف سنة ١١٠١ (سعيد عاشور ، المرجع السابق ص ٢٩٢) وعكا في سنة ١١٠٤ (نفس المرجع ص ٣٠٢) ، وفي فتح جبيل في نفس السنة (Runciman, vol. II, p. 60 Stevenson, op. cit. p. 55) كذلك تمكن بلدوين الأول بفضل مساعدة أسطول بيزى وجنوى من الاستيلاء على بيروت في سنة ١١١٠ (Nantet, p. 58)

(٢٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٣

لم يجبه الى طلبه ، واضطر برتران الى الاقلاع جنوبا الى أنطرطوس *^{٢٤} التابعة لوليم جوردان ، وكان وليم جوردان قد نجح في الاستيلاء على عرقة وأضاف بهذا الفتح أملاكاً جديدة الى أملاك ريموند الصنجيلي ، ولم يعد في نيته أن يتنازل عنها لبرتران . فلما طالبه برتران بسيراث أييه ، لم يجبه الى طلبه بحجة أنه ورثها عن ريموند بالاضافة الى أنه دافع عنها وحفظها من الضياع ، بل أضاف اليها . غير أن قوة الأسطول الجنوي أخافته ، فأرسل الى طنكري يطلب منه أن يتدخل في جانبه نظير أن يصبح تابعا له ، وفي نفس الوقت أبدى بلدوين الأول ملك بيت المقدس استعداداه لنصرة برتران حتى يضمن بذلك تبعية برتران له ، وخرج بلدوين ملك بيت المقدس على رأس خمسمائة من خياله ^{٢٤} وعدد كبير من رجاله

(*) Runciman, vol. p. 66

(٢٤) Stevenson, op. cit. p. 57 - Runciman, op. cit. p. 68

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٧٠

وتشير المصادر العربية الى هذا النزاع ، فيذكر ابن القلانسي أنه وقع بين ريموند بن صنجيل (يقصد برتران) وبين السرداني ابن أنخت صنجيل (يقصد ولیم جوردان) مشاجرة ، « ووصل طنكري صاحب أنطاكية اليه لمعوقته للسرداني ، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره ، فأصلح بينهم » (راجع ابن القلانسي ، ص ١٦٣) . أما ابن الفرات ، فيذكر أنه « لما استولى السرداني على طرابلس تحكم فيها ، واستقل بملكها ، وبينما هو كذلك اذا بمركب قد وصل اليها وفيه صبي ادعى أنه ولد الملك صنجيل الفرنجي واسمه بتران ومعه مشايخ من أصحاب والده يخدمونه ويدبرون أمره ، فطلعوا الى السرداني وقالوا له : هذا ولد صنجيل وهو يريد تسليم مدينة والده التي فتحها عسكره ، فأنكر

لمساعدة برتران الذي كان قد شرع في حصار طرابلس • ولم يسع وليم جوردان إلا أن ينسحب من جبل الحجاج ، وأقام في انطربوس ، حيث التقى بطنكري وأخذ يستعنه على القتال في جانبه • وكان بلدوين قد وصل إلى طرابلس ، وأرسل رسلة إلى طنكري ووليم جوردان وإلى بلدوين دي بوج صاحب الرها ، وجوسلين صاحب قل بامر ، يدعوهم للقدوم إلى معسكره المنسوب أمام أسوار طرابلس ، وذلك لفض قضية ميراث ريموند « ٢٥ » ، وإتمام الصلح بين زعماء الفرنجة ، وتم اجتماع أمراء الفرنجة في الشرق خارج أسوار طرابلس في يونية سنة ١١٠٩ ، لتسوية النزاع • وتم الصلح بين المتخاصمين منهم ، واتفق الجميع على أن يقسم ميراث ريموند الصنجيلي بين وليم جوردان وبرتران على النحو التالي :

١ — يحتفظ وليم جوردان بأنطربوس ومدينة عرقة التي كان قد فتحها بقائم سيفه •

٢ — يحتفظ برتران بجبل وتلة الحجاج ، وبمدينة طرابلس بعد أن يتم فتحها •

٣ — تؤول أملاك أي من الطرفين إلى الآخر عند وفاته •

السرداني ذلك ، وقام ورفس الصبي وأخرجه ، فأخذه أصحابه ، وجعلوا يطوفون به على الفريسان ، فرحموه وتذكروا إيمانهم لأبيه ••• » (تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٩)

وتلقى الوسيطان مكافأتهما على هذا الحل ، فأصبح برتران تابعا لبلدوين الأول ، بينما أقسم وليم جوردان بين التبعية والولاء لطنكرى «٢٦» .

وما ان تم الصلح بين الطرفين المتخاصمين ، حتى تضامن الصليبيون جميعا في أحكام الحصار حول طرابلس من البر والبحر ، وانهى الأمر بتدمير جانب من أسوار طرابلس البرية ، وأرسل شرف الدرة ابن أبي الغلب ، والى طرابلس من قبل الفاطسيين في مصر ، الى المالك بلدوين يعرض عليه التسليم بشروط في ١٢ يوليو سنة ١١٠٩ «٢٧» على النحو الذى أوضحناه «٢٨» .

٣ - الكونت برتران بن ريموند الصنجيلى (١١٠٩ - ١١١٢ م) :

بعد أن تمكن الصليبيون من افتتاح طرابلس ، استقر بها برتران ، وتلقب بلقب « كونت طرابلس » وجدد ولاءه لملكة بيت المقدس ، وأصبحت تربطه بها علاقة وثيقة من التبعية ، ومنذ ذلك الحين ارتبط تاريخ كوتية طرابلس بتاريخ مملكة بيت المقدس مدة استغرقت نحو سبعين سنة «٢٩» .

(٢٦) Stevenson, op. cit. p. 57

(٢٧) Runciman, op. cit. p. 69

(٢٨) راجع ص ١١٩ من هذا الكتاب

(٢٩) Stevenson, p. 58

ويدل على تبعية برتران لبلدوين ما ذكره ابن القلانسي من أنه أفرد له من وسط طرابلس ماضى به (ابن القلانسي ، ص ١٦٣)

ولم تكذ طرابلس تستط في أيدي الفرنجة حتى طالب الجنوية بشن مساعدتهم التي قدموها لبرتران ، فمنحهم حيا في طرابلس يقارب ثلثها ، كما منحهم حصن يقع على بعد عشرة أميال جنوبي طرابلس ، بالإضافة الى ثلثي مدينة جيبيل الباقية ، فأصبحوا بذلك يمتلكونها كلها ، وسلم الجنوية هذه المدينة الى أمير البحر هيوغ امبرياتشيو ، فاتخذها اقطاعا له ولأعقابه يتوارثونه « ٢٠ » .

ولم يطل انتظار برتران ليسترد جميع أملاك أبيه في الشام ، ففي الوقت الذي كان جيش الفرنجة ما يزال معسكرا في طرابلس ، وقع حادث لم يكن في الحسبان ، فقد أصيب وليم جوردان بسهم أرداه قتيلا « ٢١ » ، فآلت أملاكه الى برتران وفقا لاتفاقية الصلح ، فضم برتران مدينة عرقة اليه ، وبالتالي أصبحت عرقة تابعة لبلدوين ملك بيت المقدس بعد أن كانت

(٣٠) لم تلبث أسرة امبرياتشيو الجنوية أن اصطفت بالصبغة الفرنسية ، ولقد أثرى أصحاب جيبيل ثراء فاحشا وانهوا في القرن الثالث عشر بأن أصبحوا يساوون في قوتهم أمراء أنطاكية وطرابلس ، فبعد أن تزوج جى الأول (١١٨٦ — ١٢٣٣) أختا لبوهمند الرابع ، تزوج هذا الأخير أخت جى . ثم ثار جى الثاني (١٢٧١ — ١٢٨٢) على بوهمند السابع وستكون هذه الثورة ختاماً لحكم أسرة امبرياتشيو لجيبيل

J. Richard, p. 74

(٣١) ما زالت ظروف اغتياله غامضة ، وإن كان من المتفق عليه أن مصرعه تم نتيجة مؤامرة اتهم برتران بتديرها (Richard p. 5)
الا أن ما ذكره ابن القلانسي في هذا الصدد يلقي بعض الضوء على هذه القضية ، فقد أشار ابن القلانسي الى أن وليم جوردان عاد الى عرقة « ووجد بعض الافرنج في زرعها ، فأراد ضربه ، فضربه الافرنجى فقتله » (ابن القلانسي ، ص ١٦٣)

نابعة لطنكري . ويلقى رنسمان على ذلك بقوله : « وهكذا قامر طنكري على الجواد الخاسر ، وحقق برتران أحلام أبيه في إقامة ملك له في الشرق » (٢٢) . أما أنظرطوس التي كان برتران يطالب بها ، فقد تمسك بها طنكري (٢٣) . وفي أثناء عودته ، هاجم بلنياس واستولى عليها كما استولى على جبله (٢٤) ، وجعل بذلك حدود امارته لصق حدود برتران (٢٥) . وفي نفس الوقت شن برتران هجوما على رمنية بقصد افتتاحها ، فأسرع ظهير الدين طغتكين بالدفاع عنها ، وخيم تجاه حصص ، واستعصت رمنية على برتران ، وترددت بينه وبين طغتكين الرسل ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن ينسحب برتران بقواته ، نظير حصوله على ١/٣ استغلال اقليم البقاع بالإضافة الى استيلائه على حصن المنيطرة الذي يسيطر على الطريق الموصل بين بعلبك وجبيل وكذلك حصن ابن عكا. الذي يشرف على الطريق الموصل بين عرقة وحصص ، وفي مقابل ذلك يتعهد برتران بأن يكف عن العيث في أراضي المسلمين ، وألا يهاجم حصن مصياف وحصن الطوفان وحصن الأكراد بشرط أن يقدم أهل هذه الحصون اليه عنها قدرا معينا من المال .

الا أن طنكري لم يلبث أن استولى على حصن الأكراد أثناء غارته على شيزر في ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ، ولكنه سيتخلى بعد ذلك عن هذا الحصن لبونز بن برتران (بنص) بحكم قرب هذا الحصن من كوتية

(٢٢) Runciman, p. 70

(٢٣) Stevenson, p. 58

(٢٤) ابن القلانسي ، ص ١٦٤ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٩

(٢٥) Runciman, p. 115

طرابلس ، وبسبب تحسن العلاقات بين أنطاكية وطرابلس في عهد بونز ، وسيظل حصن الأكراد تابعا لكوتية طرابلس الى أن يمنحه كونت طرابلس في سنة ١١٤٢ الى الفرسان الاسبتارية «٢٦» .

ولا شك أن طسوح برتران ورغبته في توسيع نطاق كوتيته ، وعدم اكتفائه بالقسم الساحلي منها يوضح لنا فيسا يظهر أن ريسوند الصنجيلي كان يهدف منذ البداية الى فتح الوادي الأعلى من نهر الأورنت ، بدليل أنه لم يتلقب هو وخليفته وليم جوردان بلقب كونت طرابلس ، أو كونت أنطربوس أو حتى بلقب سيد جبل الحجاج اكتفاء بلقب (رئيس الجيش المسيحي) ، وان كان وليم جوردان لقب نفسه بسيد لا شامل أي اقليم حصص . ويطلق وليم الصوري اسم لا شامل على الأراضي التي كان برتران يسعى لفسها ، ولكن يبدو أن استعصائها عليه كان نتيجة طبيعية لضعف قوته الحربية . وعلى هذا النحو ، فالفتح لم يكن قد تم بعد في عهد ريسوند الصنجيلي ووليم جوردان طالما كانت المدينتان الكبيرتان في الداخل حصص وحياة ما تزال في أيدي المسلمين ، وسنرى أن خلفاء برتران يسعون الى الاغارة عليهما مستقبلا «٢٧» .

٤ - الكونت بونز بن برتران (١١١٢ - ١١٣٧ م) :

توفي برتران في فبراير سنة ١١١٢ م (شعبان ٥٠٥ هـ) ، وخلفه ابنه

(٣٦) ابن القلانسي ، ص ١٦٥ — Nantet, op. cit. p. 62

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٧٦

(٢٧) J. Richard, p. 17, 18

الصغير بونز الذى يعرف فى المصادر العربية باسم بنص • لم ينهج بونز منهج أييه فى معاداة طنكرى ، ويسدو أن العلاقات بين أنطاكية وطرابلس قد تحسنت تحسنا ملموسا منذ أواخر أيام برتران ، بحيث قام الأوصياء على بونز بارساله الى أنطاكية ليتلقى فيها أصول الفروسية ويصبح فارسا «^{٣٨}» ، ولعل بونز كان يسعى الى خلق جو من التفاهم بين الامارتين ، بغية الافادة منه لمصلحته الخاصة ، اذ كان يتوق الى خلع ولائه لملكة بيت المقدس والتحرر من القيود التى تربطه بها ، ففى سنة ١١٢٢ ، حاول التنصل من تبعيته لبلدوين الثانى ولكنه لم يوفق ، واذا صدقنا ما ذكره ابن القلائسى فان طنكرى أقطعه انطرطوس وصافيثا ومرقية وحصن الأكراد «^{٣٩}» ، وبذلك اتسعت كوتية طرابلس فى عهده اتساعا لم تشهد من قبل ، ووصلت بذلك الى حدودها النهائية • ففى سنة ١١١٥م استولى بونز على قلعة رمنية التى تسيطر على مدخل البقيعة من جهة وادى نهر الأورلت ، وأغار فى العام التالى على سهل البقاع وأسس فيه قلعة بعين القائمة على السفوح الشرقية من جبال النصيرية لحماية مدخل البقيعة ، ثم عسكر بجيشه فى عين جار ، فلما هاجمته قوات دمشق تراجع الى طرابلس وتمكن طفتكين من استرداد رمنية «^{٤٠}» • ولم يشأ بونز أن يفقد حصن رمنية المنيع ، ففى ١١٢٦ دعا بلدوين الثانى لمساعدته فى التغلب عليها ، فلم يتردد بلدوين فى اجابته الى طلبه ، وتمكن الاثنان من دخولها قبل أن تهب جيوش دمشق

(٣٨) Runciman, p. 125, Note 1 — سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٧٧

(٣٩) ابن القلائسى ، ص ١٨١

(٤٠) Stevenson, p. 161 — سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٧٨

لا نقاذها، وكان سقوطها في أيدي الفرنجة حدثاً هاماً لأن ريفية حمت كوتية طرابلس، وضنت الاتصال بين بيت المقدس وأنطاكية «٤١». • ولا شك، أن نجاح بونز في الاستيلاء على قسم من البقاع ودخول حصن الطوفان كذلك في أملاك كوتية طرابلس أصبح يمثل خطراً يهدد أراضي حمص مباشرة «٤٢».

وإذا كان بونز قد أصاب نجاحاً كبيراً في النصف الأول من إمارته على طرابلس، فقد أصيب في النصف الثاني منها بهزائم على أيدي المسلمين، ففي سنة ١١٣٢ م (٥٢٧ هـ) قام عسكر التركمان بالانغارة على طرابلس وأعمالها، وتمكنوا من الظفر بغنائم كثيرة، وفشل بونز في مدافعتهم، فانهزم، وقتل معظم رجاله، واجأ مع قلة إلى حصن بعين، فتحصن فيه، وحاصره التركمان أياماً، غير أن بونز تمكن من التسلل من الحصن في عشرين من أصحابه «٤٣»، وهاجم ريفية، فانسح عسكر المسلمين إلى رفع الحصار عن بعين. ثم تكررت غارة التركمان على طرابلس في رجب سنة ٥٣١ (مارس ١١٣٧ م)، وانتهت هذه الغارة بمقتل بونز في ٤ رجب. وتفصيل ذلك أن جند دمشق والتركمان بقيادة الأمير شجاع الدولة بزواج مقدم عسكر دمشق، أغاروا على أراضي الكوتية، وقادهم جماعة من نصارى طرابلس الوطنيين عبر منافذ لبنان إلى السهل الساحلي، وفوجيء كونت بونز بالهجوم، فبادر بمدافعتهم،

(٤١) Runciman, p. 175

(٤٢) J. Richard, p. 18-19

(٤٣) ابن القلانسي، ص ٢٤٠ — أبو الفدا، ج ٥، ص ١٤

فخرج على رأس جيش هزيل ، واشتبك معهم في موقعة دارت بالقرب من قلعة صنجيل ، انتهت بهزيمة بونز هزيمة نكراء ، فر على أثرها الى الجبال ؛ ولكن عسكر المسلمين عثروا عليه وقتلوه «٤٤» ، وترتب على مقتله أن انتزع والى حماة حصن الخريبة من الصليبيين ، بينما نجح بزواج في انتزاع حصن ابن الأحمر (شاستل روج) «٤٥» .

٩ - الكونت ريموند الثاني بن بونز (١١٢٧ - ١١٥٢) :

كان لبونز ثلاثة أبناء : الأول ، ريموند الثاني ، الذي تزوج هوديرنا ، أنجب منها ولده ريموند الثالث وابنته ميلسند ؛ والثاني فيليب ؛ والثالث ابنته آيس التي تزوجها رينو الثاني صاحب المرقب ؛ وأنجبت منه برتران الثاني .

وعندما اختير ريموند الثاني خلفا لأبيه ، لم يكن يتجاوز من العمر اثنين وعشرين سنة ، وشرع عهده بالسعى للانتقام من نصارى طرابلس الذين تسببوا في قتل أبيه اذ دلوا المسلمين على موضعه ، فأغار على القرى الجبلية التي اتهم سكانها بمساعدة المسلمين ، وأذرع رجاله في قتل هؤلاء السكان وسبى النساء والأطفال منهم ، وبيعهم أرقاء في طرابلس «٤٦» .

(٤٤) ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٩ - Stevenson, p. 137

Runciman, p. 202

Richard, p. 20 (٤٥)

Runciman, p. 203 (٤٦)

وفي عهده زاد خطر غارات عماد الدين زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل وحلب على أراضى الكوتية ، ففي نفس العام الذى تولى فيه اماره طرابلس نازل عماد الدين زنكى مدينة حمص ، وكان يليها من قبل أتابك دمشق معين الدين أنر ، فأقام زنكى على حصارها بعض الوقت ، فلما استعصت عليه رحل عنها فى ٢٠ شوال ، وزحف الى حصن بعين أقوى قلاع كوتية طرابلس ، فحاصرها ، وضيق عليها الحصار ، فخرج ريموند الثانى وفولك دانجو ملك بيت المقدس (١١٣١ - ١١٤٤ م) «٤٧» على رأس قوات كثيفة من الصليبيين ، وزحف جيشاهما حول سفوح جبال النصيرية الى بعين لارغام زنكى على رفع الحصار عنها . واشتبك الفريقان فى موقعة عنيفة حدثت خارج بعين ، انتهت بهزيمة الفرنج هزيمة نكراء ، قتل فيها عدد كبير من كماء الفرنجة وأبطالهم ، ووقع ريموند الثانى أسيرا فى أيدي المسلمين بينما نجح فولك ملك بيت المقدس فى النجاة بنفسه ، وتحصن مع فرقة من جيشه فى داخل قلعة بعين «٤٨» ، ومن هناك أرسل الى صاحب الرها ، وأمير أنطاكية ، وبطريك بيت المقدس ، يسألهم أن يسرعوا لنجدة ، فلب الجميع نداءه ، وتجمعت حشودهم فى البقيعة . وفى هذه الأثناء كان فولك قد اشتد به الضيق

(٤٧) يسميه ابن الفرات فلك بن فلك (ابن الفرات ، ج ٨ ، ٧٩)

(٤٨) أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٨٧ - أبو الفدا ، ج ٥ ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٩ - Runciman, p. 203, 204 . ويجعل أبو شامة تاريخ هذه الواقعة فى

لطول أمد الحصار ، وانقطاع الأخبار الخارجية عنه ، فأرسل أخيرا الى زنكى يطلب منه الأمان ، فلم يشترط عليه زنكى سوى التخلي عن بعين ودفع خمسين ألف دينار . وتم الاتفاق على ذلك ، وأطلق المسلمون سراح فولك والأسرى جميعا ومن بينهم ريموند الثانى «٤٩» .

كانت هزيمة ريموند الثانى فى بعين درسا قاسيا لم ينسه حتى وفاته ، فعاد الى طرابلس ولزمها ولم يعمل بعد ذلك على مناوأة سلطان المسلمين ، على الرغم من قيام الصليبيين بحملتهم الثانية على أثر استرداد المسلمين لمدينة الرها فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤) بعد حصار دام ٢٨ يوما «٥٠» ، وعلى الرغم من قدوم فرسان الاستتارية الى طرابلس فى سنة ١١٤٢ ، واتخاذهم قلعتى حصن الأكراد ورفنية مركزا رئيسيا لهم للدفاع عن اقليم البقية «٥١» ، فلم يشترك ريموند الثانى فى حصار القرنجة لدمشق ، بل نراه يستحث نور الدين محمود بن زنكى على أن يستولى على حصن العريمة الذى يقع فى كوتيته . وتفسير هذا التحول الفجائى الى جانب المسلمين ، يرجع الى أنه قدم مع الحملة الصليبية الثانية التى تزعمها كونراد ملك ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، الأمير الفونس جوردان بن ريموند دى سان جيل كونت طولوشة ، قدم هذا الكونت

[Footnote ٤٩]

(٤٩) أبو الفدا ، المرجع السابق ص ٢٠ — ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٩

Runciman, p. 205

(٥٠) الروضتين، ج ١ قسم ١ ص ٩٤ — أبو الفدا ، ج ٥ ، ص ٢٥

Stevenson, p. 149

Stevenson, p. 147

(٥١)

على رأس جيش كامل ، وبصحبه ابنه برتران «^{٥٢}» . ونزل الفونس
جوردان في ميناء عكا بدلا من ميناء طرابلس الذي كان ينزل فيه معظم
فرنجة بروقنس . غير أن الفونس جوردان لم يلبث أن توفي في ظروف
غامضة في مدينة قيسارية بعد أيام من وصوله الى عكا ، وأشيع أنه مات
مسموما بإيعاز من ريسوند الثاني حتى يتخلص منه . فاشترك ابنه برتران
الثاني في الحصار الصليبي لدمشق ، وانتزع قلعة العريمة من ريسوند
الثاني صاحب طرابلس ، ثم سعى بعد ذلك للتغلب على كل كوتية طرابلس .
فلما أحس ريسوند الثاني بعجزه بسبب تخلى بعض أنصاره عنه ، وتسببهم
بذلك في استيلاء برتران على العريمة ، كتب الى نور الدين محمود بن زنكي
الذي خلف أباه الشهيد منذ ٦ ربيع الأول سنة ٥٤١ هـ (١٤ سبتمبر
١١٤٦ م) — وكان نور الدين مجتمعا في بعلبك مع معين الدين أنر والى
دمشق — يشير عليه « بقصد حصن العريمة وأخذه مسن فيه من
الفرنج » «^{٥٣}» . وتسكن نور الدين ومعين الدين أنر بفضل المعونة التي
قدمها لهما سيف الدين غازي صاحب الموصل من محاصرة العريمة وثقب

(٥٢) ترك الفونس جوردان كوتية طولوشة لابنه ريسوند الخامس،
ويغلب على الظن أنه كان في نيته أن يطالب من جديد بكوتية طرابلس ،
معتادا على مولده الشرعي الذي يجعل منه الوريث الحقيقي لكوتية
طرابلس ، ولعله فكر في السعي للظفر بهذه الكوتية ليقدمها لابنه برتران
الثاني (Richard, op. cit. p. 7)

(٥٣) ابن القلانسي ، ص ٣٠٠ — أبو شامة ، ص ١٤٢

أسوارها واقتحامها بعد ذلك • وقام المسلمون بتدمير الحصن وأسروا من كان فيه ، ومن جملتهم برتران نفسه وأمه ، وعاد نور الدين الى حلب ومعه أسيراه «٥٤» •

وتعرضت طرابلس في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) لغزوة بحرية قام بها الأسطول المصري على سواحل الشام ، حطم خلالها عددا كبيرا من سفن الفرنجة الراسية بالمينا «٥٥» •

وفي أواخر أيام ريموند الثاني (في سنة ١١٥٢ بالذات) حدث خلاف بينه وبين زوجته هوديرنا ابنة بلدوين الثاني ، واشتد النزاع بينهما الى حد قيام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢ م) بالتوسط بينهما لفض النزاع • فقدم بلدوين الثالث وأمه ميلسند أخت هوديرنا الى طرابلس • ولكن بلدوين أخفق في اصلاح الأمور بين الزوجين المتخاصمين ، فاضطرت هوديرنا الى الرحيل مع أختها الى نابلس ، بينما آثر بلدوين البقاء بعض الوقت في طرابلس ، عندما أشيع أن نور الدين يتأهب للهجوم على طرابلس «٥٦» • وبينما كان ريموند يتأهب لمواجهة

(٥٤) أبو شامة ، ص ١٤٣ — J. Richard, p. 6 - Stevenson, p. 164

(٥٥) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ — أبو شامة ، ص ٢٠٢

(٥٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٤٧

الهجوم النورى وثب عليه جماعة من الاسماعيلية الحشيشية ، فقتلوه وخلفه ابنه القاصر ريموند الثالث .

٦ - الكونت ريموند الثالث بن ريموند الثانى (١١٥٢ - ١١٨٧ م) :

كان لا يتجاوز من العمر احدى عشر سنة عند وفاة أبيه ، فوكل بلدوين الثالث أمر الوصاية عليه الى أمه (أى أم ريموند) هوديرنا «^{٥٧}» . وعلى الرغم من صغر سن ريموند الثالث ، فقد أثبت فيما بعد أنه من أعظم رجال السياسة فى الشرق اللاتينى ، وهيات له الظروف أن يرشح ملكا على مملكة بيت المقدس وذلك عندما اختير كافلا (وصيا) لبلدوين (١١٨٥ - ١١٨٦ م) ملك بيت المقدس فى ١٦ مارس سنة ١١٨٥ لمدة عشر سنوات . وقد أشار الرحالة ابن جبير الى أن ريموند الثالث كونت طرابلس وطبرية كان حاجبا للملك بلدوين المجذوم ، وأنه كان يتمتع بقدر ومنزلة عند الافرنج ، « وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر ، وكان أسيرا عند نور الدين نحو اثنتى عشرة سنة أو أزيد ثم تخلص بمال عظيم بذله فى نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعق » «^{٥٨}» .

(٥٧) Runciman, p. 333 - سعيد عاشور ، المرجع السابق ص ٦٤٨

(٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ص ٣٠٩
ولعل ذلك كان سببا فى أنه كان مواليا لصلاح الدين .

ولم يلبث بلدوين المجذوم أن توفي في صيف عام ١١٨٦ م ، فأعيد اختيار ريموند كافلا لسلطة بيت المقدس حتى يتم اختيار ملك جديد . ولكن اختياره لم يرض خصومه السياسيين الذين نادوا بجي دي لوزينيان زوج سييلا أخت بلدوين الرابع المجذوم ، باعتبار أن سييلا هي أقرب الورثة الى العرش . وما زال هؤلاء الخصوم «^{٥٩}» يكيّدون لريموند ، ويعملون على إحباط خطته في الوصول الى عرش بيت المقدس حتى أقصى عن الوصاية ، واختير جي دي لوزينيان ملكا على بيت المقدس في اغسطس سنة ١١٨٦ . وبذلك اشتدّ العداء بين ريموند وجي ، وزاد تقرب ريموند من صلاح الدين . ويذكر المؤرخون العرب أن القومص صاحب طرابلس « هادن السلطان ودخل في طاعته » «^{٦٠}» . وذكر أبو شامة في حوادث ٥٨٠ هـ أنه « رغب في مصافاة السلطان والالتجاء اليه والمساعدة له على أهل ملته » «^{٦١}» .

واضطر ريموند الى الانسحاب في اقطاعه بطبرية وهو حائق على جي ، وفكر الملك جي بدوره في محاربة ريموند ، ولكنه عدل عن ذلك

(٥٩) نخص بالذكر منهم : جيرار دي ريدفورد ، وجوسلين الثالث ، ورينو دي شاتيون ، وهيراقلوس بطريرك بيت المقدس .

(٦٠) أبو الفدا ، ج ٥ ص ٩٥

(٦١) Recueil des historiens des Croisades vol. IV, p. 207.

خوفا من وقوف صلاح الدين الى جانب ريموند «٦٢» . وكان السنون
التي قضاها ريموند الثالث في أسر نور الدين : وعدتها احدى عشرة سنة
(١١٦٣ - ١١٧٤ م / ٥٥٩ - ٥٧٠ هـ) «٦٣» قد صقلته ؛ وهيأته لتسكين
صلاته بالمسلمين ؛ وكان عسورى قد تولى الوصاية على كوتية طرابلس
أثناء هذه الفترة «٦٤» .

أما عن الأحداث الكبرى التي وقعت في عصره فأهمها الزلازل التي
دمرت طرابلس وغيرها من المدن الشامية في سنوات متتالية . ففي أوائل
سنى امارته تعرضت طرابلس وحصونها لزلزال حدث في ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م)
أدى الى تخريب كثير من أبنيتها وأبراجها «٦٥» . كذلك تعرضت طرابلس

(٦٢) العساذ الأصفهاني ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، نشره
الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٨ - Stevenson, p. 238
سميد عاشور ، ج ٢ ، ص ٧٩٦ .

(٦٣) ابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٩ - ابن جبير ص ٣٠٩ -
Runciman, p. 389 . ويجعلها ستيفنسن Stevenson, . تسع سنوات
(Stevenson, p. 213)

(٦٤) Runciman, p. 370

(٦٥) أبو شامة ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، مرآة الزمان ، ص ١٤٠
- النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٢٥ - Nicola Ziadeh, Urban life in
Syria under the early Mamluks, Beirut 1953, p. 61

لغارات كثيرة قام بها نور الدين محمود بن زنكى ، ففي سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) نزل نور الدين بالبقية ، بالقرب من حصن الأكراد ، وعسكر في هذه المنطقة استعدادا لمحصنة طرابلس ، ولكن هذه الغزوة لم تتم ، اذ قامت الحامية الصليبية بحصن الأكراد بالهجوم على المسلمين وردهم الى حصن « ٦٦ » . وفي سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) وقع ريموند أسيرا في أيدي عسكر نور الدين عندما افتتح نور الدين قلعة حارم في رمضان ٥٥٩ هـ « ٦٧ » . واستغل نور الدين مظاهر الفوضى والاضطراب في امارة طرابلس بعد وقوع أميرها في قبضته ، فأغار على كوتية طرابلس في ٥٦٢ هـ ١١٦٧ م ، وبدأ بمهاجمة مرج حصن الأكراد ، وحاصر عرقة وجبله وأخربهما ، وافتتح قلعتي العريمة وصافيتا « ٦٨ » . ثم أعاد الكرة في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) وافتتح حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من عسكره الى حصن صافيتا والعريمة ، فأخذها عنوة ، وتوغل في داخل كوتية طرابلس مدمرا ما كان يقابله من مراكز عمالية « ٦٩ » .

(٦٦) مزاة الزمان ص ١٥٠ — ابن العديم ، ج ٢ ص ٣١٣ — أبو شامة ، ص ٣١٨

(٦٧) أبو شامة ج ٢ ص ٣٣٩ — أبو الفدا ، ج ٥ ص ٥٧

(٦٨) أبو شامة ، ج ٢ ص ٣٧٤

(٦٩) Runciman, p. 395

ثم توفي ريموند الثالث في سنة ١١٨٧ عقب هزيمة الصليبيين على أيدي المسلمين في وقعة حطين ، دون أن ينبج من زوجته اشيف صاحبة طبرية . وذكر ابن شداد أنه توفي بذات الجنب «٧٠» ، وكان ريموند قد اتفق على أن يتولى أمر كوتية طرابلس الأمير ريموند الابن الأكبر لبوهمند الثالث صاحب أنطاكية ، على أن ترد الكوتية لأي سليل من البيت الطولوشى يطالب بها مستقبلا . ولكن بوهمند الثالث أبدل ابنه الأكبر ريموند بابنه الأصغر بوهمند الرابع ، الذي خلف ريموند الثالث على كوتية طرابلس «٧١» . وبذلك انتهى حكم البيت الطولوشى بنهاية عهد ريموند الثالث «٧٢» .

(٧٠) ابن شداد ، المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٧

(٧١) Claude Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche, Paris 1940, p. 427

(٧٢) Runciman, p. 469 , 470 - Stevenson, p. 298 - Richard, p. 8

(٣)

امراء طرابلس من البيت النورماندى بانطاكية

١ - بوهمند الرابع (١١٨٧ - ١٢٣٣ م)

في سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) وقع بوهمند الثالث أمير أنطاكية أسيرا في يد ليون العظيم ملك أرمينية ، واضطر بوهمند الى قبول الشروط التي فرضها عليه ليون في مقابل الافراج عنه ، وهي أن يتزوج ريسوند ، الابن الأكبر لبوهمند ، آليس ابنة أخت ليون ، وعلى هذا الأساس أطلق سراح بوهمند قبل سبتمبر سنة ١١٩٤ م «١» . وتم الاتفاق على أن يرث روبان من الأرمينية أباه في كل من أنطاكية وأرمينية ، ولكن بوهمند الرابع بن بوهمند الثالث الذي تولى الإمارة على كوتية طرابلس منذ سنة ١١٨٧ م عارض هذه الاتفاقية ، وطالب بحقه في إمارة أنطاكية «٢» ، غير أن أباه بوهمند الثالث جمع بارونات إمارته في أول سبتمبر سنة ١١٩٨ ، وأقسم بمينا بالاعتراف بريسوند روبان خلفا له «٣» ، وكان من الطبيعي أن يرفض بوهمند الرابع أمير طرابلس الاتفاقية التي أبرمها أبوه ، ففضي يبحث عن أنصار يعضدونه في قضيته . وبدأ بالبيازنة ، ونجح في كسب تأييدهم له ، ثم اتجه بعد ذلك الى فرسان الداوية ، فأبدوا استعدادا كبيرا لتأييده ضد ليون ملك أرمينية الذي كان قد انتزع منهم بغراس ،

(١) Claude Cahen, op. cit. p. 586

(٢) Stevenson, op cit. p. 298

(٣) Claude Cahen, p. 591

ولم يردّها لهم منذ سنة ١١٩١ • كذلك لم يزهد الاسبتارية في تأييده بعد أن سدد في منتصف عام ١١٩٨ بقية ديون ريموند الثالث لهم «^٤» • ونجح بوهمند الرابع بالاضافة الى أولئك المشايخين والمعضدين له في كسب نعضيد الملك الظاهر صاحب حلب •

وبعد أن استكمل بوهمند استعداداته لتأمين ظهره ، تمكن بفضل بعض أنصاره من دخول أنطاكية في أواخر عام ١١٩٨ م ، وجمع مجلس العموم الذي سحب ولاءه لبوهمند الثالث وأقسم يمين الولاء لبوهمند صاحب طرابلس كأمر لأنطاكية •

ومع ذلك فقد أخفقت المحاولة ، وتسكن ليون الأرمني من التخلص سريعا من الخطر الاسلامي ، كما نجح في عقد الصلح مع الاسبتارية الذين لم تكن تربطهم ببوهمند الرابع أى مصلحة خاصة ، ومع الداوية الذين وعدهم بتسوية عاجلة لمشكلة بغراس • وبعد أن أمضى بوهمند الرابع ما يقرب من ثلاثة أشهر في أنطاكية ، لم يحاول ان يقاوم الجيش الأرمني الافرنجى الذى سيره ليون لاعادة تنصيب بوهمند الثالث على دست اماره أنطاكية • ولكن الامور لم تجر على نحو ما اشتهاه ليون ، فان ماخره بوهمند حربيا استرجع قسما منه دبلوماسيا ، فان مغامرته في أنطاكية لم تفسد ما بين الأب وابنه ، ولم تؤد بالتالى الى توتر فى العلاقات بين أنطاكية وطرابلس ، ثم ان ليون لم يتخل عن بغراس للداوية حتى يضمن دخول قواته الى أنطاكية وقتما شاء عندما تثار مسألة وراثتها ، وأثار تمسكه

بها غضب أهل أنطاكية وكنيستها ، فأهل أنطاكية أنكفوا من وجود حامية أرمنية على أبواب امارتهم ، والكنيسة لم تطعن الى تجريد منظمة دينية من حق من حقوقها لمصالح أمير لا ديني ، وعلى هذا النحو أجمع بطريرك انطاكية وبوهمند الرابع ومجلس العموم بأنطاكية بالاضافة الى بوهمند الثالث الذي تضامن في هذه الأثناء مع المجلس المذكور ، على استنكار رفض ليون لمطالب الداوية ، وبعثوا احتجاجا على هذا الرفض الى البابا «*» .

ولما توفي بوهمند الثالث في طليعة سنة ١٢٠١ ، بادر ابنه بوهمند الرابع صاحب طرابلس الى احتلال أنطاكية ، حيث أعلن نفسه أميراً عليها ، وقام نزاع طويل الأمد بينه وبين روبان على امارة أنطاكية ، وتدخل ليون في هذه القضية لصالح روبان حريياً أكثر من مرة ، وحوصرت أنطاكية ، وتغير القائمون بأمرها مرات عديدة . وكان الداوية يعضدون بوهمند ، بينما كان فرسان الاسبتارية يناصرون ليون . وكان الظاهر غازي صاحب حلب حليفاً صادقاً لبوهمند الرابع ، وعدوا لدوداً للسلك الأرمني ليون الذي كان يغير على حلب ونواحي حارم «٦» . ولم تلبث العلاقات بين بوهمند الرابع وليون الأرمني أن تطورت الى صدام مسلح ، وحاول ليون الاستيلاء على أنطاكية عدة مرات دون أن ينجح في ذلك «٧» ،

(٥) Claude Cahen, p. 593 , 594

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٩

(٧) حاول ليون أن يستولى على أنطاكية في سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م)

(راجع ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٤٠ — Cahen, p. 602)

وفي سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) (ابن واصل ، نفس المرجع ، ص ١٥٤)

في الوقت الذي تعقدت الأمور في كوتية طرابلس نفسها تعقيدا ينذر بالخطر فيما بين عامي ١٢٠٤ ، ١٢٠٦ ، فلقد حدث أن البارون رينوار صاحب حصن أنفة (١١٩٦ - ١٢٠٦) تزوج ابنة بارون حصن عكار ووارثته الوحيدة دون أن يستأذن من مولاه بوهمند الرابع ، فشكاه بوهمند أمام مجلس بارونات طرابلس الذي اتخذ قراره بمصادرة اقطاعات رينوار في ١٢٠٣ - ١٢٠٤ . وشرع بوهمند في تنفيذ قرار المجلس ضد رينوار ، وسبب ذلك قيام حرب أهلية بين أنصار رينوار وعلى رأسهم عموري ملك بيت المقدس وجماعة من الاقطاعيين نخص بالذكر منهم راؤول صاحب طبرية ، وبين أنصار بوهمند ، وتسكن رينوار عدة مرات من الوصول بقواته الى نواحي طرابلس . وفي هذه الحرب فقد بوهمند احدي عينيهِ ، كما قتل هيوچ شقيق صهره جي صاحب جبيل . ولحسن حظ بوهمند توفي ملك بيت المقدس في ١٢٠٥ ، وتولى جان دي ايلن الوصاية على الملكة ، وكان جان خصما لرينوار . وأخيرا أسفر الصراع القائم بين بوهمند ورينوار عن وقوع رينوار أسيرا في أيدي أنصار بوهمند ، واستسلم حصن أنفة وحصن عكار لبوهمند ، في نهاية عام ١٢٠٥ م «^٨» .

وظلت اماره أنطاكية ميدانا للقتال بين ليون وبوهمند تبودل فيه النصر والهزيمة ، الى أن تمكن ليون في شوال ٦١٢ هـ (١٢١٦ م) من الاستيلاء على أنطاكية ، وتنصيب ابن أخته روبان على امارتها ، وعلى أثر

ذلك عاد الى بلاده «٩» . الا أن امارة أنطاكية لم تلبث أن عادت الى بوهمند الرابع بعد وفاة ليون في ١٢١٩ م ، فقد تأمر وليم فارابيل من اسرة بارونات بوى على ريموند روبان ، في أنطاكية ، ودعا بوهمند الى دخولها ، فلم يتردد بوهمند في الاسراع باحتلالها ، أما ريموند فقد تحصن بقلعتها ، ثم عهد بحياتها الى الاسبتارية وعاد هو الى قيليقيا «١٠» ، وعلى أثر ذلك تمكن بوهمند من انتزاع قلعة أنطاكية من الاسبتارية بقوة السلاح .

وهكذا ارتبطت أنطاكية بطرابلس في ظل بوهمند الرابع من ١٢١٩ حتى ١٢٣٣ ، وأصبح بوهمند الرابع بذلك أعظم أمراء الفرنجة شأنا .

ولقد ترتب على النزاع حول أنطاكية تضعف مركز الصليبيين في شبال الشام ، يضاف الى ذلك أن هذا النزاع كان عاملا من عوامل تفتيت قوى الصليبيين في الشام وانعدام أى تعاون صليبي مشترك ضد الامارات الاسلامية المجاورة . وليس أدل على الانقسامات الداخلية بين اللاتين في طرابلس من تعصب الاسبتارية للأرمن ضد الداوية ، ولذلك عمل بوهمند الرابع على الانتقام من الاسبتارية لمناصرتهم لخصمه ، فجردهم من جميع ممتلكاتهم في أنطاكية وطرابلس «١١» . وكان بوهمند قد وعد

(٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٣٣

(١٠) Claude Cahen, p. 631

(١١) Ibid p. 633 — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢

ص ٩٩١ . ولقد أمر بوهمند باعدام اخوين من الاسبتارية أحدهما سحر حيا .

الداوية بأن يهبهم مدينة جبلة حتى يغريهم بنصرته على الاستتارية ، ولذلك أيضا قام نزاع خطير بين المنظمتين لم تخف حدته الا في سنة ١٢٢١ ، ثم استؤنف النزاع بينهما فيما بعد . وكان طبيعيا أن يحدث رد فعل بابوي وشيك ، فقد امتنع البابا من الاعتراف لبوهمند بلقب الامارة ، وسبح للاستتارية بمقاومة أعماله التعسفية بحد السلاح في ديسمبر سنة ١٢٢٥ : بل أنه حرضهم في يناير سنة ١٢٢٨ على محاولة انتزاع أنطاكية من دائرة نفوذه «١٢» ، ومن المعروف أن فرسان الاستتارية قدموا الى امارة طرابلس في سنة ١١٤٢ م ، فمنحهم ريسوند الثاني صاحب طرابلس حصن الأكراد ورفنية للدفاع عن اقليم البقية «١٣» . وفي أثناء الفترة التي أسرف فيها ريموند الثالث ، توسع عموري منذ ١١٦٧ في منح الاستتارية والداوية القلاع والمدن بقصد أن يتولوا الدفاع عنها ، اذ وجد في هاتين المنظمتين وسيلة ناجعة تكفل له الدفاع عن الامارات الصليبية في الشام ، وبذلك بسط الداوية نفوذهم على أنطربوس ومعظم الأراضي الواقعة الى الشمال من كوتية طرابلس ، وفي نفس الوقت عهد الى الاستتارية بالدفاع عن سهل البقاع وحصن الأكراد . وكذلك فعل بوهمند الثالث صاحب أنطاكية ، اذ منح الداوية كثيرا من الحصون الشالية من امارته حول بفراس ، كما منح الاستتارية حصونا أخرى في الجنوب «١٤» ، وفي سنة ١١٦٩ عهد عموري الى الاستتارية بحماية حصن عكار وعرة «١٥» .

(١٢) Claude Cahen p. 634

(١٣) Stevenson, p. 147

(١٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٩٣

(١٥) نفس المرجع ص ٧١٤

ولقد تمتع الاستتارية باستقلال فعلى ، خاصة فى طرابلس ، فكان مقدم الاستتارية يشن الغارات على أراضى المسلمين ، ويعقد معهم الصلح كما لو كان أميرا مستقلا ، وكان لهذه الامتيازات أثرها العميق فى خلق جو من التوتر بين كوتتات طرابلس وهذه المنظمة «١٦» .

وبينما حرص بوهمند الرابع على ألا يقحم نفسه فى حروب مع جيرانه المسلمين ، كان فرسان الاستتارية بحصن الأكراد والمرقب وصافيثا يعيشون فى أراضى المسلمين ، وفى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أغار الاستتارية من حصن الأكراد والمرقب على عمل بعين ، فهزمهم المنصور صاحب حماة «١٧» ، وفى سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) أغاروا على حماة «١٨» ، وفى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) أغاروا على جبلة واللاذقية «١٩» ، كما أغار الاستتارية بحصن الأكراد على بعين وما حولها فى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) «٢٠» .

ومع أن فرسان الاستتارية فى إقليم طرابلس كانوا أنشط المنظمات الدينية فى محاربة المسلمين المجاورين لهم ، فى الوقت الذى قامت الحروب

(١٦) Stevenson, p. 300 - 301

(١٧) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٤٨ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٣٤

(١٨) نفس المرجع ، ص ١٦٢

(١٩) نفس المرجع ، ص ١٦٦

(٢٠) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠٢٤

الأهلية بين أمراء البيت الأيوبي في الشام ، وانصراف هؤلاء عن الجهاد المشترك ضد اللاتين بخلافاتهم الشخصية ، فلقد كان كل من منظمتي فرسان الاستتارية والداوية ، وهم ألد أعداء الاسلام ، في بعض الأحيان يحالفون المسلمين ضد الصليبيين بحكم الخصومات القائمة بينهم : فلقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاستتارية ومصر ، وكانت المعارك التي خاضها الفرسان المتخاصمون من أضرى المعارك «٢١» .

٢ - بوهمند الخامس (١٢٣٣ - ١٢٥١ م) :

لم يطل العهد ببوهمند الرابع ، اذ توفي في مارس سنة ١٢٣٣ م ، وخلفه ابنه بوهمند الخامس الذي جرى على نفس سياسة أبيه في مهادنة جيرانه المسلمين ، ونخص بالذكر منهم الملك العزيز الذي تولى ملك حلب بعد وفاة أبيه الملك الظاهر في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) . ففى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) توسط بوهمند الخامس بين الملك العزيز وبين الداوية وذلك عندما قام الداوية بتعمير بغراس التي كان قد خربها صلاح الدين . وعلى أثر تدخل بوهمند في القضية وتوسطه بين المسلمين والداوية رفع المسلمون الحصار عنها ، بعد أن أشرفوا على فتحها ، ثم رحلوا عنها «٢٢» .

(٢١) جون ل. لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، مقال في كتاب « دراسات اسلامية » ترجمة أنيس فريخه وآخرين ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٣٠

(٢٢) أبو الفداء ، ج ٦ ص ٦٠ - جون لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١٣١

٢ - بوهمند السادس (١٢٥١ - ١٢٧٥ م) :

كان عسره عندما خلف أباه على امارة أنطاكية - طرابلس لا يتجاوز ١٤ سنة ، ويتميز عهده بثلاثة أحداث كبرى هي : النزاع بين الجنوية والبنادقة ، وتعاون بوهمند مع المغول ضد المسلمين ، وسقوط أنطاكية المعقل الأمنع لامارته في أيدي المسلمين في ٦٦٧ هـ (١٢٦٨)

الحدث الاول (النزاع بين الجنوية والبنادقة) : أدى النزاع بين المستعمرات الايطالية في الامارات الصليبية ، ونعنى به المشاحنات بين الجنوية والبنادقة والبيازنة الى تفتت ما بقى من قوى الصليبيين في الشام . ولقد بدأت الاشتباكات الاولى بين المستعمرات الايطالية في عكا سنة ١٢٢٢ ، ثم تجددت بعد ذلك في سنة ١٢٤٣ ، وازدادت حدة في سنة ١٢٥٦ الى درجة قيام الجنوية في عكا باحتلال دير القديس سابا ، وتوغلهم في حى البنادقة ، واستيلائهم على سفن البنادقة الراسية في الميناء . ولم يلبث امراء الفرنجة في الشام أن زجوا بأنفسهم في هذا الصراع القائم ، مؤيدين فريقا على فريق ، فوقف فيليب دى مونتفورت أمير صور والاستبارية والقطلان الى جانب الجنوية ضد البنادقة ، وانضم اليهم امراء جييل الجنويون ، أما بوهمند فقد تعصب للبنادقة بسبب عدائه لبرتران الثانى أمير جييل والبترون ، وانضم البيازنة وفرسان الداوية والتيوتون والپروغنسيون الى جانب البنادقة . وبذلك تفتت قوى اللاتين أمام الدفع القوى لحركة الاسترداد الاسلامية بزعامة السلطان الملك الظاهر بيبرس . وامتد النزاع بين الجنوية والبنادقة الى طرابلس

وجبيل، وقام أمير جبيل بتحريض بارونات طرابلس على الثورة على بوهمند، وخرج بنفسه على رأسهم لمهاجمة طرابلس في ١٢٥٨ مستعيناً مستعينا بالاستتارية «٢٣» ؛ ويعلق استيغنس على ذلك بقوله : « بينما كانت نيران الحرب تحتدم برا وبحرا ، كانت الألوف تسقط ضحيتها ، وأسوار المدن اللاتينية تنهار على أيدي أولئك الذين كان ينبغي أن يتولوا تدعيمها وتقويمها » «٢٤» ؛ وظلت المعارك تدور بين الطرفين المتخاصمين الى أن عقد الصلح بينهما في عام ١٢٧٧ م .

الحدث الثانى (تعاون بوهمند السادس مع المغول) : كان للاتصارات المتواصلة التى أحرزها المغول بقيادة هولاكو بعد استيلائهم على بغداد ؛ وتقدمهم المذهل فى الشرق الأدنى الاسلامى دوى هائل فى العالم المسيحى، فرحت له أوربا النصرانية وهلت ، وأعتبر البابا وحكام أوربا الغربية المغول حلفاء لهم فى صراعهم المشترك ضد الاسلام ؛ لأن تحالفهم مع المغول يضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة «٢٥» ، على الرغم من أنهم كانوا على يقين بأن المغول كانوا يهددون أوربا المسيحية كما كانوا يهددون الاسلام «٢٦» : وكانت البابوية وحكام غرب آسيا (الأرمن) يسعون منذ أمد بعيد على تكوين حلف يضم المغول وحكام

(٢٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٠٥ — ١١١١

(٢٤) Stevenson, op. cit. p. 332

(٢٥) حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام بين المغول والتتار ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٣٠

(٢٦) مصطفى طه بدر ، مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، ص ٥

آسيا الغربية المسيحية وأوربا ، غايته سحق القوى الاسلامية في الشرق الأدنى « ٢٧ » ، وفي نفس الوقت لم يزهد خانات المغول في اعتناق المسيحية

(٢٧) كان لهيشوم الأول ملك أرمينية المسيحي أعظم الأثر في اقناع مانجوخان بضرورة توجيه حملة مغولية للقضاء على الاسلام ، فبعث أخاه الى بلاط مانجوخان في ١٢٤٧ م ، ثم سافر هو بنفسه للقاء مانجوخان في سنة ١٢٥٤ م . وكان مانجوخان يعطف على المسيحيين متأثرا في ذلك بزوجه المسيحية (فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٣٣) . وكذلك تحالف هولاكو مع ملك أرمينية والصليبيين لمواجهة كل من بركة خان المسلم وحليفه بيبرس ، مدفوعا في ذلك هو الآخر بتأثير زوجته المسيحية دوقوز خاتون ، التي عملت من جانبها على اجتذابه الى جانب المسيحيين .

وأقدم السفارات المتبادلة بين المغول وأوربا المسيحية وأشهرها ترجع الى منتصف القرن ١٣ م ، عندما أرسل البابا اينوسنت الرابع أثناء انعقاد مجلس ليون سفيرين من قبله الى كويوك خان في سنة ١٢٤٥ يدعو وشعبه لنصرة الكنيسة وتعضيد المسيحية ، هما : لورنزو البرتغالي ، وجيوثاني دي بلانو كارييني (Aziz Surial Atiya, The Crusade in the later Middle age, London, 1938 p. 238)

ويعتبر كويوك خان المذكور من أشد خامات المغول وطأة على المسلمين ، اذ ألقى زمام أموره الى وزيرين مسيحيين ، وامتلا بلاطه بالرهبان النصاري (حسن ابراهيم حسن ، ص ٣٢ — فؤاد الصياد ، ص ١٢٧) . كذلك أرسل جغتاي خان رسولين من قبله هما داود ومرقص من نساطرة الموصل سنة ١٢٤٨ الى الملك لويس التاسع يحملان اليه رسالة ، وذلك عندما وصل اليه خبر قيامه بحملته الصليبية الى الشرق بقصد شغل مصر عن انقاذ الشرق الأدنى الاسلامي (Aziz Surial op. cit. p. 242) باعتبار أن مصر هي القوة الوحيدة التي يسكنها الوقوف أمام أطماع المغول والصليبيين في الشرق الاسلامي (ابراهيم أحمد العدوي ، العرب والتتار ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٣ ،

وفي نفس الوقت لم يزهد خانات المغول في اعتناق المسيحية وفي محاربة
المسيحيين في أرمينية وفي أوروبا ضد المسلمين «^{٢٨}» ، وتآلفت جبهة تضم
المغول والأرمن والصليبيين غايتها القضاء على القوة الإسلامية . ولما كان
بوهمند السادس ، بعكس أبيه ، حليفاً وفيما لهيثوم والد زوجته ، فلم
يتردد في الانضمام الى الحلف المغولي الأرمني «^{٢٩}» ، واشترك هيثوم ملك
أرمينية في وضع الخطة المغولية الأرمينية لغزو بلاد الشام . ولم يكن
هيثوم في تحالفه مع المغول يعبر عن سياسته الشخصية
ووجهة نظره فحسب ، بل عن سياسة زوج ابنته
بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس ، الذي ارتبط مع صهره ارتباطاً
وثيقاً ، وعلى هذا النحو انساق بوهمند وراء صهره في الحملة المغولية
بقيادة هولأكو خان «^{٣٠}» ، ثم كيتبوغا القائد النسطوري الذي تسلم
القيادة المغولية في الشام بعد قفول هولأكو الى إيران . الا أن انضواء
بوهمند السادس في فلك المغول والأرمن أزعج أمراء الصليبيين وزعمائهم

ص ٧١ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠٠) . فرد لويس
التاسع على هذه السفارة بسفارة أخرى تتألف من أندري وجيوم
دي لونجومو ، وجان القرشوني في سنة ١٢٤٩ ، ثم أوقفها بسفارة أخرى
الى مانجوخان الذي خلف كويوك خان يسلها جيوم دي روبروك
وبارتلميو داكريمونا في سنة ١٢٥٢ وذلك بعد فشل حملته على دمياط ،
ولم تؤد هذه السفارة الى نتيجة (راجع : Aziz Surial p. 242 - 244)

(٢٨) Aziz Surial, op. cit. p. 2٣8

(٢٩) فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ١٩٣

(٣٠) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٢٣ - ١١٢٤

في جنوب الشام ، لانشغالهم في خصوماتهم الداخلية ، كما ان البنادقة رأوا في حركة المغول تهديدا لمصالحهم التجارية مع مصر المملوكية ، وقد يكون مصدر انزعاجهم راجعا الى عطف المغول الواضح على المسيحيين الشرقيين دون الغربيين ، بدليل أنهم طلبوا من بوهمند اعادة البطريك الأرثوذكسي ، الذي كان قد أقصى من أنطاكية «٣١» ، وعلى هذا النحو كان بارونات الصليبيين في الجنوب مترددين بين محالفة المغول أو الانضمام الى المصريين ، وفضل جوليان أمير صيدا ، وچان دي ايلين أمير بيروت بالاضافة الى أمير جبيل وفرسان الداوية وسكان عكا محالفة المصريين «٣٢» ، واشترك بعضهم فعلا في مهاجمة المغول «٣٣» ، اذ كان هؤلاء البارونات ينظرون الى المغول كبرابرة لا يسكن مقارقتهم بالمسلمين المتحضرين «٣٤» ، ولعل هذا الموقف الذي وقفه هؤلاء البارونات بالنسبة للمسلمين يفسر قيام المماليك بتدمير امانة أنطاكية التي تعاونت تعاوننا تاما مع المغول بعد انحسار الخطر المغولي عن الشام ومصر «٣٥» ، في حين قدر للمدن التي

(٣١) نفس المرجع ص ١١٢٩ — ١١٣٠

(٣٢) چون لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١٣٦

(٣٣) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١١٣٢ — راجع نص كتاب بيبرس الى بوهمند بعد فتح أنطاكية ، السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٩٦٦ — ٩٦٩ .

(٣٤) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٢٠١ — سعيد عاشور

ج ٢ ص ١١٣٢

(٣٥) في سنة ١٢٦٤ شخص هيثوم وبوهمند السادس الى بلاط

هولاكو لاستنفاذه ضد المسلمين (Claude Cahen, p. 711)

أيدت مصر المملوكية ضد المغول أن تعمر بعض الوقت «٣٦» . صحيح أن بيرس شن حربه ضد الصليبيين في الشام ، ولكنها لم تكن قط حربا دينية ، بل كانت حربا سياسية فرضتها سياسته التوسعية ، فانه لم يوجه حملاته على الصليبيين فحسب وانما وجهها أيضا الى الامارات الاسلامية التي احتك بها مثل بقايا الأيوبيين في سورية ، والحشاشين في لبنان ، والنوبيين في جنوب مصر . وما يدل أيضا على أن حروبه ضد اللاتين كانت مجرد حروب توسعية ، أنه كان حريصا على كسب صداقة ملوك النصرانية أمثال شارل دانجو ، وخايسى ملك أرغون ، والفونسو ملك قشتالة ، وميخائيل الثامن امبراطور القسطنطينية «٣٧» .

الحدث الثالث (سقوط انطاكية) : كان بوهند السادس من أعظم انصار المعون وذلك للصلة التي كانت ربطه ببنوم الأول ملك أرمينية ؛ يدل على ذلك اشتراكه في الحملة المغولية الأرمينية التي انتهت بالفشل في عين جالوت . وكان بيرس يرى في بوهند العدو الأعظم له من بين أمراء الفرنجة ، لأنه كان يتلقى النجدة من أوربا ، ويعين المغول على غزو الشام ، ويشن الغارات التخريبية في أراضي المسلمين «٣٨» ، وأنه استولى على البلاد المجاورة له بعد زوال الأيام الناصرية «٣٩» ، لذلك ركز بيرس

(٣٦) جون لامونت ، ص ١٣٦

(٣٧) جون لامونت ، ص ١٣٧

(٣٨) ميخائيل نجم خورى ، سيرة الملك السلطان الظاهر بيرس ٦٥٨-٦٧٦ ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بيروت الامريكية ، ١٩٦١ ، ص ١٩٧

(٣٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ، ملحوظة ٢

هجومه على بلاده ، و انتهى الأمر باستيلائه على أنطاكية في رمضان سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) ، ولم يستطع بوهمند الذي كان مقيما يومئذ بطرابلس أن يفعل شيئا أمام الكارثة . وكان سقوط أنطاكية أهم حدث وقع في الشام منذ أن استرد المسلمون الرها على يدى عماد الدين زنكى ، ومنذ انتصار صلاح الدين في حطين ، وكان سقوطها يعنى قرب نهاية الصليبيين .

ولم يطل العمر ببوهمند بعد سقوط أنطاكية ، ليشهد سقوط طرابلس . فقد توفى في رمضان سنة ٦٧٣ هـ (١١ مارس سنة ١٢٧٥ م) وخلفه ابنه القاصر بوهمند السابع .

٤ - بوهمند السابع (١٢٧٥ - ١٢٨٧ م) :

كان الأمير بوهمند السابع عند وفاة أبيه طفلا قاصرا ، ولذلك أصبحت كفاله موضع منافسة شديدة ، وشهدت طرابلس في عهده حربا أهلية وقف فيها أسقف أنطربوس موقفا مضادا من أسقف طرابلس ، كما وقف فيها الداوية وجاى الثانى أمير جيل ضد بوهمند السابع وأمه سبيل الأرمنية وأسقف أنطربوس «^{٤٠}» ، وتمكن بوهمند في سنة ١٢٨٢ من الاستيلاء على جيل والقضاء القبض على جاى (سيركى Sire Guy) «^{٤١}» . وكان خطر الاسترداد الاسلامى يقترب من طرابلس في تلك الفترة الحرجة

(٤٠) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١١٦٠

(٤١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٦ ، حاشية ٢ -

Stevenson, p. 348 . راجع محاولة جاى صاحب جيل مفاجأة طرابلس

ثلاث مرات في وثيقة رقم ٧ الواردة في : Michaud, Histoire des

Croisades, vol. 4, p. 650

التي تبعت وفاة بوهمند السادس ، وازداد ضغط يبيرس على طرابلس ، فاضطر بوهمند السابع الى مهادنة المسلمين ، فدفع جزية سنوية قدرها ٢٠ ألف دينار صورية لبيبرس في سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) نظير تجديد الصلح الذي كان معقودا بين والده بوهمند السادس وبين الظاهر يبيرس «٤٢» . وفي سنة ٦٨٠ هـ (يوليو ١٢٨٠ م) جددت الهدنة مع بوهمند السابع لمدة عشر سنوات .

وتوفي بوهمند السابع في خريف عام ١٢٨٧ ، وترتب على وفاته قيام قيام أزمة بشأن وراثة العرش ، فان بوهمند مات دون أن يعقب ، فطالبته أخته لوسيا بحقها في اماره طرابلس ، ولكن هذا الطلب قوبل بمعارضه شديدة من الحزب الذي يتزعمه الجنوية ويؤيده السلطان المنصور قلاوون «٤٣» فاستحكمت الفوضى في طرابلس ، خاصة بعد أن تدخل الجنوية في الصراع القائم أمام معارضة البنادقة والبيازنة ، وقامت الحرب بين الاستتارية والداوية ، وعندئذ أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومونية بطرابلس يرأسها بارتليو أمبرياتشو صاحب جبل وابن جاي (سيركي) . واشتد الصراع بين لوسيا وريثة بوهمند الشرعية وأنصارها الاستتارية وبين قومونية طرابلس يعصدها الجنوية «٤٤» ، وامتد أمد هذا الصراع الى أن قام السلطان قلاوون بالاستيلاء على طرابلس في سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) .

(٤٢) المقریزی ، السلوك ، ج ١ ص ٦١٩ — Stevenson, p. 345

(٤٣) ابن تغری بردی ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٠ حاشية رقم ٢ .

(٤٤) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١١٧٢

(٤)

علاقة كونتية طرابلس بالدول المسيحية المجاورة

أخذ موقف كونتية طرابلس ازاء جاراتها من الامارات الصليبية والدولة البيزنطية يتضح بجلاء في خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، ولكن هذا الموقف لم يلبث في القرن الثالث عشر أن تغير تغيرا جذريا على أثر اتحادها مع امارة أنطاكية ، وزوال مقومات كل من الامبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس . ونقتصر في هذا الموضوع على ذكر علاقات ثلاث من التبعية والولاء الاسمي كانت ترتبط بها كونتية طرابلس في آن واحد مع الامبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس وامارة أنطاكية . وعلى الرغم من هذا الارتباط بالتبعية ، فقد تمكن قمامصة طرابلس من تحقيق استقلال كامل لكونتيتهم «٤٥» .

١ - علاقة الكونتية بالدولة البيزنطية :

لم يتوان أباطرة بيزنطة عن المطالبة بحقهم في الاراضي الشامية التي كانوا قد استردوها في نهاية القرن الخامس الهجري ثم أطاح السلاجقة بنفوذهم فيها منذ عام ١٠٧٠ م «٤٦» ، ونعني بهذه الاراضي ، المدن

(٤٥) Jean Richard, op. cit. p. 26

(٤٦) سقطت بيت المقدس في أيدي السلاجقة في سنة ١٠٧٠ م وتبعتها

أنطاكية في سنة ١٠٨٤ م (راجع Vasiliev, Histoire de l'Empire byzantin

(trad du russe par Brodin. t. II, Paris, 1932, p. 25)

الساحلية المستدة من أنطاكية حتى مرقية . وهي مدن أصبحت تابعة لامارة أنطاكية الصليبية . أما الأراضي التابعة لكوتية طرابلس ، فلا تدخل في نطاق مطالب البيزنطيين ، إذ أن طرابلس ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، لم تشهق قوات بيزنطية داخل أسوارها ، على الرغم من جهود نقفور فوقاس (٩٦٧ - ٩٦٩ م) ، وحنا الأول زمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) ، وبسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) . فنقفور فوقاس نجح في الاستيلاء على حمص وحلب بصفة مؤقتة ، واستولى على أنطاكية وجبله وعرقه وأنطربوس واللاذقية في سنة ٩٦٨ م «٤٧» ، ولكنه أخفق أمام أسوار طرابلس . أما حنا الأول فقد استعاد حمص وجبله ، واحتل جبيل وبانياس في سنة ٩٧٥ ، واستعصت عليه مدينتا طرابلس وبيروت «٤٨» ، في حين استرجع بسيل الثاني حمص وأنطربوس في ٩٩٥ ، واستولى على حلب وشيزر «٤٩» ، ولكنه لم يتمكن من انتزاع طرابلس التي قاومت جيوشه في ٩٩٩ م على النحو الذي فصلناه . وعلى هذا الأساس لم يكن الامبراطور البيزنطي اليكسس كومنين يهدف من وراء الحملة الصليبية الأولى الا الى استرداد الأراضي التي كانت قد دخلت في فلك الامبراطورية قبل غزوات السلاجقة «٥٠» ،

Edward Foord, The Byzantine empire, London, 1911, (٤٧)

p. 271 - Oman. The Byzantine empire, London 1914, p. 231

Edward Foord, op. cit. p. 280 (٤٨)

Charles Diehl, Histoire de l'Empire byzantin, Paris, (٤٩)

1924, pp. 99 - 100

حسن جبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٥

Claude Cahen, la Syrie du Nord, p. 206 (٥٠)

وخاصة الأراضي التي أصبحت تؤلف امانة أنطاكية الصليبية ، وفي سبيل ذلك لم يتردد في بذل الأموال الطائلة على زعماء الحملة بقصد استئصالهم اليه لخدمة أغراضه السياسية ، واملاء ارادته عليهم بعد ذلك ، ولهذا السبب طالبهم بأن يقسموا له بين التبعية والولاء حتى يصبح في المستقبل القريب مهيمنا على فتوحاتهم في منطقة النفوذ البيزنطي القديم «^{٥١}» . وعلى هذا الأساس عقدت اتفاقية القسطنطينية في مايو سنة ١٠٩٧ م بينه وبين زعماء الحملة ، تعهدوا فيها برد الأقاليم التي كانت من ممتلكات البيزنطيين في الماضي ، وأقسموا للامبراطور بين الولاء والتبعية ، كما تعهد هو في مقابل ذلك بمساعدتهم والمحافظة على سلامتهم «^{٥٢}» .

وما كاد الصليبيون ينجحون في فتح أنطاكية في يونيو سنة ١٠٩٨ ، بفضل مساعدة جيش بيزنطي يقوده القائد التركي المرتد تاتيكوس ، وان كان قد انسحب قبل أن يفتتحها الصليبيون ، حتى وضع بوهمند يده عليها ، وتخلص من الحامية التي وضعها منافسه ريموند الصنجيلي في مقر الامارة وبرج الجسر ، وعزل البطريك البيزنطي ، ووضع مكانه بطريركا لاتينيا ، وحث بذلك بقسمه للامبراطور . ثم سعى بعد ذلك ، بفضل البياضة ، الى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين ، ونجح طنكري (ابن

(٥١) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٦

(٥٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٥ — حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، ط ١ ، ١٩٤٧ ، ص ٣٥ — جوزيف نسيم ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ ، ١٩٥

أخته) في ذلك في سنة ١١٠٢ ، أثناء أسر بوهمند . وعندما قامت الحرب بين اليكسيوس وبوهمند في سنة ١١٠٧ ، انهزم بوهمند هزيمة نكراء ، ووقع مع اليكسيوس معاهدة مهيئة له في سنة ١١٠٨ ، بسقتضاها أقسم بوهمند يمين الولاء للامبراطور ، واعترف بتبعيته له ، وتعهد ألا يشهر السلاح في وجهه مرة أخرى ، كما تعهد بإعادة اللاذقية الى الدولة البيزنطية ، وأن يتولى اماره أنطاكية كإقطاع من الامبراطور «^{٥٣}» .

وهكذا تمكن الامبراطور البيزنطي في ١١٠٨ من الظفر باللاذقية وجبله وبانياس ومرقية وأنطربوس وأرواد . ولكنه لم ينعم طويلا بذلك ، اذ رفض طنكري ، الذي خلف خاله بوهمند ، أن ينفذ بنود المعاهدة ، وعاد يطبق سياسة بوهمند العدائية نحو بيزنطة من جديد «^{٥٤}» . وقد دعا هذا الموقف الذي التزمته اماره أنطاكية نحو الامبراطورية البيزنطية الامبراطور الى اتخاذ موقف عدائي من هذه الامارة وامارة الرها كذلك ، ولم يتردد في عقد تحالف مع السلاجقة أعدائه القدامى ضد الصليبيين «^{٥٥}»

(٥٣) Charles Diehl, op. cit. p. 151 - Vasiliev, op. cit. t. II, p. 48 — Cahen, p. 252

(٥٤) Vasiliev, p. 48

(٥٥) أرسل اليكسيوس سفيرا من قبله الى بغداد في سنة ١١٠٤ م (١١١٠ م) لاستنفار الخليفة على محاربة الصليبيين ، وقد أشار ابن القلانسي الى هذه السفارة بقوله : « وفي جمادى الآخرة منها وصل رسول متملك الروم بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الافرنج والايقاع على طردهم من هذه الأعمال ، وترك التراخي في أمرهم ،

وكما فعل الامبراطور البيزنطي فعل الصليبيون ، اذ أقاموا مع الأتراك السلاجقة حلفا مائلا ضد بيزنطة «٥٦» . وفي نفس الوقت بصادق اليكسيوس مع ريموند الصنجيلي الذي كان قد رفض من قبل أن يقسم يمين الولاء له ، وأدى ريموند الصنجيلي ابان هذه المشاحنات التي قامت بشأن مسألة أنطاكية دور المدافع عن الحقوق البيزنطية على الشام الشمالي ، كما استجاب لرغبة الامبراطور بوضع اللاذقية ومرقية وبانياس بين يدي الامبراطور ، ولكنه اختص لنفسه بأنطربطوس . وفي نظير ذلك قام الامبراطور بعاونة ريموند في حصاره لطرابلس في سنة ١١٠٣ م «٥٧» .

ولم يكف ريموند عن الظهور بمظهر التابع المخلص للامبراطور ، وأوفى بقسمه له . ولما توفي ريموند قام خليفته وليم جوردان السرداني

واستعمال الجهد والاجتهاد في انفتك بهم قبل اعضاء خطبهم ، واستفحال شرهم ، ويقول انه منعهم من العبور الى بلاد المسلمين وحاربهم ، فان طمعوا فيها بحيث تواصل عساكرهم وامدادهم الى البلاد الاسلامية احتاج الى مداراتهم ، واطلاق عبورهم ومساعدتهم على مقاصدهم وأغراضهم للضرورات القائدة الى ذلك ، ويبالغ في الحث والتحريض على الاجتماع على حربهم وقلمهم من هذه الديار بالارتفاق عليهم « (ابن القلانسي ص ١٧٣ ، ١٧٤)

(٥٦) Vasiliev, pp. 45 - 46

(٥٧) اشترك في حصار طرابلس لصالح ريموند دوق قبرص البيزنطي كما ساعده القائد البيزنطي كانت كوزين بحرا وتمكن من انتزاع المروء وجبله والعليقة مما يدل على أن الامبراطور اعترف له .
أنطربطوس

بتجديد هذا القسم . أما برتران الأول الذي وصل باديء ذي بدء الى القسطنطينية ، بعد أن نهب رجاله بعض الأراضى التابعة للبيزنطيين ، فإنه لم يقسم له بين الولاء فى سنة ١١٠٩ على حد ما ذكره الير ديكس ، ولكن آنا كومنين ابنة اليكسيوس حددت تاريخ قسم بين الولاء فى عام ١١١٢ ، عندما قدم رسل بيزنطة يطلبون مساعدة برتران ضد طنكرى «^{٥٨}»

وعلى الرغم من تأخر برتران فى قسمه بين الولاء للامبراطور الى سنة ١١١٢ م ، فإنه كان قد تصرف قبل هذا التاريخ تصرفا يعبر عن ولاءه للامبراطور ، وذلك عندما رفض اقتراح طنكرى الاشتراك معه فى مهاجمة المصيصة التابعة للبيزنطيين لحساب طنكرى ، كى يرد اليه طنكرى نصيبه من أملاك أبيه فى أنطاكية «^{٥٩}» .

وبقدر العداء القائم بين برتران وطنكرى ازداد تقرب برتران من الامبراطور البيزنطى الى حد انه وعد فى سنة ١١١١ م بحمل بارونات الفرنجة على مخالفة الامبراطور أو على الأقل عدم نصرتهم لطنكرى ، كما أكد لبوطوميتس ، مبعوث الامبراطور البيزنطى ، الذى نزل بطرابلس وسلم اليه أموالا ضخمة بأنه سيحضر الى القسطنطينية ليقدم ولاءه للامبراطور «^{٦٠}» .

(٥٨) J. Richard, p. 28

(٥٩) Runciman, p. 66 - Claude Cahen, p. 245

(٦٠) J. Richard, p. 28

الا أن بونز الذي خلف أباه برتران على كوتية طرابلس ، والذي لم يكن يربطه بالامبراطور قسم بولاء أو تبعية ، لم يلبث أن امتنع عن رد الأموال التي كان قد أودعها بوطوميتس في طرابلس ، ولكنه اضطر الى ردها واعلان ولائه للامبراطور بعد أن هددته هذا الأخير بقطع القوات التي كان يبعثها الى الكوتية من قبرص «^{٦١}» .

واستمرت طرابلس موالية للامبراطورية البيزنطية في عهد ريموند الثاني الذي أقسم يمين الولاء للامبراطور چان كومنين في سنة ١١٣٧ «^{٦٢}» ، وعلى الرغم من أن قيام الامبراطور برفض خطوبته لميلسند أخت ريموند كان سببا في اغارة ريموند على سواحل قبرص «^{٦٣}» ، فان ذلك لم يضع حدا لاعتراف طرابلس بولائها للامبراطورية ، وتعاون البيزنطيون بقيادة قسطنطين كولومان «^{الدوك}» أي رئيس الروم ومقدمهم «^{٦٤}» مع ريموند الثالث صاحب طرابلس في سنة ١١٦٣ م في انزال الهزيمة بجيش نور الدين في البقيعة «^{٦٥}» ، كذلك اشترك دوق

(٦١) Claude Cahen, p. 255 - J. Richard, p. 29

(٦٢) Claude Cahen, p. 360

(٦٣) Ibid, p. 406

(٦٤) هكذا ورد اسمه في المصادر العربية ، وكان الدوك المذكور حاكما على اقليم قيليقيا

(٦٥) مرآة الزمان ، ص ١٥٠ - ابن العديم ، ج ٢ ص ٣١٣ -
الروضتين ج ١ ص ٣١٨ - أبو الفداء ، ج ٥ ص ٥٦ - Cahen, p. 408
حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٢٨٨

قيليقيا مع بوهمند الثالث وريموند الثالث كونت طرابلس في مقاتلة جيش نور الدين في حارم سنة ١١٦٤ ، وهي الموقعة التي انتصر فيها المسلمون ، ووقع في أسرهم بوهمند وريموند ودوق قيليقيا ، وتوروس ملك الأرمن «٦٦» .

وأخذ ولاء طرابلس للدولة البيزنطية يتخذ مظهرا شكليا ، خاصة بعد أن زار بوهمند الثالث القسطنطينية في ١١٦٥ م ، وعبر للامبراطور عن شكره على ما بذله من جهود في سبيل اطلاقه من الأسر «٦٧» ، كما طلب من الامبراطور أن يدفع عنه ما تبقى من فديته ، ثم عاد الى أنطاكية في صحبة بطريك بيزنطي «٦٨» ، وانتهى بذلك العداء بين أنطاكية والدولة البيزنطية في الوقت الذي انتهى بين طرابلس وأنطاكية .

ب - علاقة الكونتية بمملكة بيت المقدس :

كانت تبعية كونتية طرابلس لمملكة بيت المقدس الصليبية عملية أكثر منها نظرية ، فبينما كانت تبعيةها للدولة البيزنطية مجرد ذكرى باهتة

(٦٦) الروضتين ج ١ ص ٣٣٩ ومايليها - أبو الفداء ج ٥ ص ٥٧ -
حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٩ - حسين
مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٩٤

(٦٧) J. Richard, p. 29 - حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون،
ص ٩١

(٦٨) Claude Cahen, p. 412

لدعاوى ريموند دى سان جيل فى حكم الشام بتفويض من الامبراطور ،
فان تبعيتها لمملكة بيت المقدس كانت نابعة حقا من حاجة طرابلس الى سند
حربى يضمن لها تخفيف الضغط الذى كان يمارسه المسلمون عليها منذ
نشأتها «٦٩» . ولم تكن هذه العلاقة فى أيام ريموند الصنجيلى ينظر
اليها على أنها نوع من الولاء أو التبعية لمملكة بيت المقدس ، لأن ريموند
الذى كان مرشحا للظفر بتاج مملكة بيت المقدس كان لقوته وطموحه
وحنكته السياسية أكثر من ند للملك جودفروى ، بحيث أنه لم يقبل قط
يكون واقعا فى دائرة نفوذه «٧٠» . أما خلفاؤه من بعده فكانت تعوزهم
هذه الصفات . وجاءت اللحظة التى وجد فيها ملك بيت المقدس فرصته
للتدخل فى شؤون الكويتية ، وممارسة نوع من السيطرة عليها ابان النزاع
الذى قام بين برتران المطالب الشرعى بالكويتية وبين وليم چوردان الذى
خلف ريموند الصنجيلى فى القيام بشأنها . وبينما اعتمد وليم چوردان فى
هذا النزاع على مساعدة طنكرى المناهض لبرتران ، اضطر هذا الأخير
الى الاستعانة ببلدوين الأول ليقف الى جانبه ، ووعده فى مقابل ذلك
بأن يدخل فى دائرة نفوذه ، ويصبح مواليا له «٧١» . ولم يزهّد كل من
طنكرى وبلدوين فى التدخل ، اذ وجدا فى ذلك مجالا مهيئا للسيطرة على
امارة طرابلس . ولكن بلدوين كان يطمح فى أكثر من ذلك ، فقد كان
يعمل على أن يتوسط بين الفريقين المتخاصمين حتى يسكن نفوذه على كل

J. Richard. p. 30 (٦٩)

Ibid. p. 30 (٧٠)

Claude Cahen, p. 245 (٧١)

من امارتى أنطاكية وطرابلس فى آن واحد ، بل وامارة الرها كذلك ، وهو أمر كان يتطلع الى تحقيقه . وفى مارس سنة ١١٠٩ أمر بلدوين وليم چوردان وطنكرى بالحضور الى تلة الحجاج ، هذه الخطوة الجريئة من جانبه أكدت تفوق مملكة بيت المقدس على الامارات الصليبية الأخرى ، وتسكن الملك بفضل نفوذه الشخصى من تسوية المسائل المتعلقة بطرابلس والرها ، وقبل الطرفان المتنازعان : وليم چوردان وبرتران ، تقسيم الكوتية الى قسمين : قسم يشتمل على أنطربوس وعرقه يكون من نصيب وليم چوردان الذى أعلن ولاءه لطنكرى ، وقسم يضم جيل وتلة الحجاج تجاه طرابلس ، وطرابلس المحاصرة نفسها ، يكون من نصيب برتران الذى أقسم بين الولا والتبعية لبلدوين ، بعد أن تلقى منه تقليدا بامارتها «٧٢» . ولكن وفاة وليم چوردان المبكرة قضت على هذا الحل الذى وضعه بلدوين ، فقد أسرع لطنكرى بضم شمال الكوتية اليه ، وفى الوقت نفسه لم يتوان برتران عن ضم قسم من تركة وليم چوردان ، فبادر بالاستيلاء على عرقه ، وأصبحت كوتية طرابلس بحدودها التى وصلت اليها فيما بين عامى ١١٠٩ ، ١١١٢ م تتبع مملكة بيت المقدس تبعية اسمية ، باستثناء رابطة الولا النظرى للامبراطورية البيزنطية . هذه التبعية الاسمية لمملكة بيت المقدس كانت تقوم أساسا على مصلحة كونت طرابلس فى الاعتماد على سند قوى يكفل له مواجهة أطماع طنكرى ، وعلى هذا النحو نجد برتران بشارك مع قوات الملك بلدوين ، شأنه فى ذلك شأن أى بارون تابع لمملكة

بيت المقدس ، في حصار بيروت «٧٣» سنة ٥٠٣ هـ ، ونجده يشترك أيضا مع قوات الملك وقوات أنطاكية في الحملة الصليبية التي سيرها ملك بيت المقدس لانقاذ الرها من هجوم عسكر التركمان والسلاجقة في ١٢ شوال سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) «٧٤» . ويذكر ابن القلانسي أن بلدوين كتب الى برتران في سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) يطلب منه الوصول اليه في عسكره ليجتمع معه في طبرية «٧٥» . وفي سنة ٥٠٥ هـ اجتمع برتران وطنكري وبلدوين يدا واحدة على المسلمين في شيزر «٧٦» .

وظلت تبعية كوتية طرابلس لمملكة بيت المقدس قائمة عمليا في عهد برتران حتى وفاته ، وذلك بسبب استمرار العداء بينه وبين طنكري ، ولكنها بدأت تتزعزع في عهد بونز ، لأنه أصبح مرتبطا بأمير أنطاكية برابطة الود والمواذعة ، ولم يعد في حاجة الى سند ملكي «٧٧» لتدعيم نفوذه ، وأصبح اشتراك كوتية طرابلس في الحملات الملكية يتم في فتور ، لأن الكونت بونز أصبح يؤديه كنوع من الواجب البغيض ؛ نفى ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) و ٥١٣ هـ (١١١٩ م) أرسل بونز عسكره للدفاع عن أنطاكية ،

Runciman, vol. II, p. 92

(٧٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ —

Claude Cahen, p. 255

(٧٤) ابن القلانسي ، ص ١٦٩ —

(٧٥) نفس المصدر ص ١٧٤

(٧٦) نفس المصدر ، ص ١٧٧

(٧٧) J. Richard, p. 32

١٠ تجراً في سنة ١١٢٢ على خلع ولائه لبلدوين الثاني ، ولكن مجلس
بلاطه الأعلى أرغمه على الخضوع له «^{٧٨}» . وفي ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) خرج
بونز ، استجابة لطلب فرسان مملكة بيت المقدس ، للاشتراك في حصار
صور «^{٧٩}» . وحدث في سنة ١١٣١ أن اتفق جوسلين الثاني صاحب الرها ،
وبونز صاحب طرابلس ووليم صاحب حصن صهيون من حصون أنطاكية
على حماية الأميرة آليس ، أرملة بوهمند التي كانت تحكم أنطاكية باسم
ابنتها كونستانس ، من فولك ملك بيت المقدس ، ولكن بارونات أنطاكية
كتبوا الى فولك يستقدمونه ، فأسرع فولك بالسير ، ولكن بونز رفض
السماح له بالمرور في أراضي كوتية طرابلس «^{٨٠}» ، فلم يحاول فولك أن
يمر بالقوة ، وآثر الركوب بحرا ، واشتبك مع بونز في معركة بالقرب من
حصن ابن أحمر ، وفيها سلك بونز مسلك بارون أنطاكي أكثر من كونه
قومصا لطرابلس ، بينما تصرف فولك كوصي على إمارة أنطاكية . وانهى
الأمر بهزيمة بونز ووليم الصهيوني ، وأرغمهما فولك على عقد الصلح ،
ولكنه لم يوقع عليهما أى عقوبة «^{٨١}» . ومع ذلك كله فقد استنجد بونز في
العام التالي ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) بفولك عندما أغار التركمان على معاقله
بطرابلس وهزموه بالقرب من بعين ، فلبى الملك نداءه «^{٨٢}» .

Runciman, vol. II, p. 305 - Ibid. p. 32 (٧٨)

Ibid p, 34 (٧٩)

Runciman p. 350 (٨٠)

Claude Cahen p. 350 - J. Richard p. 32 (٨١)

(٨٢) ابن القلانسي ، ص ٢٤٠

وإذا بحثنا في مدى تبعية طرابلس في ظل امارة أسرة طولوشة لمملكة بيت المقدس ، وجدنا أنها تبعية اسمية وعملية في نفس الوقت ، فالكونت كان قرينا للملك وندا له على الرغم من تصرفه تصرف التابع للسيد ، وإذا كان الملك يقوم أحيانا بدور الكافل للكوتية في حالة موت أحد القمامصة أو وقوعه في أسر المسلمين ، كما حدث عندما قتل ريموند الثاني في سنة ١١٥٢ م ، وكما حدث عندما وقع ريموند الثالث في أسر نور الدين محمود بن زنكي في سنة ١١٦٣ ، فهل كان يفعل ذلك بدافع من واجبه كملك صليبي ، له حق الاشراف على جميع أمراء الفرنجة ، أو كصاحب اقطاع يهيمن على اقطاعاته ؟ والواقع أن كفالة الملك لكوتية طرابلس لا يمكن تفسيرها على أنها علاقات اقطاعية بين بيت المقدس وطرابلس ، فلم يكن بلدوين الأول على حد قول الأستاذ جان ريشارد « يمارس هذه الكفالة في الوقت الذي كان بونز قاصرا . وإذا كان عموري الأول قد تصرف ككافل للكوتية في فترة وقوع ريموند الثالث أسيرا في أيدي المسلمين فانما فعل ذلك بلا شك لأن ريموند الثاني كان متزوجا من هوديرنا ابنة الملك بلدوين الثاني ، وعلى هذا النحو توثقت الروابط الأسرية التي جعلت الملك أقرب الأقربين الى الكونت ، والتي دعت الملكة ميلسند تتدخل في صالح هوديرنا في سنة ١١٥٢ . ونفس هذا السبب (ونعني به توثق الروابط الأسرية) هو الذي يفسر لنا ممارسة ريموند الثالث للصاية على مملكة بيت المقدس مرتين في عهد بلدوين الرابع وبلدوين الخامس . هذه العلاقات الأسرية هي التي لعبت دورها في المساعدة

الحرية التي كان يقدمها الملك للكونت ، وكما يذكر وليم الصوري رضى الملك فولك بفضل توصلات أخته (زوجة بونز) أن ينجذ بونز المحاصر في بعيرين • وبالإضافة الى عامل الصلات الأسرية يمكننا أن نضيف عامل التضامن المسيحى بين الصليبيين ، وهو عامل كان يدفع الملك الى اغائة أمراء الفرنجة » « ٨٣ » •

وعلى هذا النحو يمكن اعتبار تبعية طرابلس لملكة بيت المقدس تبعية فعلية ولكنها محدودة ، وهى فى نفس الوقت تبعية رمزية تعبر عن وحدة الصليبيين وتضامنهم تحت رئاسة الملك • وعلى هذا الأساس كانت كوتية طرابلس امارة شبه مستقلة باستثناء ولاء شكلى كان يحقق التضامن والتكافل بين الفرنجة « ٨٤ » •

ج - علاقة الكونتية بامارة انطاكية :

لم تكن العلاقات الأولى بين أسرة سان جيل وبين بوهمند وطنكرى علاقات ودية ، فان ريموند الصنجيلى وبوهمند لم يكفيا عن التنازع والاختلاف منذ أن عبر بوهمند عن مطامعه فى أنطاكية ، وأدى ذلك بطبيعة الحال الى تحول ريموند الذى كان يتزعم الحزب المعارض لاليكسيوس الى حليف له يناصره على بوهمند ، خصمهما المشترك • فأقام فى اللاذقية

(٨٣) J. Richard p. 33 - 34

(٨٤) Ibid p. 37 - 38

كممثل لأليكسيوس ، وسلم اليه اللاذقية وبلنياس ومرقية . ولا شك أن هذا التصرف من جانب ريموند كان يشكل تهديدا خطيرا لامارة أنطاكية التي حرمت من اللاذقية ، مينائها الأعظم ، وانقطع اتصالها بحرا الا عن طريق السويدية ، وهي ميناء صغيرة لا تصلح لأن تكون مرفئا لهذه الامارة . ثم ازداد النزاع حدة عندما حاول بوهمند بعاونة البيازنة اتزاع اللاذقية من حوزة البيزنطيين «^{٨٥}» . واذا كان الأسقف دايبرت قد نجح في التوفيق بين بوهمند وريموند ، الا أن بقاء ريموند في اللاذقية ظل عبئا ثقيلا على كاهل بوهمند ، الذي وجد نفسه في يناير سنة ١١٠٠ محروما من الأقوات «^{٨٦}» ولم يهدأ النزاع النرمانى البروقسى في الفترة التي رحل فيها ريموند الى القسطنطينية ، ووقع خلالها بوهمند أسيرا في أيدي المسلمين (١١٠٠ - ١١٠٢) ، فقد قام طنكرى الذى خلف بوهمند في اماره أنطاكية بعد وقوعه في الأسر ، بالاستيلاء على اللاذقية في شتاء سنة ١١٠٢ - ١١٠٣ ، وذلك بفضل معونة الجنوية «^{٨٧}» .

ثم انتهى النزاع النرمانى البروقسى بعد عودة ريموند من القسطنطينية ، فعند نزوله في السويدية وقع في قبضة طنكرى ، الذى أمر بحبسه في قصر سيليسيا ، ولم يفرج عنه الا بعد أن أقسم ريموند يمينا

(٨٥) Cahen, op. cit. p. 223

جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٢١

(٨٦) J. Richard, p. 38 , 39

(٨٧) Cahen, p. 233

بعدم القيام بأي معامرة في شـب الشام . ومنذ ذلك الحين توقف ريموند
عن التدخل في شئون أنطاكية «^{٨٨}» .

ولكن النزاع بين طنكري وآل صنجيل لم يلبث أن تجدد بعد وصول
برتران بن ريموند الصنجيلي الى الشام ، ونزوله في السويدية في عسكر
من البيزنطيين ، ومطالبته بنصيب أبيه في أنطاكية . وأبدى طنكري استعدادة
لرد أملاك أبيه اليه ، ولكنه اشترط عليه في مقابل ذلك أن يساعده في
اتزاع المصيصة من الدولة البيزنطية . وكان من الطبيعي أن يرفض برتران
بحكم العهد الذي قطعه على نفسه نحو الامبراطور ، وعندئذ لم يجد
طنكري بدا من طرده من أنطاكية . ثم اشتد النزاع بين الطرفين عندما
أيد طنكري ولیم چوردان في مشكلة مطالبة برتران بحقوقه في امارة
طرابلس ، وتدخل بلدوين ملك بيت المقدس لصالح برتران ، ثم سويت
المشكلة تسوية وقتية عندما ارتضى الطرفان تحكيم بلدوين الذي قضى
بأن تكون عرقة وأنطوطوس لولیم چوردان . وما كاد ولیم چوردان يموت
حتى بادر برتران بضم عرقة ، في حين قنع طنكري بالاستيلاء على
أنطوطوس التي أقطعها لولیم دی برشييه «^{٨٩}» . ولم يسع العداء القائم
بينهما برتران من أن ينضم الى حشود الملك بلدوين وطنكري ، والتعاهد

(٨٨) J. Richard, p. 39

(٨٩) Claude Cahen, p. 246 - J. Richard, p. 39

والتعاقد على الثبات أمام الرها في ذي القعدة سنة ٥٠٣ «^{٩٠}» ، والوقوف
وقفة واحدة في سنة ٥٠٤ في شيزر أمام المسلمين «^{٩١}» .

وهكذا قضى هذا التعاون المشترك والتضامن بين قوى الصليبيين
على « التباين والمنافرة والخلف » القائمة بينهم ، وكان ذلك مقدمة طيبة
لزواله نهائيا في بداية عهد بونز . ويعبر ابن القلانسي عن ذلك بقوله :
« وفي الثاني من شعبان (سنة ٥٠٥ هـ) ورد الخبر بهلاك بدران بن صنجيل
(يقصد برتران) صاحب طرابلس بعلة لحقته ، وأقام ابنه في الأمر من
بعده وهو طفل صغير كفله أصحابه ، ودبروا أمره مع طنكري صاحب
أنطاكية ، وجعلوه من خيله (أي فرسانه) ، وأقطعه أنطربوس وصافيثا
ومرقية وحصن الاكراد » «^{٩٢}» . ويبدو أن طنكري اتفق مع الأوصياء
على بونز على أن يقطعه المدن المذكورة في النص السابق ، أي المنطقة
التي كان قد احتلها طنكري بعد وفاة وليم چوردان بالإضافة الى ما فتحه
في جوف أنطربوس ، في مقابل أن يخرج بونز من الحلف البيزنطي ،
وليس أدل على ذلك من الإشارة الى العداء الذي أبداه بونز لبوطوميتس البيزنطي

(٩٠) ابن القلانسي ، ص ١٦٩

(٩١) نفس المصدر ، ص ١٧٧

(٩٢) نفس المصدر ، ص ١٨١

(٩٣) Claude Cahen, p. 256 - Jean Richard, p. 40

نتيجة لهذه الاتفاقية «٩٢» ، وسجل طنكري صلة الود والصداقة القائمة بينه وبين بونز عندما خطب وهو على فراش الموت زوجته الشابة سيسيل لبونز «٩٣» ، وقدمت سيسيل بآئنتها الى بونز ممثلة في حصن ابن أحمر وأردكان وجيلة . وظل حصن الاكراد اقطاعا يتولاه بونز من اماره أنطاكية حتى اللحظة التي تسليه الاسبتارية بموافقة ريسوند والاميرة كنستانس في سنة ١١٤٥ م .

وهكذا ارتبطت كوتية طرابلس بامارة أنطاكية ارتباطا وثيقا ظهرت آثاره في سنة ١١٦٣ عندما اشترك ريموند الثالث مع أمير أنطاكية في محاربة المسلمين في حارم ، وفي مساندة بوهمند الثالث فيما بين ١١٨٢ و ١١٨٦ لسياسة ريموند الثالث في مملكة بيت المقدس ، وفي اختيار ريسوند الثالث الابن الاصغر لبوهمند الثالث ليخلفه على كوتية طرابلس بعد وفاته ، وهو بوهمند الرابع الذي سيسعى الى توحيد أنطاكية وطرابلس في ظل امارته «٩٤» .

(٩٤) Cahen, p. 256

(٩٥) J. Richard, p. 42

(٥)

نظم الحكم والحضارة في كوتية طرابلس الصليبية

١ - الكونت وسلطاته :

كان ريموند الصنجيلي يدين بالولاء في بادئ الأمر للامبراطورية البيزنطية ، وكانت سلطته تكمن في فتوحه التي تعتمد في شرعيتها على تغلبه على الأراضى التي كانت تتبع فيما مضى دوقية أنطاكية البيزنطية ، ولذلك السبب لم تكن كوتية طرابلس في بداية تكوينها دولة مستقلة من الوجهة القانونية ، وكانت الفتوح تعتمد في شرعيتها أيضا على موافقة الكنيسة ، ومع ذلك فليس هناك ما يجعلنا نؤكد وجود نوع من الاشراف الأعلى كالت ممارسه الكنيسة على الكوتية ، فان أسقفيات طرابلس لم تكن تؤلف كنيسة قائمة بذاتها ، فلم تكن احدى هذه الأسقفيات تتمتع بنفوذ بطريركى . ولقد حاول بطاركة بيت المقدس اخضاع أساقفة طرابلس وأنطربوس وجبيل لهم ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل على الرغم من تعضيد البابوية «١» . وعلى هذا النحو كان ريموند الصنجيلي سيدا على الأراضى التي افتتحتها عن طريق شرعية الفتح فحسب ، ولكن الحق الذى كان قد أقره البابا أوربان الثانى في مجمع كليرمون لم يلبث أن حل محله حق الوراثة ، فان وليم جوردان ورث ريمون الصنجيلي على كوتية طرابلس ، فلما طالبه برتران بارث أبيه رفض وليم جوردان التخلي عن

حقه في ولايتها مستندا على حق الفتح : فهو الذي افتتح عرقة ، وهو الذي حمى فتوحات ريموند من مطامع طنكري ، ودافع عنها ضد غارات المسلمين «^٢» . على أن نجاح برتران في تحقيق مطالبه واستيلائه على كوتية طرابلس المستقبلية كان من أثره تحويل الاستخلاف بالوراثة الى أعقاب بصقة نهائية ، فلما حاول الفونس جوردان بن ريموند دي سان جيل أن يفيد من هذا المبدأ لصالح ابنه برتران الثاني بحكم أنه (أى الفونس) هو الابن الشرعى لريموند الصنجيلي ، وباعتبار أنه ولد في تلة الحجاج ، توفي مسموما ، وفشلت محاولة برتران الثاني الاستيلاء على الكوتية ، وانتهى أمره بوقوعه في أسر نور الدين «^٣» .

وكان نظام الاستخلاف في كوتية طرابلس ، بعد أن اتخذ صفة الوراثة ، يقضى بأن يتولى الامارة الابن الأكبر دون غيره من اخوته ، على النحو السائد في نظم الاقطاع في العصور الوسطى «^٤» . أما الفتيات فلم يكن لهن نصيب في تولية الامارة .

أما من حيث ألقاب القمامصة (الكونتات) فقد كانت تتبع منذ عهد

(٢) J. Richard, p. 45

(٣) راجع ما ذكرناه في هذا الشأن تحت عنوان ريموند الثاني ، وارجع الى ابن القلانسي ، ص ٣٠٠ — أبو شامة ، الروضتين ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٤) سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، ج ٢ (النظم والحضارة) القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٩

عهد بونز نظاما يماثل نظام الألقاب في الاقطاعات الكبرى في الغرب ،
لاسيما في كوتية طولوشة ، فمنذ أن خلف بونز أباه على كوتية طرابلس
أصبح القمامصة يحملون لقب « قومص طرابلس بعون الله » ، أما ريموند
فلم يكن يحمل من اللقب سوى « رئيس الجيش المسيحي في الشام » وهو
لقب ورثه وليم جوردان من بعده ، بحكم أن طرابلس ، قاعدة الكوتية ،
لم تكن قد افتتحت بعد « » .

ونظام الكفالة أو الوصاية كان يحدث عندما يتوفى القومص
(الكونت) قبل أن يبلغ ورثه سن الفروسية ، وكان الكافل للكوتية
يمارس جميع امتيازات الكونت ، فهو يقوم مقامه في شؤون الكوتية في
الفترة التي يكون فيها الكونت قاصرا ، وتنتهي فترة الكفالة بمجرد أن
يخلع على القاصر لقب فارس ، ويشترط في الكافل للكوتية أن يكون
أقرب أقرباء الكونت القاصر ، ونلاحظ أن الكافل الوحيد الذي اختير
لكوتية طرابلس خلال فترة أسر ريموند هو عموري الأول ملك بيت
المقدس ، خلال الفترة التي كان فيها ريموند الثالث أسيرا في أيدي المسلمين .
أما في الأحوال الأخرى التي يتولى فيها الكوتية أطفال قصر ، مثل حالة
بونز وريموند الثاني ، فلم يكن الملك هو الذي يتولى الكفالة ، ففي حالة
بونز تولى كفالته مجلس للوصاية يتألف من عدد من كبار رجال الكوتية ،
وفي ذلك يذكر ابن القلانسي أنه لما توفي برتران ، « وأقام ابنه في الأمر من

يعده وهو طفل صغير ، كفله أصحابه ودبروا أمره مع طنكرى صاحب أنطاكية وجعلوه من خيله «^٦» . أما في حالة ريموند الثاني ، فلم يصبح فولك ملك بيت المقدس هو الكفيل Magister Comitum في سنة ١١٣٩ ، وإنما اختير رجل من مقدمى عسكر طرابلس يعرف باسم البيرتوس Albertus «^٧» . ولقد حظى كونت ريموند الثالث بمنصب الكافل لملكة بيت المقدس ، فكان حاجبا للملك بلدوين الرابع وصاحب الأمر بعوضه ، وكانت ترتفع الجبايات اليه « وكان هو المشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن في الفرنجية اللعينة »^٨ .

ب - مقدمو الكونتية :

كان النظام الاقطاعى فى الغرب يتميز بوجود عدد من الشخصيات الهامة أو من المقدمين فى الكونتية فى بلاط الكونت ، أهمهم على الإطلاق الحاجب العسكرى (Senechal) ، ويقوم بوظيفة رئيس الوزراء فى الوقت الحاضر . ولكن الأمر فى الامارات اللاتينية بالشرق يختلف بعض الشيء ، بسبب الصراع القائم بين الصليبيين والمسلمين ، فكان حجاب طرابلس العسكريين شخصيات عادية غير لامعة ، تذكر أسمائهم فى نهاية قوائم الشهود ، ولا نعرف اذا ما كان يحق لهم الاشراف على الادارة المالية ، كما كان الشأن فى ملكة بيت المقدس ، فليست لدينا وثيقة ما تؤكد ذلك .

(٦) ابن القلانسي ، ص ١٨١

(٧) J. Richard, p. 47, 48

(٨) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ص ٣٠٩

والى جانب الحجاب العسكريين كان يوجد فى كوتية طرابلس
المقدمون المدنيون Chambriers الذين يدخل فى اختصاصهم حماية الخزنة
المالية . وقد وصلت الينا أسماء ثلاثة فقط من هؤلاء المقدمين المدنيين
هم : جوتيه المرقبى (ورد ذكره فى أحداث سنة ١١٣٧) ورينيه
(فى سنة ١١٣٩) وألبير (فى سنة ١١٤٣ م) «٩» .

وأهم مناصب مقدمى الكوتية منصب المقدم العسكرى الأول
Le Connetable المعروف فى المصادر العربية باسم «المقدم كنداصطبل» «١٠»
وكان يتولى قيادة الجيش فى أثناء غياب الكونت أو فى حالة مرضه ، ويليه
المارشال أو المارشال «١١» Marchal ، وهو مساعد المقدم العسكرى .
ومن المناصب المعروفة فى الكوتية منصب كنسى يعرف صاحبه
باسم الرئيس الأعلى للقضاء Le Chancelier ، ولعله كان يتولى حبل
خاتم الكونت ، وكتابة القوانين التشريعية ، ولا نعرف من وظائف البلاط
غير وظيفة « القيمة على غرفة كوتية طرابلس » وهى وظيفة تقابل

(٩) J. Richard, p. 48

(١٠) ابن القلانسي ، ص ١٩٧

(١١) هكذا ورد ذكره فى المصدرين الآتين : محيى الدين عبدالظاهر،
تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل،
القاهرة ١٩٦١ ص ٣٥ — تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٦٢

القهرمانة في تصور الخلفاء والسلاطين ؛ ومنها وظيفة « قس الكوتيسة » « ١٢ » .

ولقد وردت في مجموعة النظم القضائية بيت المقدس نصوص تدل على أن نظام الحسبة الاسلامي استخدم في مملكة بيت المقدس ، وكان صاحب الحسبة يسمى بنفس اسمه العربي (Mathessep) * ، وليس من المستبعد أن يكون هذا النظام قد طبق في الامارات الصليبية الاخرى ومن بينها طرابلس .

ج - النظام الحربى :

لم تكن عدة جيش الكوتية الذى يتولى قيادته سواء الكونت أو الكافل للكوتية أو المقدم كنداصطل أو مساعده المارشال تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل من الرجالة والخيالة معا . أما الخيالة (الفرسان) فكانوا أقلية الجيش لأنهم صفوفته وأهم عناصره الضاربة ، فلم يكن لدى ريموند الصنجيلى فى معركة أنطربوس فى سنة ١١٠٢ م سوى ثلاثمائة من الخيالة ، وإذا كان قد تضاعف عدد الرجالة (المشاة) فى جيش طرابلس بعد ذلك ، فقد ظل عدد الخيالة فيه محدودا . ففى سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م)

(١٢) J.Richard, p. 51.52

(*) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق الاستاذ السيد الباز العرينى ، ص ١٢٥ ملحق ٣ القاهرة ١٩٤٦ - زكى النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ، بيروت، ١٩٥٨ ، ص ١٥٧

حتد بوترس ما استطاع حشده من عسكره لاغاثة أمير أنطاكيه ، فبلغ عدد خياله مائتي خيال (فارس) وعدد رجالته ألفين ، ولكن ظهير الدين أتابك وسيف الدين البرسقى ترصدا لهذا الجيش في البقاع ، واشتبك المسلمون مع الفرنجة في موقعة دامية انهزم فيها الصليبيون هزيمة نكراء ، وقتل فيها كماتهم ، ولم ينج من هذا الجيش على حد قول ابن القلانسي سوى «مقدمهم بدران بن صنجيل والمقدم كنداصطبل ونفر يسيرة معهما» ، ثم أشار الى أن « المفقود والمقتول من الافرنج الخيالة والسرجنديّة الرجالة والنصارى الخيالة والرجالة في هذه الوقعة بما يزيد على ثلاثة آلاف نفس » (١٣) . وينبغي أن ندخل في هذا العدد عسكر نصارى لبنان المرتزقة الذين ينعتهم ابن القلانسي « بالنصارى الخيالة والرجالة » ، ونعني بهم مقاتلي الموارنة أو عناصر مسيحية أخرى كاليعاقة والنساطرة . أما الموارنة فكانوا أعظم أعوان الفرنجة ، وكان الكونت يجمعهم من أعماله (١٤) ، وكان معظم قتالهم يعتمد على الرمي على القوس الثقيل بالشباب الخارق (١٥) .

على أن جيش الكونتية قد يتضخم في بعض الأحيان نتيجة لوصول امدادات تصل في صحبة أمير وافد ، مثل العسكر الذي قدم في صحبة برتران ، أو نتيجة لوصول حملة صليبية جديدة ، مثل عسكر البروقنسيين

(١٣) ابن القلانسي ، ص ١٩٨

(١٤) نفس المصدر ، ص ١٩٧

(١٥) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤ — Lammenz, op cit. p. 255

الذين صحبوا الفونس جوردان وابنه برتران الثانى • ولكن هذه الامدادات لم تكن تصل بانتظام ولذلك لم يكن يعمل عليها كثيرا •

والى جانب هذا الجيش المقاتل ، كانت توجد فى الحصون والقلاع المتوزعة فى أنحاء الكوتية حاميات ، يرأسها نظار أو مستحفظة ، فخص بالذكر منهم ريديلوس Reidellus مستحفظة حصن صنجيل (فى سنة ١١٦٣) •

أما فيما يختص بالبحرية فقد نشأت فى كوتية طرابلس عندما أصبح وجود أسطول خاص بالكوتية أمرا ضروريا للدفاع عن سواحلها ضد غارات الأساطيل المصرية «١٦» • والواقع أن كوتية طرابلس كانت تعتمد فى نقل أقواتها على السفن البيزنطية التى كانت تتردد ما بين قبرص وسواحل طرابلس لامتدادها بالميرة والامدادات ، أو على الأساطيل الجنوية والبندقية التى طالما ساعدت الصليبيين فى فتح مدن الساحل أثناء الحرب الصليبية الأولى • فالفضل الأعظم فى سقوط طرابلس فى أيدي الصليبيين يرجع الى جهود الأسطول الجنوى الذى استقدمه برتران معه عند وصوله

(١٦) كثيرا ما كان الاسطول المصرى فى العصر الفاطمى يهاجم السواحل الشامية التابعة لكوتية طرابلس ومسلكة بيت المقدس الصليبيين ، ومن أمثلة الغارات البحرية التى كان يوجهها أسطول مصر على سواحل الكوتية الهجوم البحرى الذى شنه الاسطول المذكور على ساحل طرابلس وبيروت وصيدا وعكا فى سنة ٥٤٦ هـ (راجع : ابن القلانسى ص ٣١٥ — أبو شامة ، ج ١ ص ٢٠٢)

الى الشام • وقنع قمامصة طرابلس في بداية الأمر بمساعدة الأساطيل
الايطالية ولم يفكروا في بناء أسطول محلي ، ولكنهم سرعان ما تنبّهوا
الى الأهمية الكبرى والفائدة العظمى التى يجنونها من وراء ذلك على أثر
غارة الأسطول المصرى في سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) على ساحل طرابلس
وأنطوطوس وما تبع ذلك من نهب هذين الثغرين ، فعمد قومص طرابلس
منذ ذلك الحين الى تعهد البحرية بالرعاية ، ففي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م)
أمر بوهمنند الرابع بشحن سفنه العشرة وتسليحها لانتقاد مدينة
صور « ١٧ » •

د - النظام المالى :

كان لكل اماره صليبية عملتها الفضية الخاصة ، للتعامل الداخلى ،
ولكنها اضطرت الى اتخاذ نوع من العملات الذهبية للتعامل الخارجى
تعرف بالبيزنت « ١٨ » • وكان قمامصة طرابلس منذ عهد برتران يسكون
عملة فضية « ١٩ » على نفس أسلوب العملات التى كان يسكها القومص فى طولوشة
قبل أن يأتى الى المشرق ، مع تغيير طفيف : ففي وجه العملة نقش صورة
صليب ، وعلى ظهرها نقش : « مدينة طرابلس » Tripolis Civitas •

(١٧) J. Richard, p. 54

(١٨) Iamens, La Syrie, p. 252

(١٩) كانت تسمى فى المصادر العربية بالقراطيس (راجع الشيزرى ،

نهاية الرتبة ، ص ٧٥)

أما ريموند الثاني فقد سك عملات فضية ماثلة مع اضافة عبارة Monata Tripolis على الوجه ، بينما امتلأ الصليب المنقوش على ظهر العملة بدوائر وخواتم صغيرة متصلة . وكانت عملات ريموند الثالث الفضية تتخذ الطابع الطولوشى الذى يحل نقشا يمثل الشمس والهلال ، وهو طابع ظهر فى طولوشة فى سنة ١١٤٨ ، ويعرف بالطابع الريموندى « ٢٠ » .

أما العملات الذهبية التى كانت تضرب فى الكوتية فهى البيزنت Besant Tripolaz الذى كان تقليدا للدنانير الاسلامية ، والى جانب البيزنت كان الدينار الصورى ، وهو دينار اسلامى ، يستخدم للتداول بين المسلمين والصليبيين . وكان قمامصة طرابلس يعهدون بإدارة دار السكة أو الضرب بطرابلس الى شخص مسئول عنها يعرف بصاحب السكة ، وأهم أصحاب السكة فى طرابلس الذين تردد ورود ذكرهم فى الوثائق شخصية حنا صاحب السكة Johannes de Moneta

أما الموارد الخاصة بالكونت فمنها ما كان يتحصله عن أراضى أو منشآت معينة مثل الضريبة التى كان يفرضها على ماشية الوطنيين الذين يرعون فى القرى المجاورة لتلة الحجاج ، والرسوم التى يتحصلها من التجار فى ميدان سوق طرابلس المعروف باسم Placearius Montis Peregrini ، وفى معرض البضائع بالميناء ، والمكوس التى يفرضها على

(٢٠) J. Richard. p. 55

راجع فى هذا الصدد : Schlumberger (Gustave); Numismatique de L'Orient Latin. Paris, 1878

فُرُن دِير الضريح المقدس بتلة الحجاج ، والرسوم التي يتحصلها على المبيعات والمشتريات ، والرسوم الجمركية عند جسر تلة الحجاج ، وعلى حدود إمارة أنطاكية ، وعلى طريق وادي أمريت الواقع بين أنطربوس وحصن الأكراد .

ومن موارد الكونتية أيضا الغنائم التي يظفر بها الفرنجة نتيجة الغزو في أراضي المسلمين ، أو عقب الانتصارات التي يحرزها عليهم كوت طرابلس ، كما حدث في البقيعة أو بالقرب من حصن الأكمة في سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) عندما أرسل ريموند الصنجيلي ثلثمائة من خياله لنجدة من بالأكمة ، أرغموا المسلمين على الانسحاب عنها ، وغنم الصليبيون « من الخيل والكراع غنية كبيرة » (٢١) ، وكما حدث عند سقوط طرابلس « فحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يعد عدده ولا يحصر فيذكر » (٢٢) .

وكانت الغنائم توزع وفقا للاتفاقية التي عقدت في سنة ١١٤٢ مع الاستبارية على النحو الآتي : يخصص للكونت قسم من الغنائم يعرف « بنصيب اللواء » ، أما باقى الغنائم فيوزع على من اشترك من الجيش في القتال . وكان الكونت في بادىء الأمر يهب نصف نصيب اللواء لنظام فرسان الاستبارية عندما يساهمون في حملاته ، ثم حدث بعد ذلك أن أصبح

(٢١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢

(٢٢) نفس المصدر ص ١٦٣

نصيب اللواء كله يمنح لهم « ٢٣ » . ولم يكن الكونت يقنع دائما بالغنائم والأسلاب التي يكسبها جيش الكونتية من غاراته على أراضي المسلمين جزية سنوية أو قدرا مما تغله هذه الأراضي نظير عدم اعتدائه على أراضيهم، كما حدث في سنة ٥٠٣ هـ عندما هاجم برتران رفية وتقررت المودعة بينه وبين المسلمين « على أن يكون للفرنجة الثلث من استغلال البقاع ، ويسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار . . . وأن يكون حصن مصياف وحصن الطوفان وحصن الأكراد داخلا في شرط المودعة ، ويحمل أهلها عنها مالا معيناً في كل سنة الى الفرنجة » « ٢٤ » . وفي بعض الأحيان نشهد كونت طرابلس (ريموند الثالث) يعيث في الأراضي البيزنطية « ليعوض ما أنفقه على جهاز أخته ميلسند ، وذلك بسبب قيام الامبراطور البيزنطي بفسخ خطوبتها » « ٢٥ » وتزوجه من الأميرة ماري الأنطاكية . ولا شك أن كونت طرابلس قد أثرى بسبب ما كان يجنيه من مكوس ، وما كان يؤول اليه من غنائم وجزيات ، ويكفى للتعبير عن عظم ثرائه الجهاز الفخم الذي أعده ريموند الثالث لميلسند ، وهو جهاز بلغ من التأنق والفخامة ما جعل وليم الصوري يتأثر بظهوره تأثراً عميقاً « ٢٦ » . ولكن يبدو أن ثروة ريموند الثالث تأثرت تأثراً بالغاً في السنوات العشر التي قضاها أسيراً في حلب ، بسبب الغارات المتواصلة التي كان يشنها جيش نور الدين محمود

(٢٣) J. Richard, p. 56

(٢٤) ابن القلانسي ، ص ١٦٥

(٢٥) Claude Cahen, p. 406

(٢٦) J. Richard, p. 57

على الكوتية ، والدمار الذى أصاب طرابلس بسبب زلزال سنة ١١٧٠ م ، فلما أطلق صلاح الدين سراح ريموند من الأسر بعد أن اشترط عليه دفع فدية قدرها ثمانون ألف بيزنت من الذهب ، لم يستطع ريموند دفعها كلها . فدفعها عنه الاستتارية . وظل بوهمند الرابع الذى خلف ريموند الثالث مدينا للاستتارية بنحو ٣٧ ألف بيزنت كانت باقية من فدية ريموند الثالث . وهكذا كانت ثروة كونت طرابلس قابلة للتغيير ، فبينما كان قمامصه طرابلس الأولون على درجة كبيرة من الثراء ، بسبب ما كان لدى ريموند الصنجيلى من أموال طائلة وبفضل ما كان يقدقه عليه الامبراطور البيزنطى ، فان هذه الثروة أخذت تتضاءل تدريجيا نتيجة للخسائر الفادحة التى كانت تسببها غارات المسلمين على كوتية طرابلس ، مما أثر تأثيرا عميقا على مواردها المالية « ٢٧ » .

هـ - الكنيسة :

كانت كوتية طرابلس تضم أربعة مراكز أسقفية تتبعها تسعة مدن . وردت فى التشريعات باسم Civitates ، وهى : ١ - أسقفية أنطوطوس التى تتبعها مدينة أنطوطوس وجزيرة أرواد ، ومدينة مرقية ٢ - أسقفية طرابلس ، وكانت تجمع معها سدة طرابلس والبترون ، وعركة ، وأرطوسية . ٣ - أسقفية جيل ٤ - أسقفية رفية .

وتعتبر أسقفية أنطوطوس أول أسقفية أسست بالكوتية ، ومن أقدم

أساقفتها الأسقف ريموند الذي ورد ذكره في سنة ١١٢٧ ، وخلفه الأسقف
وليم سنة ١١٤٢ ، ثم الأسقف بير (١١٦٣ — ١١٦٩) . أما أسقفية
جيبيل فقد قامت بعد استيلاء اللاتين على هذه المدينة في سنة ١١٠٤ ، كما
وجد برفنية أسقف منذ أن افتتحت على يدى بونز في سنة ١١٢٧ م .

وأول أساقفة طرابلس هو الأسقف البيردى سان أرارد ، من خاصة
ريموند الصنجيلي ، وقد لقب بلقب أسقف قبل افتتاح مدينة طرابلس .
ويبدو أن ريموند الصنجيلي اذ نصب ألبير رئيسا للأساقفة في كوتيتيه
المستقبل ، كان يسعى الى انشاء كنيسة مستقلة ، ولكن خلفاءه قبلوا مبدأ
الخضوع كنسيا لأنطاكية «^{٢٨}» . ويرى الأستاذ جان ريشارد أن ريموند
الصنجيلي كان يرغب في تنصيبه مطرانا يتبعه الأساقفة الآخرون في كوتتية
طرابلس المستقبل ، ويستدل على ذلك بأنه رحل الى روما بقصد استحضار
طليسان المطرانية ، فانتهاز فرصة وجوده بروما ، وحضر جلسات مجمع
ماند ، الا أن البابا رفض التصديق على جعل طرابلس مركزا مطرانيا ،
اكتفاء ببيت المقدس وأنطاكية ، وعلى هذا الأساس قنع الأسقف ألبير
بلقبه «^{٢٩}» . ولكن مسألة خضوع الأسقفيات الطرابلسية ظلت معلقة حتى
النصف الأول من القرن الثالث عشر .

وكانت أسقفيات طرابلس وفقا للتنظيم الكنسى القديم تخضع

(٢٨) Runciman, p. 311

(٢٩) J. Richard, p. 59

لأسقفية صور الرئيسية التابعة بدورها لبطيركية أنطاكية ، الى أن أصدر البابا أربان الثاني قراره في سنة ١٠٩٥ ، الذي يقضى بأن يضم بطيرك بيت المقدس لصدته أسقفية صور الرئيسية والأسقفيات الأخرى التابعة لها . الا أن أسقفيات طرابلس وجبيل وأنطربوس ورفنية لم تخضع لبطيركية بيت المقدس على الرغم من ميل البايوية لذلك . وانما خضعت لبطيركية أنطاكية ؛ وعلى الضد من ذلك ضمت أسقفيات بيروت وصيدا وعكا التابعة لصور الى بطيركية بيت المقدس . وكان أول بطاركة أنطاكية اللاتين ، البطيرك برنارد دي قالنس «^{٣٠}» الذي حاول تخفيف حدة الخلاف بين ريسوند الصنجيلي وطنكري في سنة ١١٠٢ ، وبين برتران وطنكري في سنة ١١٠٩ ، وهو الذي نظم كنيسة أنطاكية ، وطالب بمد نفوذ بطيركيته الى الحدود التي كانت موجودة في القوائم الأسقفية البيزنطية القديمة ، ومن بينها بطبيعة الحال أسقفيات طرابلس والبيضاء وأنطاكية «^{٣١}» . ولم يتم خضوع أسقفيات طرابلس لبطيركية أنطاكية تماما الا بعد أن اتحدت كوتية طرابلس سياسيا مع امارة أنطاكية «^{٣٢}» .

ولم يكن التنظيم الداخلي لكنيسة طرابلس أو أنطاكية يختلف كثيرا عن نظيره في الكنائس الغربية ، فقد كان لها مجمعها الكنسي الاقليمي الذي

Claude Cahen, p. 310 (٣٠)

Ibid, p. 314, 315 (٣١)

Ibid, p. 317 (٣٢)

يضم ١٢ من رجال الكهنوت النظاميين ابان القرن ١٢ م ، ثم أصبح يضم عشرين رجلا منهم في القرن ١٣ ، كذلك كان لها قساوستها ، ورئيس القساوسة ، ومرتلها ، وحامل الأختام ، ومجلسها اللاهوتي ، ومتولى خزائنها ومشروعها «^{٢٣}» ، وكانت للكنيسة أملاكها الخاصة بها في كل أسقفية . أما موارد الأساقفة والقساوسة فكانت تعتمد على ضريبة العشور ، وهي ضريبة خاصة بهم يدفعها اللاتين عن المزارعين الذين يعملون في أراضيهم . باعتبار أن المونوفيزيت والأرمن كانوا يتبعون كنائس أخرى شرقية «^{٢٤}» : وكانت موارد الكنيسة تعتمد على بعض ايجارات أبنية وعلى أوقاف أديرة طرابلس أو أديرة بيت المقدس التي تسلكها الكونتية «^{٢٥}» .

ويغلب على الظن أن الكونت كان يحتفظ ببعض الحقوق على أراضي الكنيسة ، لأننا نراه يتدخل في كثير من القرارات الأسقفية ، ومرجع ذلك فيما يظهر أن القيامصة كانوا يقطعون الأسقفيات بعض أملاكهم .

وعلى الرغم من أن كنيسة طرابلس لم تكن مهياة للحياة الديرية بسبب الحروب التي كانت تخوضها الكونتية بدون انقطاع مع الدويلات الاسلامية المجاورة ، فقد وفد المسترشيون الى الكونتية ، وشرعوا في تأسيس

(٣٣) Richard, p. 61

(٣٤) كان يقيم بطرابلس أسقف يعقوبى وأسقف ملكاني وآخر في أنطربطوس . أما البطريك الماروني والأساقفة الخمسة عشر فلانوا بقيسون في منطقة أنفة والبثرون وجبل (Richard, p. 61)

(٣٥) Richard, p. 60, 61

الدير المعروف بدير بلمون في سنة ١١٥٧ م ، واستكملوا انشاءه في سنة ١١٦٩ . ويقع الدير المذكور في جنوب شرقي مدينة طرابلس ، ومالبث هذا الدير الأم أن تفرعت عنه أديرة أخرى في أنحاء الكوتية «٣٦» .

و - **منظمات الرهبان العسكريين** (او جماعة الفرسان الاسبتارية و الداوية)

الاسبتارية جماعة من الفرسان الذين جمعوا بين الفكرتين الدينية والعسكرية على النحو الذي عرفه المسلمون في عصر الفتوحات بوجه عام «٣٧» ، وترجع تسميتهم بهذا الاسم الى دير اقامه تجار من أمالفي في بيت المقدس بجوار دير سان ماري اللاتينية في عصر المستنصر بالله الفاطمي ، جنوبي باب الضريح المقدس ، وقد سكن هذا الدير جماعة من البندكتان الايطاليين ، وبجواره أقيم بيمارستان في فترة تسبق الحملة الصليبية الأولى ، بقصد ايواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم . ولم تلبث هذه الجماعة أن تطوعوا بحماية الحجاج ، وأبدوا من الفروسية

(٣٦) Ibid. p, 61

(٣٧) اشترك في الفتوحات العربية أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين، وكان الفتح على هذا النحو يرتبط بفكرة الجهاد . وكانت السواحل الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين أرض رباط لدفع العدوان . ثم ظهرت الأربطة في المغرب الاسلامي منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، باعتبار المغرب أرضا صالحة للجهاد ومدافعة الروم . والأربطة أبنية تجمع بين الصفتين الحربية والدينية ، فقد كانت تزود عادة بسنار توقد فيه النيران ليلا للذير باقتراب العدو ، وعن طريق هذه الاشارة ، كانت المحارس والأربطة المجاورة تتأهب لملاقاة العدو برا وبحرا (السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ج ٢ ص ٤٤٩)

والأقدام ما جعلهم موضع احترام جودفروى دى بويون ملك بيت المقدس وتقديره ، فأقطعهم احدى الضواحي ، وأغدق عليهم الأموال ، وتوالى عليهم الهبات والاقطاعات ، فأثروا بعد فقر ، وتدرج بهم الأمر فى عهد أول رئيس لهم ويدعى جيرار ، الى أن أصبحوا يؤلفون قوة حربية لها شأنها بالنسبة للصليبيين ، اذ اشتركوا معهم فى حملاتهم ضد المسلمين . وجيرار المذكور يعتبر همزة الوصل بين ماضى الجماعة ممثلة فى مؤسسة البندكتان وبين النظام الجديد الذى شرعه الفاتحون ، وتطور نظام الفرسان الاستبارية فى عهد ريموند دى بوى الى منظمة عسكرية الطابع «٣٨» .

ويرجع الفضل فى منح فرسان الاستبارية اقطاعات كبرى فى كوتية طرابلس الى الكونت ريموند الثانى ، ذلك أن الهبات والمنح التى كان يقدمها من سبقه من قمامصة طرابلس الى منظمة الاستبارية كانت تماثل غيرها من الهبات التى تلقتها المنظمات الدينية الأخرى ، وأول الهبات التى منحها الأسقف بونز للاستبارية فى سنة ١١١٥ كانت تتضمن كنائس اقليمية وعشور وطواحين تقع بين مدينة طرابلس والبترون . كذلك منح

(٣٨) راجع : Delaville Le Roux, les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chipre, (1100 - 1310) Paris, 1904, p. 31 - 43 - Woodhouse (F. C.), The Military religious Orders of the Middle ages : The Hospitaliers, the Templars, the Teutonic knights and others, London. 1879, pp. 23 - 30 — King (E. J.), The Knights Hospitaliers in the holy Land, London, 1931, pp. 21 - 23.

حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى ، ص ٩٦

الكونت بونز بن برتران الاسبتارية في جبل الحجاج فيما بين عامي ١١٢٥ ، ١١٢٧ قري ومنازل في ظاهر مدينة طرابلس حتى بلدة علما ، كما منحهم قرية جليات الواقعة الى الشمال من طرابلس ، وقرى أخرى في البقعة ، واقطاعات في بعض المدن والحصون مثل عرقة وحصن الاكراد ولوكاميل ، وأصبحت جباة الاسبتارية في عهده تسلك في كوتية طرابلس قلاعا هامة . وكانت الاسبتارية حتى هذا الحين تجتمع بين الصفة الدينية مثلة في خدمة الحجاج ، والصفة العسكرية مثلة في الاسهام في الحرب «^{٣٩}» ، ولكن الاقطاعات التي أقطعها لهم ريموند الثاني في سنة ١١٤٢ كانت نقطة انطلاقهم نحو السيطرة الاقطاعية العظمى للاسبتارية ، ففي سنة ٥٣١ هـ (١١٣٧ م) انتزع المسلمون حصن بعين ورفنية من كونت ريموند ، بعد موقعة شقط فيها صفوة خياله ورجاله صرعى ، وحصل للمسلمين « من الغنائم الشيء الكثير من الكرام والسواد والأثاث » «^{٤٠}» . هذه الهزيمة النكراء استنفذت قوى كوتية طرابلس ، وعرضتها لخطر المد الاسلامي ، وعندئذ استنجد ريموند بفرسان الاسبتارية ، الذين تحولت منظمتهم في أثناء ذلك الى منظمة حربية خالصة ، للدفاع عن حدود كوتية ، خاصة في منفذ حمص - طرابلس ، وفي جبال الاسماعيلية «^{٤١}» . وكانت المنطقة التي أقطعها الكونت ريموند الثاني للاسبتارية تقع في أشد مناطق الكوتية تعرضا لغارات المسلمين ،

(٣٩) Delaville le Roulx. p. 42 -- Jean Richard, p. 61

(٤٠) ابن القلانسي ، ص ٢٥٩

(٤١) Claude Cahen, p. 511

وكانت بحيرة حمص هي منطلق هذه الغارات ومركزها الرئيسي ؛ ثم ان هذه الاقطاعات كانت تضم اراضي استولى عليها المسلمون ، وعلى هذا الأساس تخلى ريموند للاستتارية عن جميع حقوقه على ريفية وبعرين ، اللتين سقطتا في أيدي المسلمين قبل ذلك بخمسة أعوام ، بدون تحفظ ، وأضاف اليها بعض أعمال ريفية التي كانت ما تزال تحت سيطرته «^{٤٢}» مثل مرداش ، هذا بالإضافة الى حقه في الصيد من بحيرة حمص . أما بقية الاقطاع الذي منحه للاستتارية ، فقد خصصه للقلاع الواقعة على الجانب الآخر من المنفذ ، بوادي البقية ، وهي حصن الأكراد ، وحصن البقية (أعزاز) وحصن فيليسيوم ولاكوم في السهل الساحلي الواقع عند مصب النهر الكبير ، وهي حصون هامة تحنى الطريق الممتد من عرقة الى وادي الأورنت . وكان يتولى أمر هذه الحصون عدد من البارونات نخص بالذكر منهم وليم صاحب حصن الأكراد ، وجيلبرت دي پوي لورنس ، وقد قام الكونت وأسقف طرابلس وبارونات الكوتية بتعويضهم عنها . وبدأت هذه الاقطاعات الاستتارية تتخذ مظهر الدولة المستقلة بفضل الاعفاءات المالية المختلفة والامتيازات التي نالتها ، فلقد سمح الكونت لفرسان الاستتارية في حصن الأكراد بالحرية المطلقة في الاتجار في أراضي الكوتية ، يضاف الى ذلك أنه لم يكن من حق الكونت وفقا لشروط الاتفاقية التي عقدها مع الاستتارية أن يعقد أي هدنة مع المسلمين بدون استطلاع رأي

الاستتارية ، كما أنه نص في هذه الاتفاقية على أن يؤول قسم من الغنائم للاستتارية «٤٣» . أما الحملات المشتركة فقد كان نصيب اللواء من الغنائم يقسم بين الاستتارية وبين الكونت أو الكافل للكويتية . وفي حالة غياب الكونت لم يكن يحق لمقدم كنداصطبل أو مساعده المرشان أن يقوم مقامه في تسلم نصيبه من الغنائم ، وبذلك كان نصيب اللواء كله يؤول في هذه الحالة الى الاخوة الاستتارية .

وفي سنة ١١٦٣ م ازدادت منطقة نفوذ الاستتارية بعد أن أقطعهم بارون مرقية الحصن الشرقي وحصن وادي لوش . ثم بدأت منظمة فرسان الاستتارية تكسب أراض جديدة منذ العام الذي وقع فيه الكونت ريموند الثالث في أسر نور الدين محمود ، وقيام عموري الأول بكفالة الكويتية في غيابه ، ويرجع السبب في بسط نفوذ الاستتارية على مناطق جديدة من الكويتية الى أن زلزال سنة ١١٧٠ سبب تخريب حصون عرقة وعكار والأكراد وصافينا ، الأمر الذي دعا عموري كافل الكويتية اذ رأى نفسه عاجزا عن ضمان الدفاع عن أراضى الكويتية التى تفتحت في هذه المناطق الشمالية من الكويتية ، الى أن يمنح فرسان الاستتارية حصنين مهدمين هما حصن عرقة وحصن عسكار . وفي سنة ١١٧٧ منحهم ريموند الثالث حصن وادي الأحمر ، الواقع عن طريق أنطراطوس - رمنية «٤٤» .

(٤٣) Claude Cahen, p. 517 - Richard, p. 63

(٤٤) Ibid. p. 65

وتوالت المنح والاقطاعات على منظمة فرسان الاستبارية منذ ذلك التاريخ ؛ ففي يوليو سنة ١١٨٠ ، تخلى ريموند الثالث ، عقب الغارات الرهيبة التي شنّها صلاح الدين على كوتية طرابلس ، عن حصن الطوفان بكل ملحقاته للاستبارية ، وأضاف اليه في العام التالي أرضاً تقع بين البقيعة والطوفان والأورنت . وفي هذا الوقت تنازل بوهمند الثالث صاحب أنطاكية للاستبارية عن حقوقه في الراج وجبل الساق ومنطقة أبي قبيس الواقعة غربي الأورنت وأقامية التي كانت تابعة للمسلمين منذ سنة ١١٤٩ بالإضافة الى مناطق أخرى «^{٤٥}» ، وذلك بعد هزيمة الصليبيين في حارم بثلاث سنوات ونصف . وكان هذا التنازل من جانبه مقدمة لتكوين إمارة للاستبارية تكاد تكون مستقلة ، إذ أن هذه الأراضي تقع تماماً في شمال الاقطاع الذي تنازلت لهم عن كوتية طرابلس حول حصن الأكراد . وفي سنة ١١٨٦ سح بوهمند ، بناء على نصيحة البطريك ايمري ، لبرتران موزوار أن يبيع اقطاعاته لفرسان الاستبارية مع المرقب والحصون التابعة له ، بعد أن عجز برتران المذكور عن الدفاع عنها ، وكانت أراضيها تقع لصق حدود الكوتية «^{٤٦}» ، وبذلك أصبح جبل النصيرية تحت رحمة الاستبارية ، إذ كانوا يحصرونه من الجنوب ومن الغرب . وفي سنة ١١٩٩ منح بوهمند منظمة الاستبارية مدينة المرقب حتى يتهيأ للاستبارية بذلك

King, op. cit. p. 93 — Cahen, p. 513 (٤٥)

Cahen, p. 514, 515 — Richard, P. 66 (٤٦)

استكمال حلقة الحصار حول جبل الاسماعيلية ، وأصبحت المرقب في القرن
اثنالث عشر الميلادي القاعدة الهامة لدولة مستقلة تمام الاستقلال هي دولة
الاستبارية «٤٧» .

» « »

أما نظام فرسان المعبد Templiers المعروفين في المصادر العربية باسم
الداوية فقد قام أساسا على الحماس الدينى وعلى الفروسية فى آن واحد ،
وكان يجمع منذ نشأته بين الاتجاه الدينى والاتجاه العسكرى ، وهو فى
هذا يشبه الى حد كبير نظام فرسان الاستبارية ، وان كانت نشأته تترن
منذ البداية بفكرة القتال والحرب ، ولم تكن تربطه بالناحية الدينية سوى
القسم الدينى «٤٨» . ويرجع الفضل فى نشأته الى سبعة رجال يتزعمهم
هيو ج دى باينز ، اتفقوا فيما بينهم على فكرة تكوين جماعة من بينهم تتولى
مهمة الدفاع عن فلسطين والأراضى المقدسة ، ووجدت الفكرة تعصيذا
وقبولا حسنا عند جرموند بطريرك بيت المقدس ، ولم يلبث هؤلاء الرجال
الأتقياء أن أقسموا أمام البطريرك بالمحافظة على الشعائر الثلاثة : الفقر
والطاعة والعفة ، وبالإضافة الى ذلك أقسموا يمينا بحمل السلاح واشهاره
ضد المسلمين «٤٩» ، وتلقبوا بجنود المسيح الفقراء «٥٠» . ولقد منحهم

(٤٧) Cahen, p. 514

(٤٨) Woodhouse, the Military religious Orders, p. 207

Claude Cahen, p. 510

(٤٩) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى

ص ٩٧ ، ٩٨ — Woodhouse, p. 208

(٥٠) عمر كمال توفيق ، ملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٠٤ —

Woodhouse, p. 208

بلدوين الثانى خانا يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان ، فمسموا لذلك
بفرسان المعبد . وبفضل الجهود المضنية التى بذلها هيوج دى باينز مؤسس
هذه المنظمة «^{٥١}» ، وبفضل تعضيد سان برنارد ، انضوى الى فلکها عدد
كبير ممن اجتذبتهم أهدافها ، وتدفقت عليهم الهبات والمنح ، ولم يلبث
هؤلاء الفرسان أن أصبحوا يؤلفون طبقة مثرية بعد أن كانوا
فقراء معدمين . وفى سنة ١١٤٦ اعترف بهم البابا ايوجين الثالث كمنظمة
خاصة ، لها نظمها وأهدافها فى خدمة المسيحية ، وأقطعهم ملوك بيت
المقدس وأمراء أنطاكية وطرابلس اقطاعات كبيرة فى الأراضى الخاضعة
لنفوذهم ، ومنذ ذلك الحين ساهم الداوية مساهمة فعالة فى الحروب
الصليبية فى الشام «^{٥٢}» .

(٥١) رحل هيوج دى باينز فى سنة ١١٢٧ الى فرنسا وأسبانيا
وانجلترا لجمع الصدقات ، بقصد مساعدة فقراء الأراضى المقدسة .

(٥٢) ذكر ابن القلانسى فى حوادث سنة ٥٢٢ هـ (١١٥٧ م) أن جماعة
من أبطال الاستبصارى والسرجنديّة والداوية عدتهم ٧٠٠ فارس سوى
الرجالة ، نهضوا الى ناحية بانياس فى ١٥ ربيع الأول لتقويتها بالسلاح
والمال ، فأدركهم عسكر نور الدين قبل أن يصلوا اليها ، وأوقعوا بهم ،
فانهزموا هزيمة ساحفة ، واسر منهم المسلمون عددا كبيرا (ابن القلانسى
ص ٣٣٩) . وفى ٩ من جبادى الأولى تسكن عسكر نور الدين من هزيمة
فرقة من الداوية فى الملاحاة الواقعة بين طبرية وبانياس ، وأسروا منهم عددا
كبيرا قادوهم الى دمشق ، « وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم
ومعهم راية من راياتهم منشورة... والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال
كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية ، والرجالة
من السرجنديّة والدركيولية كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر فى جبل »
(ابن القلانسى ، ص ٣٤٢)

غير أن ضياع سجلات الداوية يعوقنا عن متابعة تطور مناطق نفوذهم في كوتية طرابلس، ومع ذلك فلدينا وثائق استقينا منها بعض المعلومات عن المنح والاقطاعات التي وهبها القمامصة للداوية : ففي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) وهب الكونت ريموند الثاني قلعة أنطربوس للداوية ، وكان قد وهبهم العريمة قبل ذلك في سنة ١١٤٨ ثم انتزعها منهم برتران . أما صافيشا فلا نعرف على وجه اليقين متى أقطعها كونت طرابلس للداوية . ويعتقد الأستاذ جان ريشارد أن هناك صلة ما بين اقطاعات الداوية في كوتية طرابلس وبين سقوط حصون هذا الأقطاع في أيدي المسلمين ، ففي ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على حصن أنطربوس «^{٥٣}» ، وفي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فتح نور الدين حصنا العريمة وصافيشا «^{٥٤}» . ونلاحظ أن قمامصة طرابلس كانوا يمنحون الداوية قلاع كوتيتهم التي خربتها جيوش المسلمين لترميمها واتخاذها مراكز دفاعية للكوتية «^{٥٥}» .

أما أملاك الداوية الخاصة في كوتية طرابلس فغير معروفة على وجه الدقة ، ويبدو أن الداوية كانوا ينازعون الاستبارية على امتلاك حصن الأكراد وبعرين ، كما أنهم نازعوا الجنوية بسبب الدور التي أقامها الداوية في ظاهر عرقة على أراضى تابعة للكنيسة الجنوية .

(٥٣) ابن القلانسي ، ص ٣١٨

(٥٤) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٤

(٥٥) J. Richard, p. 67

وهكذا خرج القسم الشمالى من كوتية طرابلس من أيدي القمامصة، وآل الى منظمتى فرسان الاستتارية والداوية ، وأصبح لهؤلاء ، وخاصة للاستتارية ، منطقتين هامتين للغاية : فقد آلت الى هاتين المنطقتين جميع الأراضى الواقعة شمالى النهر الكبير باستثناء اقطاع مرقية ، وأصبحت حدود الكوتية مع أراضى المسلمين تقتصر على بضع منافذ بلبان بين عكار والمنيطرة ، فى حين وقع عبء محاربة الاسماعيلية وأمراء حمص وحماة فى القرن الثالث عشر على عاتق فرسان الداوية والاستتارية ، وتفرغ سكان الكوتية على هذا النحو لمنازعاتهم الداخلية ولأعمالهم التجارية •

واذا بحثنا عن السبب فى قيام هذه الاقطاعات الدينية الطابع ، نجد أنها ترجع أساسا الى ضعف موارد كوتات طرابلس وقلة امكاناتهم لتحسينها واعدادها لتكون صالحة أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد الاسلامى ، وأدت الهزائم الساحقة التى منى بها قمامصة طرابلس الى ابداء قوة خيالهم التى لم يستطع الوافدون الجدد من الصليبيين أن يدعموها التدعيم الكافى ، ثم ان كوتية طرابلس لم يعد لها من قواعد فى الغرب سوى المنطقتان الطولوشية والپروثنسية اللتان انصرفتا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر عن متابعة الاشتراك فى الحركة الصليبية • وكان الفونس جوردان ، آخر أمراء الحركة الصليبية الذين قدموا من طولوشة للاشتراك فى الحرب الصليبية ، والذى طالب بحقوقه فى امارة طرابلس ، كان هذا الأمير سببا من أسباب زيادة ضعف الكوتية ، وبث بذور الانقسام بين طوائفها •

وهكذا كان الاستتارية والداوية ، بإمكاناتهم المادية المتفوقة ،

ووفرتهم العددية والمالية ، معينا لا ينضب ، وقوة هائلة لا تستنفذ ، فهم يشلون قوة لا يستهان بها على أهبة الاستعداد للقتال ، ولم تكن الكوارث والنكبات التي منيت بها هاتان المنظمتان تفت في عضدهما أو تقلل كثيرا من قوتهما ، لأن هذه القوة كانت قابلة دائما للزيادة ، وهذا يفسر السبب في أن كوتية طرابلس ، أضعف الامارات الصليبية في الشرق ، كانت أول هذه الامارات في الاغداق على هاتين المنظمتين الدينيتين ، وبالذات منظمة فرسان الاستبارية ، بالاقطاعات والمنح ، وفي التمهيد التمهيد لها بإنشاء ما يشبه الولاية المستقلة ، على حساب أراضي الكوتية ، الى حد تصبح بعده الكوتية قاصرة على قسمها الجنوبي «^{٥٦}» .

ومما تقدم يمكننا ان نميز مرحلتين في تاريخ الكوتية : الأولى مرحلة استقلال الكوتية بالدفاع عن نفسها ، وتنتهي هذه المرحلة بوفاة برتران ، والثانية وتبدأ منذ قيام أتابكية حلب ودمشق ، وفيها نشهد الهزائم الساحقة التي منى بها بوثر وريموند الثاني ، وحاجة الكوتية لخدمات الاستبارية والداوية . وعند قيام صلاح الدين تسوء حالة الكوتية أكثر مما ساءت في عهد نور الدين ، وتنسو مقاطعات الاستبارية وتنتد حتى تصبح أشبه ما تكون بدولة مستقلة ، بينما تنشأ مقاطعة أخرى شبه مستقلة لصالح الداوية . ولم تلبث هاتان المنظمتان أن أصبحتا في عهد الأسرة النورمانية البواتية « أسرة بوهمند » العناصر النشطة الوحيدة في كوتية طرابلس ، فعليها كان يقع عبء الحرب المقدسة ، ولم يلبث حصن الأكراد

الذى عرف باسم « فرقة الخيالة » Crac des Chevaliers أن أصبح
المركز الدفاعى الرئيسى عن كوتية طرابلس «^{٥٧}» .

ز - عناصر السكان البلديين فى كوتية طرابلس :

بالاضافة الى طائفة الفرنجة بطبقيتهم الأشراف والبرجوازية ،
والجاليات الايطالية التى كانت تقيم فى أحياء خاصة ، كانت كوتية طرابلس
تضم عناصر محلية تتوزع فى طوائف منفصلة فيما بينها نذكر منها
ما يلى :

١ - المسلمون : احتفظت كوتية طرابلس بجماعة من المسلمين تبقت
من سكانها القدامى قبل الغزو الصليبي ، فعلى الرغم من هجرة العدد
الأعظم من سكان الكوتية الى ديار الاسلام على أثر المذابح الرهيبة
التي تبعت دخول الصليبيين فى أراضي الشام ، كان بعض المسلمين ممن
استهواه حب الوطن ، ودفعه الحنين اليها يعود الى هذه المدن التي كان
قد هجرها بعد الغزو الصليبي ، ويستقر فيها بعد أن يشترط عليه الصليبيون
شروطا فى ذلك «^{٥٨}» . وكان هؤلاء المسلمون يؤدون الخراج والطاعة
للفرنج «^{٥٩}» ، ويشترك بعضهم فى الغزوات التي كان يقوم قيامتها طرابلس

(٥٧) Ibid. p. 70

(٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٠٧

(٥٩) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت واخبار الأمراء البعترين من

بنى الغرب ، تحقيق الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٨٩٨ ص ٣٩

بها ضد المسلمين ، ويذكر ابن القلانسي أن جماعة من مسي جيل عاملة كانوا يعاونون الصليبيين في بانياس « ٦٠ » . وكان الصليبيون في كوتية طرابلس ، شأنهم في ذلك شأن اخوانهم في ملكة بيت المقدس ، يحسنون معاملة المسلمين المستقرين في أراضيهم ويرفقون بهم ، وكانوا يتركون لهم أراضيهم يزرعونها نظير نصف غلاتها وبعض ضرائب أخرى خفيفة . ويذكر ابن جبير أن المسلمين كانوا « مع الفرنجة في حالة ترفيه — نعوذ بالله من الفتنة — وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضيها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم ، وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رسايقها كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياح ، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رسايق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق ، وهذه الفجائن الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأس بعده « ٦١ » .

وكان لكل ضيعة أو قرية رئيس مسلم هو الناظر فيها ، يقدمه الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين « ٦٢ » . ويبدو أنه كان يمنح للمسلمين

(٦٠) ابن القلانسي ، ص ٣٣٩

(٦١) ابن جبير ، ص ٣٠١

(٦٢) ابن جبير ، ص ٣٠٢

مسجد صغير يؤدون فيه صلاتهم على النحو الذي كان متبعاً في صور وعكا «٦٣» .

ونستنتج أيضاً مما ذكره ابن جبير أن التجار المسلمين كانوا يجتازون الأراضي التابعة للصليبيين بعد أن تحصل منهم المكوس ، وهي دينار وقيراط عن كل رأس ، وكان هؤلاء التجار ينزلون نزلاً خاصاً بهم «٦٤» .

٢ - النصارى : كان منهم اليعاقبة ، وكانت لهم أسقفية بطرابلس ، وكانوا يؤثرون السكنى في بلدة جونبة «٦٥» ، ومن المعروف أن الفرنج كانوا يحسنون معاملتهم ، ولم يعطلوا كنائسهم ، ولذلك أيد اليعاقبة الحكم الصليبي «٦٦» ، وكان منهم الموارنة وهم الأغلبية العظمى من جمهور سكان كوتية طرابلس النصارى ، ولقد كان الموارنة قد انضموا مع الصليبيين منذ البداية ، وارتبطوا معهم بروابط ودية وثيقة ، فساعدوا ريموند دى سان جيل في حصار مدينة طرابلس «٦٧» ، ويذكر الشدياق أن أمير المردة أرسل ولده الأمير سمعان في سنة ١٢٥٠ م على رأس خمسة

(٦٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٢

(٦٤) نفس المرجع ، ص ٣٠٣

(٦٥) J. Richard, p. 86

(٦٦) Lammens, op. cit. p.248

(٦٧) حتى ، لبنان في التاريخ ، ص ٣٩٢ — محمد عزة دروزة ،

العرب والعروبة ، ص ٤٩٩ — ٥٠٠

وعشرين ألف من الخيالة الموارنة الى لويس التاسع ملك فرنسا عند وصوله الى عكا ، نجدة له ، وكان لذلك التصرف من جانبه أعظم الأثر في قيام علاقة من الود بينه وبينهم «٦٨» .

(٦٨) الشدياق ، ج ١ ص ٢٥١ . كتب لويس التاسع الى أمير الموارنة يقول :

« لقد أفعم قلبنا سرورا عند رؤيتنا ولدكم سيمان آتيا إلينا من قبلكم على رأس ٢٥ ألف رجل يبلغنا عبارات حساساتكم ، ويقدم لنا الهدايا فضلا عن الخيل الكريمة التي أرسلتموها إلينا . فنؤكد لكم أن المودة الصادقة التي أخذنا نشعر بها بحرارة شديدة نحو الموارنة في مدة اقامتنا في قبرص ، حيث هم مقيسون ، قد زادت فينا أيضا ، ونحن على يقين من أن هذه الأمة التي وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون إنما هي قسم من الأمة الفرنسية ، وأن اخلاصها للفرنسيين أشبه باخلاص الفرنسيين بعضهم البعض ، ومن ثم فسن العدل أن تستعوا أتمم وسائر الموارنة بنفس الحساية التي يستع بها الفرنسيون لدينا ، وأن تقبلوا في الوظائف نظيرهم تماما . ونحن نعرضك أيها الأمير الشريف على بذل الغيرة والجهد في سبيل سعادة سكان لبنان ، وعلى العناية باقامة أشرف من الأكثر أهلية بينكم كما يعمل عادة في فرنسا ، وأنتم أيها السيدالبطيريك والسادة الأساقفة وسائر الاكليروس والشعب الماروني مع أميركم الشريف أيضا ، إنما يعزينا تعلقكم الثابت بالديانة الكاثوليكية واحترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس ، ونحضكم على حفظ هذا الاحترام وعلى الثبات على ايمانكم بلا انقسام . أما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم أتمم وشعبكم نفس الحماية التي للفرنسيين أنفسهم وبأن نعمل على الدوام كل ما هو ضروري لسعادتكم » صدر من عكا في ٢١ مايو سنة ١٢٥٠ وهي الرابعة والعشرون لتسلكنا . التوقيع (راجع يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ج ١ ص ٢٢٨ — Nantet, p. 66)

وكان الموارنة «٦٩» يسكنون الجبال المجاورة لمدينة طرابلس مثل
اهدن وجبة بشرى والحدث وبقوفا وعكار والزاوية والضنية والبترون
وجبيل والمنيطرة «٧٠» .

ولقد قام الموارنة في جبل طرابلس وفي كسروان بمساعدة الصليبيين

(٦٩) تنسب طائفة الموارنة أو الطائفة المارونية الى القديس مارمارون
الذي عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي وتوفي فيما يقرب من عام ٤١٠م
(فيليب حتى ، لبنان في التاريخ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٣) أما يوحنا مارون
الذي تعتبره الطائفة المارونية بطلا للقومية المارونية فكان أول بطريرك لهذه
الطائفة ، واليه يرجع الفضل في جمع شمل أبناء ملته وحسايتهم من الفوضى
والانحلال . ولد يوحنا مارون في قرية سرومة الواقعة بجبل السويدية على
مقربة من أنطاكية في الثلث الاول من القرن السابع الميلادي . وقد نجح
يوحنا في أن يجعل من الموارنة شعبا ذا سيادة ، كما اهتم بتنظيم أمور
أتباعه فعين لهم كينة وقسسا لأموار دينهم وأمراء وقادة لجيوشهم للدفاع
عن شعبه (يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ١ ص ١٨٢)
فيما يختص بتاريخ الموارنة راجع المصادر الآتية :

الدويهي (اسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ١٨٩٠

يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ج ٥ ، بيروت ١٩٠٠

لامنسى : تشرح الأبصار فيما يحتويه لبنان من الآثار ، بيروت ،

جزآن ، ١٩١٤

لويس شيخو : بيروت ، تاريخها وآثارها ، ١٩٢٧

Pierre Dib, L'Eglise Maronite, vol. I, Paris 1930

عجاج نوبهض : أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، بيروت ١٨٩٠

(٧٠) J. [Nantet, Histoire du Liban, p. ١٦٥]

في حروبهم ضد المسلمين خاصة في أواخر أيام الفرنجة في الشام (قرب نهاية القرن السابع الهجري) حيث اشتد نشاط سلاطين المماليك لتصفية ما بقى من إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس ؛ ففي سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) زحفت قوات المسلمين على كسروان والجرد لأن سكان هاتين المنطقتين نزلوا من الجبال لنجدة الأفرنج عندما حاصر المسلمون طرابلس ، وقتلوا عددا كبيرا من عسكر السلطان ، وكان سنقر الأشقر المنصوري يقود جيش المماليك الذي ساهم فيه أمراء الغرب التنوخيون وعلى رأسهم جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد وزين الدين . وقد تسكن الموارد من إيقاع الهزيمة بجيش المسلمين « ٧٧ » . وفي سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) تمكن الموارد الكسروانيون من الترسد لجيش المماليك في الأوعار ومضابق الجبال وهزموهم هزيمة نكراء ؛ وفي سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) أعلن الموارد خروجهم على طاعة الناصر محمد بن قلاوون بعد هزيمته على أيدي المغول وتحصنوا بجبالهم المنيعه ، فخرج جمال الدين آقش الأفرم نائب الشام اليهم لارغامهم على الرجوع الى الطاعة ، فأبوا ، وعندئذ اجتمعت عساكره وعدتها خمسون ألفا في المحرم سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) مع عساكر طرابلس بقيادة نائبها سيف الدين أسندير ، وعساكر شمس الدين سنقرجاه المنصوري نائب صفد ، وتمكن عسكر أسندير من اخضاعهم بعد أن دمر دورهم وقتل منهم عددا كبيرا ، واستخدم جناعة منهم في طرابلس بجامكية ، وأقطع بعضهم أملاكا من حلقة طرابلس « ٧٣ » .

(٧١) محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ، ص ٤٧٩

(٧٢) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٤٨ — ٥٠

وكان من بين طبقات النصارى المحليين في كوتية طرابلس طبقة عبيد الأرض ، وطبقة العامة ، وطبقة البرجوازية ، وطبقة مثرية تتكون من سادة القرى ورؤساء القبائل في الكوتية ، ويعرفون بالرؤساء «٧٣» • وكان هؤلاء الرؤساء يزودون جيش الكوتية بالخيالة البلديين «٧٤» • وعلى الرغم من مساعدة هؤلاء الرؤساء للفرنجة ، فقد كان بعضهم يعمل على التآمر عليهم وخيانتهم ، ويرجع وليم الصوري معظم هزائم الفرنجة اليهم «٧٥» •

ويبدو أن الصليبيين أفادوا فائدة كبيرة من خبرة النصارى البلديين في الكوتية ، فوضعوهم في المناصب التي تستلزم احتكاكا مباشرا مع المسلمين ، فديوان التكميس بعكا على حد قول الرحالة ابن جبير كان يتولاه كتاب من النصارى الذين يحسنون التكلم بالعربية والكتابة بها «٧٦» •

٣ - اليهود : كانت لهم مستعمراتهم الرئيسية في جيل ، ويبدو أن قيام كوتية طرابلس البروقية اجتذب عددا كبيرا من يهود جنوبى

(٧٣) J. Richard, p. 87 -- J. Nantet, p. 66

(٧٤) عرف أفراد الخيالة الصليبية المكونة من البلديين (مسلمين ونصارى) باسم التركبولى • وقد اتخذ كونت طرابلس منهم حرسه الخاص فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر (راجع زكى النقاش ص ١٦١)

(٧٥) J. Richard p. 83

(٧٦) ابن جبير ، ص ٣٠٢

فرنسا ، فاندماج الوافدون من اليهود مع اليهود البلديين الذين كانت امارة بنى عمار تدين بسرائها وتفوقها الاقصادى الى حد ما الى الدور التجارى الذى لعبه اليهود فى بلادهم «٧٧» ، وقد أحصى الاستاذ چاك ناتيه عدد الأسرات اليهودية فى كوتية طرابلس ، فوجد أنها كانت تضم ما يقرب من مائة وخمسين أسرة «٧٨» . وقد اشتغل يهود الكوتية بأعمال مختلفة منها الصيرفة «٧٩» ، واحتكروا دون سواهم صناعة الأسباع والديانة وتحضير الغراء «٨٠» .

ح - الحياة الاقتصادية فى الكوتية :

ازدهرت الحياة الاقتصادية فى كوتية طرابلس ازدهارا يذكر بما وصلت اليه فى عهد بنى عمار ، فلقد كانت كوتية طرابلس تقوم بدور الوسيط التجارى بين داخل البلاد والخارج ، فكانت على حد قول الادريسي معقلا « من معاقل الشام مقصود اليها بالأمته وضروب الأموال وصنوف التجارات » «٨١» . وعلى الرغم من الأضرار الجسيمة التى سببها زلزال ١١٥٧ فى عمران الكوتية ، فقد ظل اقتصادها متمشيا وخاصة فى مدن الساحل وطرابلس على رأسها جميعا .

(٧٧) J. Richard, p. 86

(٧٨) J. Nantet, p. 64

(٧٩) زكى النقاش ، ص ١٩٣

(٨٠) زكى النقاش ، ص ١٨٣

(٨١) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٧

فمن حيث الثروة الزراعية كانت الكوتية تعتد بوجه خاص على زراعة القطن وقصب السكر^(٨٢) ، وكانت تحيط بطرابلس بساتين مستدة غرست فيها أشجار البرتقال^(٨٣) . وذكر الادريسي أن بطرابلس من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشيء الكثير. ومن حيث التجارة ، كان ميناء طرابلس يجتذب اليه قسما كبيرا من تجارة البحر المتوسط^(٨٤) ، فكان يشحن منها الى موانئ الغرب في إيطاليا وجنوبي فرنسا منتجات الشام والشرق ، وكانت طرابلس على هذا النحو وثيقة الاتصال من الناحية التجارية مع الامارات الاسلامية المجاورة ، وكان قوافل المسلمين على حد قول ابن جبير « تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين » . ومن حيث الصناعة اشتهرت طرابلس بوجه خاص بصناعة المنسوجات النفيسة ، وكان يصنع بها نوع من النسيج السميك يشبه الديباج يعرف باسم المخمل les Camelots^(٨٥) ، وكانت تضم في القرن الثالث عشر أربعة آلاف نول لنسج الحرير والمخمل^(٨٦) .

(٨٢) Nantet, p.72 — زكى النقاش ، ص ١٧٦

(٨٣) Dussaud, Deschamps, Seyrig, plate 113

(٨٤) Michaud, op. cit. p. 449

(٨٥) E. Rey, Colonies Françaises en Syrie aux Xlle et
XIIIe Siècles, Paris, 1883 p. 220 - J. Nantet, p. 73

(٨٦) Rey, op. cit. p. 216 - Dussaud, pl. 113

كذلك اشتهرت طرابلس بتفوقها في صناعة الصباغة التي اختص بها يهود الكوتية وكانت هذه الصناعة تعتمد على نوع من النبات يطلق عليه اسم الجرانس الذي كانت تستخرج منه أصباغ أرجوانية اللون • وذاعت شهرة طرابلس أيضا في صناعة الزجاج وأنواع الخزف «^{٨٧}» •

ط - الحياة العلمية :

احتفظت طرابلس الصليبية بشهرتها العلمية التي وصلت اليها في عهد بني عمار ، فقد كانت في عصر الصليبيين مركزا علميا متفوقا يفد اليه طلاب العلم من أوروبا لأخذه على علمائها المسلمين والنصارى البلديين • وذاعت شهرتها في علوم الطب والكيمياء والصيدلة والرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة والفلك • ففي مجال الطب كانت مدرسة طرابلس أعظم مدارس الطب في الامارات الصليبية على الاطلاق ، وكان الطب من اختصاص اليعاقبة البلديين ، نخص بالذكر منهم الأسقف اليعقوبي ميشيل الحلبي الذي مارس الطب محاطا بتقدير رجال الدين وطبقة أشراف الفرنجة «^{٨٨}» ، وفي طرابلس أتم العالم الكبير برهيراوس دراساته العلمية على أستاذ نسطوري طرابلسي ، ويشير أحد اليعاقبة الأنطاكيين الى وجود

(٨٧) Nantet, p. 73

(٨٨) Rey, op. cit. p. 181 - Lammens, La Syrie, p. 246

عدد كبير من الأطباء اليعاقبة والملكانيين والمسلمين في طرابلس كان يتردد عليهم في معاملهم وعالجوه في المستشفيات «^{٨٩}» •

كذلك نبغ في طرابلس أدباء وكتاب كانت لهم شهرة كبيرة في العصر الصليبي نذكر منهم وليم الطرابلسي الذي صنف كتاباً عن العرب استقى مادته من أصول عربية ، وقد اهتم في مصنفه بذكر قصة الراهب بحيرى، وفيه أوضح مشكلة الخلافة وقارن بين الخليفة عند المسلمين والبابا عند المسيحيين «^{٩٠}» •

Lammens, La Syrie, p. 246 (٨٩)

Ibid. p. 264 (٩٠)

الفصل الخامس

استرداد المسلمين لطرابلس

(١) محاولات صلاح الدين وخلفاؤه من البيت الأيوبي

أ - المد الاسلامي في عهد نور الدين

ب - سياسة صلاح الدين والعاقل نحو كوتية طرابلس

(٢) غزو بيسر لأراضى الكوتية

أ - تجريد كوتية طرابلس من حصونها ومعقلها الإمامية

ب - عوامل تأخير استرداد المسلمين لطرابلس

(٣) سقوط طرابلس في أيدي المسلمين

أ - وضع إمارة طرابلس بعد وفاة بوهمند السادس

ب - معركة التحرير

الفصل الخامس

استرداد المساميين لطرابلس

(١)

محاولات صلاح الدين وخلفاؤه من البيت الأيوبي

١ - المد الإسلامي في عهد نور الدين :

كان الصليبيون قبل ظهور عماد الدين زنكي بن آقسنقر « قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاديهم ، وتتابع غزواتهم ... »^(١) ، ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير بعد ظهور عماد الدين زنكي ، فمنذ أن تولى إمارة الموصل والجزيرة في سنة ٥٢١هـ^(٢) حتى « أخذت عقود الفرنج تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع »^(٣) ، فقد شرع عماد الدين في تسكين نفوذه في المناطق التي خضعت لسلطانته ،

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٧٦

(٢) السيد الباز العريني ، مصر في عصر الأيوبيين ، القاهرة

١٩٦٠ ص ١٥

(٣) أبو شامة ، ج ١ ص ١١٥

وتوسعة هذه المناطق بضم ما أمكنه ضمه من البلاد الجزرية والشامية ،
تهدداً للمهمة العظيمة التي نيطت إليه ، وهى الجهاد ضد الصليبيين ،
واستخلاص الأراضى الإسلامية التى كانوا قد استولوا عليها • وما ان تم له
تحقيق الشطر الأول من خطته بضم حاب فى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) بحجة
تخليصها من أخطار الصليبيين «^٤» ، وحياة فى سنة ٥٢٤ وحصى فى سنة
٥٣٢ هـ ، وبعليك فى سنة ٥٣٤ هـ ، والقضاء أيضاً على التحالف الدمشقى
الصليبي «^٥» ، حتى تفرغ للصليبيين ، فأخذ يعمل على توجيه ضرباته نحو
القوى الصليبية التى ظهرت عليها عوائل الخلاف والانتقام بعد وفاة
فولك ملك بيت المقدس ، فاستغل هذه الفرصة المواتية لمهاجمة الرها ،
ونجح فى ذلك نجاحاً تجاوز كل تقدير فى الحساب ، واختتم بفتحها فى سنة
٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) سلسلة انتصاراته السابقة : فى حصن الأثارب «^٦» (فى
سنة ٥٢٤ هـ) ، وفى شيزر وعركة «^٧» (فى سنة ٥٣٢ هـ) وفى بعين «^٨» فى
سنة ٥٣٤ هـ) • ولم يتهياً لعساد الدين زنكى أن ينفذ خطته كلها بالنسبة
للإمارات الصليبية الأخرى ، وهى خطة كانت تهدف — بعد استيلائه على
الرها — الى القضاء على إمارة طرابلس ، حتى يتسكن بعد ذلك من فصل

(٤) السيد الباز العرينى ، المرجع السابق ، ص ١٨

(٥) حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٤٣

(٧) ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق الاستاذ

عبد القادر أحمد طليبات ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٥٦ ، ٥٧

(٨) نفس المصدر ، ص ٥٩

مطانية عن بيت المقدس «٩» ، ثم يعمل على هذا النحو على ضربيهما
الواحدة بعد الأخرى ، فقد وثب عليه غلام افرنجى وجماعة من المماليك ،
فقتلوه على فراشه في ٦ ربيع الثانى سنة ٥٤١ هـ .

وخلفه على حلب ابنه المجاهد نور الدين محمود ، فى وقت بلغ فيه
الصراع بين الصليبيين والمسلمين ذروته ، وبدأ نور الدين ينفذ خطة أبيه
فى تكوين جبهة اسلامية قوية ، عن طريق التكتل وتوحيد القوى الاسلامية
المتباعدة فى الشام ، وتم ذلك على مرحلتين .

المرحلة الاولى : وتبدأ باستيلائه على دمشق نهائيا فى صفر سنة
٥٤٩ هـ «١٠» (١١٥٤ م) بعد محاولات ثلاثة ، أولها عندما قام الصليبيون
بمحاصرتها فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ورحيلهم عنها بعد أن بلغهم مسارعة
عسكر المسلمين من سائر البلاد الشامية لنجدة الدماشقة ، وتتابع خيالة
التركمان ورجالتهم ، واجتماع نور الدين محمود ومعين الدين أنر قرب
دمشق ، وزحفهما الى حصن العريمة بايعاز من ريمند الثانى كونت طرابلس ،
ولجأهما فى التغلب على هذا الحصن وأسر برتران الثانى ابن الفونس
چوردان (الادفونش) وأمه ، وانضمام قوات سيف الدين غازى صاحب
الموصل الى المعسكر الاسلامى «١١» .

(٩) حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ١٧٩

(١٠) ابن القلانسى ، ص ٣٢٧ — ٣٢٩ ، أبو شامة ، الروضتين ،
ج ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٤٢

(١١) ابن القلانسى ، الذيل ص ٣٠٠ — أبو شامة ، ج ١ ص ١٤٣ —
ابن واصل ، ج ١ ص ١١٤ — ابن الأثير الباهر ، ص ٩٠

ثم تبتعتها المحاولة الثانية للاستيلاء على دمشق في سنة ٥٤٥ هـ ،
وذلك عندما عاد الدماشقة الى تطبيق سياسة التحالف مع الصليبيين في بيت
المقدس ، وقد انتهت هذه المحاولة بالصلح بين نور الدين ومجير الدين
صاحب دمشق ، حقنا لدماء المسلمين «١٢» . أما المحاولة الثالثة فكانت في
العام التالي (في محرم سنة ٥٤٦ هـ) وذلك لمعاوضة أهلها للفرنج وانتصارهم
بهم . وفي هذه المحاولة لم يحاول نور الدين اقتحام دمشق عنوة حتى
لا يوصم بعد ذلك بأنه اغتصبها قهرا من أهلها ، وآثر أن يحاصرها الى
أن تم الصلح بينه وبين مجير الدين أبق في شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٦ هـ «١٣» .

أما المحاولة الأخيرة فانتتهت باستيلائه عليها نهائيا في سنة ٥٤٩ هـ
(١١٥٤ م) بعد أن أثار أهلها على مجير الدين الذي كان من الضعف
والتخاذل الى الحد الذي دفعه الى الاستنصار بالصليبيين على
المسلمين «١٤» ، وقد أطمع تخاذله الصليبيين في الاستيلاء على دمشق ،
فجعلهم يفرضون على أهلها « قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجيء الى
دمشق ويجيبها من أهل البلد ، حتى أرسل الفرنج ، واستعرضوا عبيدهم
واماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند

(١٢) أبو شامة ، ج ١ ص ١٧٩

(١٣) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ - ٣١٦

(١٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٦ - ابن الأثير ،
الباهر ، ص ١٠٦ - برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، تعريب نبيه
أمين فارس ، ومحسود يوسف زايد ، بيروت ، ١٩٥٤ ص ٢١٧

مواليهم أو العودة الى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار اليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد ، الى أن حصروه في القلعة ... » « ١٥ » .

وباستيلاء نور الدين على دمشق أصبحت بلاد الشام الاسلامية ترتبط في وحدة وثيقة تحت زعامته ، وأوجد هذا العمل العظيم نوعا من التوازن بين قوى المسلمين وقوى الصليبيين في بلاد الشام . وكان الصليبيون يستغلون الفرقة والانقسام بين صفوف المسلمين لتسديد ضرباتهم الى مدن الشام . وكان الصليبيون يستغلون الفرقة والانقسام بين صفوف المسلمين لتسديد ضرباتهم الى مدن الشام المختلفة ، فعندما هاجم الصليبيون عسقلان ، لم يكن نور الدين يستطيع أن يفعل شيئا لانقاذها من الصليبيين بسبب وجود دمشق حائلا بينه وبين الدفاع عنها « ١٦ » .

اما المرحلة الثانية من توحيد الجبهة الاسلامية ، فقد تمت بعد فتح العسكر النورى لمصر ، القاعدة الهجومية والدفاعية عن الشرق الأدنى ضد الصليبيين ، واليهما يرجع الفضل في طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام « ١٧ » . وقد نجح نور الدين في خطته على نحو تجاوز كل تقدير ، وضمن بذلك وضع الصليبيين في الشام بين شقى رحى .

(١٥) ابن واصل ، ج ١ ص ١٢٦ — ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٦ ، ١٠٧

(١٦) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٥٩

(١٧) محمد مصطفى زيادة ، تصدير لكتاب نور الدين والصليبيون ،

للدكتور حسن حبشى ص ٣

وفي خلال هاتين المرحلتين ، لم يكف نور الدين عن تهديد قوى الصليبيين في الشام ، فعندما انتهز جوسلين الثاني الذي اقتصرت امارته الصليبية بعد سقوط الرها على تل باشر وسميساط ودلوك ومرعش وأعزاز وراوندان ، فرصة انقسام الأتابكية الزنكية عقب مصرع عسادلدين زنكي الى امارتين ، وحاول استرداد الرها ، أخفق في هذه المحاولة كما أخفق في محاولات أخرى انتهت بوقوعه أسيرا في يد نور الدين في ٥ محرم سنة ٤٥ هـ « ١٨ » . ولما أسر جوسلين تيسر لنور الدين فتح « تل باشر وعين تاب وأعزاز وقورس والراوندان وحصن البارة وتل خالد وكفر لاثا وكفر سوت وحصن بسرفوث بجبل بنى عليم ودلوك ونهر الحوز وبرج الرصاص » « ١٩ » . أما بالنسبة لأنطاكية فقد انتهز نور الدين فرصة رحيل الصليبيين الأوربيين ، وعلى رأسهم لويس السابع ، عنها الى بيت المقدس حتى بادر بتوجيه ضربته التالية نحوها ، واصطدمت قواته مع قوات ريموند دى بواتيه في بلدة انب في صفر ٥٤٤ ، وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين ، ولقى أميرهم رسوند مصرعه في هذه الموقعة « ٢٠ » ، كما قتل

(١٨) ابن القلانسي ، ص ٣١٠ - ابن واصل ، ج ١ ص ١٢٣ - ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠١

(١٩) أبو شامة ، ج ١ ص ١٨٥ - ابن الأثير ، الباهر ص ١٠٣

(٢٠) ابن القلانسي ص ٣٠٥ - أبو شامة ، ص ١٥٢ - ابن واصل

زينو صاحب كيسوم ومرعش وعلى بن وفا زعيم الباطنية الحشيشية «٢١».

واستغل نور الدين هذه الفرصة وحاصر أنطاكية بعد أن خلت من حمايتها ، ولكنه لم يشأ أن يفتحها خوفا من أن يتدخل البيزنطيون في المعركة «٢٢» فأرجأ فتحها الى فرصة أخرى مواتية ، ثم زحف نحو أقامية وافتتحها في ١٨ ربيع الأول سنة ٤٥٤ هـ «٢٣» (٩١١٤٩ م) . ولما توفي بلدوين الثالث ، وانصرف خليفته الى التدخل حريبا في مصر ، لاحت الفرصة أمام نور الدين في معاودة الهجوم على أنطاكية ، فخرج على رأس قهاته في سنة ٥٥٩ هـ قاصدا حارم ، وأدرك قسطنطين كولمان حاكم قيليقيا البيزنطي مدى الخطر الذي يهدد أملاك البيزنطيين اذا تمكن نور الدين من فتح أنطاكية ، فحشد جيشا من الأرمن وزحف نحو حارم ، فعندما علم نور الدين بذلك غير خط سيره الى أرتاح «٢٤» ، ويبدو أن بوهمند الثالث ، وكان فتى غريرا ، انخدع بانسحاب نور الدين ، وظن أن نور الدين اذا عدل عن مهاجمة حارم لخوفه من جيش كولمان ، وأن الموقف يتطلب منه مطاردته ، فضى بخيشه وراء جيش نور الدين ، ولكنه فوجيء عند

(٢١) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ٥٥

(٢٢) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، ص ٨٢

(٢٣) ابن القلانسي ، ص ٣٠٥ - ابن واصل ، ج ١ ص ١٢٢

(٢٤) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، ص ٨٩

اقتربه من بلدة عم باستدارة قوات نور الدين وتطويقها لجيشه ، فانهزم الصليبيون هزيمة نكراء ، ووقع البرنسي بوهند الثالث والكونت ريموند الثالث صاحب دابلس ، وعامل الدولة البيزنطية على أرمينية أسرى في أيدي المسلمين ، وتبع ذلك استيلاء نور الدين على قلعة حارم في ٢١ رمضان سنة ٥٥٩ هـ « ٢٥ » (١١٦٣ م) . وكان في امكان نور الدين أن يستغل هذا الانتصار الحاسم ويستولى على أنطاكية ، ولكنه لم يفعل ، ورد على من نصحه بالاستيلاء عليها بقوله : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ الا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا الى صاحب القسطنطينية وسلسوها اليه ، ومجاورة يمند أحب الى من مجاورة ملك الروم » « ٢٦ » .

ولا شك أن نور الدين لم يكن يخشى من التدخل البيزنطي فحسب بل كان يعمل حساب عموري أيضا ، ملك بيت المقدس ، كان نور الدين يخاف أن ينهض عموري اليه من الجنوب ، وكان يسعى للوصاية على الامارة ، وأن يزحف البيزنطيون عليه من الشمال ، فيحصرائه ، ويقضيان على قواته . وقد أثبتت الأيام صدق رأيه وحسن فراسته وتبصره في

(٢٥) أبوشامة، الروضتين ج ١ قسم ٢ ، ص ٣٣٩ — أبوالفداء ، ج ٥ ،

ص ٥٧ — ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٩

(٢٦) أبو شامة ، الروضتين ، قسم ٢ ص ٣٤٢

الأمور ، فقد أسرع عمورى بالعودة من مصر في نوفمبر سنة ١١٩٤ ،
وزحف نحو أنطاكية ، وترددت الرسائل بينه وبين نور الدين بشأن الأسرى ،
وانتهت المفاوضات بأن أطلق نور الدين سراح بوهمند الثالث « ٢٧ » .

ولم تقف أعمال نور الدين على تصفية أمارة الرها والحد من
خطورة أمارة أنطاكية باستئصال قلاعها وانما عمل على مواجهة مطامع
مملكة بيت المقدس دون أن يهاجمها حتى يتجنب وصول حملة صليبية
جديدة من أوروبا ، وكان نور الدين يحرص كل الحرص على ضم حصن
بانياس الى أملاكه ، فشرع منذ سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣) في مهاجمته . ففى
هذه السنة تمكن من الاستيلاء على حصن بافلس بالسيف ، وقتل حاميته ،
ومن هناك زحف نحو ثغر بانياس ، ولكنه اضطر الى العدول عن ذلك وعاد
الى حصن ٢٨ هـ ، وعقدت الهدنة بينه وبين بلدوين الثالث ملك بيت
المقدس لمدة عام كامل . ولقد قبل نور الدين أن يوقع هذه الهدنة حتى
يكسب من الوقت ما يمكنه من التأهب والاستعداد للمعركة الكبرى بينه
وبين مملكة بيت المقدس ، ولكن الصليبيين سرعان
ما نقضوا الهدنة ولم يمض على عقدها أربعة أشهر ، وذلك عندما وصلتهم
إمدادات من البحر ، وقويت بذلك شوكتهم « ٢٩ » ، فزحفوا الى الفيضة

(٢٧) حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٩٠

(٢٨) ابن القلانسي ، ص ٣٢٠

(٢٩) نفس المصدر ، ص ٣٣٧ - الروضتين ، ج ١ ص ٢٥٩

المجاورة لبانياس ، وأغاروا على جماعات الرعاة والفلاحين من المسلمين ، وأسروا من وجدوه فيها ، ناقضين بذلك شروط الهدنة .

جاء هذا الاعتداء الصليبي الآثم نذيرا لنور الدين بالخطر الجاثم ، فاستعد له منذ صفر سنة ٥٥٢ ، واستنفر أرباب الأعمال والمأقل والولايات بالاستعداد والتجمع تمهيدا لمهاجمة الصليبيين الذين نكثوا بالعهد، وظهرت آثار هذا الاستعداد فيما قام به نور الدين من استعراض لأبطاله ، وتزيين لقلعة حلب وأسوارها بالآلات الحربية « وبالجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الأفرنجية والقنطاريات والأعلام والمنجوقات والطبول والبوقات » «^{٢٠}» استشارة لنفوس المسلمين للجهاد - ولم يكتف بذلك ، بل عمد الى التأكد من تنظيم دفاعه ، فتوجه الى ناحية بعلبك لتفقد قلعتها ، وتوزيع مهام المستحفظين لها . وفي الوقت الذي كان يستعد فيه المسلمون للصدام الوشيك كان الصليبيون قد أرسلوا سرية تتألف من سبعمائة من خيالة الاستتارية والسرجنديّة والداوية سوى الرجال لتدعيم الدفاع حول بانياس «^{٢١}» ، استجابة لرغبة صاحبها هنري الثاني Omfroy الذي أحس بحركة نور الدين ، وتطلعه للاستيلاء على هذه المدينة «^{٢٢}» . وما أن وصلت أنباء احتشاد الصليبيين بالقرب من بانياس الى مسامع نصرة الدين أمير ميران أخى نور الدين ، حتى أسرع بالزحف اليهم في ١٥

(٣٠) ابن القلانسي ص ٣٣٨

(٣١) ابن القلانسي ، ص ٣٣٩ - الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٠

(٣٢) حسن حبشي ، نور الدين ، ص ٦٣

ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ (٢٨ أبريل سنة ١١٥٧ م) ، وأدركهم قبل أن يصلوا الى بانياس ، وأوقع بهم ، وتمكن رجاله من هزيمتهم ، وأسر المسلمون عددا كبيرا من مقدميهم سيقوا الى حلب «^{٣٣}» . واستغل نور الدين هذا الانتصار الكبير وزحف بقواته من بعلبك ، بقصد استئصال بانياس ، وبلغه وهو نازل عليها بعساكره يحاصرها نبأ انتصار أسد الدين في هونين على الفرنجة ، فاشتد حماسه ، وتمكن من الاسيلاء على بانياس؛ ولكن صاحبها الهنفرى تحصن في قلعتها ، فلما علم بلدوين الثالث بذلك أسرع الى نجدة الهنفرى ، فخرج المسلمون من بانياس بعد أن خربوا عمرانها ، ودمروا مبانيها ، ودخلت قوات الصليبيين بانياس وأنقذت المحصورين في قلعتها ، ثم قتل بلدوين عائدا الى بيت المقدس بعد أن فرغ من مهمته . أما الصليبيون فقد عسكروا في الملاحه ، الواقعة بين طبرية وبانياس ، فدهبهم المسلمون وهزموهم هزيمة نكراء ، وأسروا منهم عددا كبيرا من أبطالهم ، على رأسهم مقدم الداوية ، وسبق الأسرى الى دمشق؛ وخرج الدماشقة لمشاهدتهم «^{٣٤}» .

ثم حاول نور الدين استرجاع بانياس بعد ذلك ، ولكن الدفاع عنها أصبح في هذه المرة قضية تحدى من جانب الصليبيين ، له ارتباط كبير بكرامتهم وشرفهم ، فاضطر نور الدين الى رفع الحصار عنها «^{٣٥}» ، ثم

(٣٣) ابن القلانسي ، ص ٣٣٩ — البروفستين ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣٤) نفس المصدر ص ٢٤٢

(٣٥) حسن حبشى ، نور الدين ، ص ٦٦

كانت محاولته الثانية في سنة ٥٦٠ هـ ، وهي المحاولة التي انتهت بنجاحه في استرداد بانياس «٣٦» .

ولكن نور الدين ، على الرغم من الارتباك الذي أحدثته زلازل عام ٥٥٢ هـ ، وعلى الرغم من الأراجيف التي أذاعها أعداؤه بموته ، ومراسلة أولاد الأمير سلطان صاحب شيزر للصليبيين لتسليم هذه المدينة لهم ، وقدم رسل منهم لأخذها ، على الرغم من كل ذلك فقد بادر نور الدين واستولى على شيزر وعمرها وعمر أسوارها بعد أن سقطت بسبب الزلازل «٣٧» ، ثم سلمها إلى مجد الدين بن الداية «٣٨» . ورد الصليبيون على هذا العمل باستيلائهم على حارم في أول محرم سنة ٥٥٣ هـ «٣٩» مستغلين فرصة معاودة المرض لنور الدين وبدأوا ييثون غاراتهم في إقليم جوران وداريا ، ولكن نور الدين لم يلبث أن خرج بنفسه لمحاربتهم ، والتقى مع أسد الدين عقب غزوة قام بها في أعمال صيدا ، فشنا معا هجوما على أراضي

(٣٦) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٣٥٦ — ابن الأثير ، الباهر ص ١٣٠

(٣٧) ابن الأثير ، الباهر ص ١١٢ .
تهدم بسبب هذه الزلازل حصن شيزر على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ (راجع ابن القلانسي ، ص ٣٤٤ — أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٢)

(٣٨) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٦

(٣٩) ابن القلانسي ، ص ٣٥٠

الصليبيين ، فتصدى لهما بلدوين ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين .
ثم حاول نور الدين مهاجمة حصن الأكراد بالبقية من أراضي كوتية
طرابلس في سنة ٥٥٨ هـ . ولكن هذه المحاولة أخفقت بسبب مفاجأة
الاستتارية وقوات ريسوند الثالث صاحب طرابلس وبوهند الثالث
وقسطنطين كولمان لجيش نور الدين « ٤٠ » . وفي سنة ٥٦١ هـ تسكن
نور الدين من الاستيلاء على حصن المنيطرة من حصون كوتية
طرابلس « ٤١ » ، وقيل في سنة ٥٦٢ هـ « ٤٢ » . وفي هذه السنة (أعني في
سنة ٥٦٢ هـ) أغارت عساكر نور الدين على حصن الأكراد وعركة وجبله .
وافتححت العريمة وصافيثا « ٤٣ » . وأتم نور الدين فتح عركة في سنة ٥٦٧ .
ثم أغارت عساكره بعد ذلك على طرابلس « ٤٤ » .

ثم توفي نور الدين محمود في سنة ٥٦٩ باخوابي . بعد أن حقق
القسم الأعظم من خطته في توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة الخطر

(٤٠) أبو شامة ، ج ١ ص ٣١٨ — ابن واصل . ج ١ ص ١٣٥ — ابن
الأثير ، الباهر ص ١١٦

(٤١) أبو شامة ، ج ٢ ص ٣٦٠ — ابن واصل ، ج ١ ص ١٤٨ —
الباهر ص ١٣١

(٤٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٣٨ . وبجعلها أبو الفداء في
سنة ٥٦١ هـ (المختصر ، ج ٥ ص ٦٠)

(٤٣) أبو شامة ، ج ٢ ص ٣٧٤ . ٣٧٥ — ابن واصل . ج ١ ص ١٥٢ .
١٥٣ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٦٠

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٥١٧ — ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٤ .

الصليبي . وسنهى الناصر صلاح الدين أثره في هذا السبيل . ولا شك أن نور الدين محمود كان صاحب الفضل في توحيد قوى المسلمين لمواجهة الطماع الصليبيين في الشام . وأنه نكس بفضل بلائه ومهارته الحربية أن يوقف حركه الدفع الصليبي وأن يسرجع عددا من المعاقل والحصون . وأن يسهل بذلك للدور العظيم الذي قام به الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب والسلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس .

وينبغي بهذه المناسبة أن تشير إلى أن الفضل فيما أحرزه المسلمون من انتصارات في ظل نور الدين محمود يرجع قبل كل شيء إلى روح المراقبة التي تجلت في عصره ، وإلى صلاحه وزهده وجهه للجهاد . وقد أفسحت هذه الروح المجان لاشراك جماعة من المغاربة في الجهاد مع عساكره «٤٥» ، ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بجامع دمشق أوقافا كثيرة «٤٦» . كما كان يبدل غاية جهده لاقتداء الأسرى منهم لأنهم عرباء لا أهل لهم «٤٧» . ولعل اشراك جماعة من المرابطين المغاربة في الجهاد ضد الصليبيين السبب في كثره وجود التأثيرات المغربية على بعض آثار طرابلس في العصر المملوكي .

ب - سياسة صلاح الدين والعاقل نحو كونتية طرابلس :

بدأت نذر الانقضاء والاختلاف تظهر من جديد بعد وفاة نور الدين

(٤٥) ابن جبير . الرحلة ص ٣٠١

(٤٦) نفس المرجع ص ٢٨٥

(٤٧) نفس المرجع ص ٣٠٨

مهدة وحدة الجبهة الإسلامية بالتفتت والتصدد ، فلقد تنازع الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين الذي لم يكن يتجاوز من العمر احدى عشر سنة كبار قادة الشام ، مندفعين في ذلك وراء مطامعهم الشخصية للسيطرة على شؤون الشام ، ونخص بالذكر منهم شمس الدين محمد بن المقدم في دمشق وشمس الدين علي بن الداية في حلب ، وسعد الدين كشتكين الخادم في حلب ، وهو الذي قبض على ابن الداية وانفرد هو بآتابكية الملك الصالح اسماعيل •

ومن حسن طالع المسلمين في ذلك الحين أن تولى القائد البطل صلاح الدين القيام بنفس الدور الذي قام به نور الدين محمود من قبل ، لتوحيد القيادة الإسلامية ، وحسم أدواء الفتن ، تمهيدا لمواجهة قوى الصليبيين ، وكانت مصر في هذه المرة قاعدة النضال ضد الصليبيين ، والمركز الذي انطلقت منه حركة توحيد الصف الإسلامي •

شرع صلاح الدين في تنفيذ خطته للقضاء على أسباب الخلاف ، وجمع شمل المسلمين ، وتأليف كلمتهم ، تجنباً لما قد يقوم به الفرنجة من حركات توسعية مستغلين اختلاف أمراء الشام (٤٨) ، فدخل دمشق في ٣٠ ربيع الأول سنة ٥٧٠ ، ثم استولى على حمص في جمادى الأولى ، ووكل الى جماعة من عسكره بمحاصرة قلعتها ، ثم استولى على الرستن وحماة ، وزحف بعد ذلك الى حلب ، ونزل على جبل جوشن ، وأحاط عسكره بحلب • فكتب سعد الدين كمشتكين الى راشد الدين سنان زعيم

(٤٨) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٦٠٥

الاسماعيلية الحشيشية ، وأرسل اليه الأموال ووعدهم بالضياع ، نظير أن يعمل الحشيشية على اغتيال صلاح الدين عن طريق الفداوية «٤٩» . ولكن جماعة الحشيشية الذين كلفهم سنان بهذه المهمة أخفقوا في مهمتهم ، فاضطر كشتكين الى أن يكتب الى ريموند الثالث صاحب طرابلس وكافل مسلكة بيت المقدس ، وصاحب الكلية العليا في الامارات الصليبية بعد وفاة عسرى الأول «٥٠» ، يحثه على مهاجمة صلاح الدين ويعدده بكثير من الوعود ويطعمه في حمص . ولم يكن ريموند زاهدا في حمص ، وانما أراد استغلال النزاع القائم ليكسب من ورائه أملاكا جديدة وقلاعا اسلامية ، كما كان يدرك مدى الخطورة التي يمكن أن تنشأ عند قيام حلف اسلامي يضم القاهرة ودمشق وحلب «٥١» ، وعلى هذا النحو لم يتردد ريموند في الاستجابة الى طلب كمشتكين ، وزحف بجيشه الى حمص حتى يرغم صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب ، ونجح في تحقيق غرضه ، اذ انسحب صلاح الدين الى حمص «٥٢» وحصنها ، فخاف ريموند

(٤٩) ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٤ — عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٩٢

(٥٠) أمضى ريموند اثنتي عشر سنة أسيرا في حلب بعد هزيمته في حارم سنة ٥٥٩ هـ ، ثم سعى فخرالدين مسعود بن الزعفراني في اطلاقه قبل وفاة نور الدين نظير فدية قدرها ١٥٠ ألف دينار وفكاه ألف أسير (راجع الروضتين ، ص ٦١١ ، ٦١٤)

(٥١) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١٦

(٥٢) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٦١١ ، ٦١٤

من لقاء قوات صلاح الدين ، وانسحب الى حصن الأكراد . وعندئذ سار صلاح الدين الى بعلبك واستولى عليها في ٤ رمضان «٥٣» .

وفي هذه الأثناء كان سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل يراقب الأحداث ، فاستاء لاستفحال أمر صلاح الدين ، وعلو كلمته ، وامتداد نفوذه ، وعظم سطوته ، ووجد سيف الدين غازي نفسه مرغما على التداخل لينال نصيبه من الغنمية قبل أن تستد اليها يد صلاح الدين . فسير جيشا كثيفا قدم عليه أخاه عز الدين مسعود ، وانضم الى هذا الجيش عسكر حلب ، واشتبك المواصله والحلييون مع عسكر صلاح الدين في قرون حماة في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) وانتهت المعركة بانتصار صلاح الدين وتم الصلح بينه وبين خصومه على أن يكون له حكم بلاد الشام ابتداء من جنوب حماة بالاضافة الى المعرة وكفر طاب . ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل ضم اليه حصن بعيرين «٥٤» .

لم ترض هذه النتيجة التي أسفرت عنها معركة قرون حماة سيف الدين غازي أتابك الموصل ، فسعى الى نكث الصلح بين الحلبيين وصلاح الدين ، كما اتفق مع ريموند الثالث على أن يطلق من كان في أسره من أمراء الصليبيين بحلب ومن جملتهم أرناط صاحب السكرك وجوسلين

(٥٣) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ص ١١٦

(٥٤) ابن شداد ، ص ٥١ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٤ — أبو الفداء ،

ج ٥ ص ٧٨ — المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ص ٥٩ .

الثالث ، في مقابل أن يقوم ريسوند بحالفة الحلبيين والمواصلة ، وأن يساعدهم على صلاح الدين •

وأعد سيف الدين غازي للسرة الثانية حملة لمهاجمة صلاح الدين ، وعلى الرغم من كثافة جيش المواصلة والحلبين ، بحيث بلغت عدته نحو عشرين ألفا من الفرسان ، فقد تمكن صلاح الدين من انزال الهزيمة بهم عند تل السلطان في ٥٧١ هـ «٥٥» ، واستغل صلاح الدين هذا الانتصار الحاسم في الاستيلاء على بزاعة ومنبج وأعزاز • ثم تأهب لحصار حلب للسرة الثانية وحدث أن حاول الاسماعيلية اغتيال صلاح الدين أثناء حصاره لأعزاز ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل في هذه المرة كذلك ، واضطر صلاح الدين الى محاصرة مصياف حصنهم الأمنع ، ونصب عليها المجانيق في سنة ٥٧٢ هـ «٥٦» • ولم يتوان الصليبيون في هذه الآونة عن شغل صلاح الدين عن محاصرة حلب ، فقام بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مع ريسوند الثالث صاحب طرابلس وكافل ملكة بيت المقدس بمهاجمة اقليم البقاع ، غير أن ابن المقدم متولى بعلبك وأعمالها تسكن من هزيمتهم في عين الجبر وردهم على أعقابهم «٥٧» •

(٥٥) ابن شداد ص ٥٢ — أبو شامة ، ص ٦٥١ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٨ وما يليها — سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١٨ ، ١١٩

(٥٦) ابن واصل ، ج ٢ ص ٤٧ — أبو الفدا ج ٥ ص ٨٠ — السلوك ، ج ١ ص ٦٢

(٥٧) ابن شداد ص ٥٣ — الروضتين ص ٦٦٩ — السلوك ، ج ١ ص ٦٤

على أن أعمال الصليبيين العدوانية ضد صلاح الدين لم تقف الى هذا الحد ، فقد أثارت انتصارات صلاح الدين في الشام على الصليبيين والصليبيين في آن واحد مخاوف الصليبيين ، وكان لذلك أعظم الأثر في قدوم حملة صليبية جديدة الى الشام في سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) يقودها فيليب الألزاسي دى فلاندر (كنداقلندس) ، ولكن هذه الحملة فشلت في مهيتها شأنها في ذلك شأن الحملات السابقة وتحولت مشروعاتها من مهاجمة مصر الى مهاجمة حياة وحارم . ويهنا أن نعرف بوجه خاص سياسة صلاح الدين نحو كوتية طرابلس .

أدى انتصار الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع على المسلمين عند نهر تل الصافية بالقرب من الرملة في أول جمادى الآخرة سنة ٥٧٣ هـ « ٨ » الى تعديهم على أراضي المسلمين في شمال الشام في حماة وشيزر وحارم ، وعندئذ عمد صلاح الدين الى تطبيق سياسة هجومية على مملكة بيت المقدس ، وانتصر على الصليبيين انتصارات متتالية في ظاهر بانياس وفي حصن بيت الأحزان وفي مرج عيون في سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) . وفي مخاضة بيت الأحزان تمكن المسلمون من قتل الهنفرى صاحب حصن بانياس . كذلك هاجم صلاح الدين صيدا وصور وبيروت في محرم سنة ٥٧٥ هـ « ٩ » ، فاضطر بلدوين الرابع الى عقد الهدنة مع صلاح الدين في مايو سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) . ويذكر الدكتور سعيد عاشور أن هذه

(٥٨) الروضتين ، ج ٢ ص ٧٠٠

(٥٩) السلوك ج ١ ص ٦٨

الهدنة كانت وقفا على مملكة بيت المقدس مما جعل صلاح الدين في حل من مهاجمة الصليبيين في شمال الشام ، وخاصة امارة طرابلس ، فهاجم صلاح الدين بالاستعانة بأسطول مصر ثغر أنطربطوس ، وانزل بهذه المدينة خسائر زاحقة أرغمت ريسوند الثالث على عقد هدنة مدائة مع صلاح الدين في سنة ٥٧٧ هـ « ٦٠ »

ولم تلبث العلاقات بين صلاح الدين وريوند الثالث صاحب طرابلس وكافل مملكة بيت المقدس ان تحسنت بعد ذلك تحسنا ملحوسا في الوقت الذي ساءت فيه بين ريسوند وباردونات مملكة بيت المقدس بسبب اختيارهم لجى دى لوزينان ملكا على بيت المقدس . وكان ريسوند قد جدد الهدنة بينه وبين صلاح الدين لمدة أربع سنوات (٥٨١ — ٥٨٥ م ١١٨٥ — ١١٨٩ م) ودخل في طاعة السلطان ، فرد اليه صلاح الدين نرى كوتية طرابلس . فلما أقصى ريسوند عن كفالة بيت المقدس ، ازداد تقربا من صلاح الدين ، « وصار يناصحه » « ٦١ » ، وباين أهل ملته وبث السرايا في بلادهم « ٦٢ » ، ولم يلبث ان استعان بصلاح الدين ضد لوزينان عندما أزمع هذا الأخير على محاربته ، « واتسى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون

(٦٠) السلوك ، ج ١ ص ٧٧ — سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ص ١٣٤

(٦١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٩٢

(٦٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٧١٥

بذلك ووعدته النصره «٦٣» وكان ذلك من حسن طالع المسلمين ومن أسباب نصره الاسلام «٦٤» ، فان انقسام الصليبيين كان نذيرا بهزيمتهم الساحقة في حطين .

ثم كانت هزيمة الصليبيين في صفورية في مايو سنة ١١٨٧ ، وهي الوقعة التي سقط فيها عدد كبير من أبطال الصليبيين وفي مقدمتهم مقدم الاستتارية ، افاقة للصليبيين من سباتهم العميق ، وباعثا لهم على التكتل أمام الخطر الاسلامي الجديد ، فأسرع ريسوند الثالث الى الدخول في ماعة جى دى لوزينان ومصالحته ، وقد أشار العباد الأصفهاني الى هذه المصالحة فقال : « وقد كن بينهم حينئذ حلف منبعت ، وحلف منتكت ، ووقوع تفار بين الأنفار ، ووقود شرار بين الشرار ، ولما استدانوا حين حينهم ، سعوا في اصلاح ذات بينهم ، ودخل الملك على القومص ليتقمص له بالود الأخلص ، ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه ، فاصطحبا بعد ما اصططحبا واصحبا بعد ما جبعا ، وتزاور الفرنج وتوازرروا ، وتآمروا ما بينهم وتشاوروا » «٦٥» .

(٦٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث ٥٨٢
ويقول العباد الاصفهاني : « واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر »
(الفتح القسى ، ص ٦٨ طبعة الدار القومية)

(٦٤) أبوشامة ، ج ص ٧٤ ، ٧٥ — ابن واصل ، ج ٢ ص ١٨٥ —
ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث ٥٨٢

(٦٥) العباد الاصفهاني ، الفتح القسى ، ص ٦٥ — ابن واصل — ج ٢

وفي موضع آخر يقول : « جاء الملك الى القومصى بنفسه ، وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه ، وقال أصحاب القومصى له : ان لم تنصره فنحن ما نخذل الدين ، ولا نكون بأيدينا مسلمين الى المسلمين ، ونست ييهم ليوم المصاف المصافاة ، وزالت المنافرة والمنافاة »^{٦٦} . وذكر أبو الفداء أن القومصى صاحب طرابلس « كان قد هادن السلطان ودخل في طاعته ، فأرسلت الفرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة لسلطان ويوبخونه ، فصار معهم ، واجتمع الفرنج للالتقى السلطان »^{٦٧} .

ولم يكد صلاح الدين يعلم بزوال أسباب الخلاف القائم بين ريموند وجى ، ودخول ريموند في طاعة الملك ، ونكثه بذلك الاتفاقية المبرمة بينه وبين صلاح الدين حتى زحف طبريه »^{٦٨} في ٢١ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (يوليو ١١٨٧ م) ، فهدم النقابون أحد أبراجها وهدموه ، ودخلها المسلمون »^{٦٩} ، ولكن قلعتها استعصت عليه ، وكانت بداخلها أشيفا زوجة ريموند ، فأقام على حصارها فرقة من جيشه ومضى هو ليلتقى مع جيش الصليبيين الزاحف عليه . ومع شدة قلق ريموند الثالث على زوجته وبنيتها ، فقد نصح الملك بالانتظار وترقب الاحداث ، وقال له : « هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد

(٦٦) العماد الأصفهاني ، المرجع السابق ، ص ٦٨

(٦٧) أبو الفداء ، ج ٥ ص ٩٥

(٦٨) كانت طبرية ملكا لأشيفا زوجة ريموند الثالث

(٦٩) العماد الأصفهاني ، ص ٧٦ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٩٥

من السلاطين لتسلطه ، واقدامه على المخاوف وتورطه ، وإن كسرهم مرة
فلا يصح لكم الجبر ، وليس الا المراوغة والمغاورة والصبر • والصواب
ألا نخالطه ولا نباسطه ، ولا نخالفه ، ونقبل شرائطه « (٧٠) » • فاتهمه
أرناط بالخوف من المسلمين والميل اليهم ، وقال له الملك : « أنت قد قلبتكم
الآفة ، وفي قلبك المخافة » ، ولم يسمع ريموند الا الرضوخ مكرها أمام
اجماع القادة والبارونات • والتقى الجيوعان في حطين ، وانتهت الواقعة
بهزيمة شنعاء لم يشهد لها الصليبيون نظيرا من قبل ، وكان ريموند قد
أدرك بحكم خبرته وتجاربه السابقة مع المسلمين عبث القتال ، ورأى
المسلمون يحددون بالفرنجة احاطة الدائرة بقطرها ، فأيقن بالهزيمة ،
وتحايل على النجاة بنفسه ، ففتح له تقى الدين صاحب حماة ثغرة خرج
منها ريموند مع نفر من رجاله « (٧١) » الى صور ، أما قلعة طبرية فقد استسلمت
في اليوم التالي ، وأخرج صلاح الدين زوجة ريموند من القلعة بالأمان هي
ونسائها ورجالها ، ومضت الى طرابلس قاعدة زوجها « (٧٢) » • وكان فرار

(٧٠) نفس المرجع ص ٦٦

(٧١) ابن شداد ، ص ٧٧ — العماد الأصفهاني ، ص ٧٩ — ابن الأثير ،
الكامل ، حوادث ٥٨٣ — أبو الفداء ج ٥ ص ٩٥ — النجوم الزاهرة ،
ج ٦ ص ٣٢ — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٠٤ ، الناصر
صلاح الدين ، ص ١٩٤ •

(٧٢) العماد الأصفهاني ، ص ٨٥

ريشوند الثالث أثناء القتال في حطين سببا في أن يتهم بالخيانة والتواطؤ مع
عسكر صلاح الدين «٧٣» ، ويبدو أنه قهر على فراره من المعركة ، فقد
توفي بعد حطين بثلاثة أشهر اما أسفا على هزيمة الصليبيين ، أو ندما على
الفرار أو لمرضه بذات الجنب في رجب سنة ٥٨٣ هـ (اكتوبر ١١٨٧) •

وأخذت المعاقل الصليبية الكبرى تتساقط في أيدي المسلمين بعد
حطين ، فسقطت عكا والناصره وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف
والقولة ومجدل يابا ويافا والطور وقلعة تبين وصرفند وصيدا وهوين
وزرعين ويسان ونابلس واللجون وأريحا والبيرة وأرسوف وبيروت
والداروم وغزة وعسقلان والرملة والقدس وغيرها «٧٤» • وتدفقت فلول
الصليبيين وجسوع الفارين من المدن التي دخلها المسلمون شمالا نحو
طرابلس ، ولكن طرابلس التي كانت تجتاز محتتها وتجتز آلامها بعد
وفاة ريشوند الثالث وانتقال الحكم فيها الى البيت النورمانى بأنطاكية
أغلقت أمامهم أبوابها ، ورأى صلاح الدين أن يستغل انتصاره في حطين
في توجيه ضرباته لامارة أنطاكية — طرابلس في نفس الوقت الذي يقوم فيه
بتطهير الجيوب الصليبية في فلسطين ففي الوقت الذي كان يحاصر فيه
بيروت سقطت جبيل في يدي المسلمين في ٢٧ جادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ «٧٥» •

(٧٣) Stevenson, p. 246, Note 7

(٧٤) العباد الأصفهاني ، ص ٢٢٧

(٧٥) ابن شداد ، ص ٨٠ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٠٧ — العباد

الأصفهاني ، ، ص ١٠٨ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٩٦

ثم هاجم صلاح الدين حصن الأكراد المنيخ في أول ربيع الثاني سنة ٥٨٤هـ ،
وشن الغارات على البقية من أراضي كوتية طرابلس «٧٦» ، ولما استعصى
عليه الحصن تركه الى أنطربوس في ٦ جمادى الأولى ، فالفها خالية
ما عدا القلعة ، فخرّب عمرانها ، وأمر « بوضع النار في البلد » «٧٧» ،
وهاجم المسلمون صافيتا وعرقه والعريمة ، وافتتحوا حصن يحمور الواقع
الى الشمال من العريمة «٧٨» ، ولكن السلطان لم يشأ أن يستنفذ جهده
في محاصرة حصون طرابلس وقلاعها لمناعتها ووفرة حامياتها ، واستعدادها
للحصار الطويل «٧٩» فاكتمى بغاراته في نواحي طرابلس ، وزحف الى
امارة أنطاكية ، فهاجم بلباس ، واستولى عليها ، ثم استولى على جبلة
وحصن بكسرايل واللاذقية وحصن صهيون وبلادنس وبكاس ودريساك
وبلباس ، وهكذا أصبحت امارة أنطاكية - طرابلس مقصوصة

(٧٦) ابن شداد ، ص ٨٦ ، ٨٧

(٧٧) ابن شداد ، ص ٨٨ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٥٧

(٧٨) العماد الأصفهاني ، ص ٢٢٧

(٧٩) قال قاضي جبلة للسلطان : « ان الاشتغال بطرابلس
على احترازها واحتراسها وكثرة ناسها وتدرعها بلباس بأسها واستعدادها
للحصار ، وتجنبتها عن الأصغار ، يذهب الزمان ويفوت الأمنىكان »
(العماد الأصفهاني ، ص ٢٢٧ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٥٦)

الجناحين «^{٨٠}» . وأخيرا عقد السلطان الهدنة لمدة ثمانية أشهر مع صاحب
أنطاكية لشدة ضجر عسكره وملهم من مواصلة الحرب والقتال على أن
يطلق بوهند جميع أسارى المسلمين .



ولما توفي صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ (١١٩٣ م) تمزقت
مملكته بين بنيه وأخوته ، واشتد النزاع بينهم ، فانتهاز الصليبيون الفرصة
واستولوا على جبيل في سنة ٥٩٠ هـ «^{٨١}» ، ثم استولوا على بيروت وقلعتها
في سنة ٥٩٤ هـ «^{٨٢}» ، وقيل في سنة ٥٩٣ هـ «^{٨٣}» ، وأعطاهما الكونت هنري
شامبين الى جان دي ايلن «^{٨٤}» . وفي ٣ رمضان سنة ٥٩٩ اجتمع
الصليبيون ، خيالتهم ورجالتهم ، من حصن الأكراد ومن طرابلس وماحولها
من حصون ، وأغاروا على أراضى المسلمين في بعين ، فاضطر الملك المنصور
صاحب حناة الى مقاتلتهم ، وهزمهم ، وأسر عددا من مقدميهم وخيالتهم «^{٨٥}» .
ولم يمض على هذه الغارة ١٨ يوما حتى خرج حشد هائل من فرسان

(٨٠) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ص ٢١٣ — الحركة
الصليبية ، ص ٨٣٠

(٨١) ابن واصل ، ج ٣ ص ٢٦ — السلوك ، ج ١ ص ١١٦

(٨٢) نفس المصدر ، ص ٧٤ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٢٢

(٨٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٣٨

(٨٤) ابراهيم نعوم كنعان ، بيروت في التاريخ ، بيروت ١٩٦٣ ص ٢٦

(٨٥) ابن واصل ج ٣ ص ١٤٣ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٣٤

الاستتارية عدتهم أربعمئة فارس ، وألف ومائتين من الرجال عدا التركبولية ، من حصن الأكراد والمرقب ، وأغاروا على حصن بعين ، وتسكن الملك المنصور في هذه المرة أيضا من هزيتهم ، وقتل منهم مقدم التركبلية وقومضى من البحرية « ٨٦ » . وأخيرا عقد معهم الهدنة في سنة ٦٠٠ هـ « ٨٧ » . ولما انتهت الهدنة ، أغار الاستتارية من جديد على حماة في سنة ٦٠١ هـ ، فتجددت الهدنة بينه وبينهم « ٨٨ » . وفي ذى القعدة أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية ، وأكسوا جباة منهم بالقرب من جبلة ، فخرج أهل جبلة لمطاردة الفرنج فأحاط بهم الفرنج من الكسائن ، وقتلوا من المسلمين أعدادا هائلة « ٨٩ » .

وكان من الطبيعي ازاء هذه الغارات المتكررة التي كان يشنها الاستتارية على اقليم حمص أن يعمل السلطان الملك العادل على تأديب الاستتارية بحصن الأكراد وغيره من حصون طرابلس ، وارهابهم ، ففي سنة ٦٠٣ هـ نزل العادل على ضفاف بحيرة قدس (بحيرة حمص) واستدعى ملوك الشام من أهل بيته مع عساكرهم ، فقدم اليه الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ونجدة بن الملك الظاهر صاحب حلب ،

(٨٦) ابن واصل ، ج ٣ ص ١٤٩ — المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ١٦١

(٨٧) نفس المصدر ، ص ١٥٤ — السلوك ، ج ١ ص ١٦٢

(٨٨) نفس المصدر ، ص ١٦٣

(٨٩) نفس المصدر ، ص ١٦٦ — السلوك ، ج ١ ص ١٦٤

والملك الأمجد صاحب بعلبك ، بالاضافة الى عسكر سنجار والموصل
والجزيرة وآمد ، حتى بلغت عدة عساكر عشرة آلاف فارس ، فأعلن عن
عزمه على قصد كوتية طرابلس ، ثم زحف الى حصن الأكراد ونازله ،
وتسكن عسكره من افتتاح برج مجاور له يعرف ببرج أعناز ، فأمر من
حاميته نحو خمسمائة وغنم غنائم كثيرة . ثم زحف الى قلعة قريبة من
طرابلس ، نصب عليها المجانيق وحصرها فترة من الوقت حتى افتتحها ،
ثم حاصر مدينة طرابلس نفسها حصارا شديدا ، ونصب عليها المجانيق
وعاث عسكره في قرى طرابلس وضياعها وبساتينها ، واتسفوا المزارع
والثمار ، وهدموا كل بناء قائم في ظاهر طرابلس ، وقطعوا مياه العين التي
تمد طرابلس بالمياه ، وخرّبوا طرقها . ويضيف ابن الأثير أن السلطان العادل
استولى على حصن القليعات وهو حصن صغير يقع شمالي عرقة ، ثم خربة « ٩٠ » ،
واضطربوه منذ الرابع الى أن يسأله الموادة ، وأرسل اليه أموالا وهدايا ، بالاضافة
الى ثلثمائة من أسرى المسلمين ، وتم الصلح بينهما في آخر ذي الحجة
سنة ٦٠٣ هـ « ٩١ » .

(٩٠) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤ هـ —

Recueil des Historiens des Croisades, t. II, Partie 1^{ère}, p. 106.

(٩١) ابن واصل ج ٣ ص ١٧٣ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،
ج ٦ ص ١٩٦ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٤٠ — المقرئ ، السلوك ، ج ١
ص ١٦٦ ، ١٦٧ — جرجي يني ، تاريخ سوريا ، ص ٢٨٨ — سعيد عاشور ،
الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٤٨

ولما أغار الفريج على دمساط في سنة ٦١٥ هـ أمر العادل ولده
الملك الأشرف بالآغارة على كوتتيه طرابلس . فهاجم الأشرف صافيتا ،
وخرب ريفضا ، ونهب رستاقها ، وهدم ما كان قائما حولها من حصون
وقلاع ، ثم استولى على ريفص حصن الأكراد ، وحاصر الحصن ولكنه لم
يوفق في الاستيلاء عليه «٩٢» .

ثم تبع ذلك فترة من الركود بالنسبة للمعسكرين الاسلامي
والصليبي ، لم تنته الا والمغول على أبواب الشام .

(٢)

غزو بيسرس لأراضي الكونتيسة

١ - تجريد كوسيه طرابلس من حصونها ومعقلها الأماميه

أنا من قبل كيف نحدث سقوط بغداد في أيدي المغول في ١٠ من
محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٥ فبراير سنة ١٢٥٨ م) دويا هائلا في سائر أنحاء
العالم الاسلامي . ومنه المسلمون في مصر والشام الى ضرورة العمل الموحد
ومد الحلفاء وأسباب الفرقة والنزاع أمام خطر المغول الجارف ، ولذلك
السبب حرص الظاهر بيبرس على تأليف جبهة اسلاميه متحدة تضم مصر
والشام لمواجهة مؤامرات الصليبيين والمغول واجبا عليها ، والعمل على
خراج الصليبيين بصورة هائله من الشام . ولم يكن بيبرس قد نسي بعد
لدور الذي لعبه بوهمند السادس ومن حدا حدوده من الصليبيين لمساعدة
المغول . وقد كان لذلك أعنى الأثر في أن يعمل بيبرس على سحق الإمارات
الصليبيه الباقيه في بلاد الشام في أنطاكيه وطرابلس وعكا « ١ » ، وأن يبدأ
تسديدا أولى ضرباته الى اماره أنطاكيه لمعاقبه أميرها بوهمند السادس على
محالفته للمغول . فلقد كان بيبرس يرى في بوهمند العدو الأعظم له من
بين أمراء الفرنجه جميعا لأنه كان ينلفى التحذات من أوروبا ، ويعين المغول

(١) محمد عاشور . مصر في عصر دولة المماليك السعديه ، القاهرة
١٩٥٩ . ص ٥١ . العصر المماليكي في مصر والشام . القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٩

في غزوهم لبلاد الشام ويكثر من العيث وشن الغارات التخريبية على أراضي المسلمين . ولا شك أن بيرس قد نهج نفس السبيل الذي كان قد اتجه به صلاح الدين صاحب الفضل الأعظم في اخراج الصليبيين من بيت المقدس ، بل اننا نراه يتقمص شخصية صلاح الدين ويقضى الشطر الأكبر من حياته مجاهداً مشاعراً بين الشام ومصر .

شرع بيرس في تحقيق خطته في سنة ٦٦٠ هـ ، فوجه الأمير شمس الدين سنقر الرومي للاغارة على أنطاكية ، وقد نجح الأمير المذكور في خطته ، وأحرق ميناءها ، وعاد وبصحبه ما يزيد على ثلاثمائة أسير «٢» . ثم حرص بيرس بعد ذلك على ضرب طرابلس نفسها ، فهاجمها مباشرة في شعبان سنة ٦٦٤ هـ ، ولكنها استعصت عليه ، فعمد الى احتلال القلاع المجاورة لها . وفي هذه الغزوة سير بيرس عسكره بقيادة جمال الدين أيدغرئى الطريزى وعسكر آخر بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى للاغارة على بلاد السواحل ، فأغار عساكرهما على طرابلس وحصن الأكراد «٣» ، كما أغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس ، ونزلوا على حصن من عمل حصن الأكراد واستولوا عليه ، كما استولوا على قلعة حلبا

(٢) أبو الفداء ، ج ٦ ص ١٢٢ - السلوك ج ٢ ص ٤٧٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٣٨ - منتخبات من كتاب عقد الجبان

لبدر الدين العيني في : R. H. C. t. II, Partie I ére, p. 221

والقليعات ، وخرّبوا قلعة عرقة «٤» . وكانت هذه القلاع الثلاثة تؤلف ما يشبه المثلث الذى يحمى طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقى ، لاشرافها على المنفذ الموصل بين طرابلس وحمص «٥» ، فكان استيلاء الظاهر بيبرس عليها تهديدا مباشرا لطرابلس «٦» . ثم حاصر طرابلس ، فانحدر اليه الموارنة من قسم الجبال وانسطر الى رفع الحصار عنها والرحيل «٧» .

وفى شعبان سنة ٦٦٦ هـ أعاد بيبرس الكرة ، فوجه عساكره الى اقليم طرابلس ، وشن الغارة عليها ، وقطع أشجارها وخرّب قراها ، وغور أنهارها «٨» ، ورحل بعد ذلك الى حصن الأكراد ، ونزل بالمرج الذى يقع بأدنى الحصن «٩» . ولما تم له الاستيلاء على أنطاكية فى ٤ رمضان سنة ٦٦٦ هـ ، كتب رسالة الى بوهمند الذى كان مقيما وقتئذ بطرابلس ،

(٤) أبو الفداء ، ح ٧ ص ٦ — ابن الفرات ، مجلد ٦ ، ح ١ ، بيروت ١٩٦١ ، تحقيق ميخائيل خورى تذييلا لرسالة الماجستير المقدمة الى جامعة بيروت الامريكية سنة ١٩٦١ ، ص ١٩٠

(٥) Claude Cahen, p. 715

(٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٤٧

(٧) جرجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٨٩

(٨) ابن الفرات مجلد ٦ ، ح ١ تحقيق ميخائيل خورى ، ص ١٩٠ — السلوك ، ح ١ قسم ٢ ص ٥٦٦ — النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٢

(٩) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٢ — Stevenson, p. 340

تتضمن عباراتها كثيرا من معانى السخرية والتهكم اللاذع ، ثم أغار بعد ذلك على المرقب وحصن الأكراد «١٠» . وفى ١٠ رجب سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) هاجم طرابلس . وانتزع صافيشا والمجدل من الداوية ، ثم ثم زحف عسكره الى حصن الأكراد فى ١٩ رجب ، ونصبوا المجانيق وأقاموا الستائر وقبوا أسوارها الثلاثة فى ١٥ شعبان ، ودخل العسكر حصن الأكراد بالسيف «١١» ، وأطلق الظاهر بيبرس من كان فيه من الافرنج ، فتوجهوا الى طرابلس «١٢» .

ويفتح حصن الأكراد تفتحت المنافذ الى طرابلس نفسها ، وقام بيبرس بترميم بناء الحصن ، واتخذة قاعدة لعملياته الحربية ضد طرابلس «١٣» . ثم رحل الظاهر بيبرس عنه بعد أن عهد الى الأمير عز الدين أيبك الأفرم بعنارته ، وخاف صاحب أنطربوس أن تلقى مدينته نفس المصير ، فبعث الى بيبرس يطلب المهادنة ، وأرسل اليه مفاتيح أنطربوس ، فصالحه على نصف ما يتحصل من غلال بلده ، وجعل بانطربوس نائبا عنه فيها ، ثم صالح بيبرس المرقب على المناصفة كذلك فى أول رمضان سنة ٦٦٩ هـ ، وعقد مع صاحبها هدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام «١٤» ،

(١٠) نفس المصدر ، ١٤٨

(١١) King, The Knights, p. 269 , 270

(١٢) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٠ ، ١٥١

(١٣) King, op. cit. p. 271

(١٤) النجوم الزاهرة ، ح ٧ ، ص ١٥١

ولكن قوات بييرس أصبحت تطبق على المرقب من الشمال والجنوب خاصة بعد أن افتتح المسلمون مرقية التي تقع جنوب المرقب . وفي رمضان سنة ٦٦٩ هـ حاصر بييرس حصن عكار ، آخر حصون طرابلس الأمامية ، ويقع الى الشمال من طرابلس ، ونصب عليه المجانيق . وأطلقها ، فهدم جزءا من السور ، فطلب أهل الحصن الأمان على أنفسهم وأن يأذن لهم بييرس بالتوجه الى طرابلس ، فأجابهم « ١٥ » ، وبسقوط حصن عكار ينقطع الاتصال في الساحل الافرنجى بين طرابلس واللاذقية « ١٦ » ، وأصبح في امكان بييرس بعد ذلك أن يحاصر طرابلس نفسها ، ويحقق حلمه بالاستيلاء عليها . ولكن الأنباء القائلة بوصول الحملة الصليبية السابعة أنقذت طرابلس من المصير الذي لاقتة أنطاكية .

نزل بييرس على طرابلس في ٤ شوال من سنة ٦٦٩ هـ ، فأرسل اليه بوهمند السادس يستعطفه ويسأله الصلح ، فبعث اليه الظاهر بييرس فارس الدين الأتابك وسيف الدين بلبان الرومى الدوادار لمفاوضته في أن يكون لبييرس من أعمال طرابلس نصف بالسوية ، وأن يكون له فيها دار وكالة لجمع الزكاة ، وأن يعطيه بوهمند جبلة واللاذقية بخراجهما منذ

(١٥) أنور زقلمة ، المماليك في مصر ، ص ٣٧ . وفي فتح عكار يقول

معين الدين بن عبد الظاهر مهنتا :

يا مليك الارض بشرا لك فقد نلت الارادة
ان عكار يقينا هو عسكا وزيادة

(١٦) Claude Cahen, p. 715

أن خرجتا على الناصر صلاح الدين الى أيامه ، وأن يدفع له نفقة عسكر المسلمين • ولكن بوهمند تردد في قبول هذه الشروط اذ وجد في قبولها اذلالا له ولكرامته ، فأثر القتال ، وأخذ يحصن طرابلس • وكان رد بيرس على ذلك أن أمر بنصب المجانيق حول أسوار المدينة • غير أنه وجد نفسه مضطرا الى التساهل مع بوهمند أمام تهديدات التتار ، وبسبب ما أشيع من نزول الحملة الصليبية السابعة على ساحل عكا • وتم الصلح بينه وبين بوهمند على ما يلي :

١ — أن تكون عرقة وجبيل وأعمالها لبوهمند مع التأكيد بأن عرقة وأعمالها وهي ٥٦ قرية صدقة من الملك الظاهر عليه •

٢ — أن تؤول نصف غلات أنطربوس والمرقب وبلنياس للسلطان ، والنصف الآخر للداوية والاسبتارية •

٣ — أن تؤول بعرين وحصص القديسة الى السلطان •

٤ — مدة الصلح عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام «١٧» •

(١٧) قطب الدين أبو الفتح اليونيني ، ذيل مراة الزمان ، مجلد ١ ، طبعة حيدر آباد ، ١٩٥٤ ص ٤٥٠ — ابن الفرات ، ج ٦ ، تحقيق ميخائيل نجم حوزي ، ص ١٩٨ — النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٢

ثم توفي بوهند السادس في رمضان سنة ٦٧٣ هـ (١٠ مارس سنة ١٢٧٥ م) وخلفه ابنه بوهند السابع ، فاقتضى الأمر تجديد معاهدة الصلح ، فسأل بوهند السابع السلطان بييرس أن يأذن بإرسال سيف الدولة بلبان الدوادار رسوله الى طرابلس ليوقع الاتفاق بالصلح ، فوافق بييرس ودخلها سيف الدين بلبان في ٨ من المحرم سنة ٦٧٤ هـ في موكب من المماليك السلطانية ومسايلكه وأجناده ، وتلقاه مقدمو طرابلس ، واجتمع الأمير ببوهند ، وسلم اليه كتاب السلطان ، وتم الصلح على أن يدفع بوهند لبييرس مبلغا قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة ، ويرد اليه عشرين أسيرا «^{١٨}» .

ب - عوامل تأخير استرداد المسلمين لطرابلس :

لا شك أن الخلافات الداخلية القائمة في المعسكر الصليبي ، والحروب الأهلية التي نشبت في امارة طرابلس وأنطاكية على العرش ، والتفوق الحربي للممالك كقوة عظمى ظهرت على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى الاسلامي كان لها الفضل الأعظم في التغلب على قوى المغول والاطاحة بالحملات الصليبية المتأخرة سواء على مصر أو على الشام ، في الوقت الذي ارتبطت فيه مصر والشام في وحدة شاملة في عصر الممالك ، كل هذه أمور ساعدت على انجاح حركة الظاهر بييرس . واذا كان عماد الدين زنكي قد استرد امارة الرها الصليبية ، وصلاح الدين قد استرجع بيت

(١٨) ابن الفرات ج ٧ ص ٤٠ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٢

المقدس ، فان بيرس نجح أيضا في استرداد أنطاكية القاعدة الرئيسية للإمارة الصليبية المتحدة «طرابلس أنطاكية» ، وكان في امكانه أن يسترد طرابلس وما يتبعها نهائيا بعد سلسلة الضربات المتواصلة التي سددها اليها فيما بين عامي ٦٦٤ هـ ، ٦٦٩ هـ ، لولا عدة عوامل أخرت حركة الاسترداد الاسلامي . وعوقت تقدم الجيوش المملوكية في بلاد الشام نذكر منها عاملين رئيسيين هما : ١ - تعاون الباطنية والمردة في الشام مع الصليبيين ٢ - تعدد جبهات القتال . أما عن المردة أو الموارنة وانضمامهم الى جانب الصليبيين فأمر أشرنا اليه عند تعرضنا لذكر الحملة الصليبية الأولى ، كما أشرنا الى الموارنة عند حديثنا عن عناصر السكان في كوتية طرابلس . ولقد كان الموارنة العنصر المحلي الرئيسي الذي اعتد عليه الصليبيون في معاركهم ضد المسلمين ، فكثيرا ما كانوا يشركونهم معهم في الغزوات ، وكثيرا ما كان الموارنة ينقضون من قراهم بأعلى الجبال ليقطعوا على جيوش المسلمين خط الرجعة ويفتكوا بهم . وقد ظهر تعاونهم مع الصليبيين واضحا في غزوات بيرس ، فعندما حاصر الظاهر بيرس مدينة طرابلس في سنة ٦٦٤ هـ انحدر اليه المردة من قسم الجبال وهزموا عساكره ، وفي سنة ٦٦٥ هـ سار بيرس لحصار طرابلس بعد أن افتتح تيرون فانسكب عليه المردة من قسم الجبال : واضطر الى الانسحاب الى حصن الأكراد «١٩» . ولم تنهيا لبيرس الفرصة لتأديب هؤلاء المردة ، وسيتولى هذه المهمة من بعده السلطان الملك المنصور قلاوون في سنة ١٢٨٣ م .

(١٩) الشدياق ، ج ١ ص ٢٥١ - محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ، ج ١ ص ٥٠٠

أما الاسماعيلية أو الحشيشية أو الباطنية أصحاب قلاع الدعوة بالشام فقد كانت لهم دويلة مستقلة تشغل القسم الجنوبي من جبال النصيرية المعروفة بجبال البهرة ، وهي جبال شاهقة الارتفاع ، لها قمم شديدة الانحدار ، وأودية وعرة المسالك ، ودروب متشعبة ضيقة ، تنتصب بها القلاع والحصون ، وتتناثر فيها القرى والضياع . نشأت دويلة الاسماعيلية باديء ذي بدء في هذه المنطقة الجبلية المنيعه ، ثم اتسعت شيئاً فشيئاً ، فحصدت حصن القدموس سنة ٥٢٥ هـ ، وهو الحصن الذي باعه سيف الملك بن عسرون للداعي أبي الفتح الاسماعيلي بسبب الضغط الصليبي ، ثم احتلوا الخوابي والكهف في سنة ٥٣٢ هـ ، واستولوا على قلعة مصيف بعد أن قتلوا صاحبها في سنة ٥٣٥ هـ ، وضموا حصن المنيعه سنة ٥٤٦ هـ « ٢٠ » .

ولقد اعتمدت دويلة الاسماعيلية في بقائها من ٥٣٥ هـ الى ٦٧٠ هـ على التوازن القائم بين قوتى المسلمين والصليبيين ، فلما رجحت كفة المسلمين في أيام بيبرس ، فقدوا استقلالهم نهائياً « ٢١ » . كذلك اعتمد الاسماعيلية في الدفاع عن أنفسهم من مطامع خصومهم على قلاع الدعوة ، وهي قلاع منيعة لا ترام ، كما اعتمدوا أيضاً على الاغتيالات السياسية لافتقارهم الى جيش يتكافأ في قوته مع جيوش خصومهم السلاجقة المسلمين ، وجيرانهم الصليبيين على السواء . وعلى هذا النحو اهتموا بتنظيم جماعة الفداوية

(٢٠) ميشيل لباد ، الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصيف (٥٣٥ — ٦٧٠ هـ) بيروت ، ١٩٦٢ ص ٨٠ ، ٨١

(٢١) ميشيل لباد ، الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية ، ص ٨٩

لتنفيذ خططهم في اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين والصليبيين ، وبثوا
العيون للتجسس والوقوف على نوايا المسلمين والصليبيين نحوهم . ووقف
شيوخ الجبل ، وعلى الأخص راشد الدين سنان البصري ، موقفا معاديا
من سياسة نور الدين التوسعية ، وسعيه الى ضم مناطق نفوذ الاسماعيليين
الى دولته « ٢٢ » ، كما وقفوا أيضا موقفا مضادا من صلاح الدين عند
شرع في توحيد الجبهة الاسلامية ضد الجهاد الأعظم ضد الصليبيين .
ويكفينا أن نضيف الى هذا العاقل السياسي عاملا مذهبيا ، فكل من
نور الدين وصلاح الدين كان سنيا يعمل لهدم قواعد المذهب الاسماعيلي ،
وعندئذ أشهر الاسمايلية الحشيشية « ٢٣ » ، سلاحهم ضد زعماء السنة .

(٢٢) خاصة منذ أن انتزع شيزر من الاسمايلية في سنة ٥٦٤ هـ
(٢٣) الحشيشية أو الباطنية هم فرقة من الشيعة الاسمايلية على
مذهب النزارية ، أقاموا لهم دولة مستقلة مركزها قلعة الموت جنوبى بحر
قزوين ، وقد عرفوا بالحشيشية اما لاستخدامهم الحشيش لتخدير جماعة
الغداوية (فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ص ٢٤٦ -
محمد عبدالله عنان ، تراجم اسلامية ، ص ٥٧) ، أو أنها مشتقة من لفظة
Assassin التى أطلقها الپروڤنسيون فى طرابلس على الغداوية الذين
فتكوا ببعض زعمائهم ، أو من لفظة عاسين لأن الاسمايلية كانوا يقضون
الليالى فى حراسة قلاعهم وحصونهم (راجع ميشيل لباد ، ص ٧٤) ويرى
الدكتور جوزيف نسيم أن لفظة حشاشين مشتقة من مصدر « حش » أى
قطع ، بمعنى أنهم كانوا يقطعون رقاب ضحاياهم ومنها انتقلت اللفظة الى
اللغات الأوربية بمعنى القتل ، وهو رأى يخالف رأى الاستاذ
ميشيل لباد الذى عرضناه فيما سبق .

فقتلوا جناح الدولة حسين أنابك أمير حصص سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) «٢٤» ؛
 وخلفه بن ملاعب صاحب إقامية سنة ٤٩٩ هـ «٢٥» (١١٠٥ م) ، والأمير
 شرف الدين مودود أنابك الموصل سنة ٥٠٧ هـ «٢٦» (١١١٣ م) وأقسنقر
 البرسقي سنة ٥٢٠ هـ «٢٧» (١٢٢٦ م) . وقد حاولوا قتل صلاح الدين
 ابن أيوب مرتين ، ولكنهم أخفقوا في سعيهم على نحو ما ذكرناه آنفا «٢٨» .
 وكان من الطبيعي أن يتقرب الاسماعيلية الى الصليبيين لعدائهم الشديد
 لأهل السنة ؛ فقد سلم دانيتههم اسماعيل القائم ببايزاس هذه المدينة الى
 الصليبيين في سنة ٥٢٢ هـ «٢٩» ، وعندما انتزع نور الدين محمود قلعة
 شيزر من الاسماعيلية ، عبد راشد الدين منان شيخ الجبل الى الاتصال
 بعموري ملك بيت المقدس ، فأرسل وفدا الى بيت
 المقدس ، رجب به عموري ترحيبا بالفا «٣٠» ، كذلك زار هنري

= (راجع : جوزيف نسيم يوسف ، لويس التاسع في الشرق الاوسط
 ١٢٥٠ — ١٢٥٤ . القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٣١ حاشية رقم ١)

(٢٤) ابن القلانسي ، ص ١٤٢ .

(٢٥) ابن القلانسي ، ص ١٤٩ .

(٢٦) نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٢١٤ .

(٢٨) أبو الفداء ج ٥ ص ٧٧ ، ٨٠ — المقرئ ج ١ ص ٦٢ — ابن

تغري بردي ، ج ٦ ص ٢٧ .

(٢٩) ابن القلانسي ، ص ٢٢٤ .

(٣٠) ميشيل لباد ، ص ١٠٧ — عبد الله عنان ، تراجم اسلامية ،

دى شامبين شيخ الجبل فى مصياف زيارة ودية أثناء سيره الى أنطاكية «٣١»؛
ويتبادل شيخ الجبل فى مصياف مع لويس التاسع أثناء مقامه بعكا فى سنة
١٢٥٠ م ، بعد فشله فى حملته على مصر ، الرسل والوفود تحصل الهدايا
والتحف ، لتوقيع معاهدة بين الطرفين «٣٢» .

وعلى الرغم من هذا الموقف العدائى الذى وقفه الاسماعيليه من زعماء
الاسلام وانحيازهم الى الصليبيين فانهم لم يترددوا فى ضرب زعماء
الغليبيين واغتيالهم عندما كانوا يحسون بخطرهم عليهم ، فقد قتل
جماعة من الباطنية الكونت ريسوند الثانى أمير طرابلس فى سنة ٥٤٧ هـ
(١١٥٢ م) ، كما قتلوا الرئيس صاحب صور (كونراد دى مونتفرات)
فى بلدته «٣٣» . وفى سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) لقي ريسوند الابن الأكبر
لبوهمند الثالث مصرعه بكنيسة أنطوطوس على يدى فدائى من أتباع شيخ
الجبل ، وذلك عندما شن هجومه على أملاك الاسماعيليه «٣٤» .

أما فى عصر المساليك ، فقد ضعفت جماعة الاسماعيليه ضعفا شديدا بسبب

(٣١) فيليب حتى ، تاريخ سوريا ، ج ٢ ص ٢٤٧ — ميشيل لباد ،
ص ١٠٨

(٣٢) نفس المرجع ، ٢٤٧ — ميشيل لباد ، ص ١١٠ — جوزيف نسيم
لويس التاسع ، ص ٢١١ ، ٢٢٦

(٣٣) ابن شداد ، ص ٢٠٨ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٨١ — أبو الفداء ،
ج ٥ ص ١٠٨

(٣٤) ميشيل لباد ، ١٠٩

النزاع الداخلى المتواصل ، وانحازت هذه الجباعة الى جانب الصليبيين ، ودخلت تحت حماية فرسان الاستتارية ، وظلت تدفع لهم جزية سنوية «^{٢٥}» حتى أيام الظاهر بيبرس . وفى سنة ٦٦٥ هـ عرض الاسماعيلية صداقتهم للظاهر بيبرس ، وأرسلوا اليه الأموال التى كانوا يدفعونها للاستتارية «^{٢٦}» . وانهز بيبرس فرصة الصلح الذى عقده مع الاستتارية فى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) واشترط عليهم أن تحول الجزية التى كان الاستتارية يفرضونها على الباطنية اليه «^{٢٧}» . وفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) أرسل نجم الدين حسن بن الشعرانى صاحب قلاع الاسماعيلية الى الظاهر بيبرس يطلب منه أن يخفف عن شعبه الجزية التى يدفعها لبيت المال ، وقدرها مائة ألف درهم «^{٢٨}» ، فعزله الظاهر ونصب مكانه صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة على بلاد الدعوة كنائب عن السلطان فيها ، وهى قلاع الكهف ، والخوابى ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس ، والرصافة . أما مصياف فقد انتزعها الظاهر بيبرس من بلاد الدعوة «^{٢٩}» . وفى ١١ شوال من سنة

(٣٥) جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ ،

ص ٩١

(٣٦) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧

(٣٧) King. The Knights hospitallers in Holy Land, p.

جمال سرور ، ص ٩١ — 262 - Cahen, p. 715

(٣٨) ميشيل لباد ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٣٩) أبوالفداء ، ج ٧ ص ١٠ — السلوك ، ج ١ ص ٥٨٧ — سعيد

عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٨٣

٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) انتزع الظاهر حصن العليقة من حصون الاسماعيلية^(٤٠) ،
وفي ٢٦ صفر سنة ٦٧٠ هـ ضرب بيرس الاسماعيلية ضربته التالية، فقد أمر
بالقيض على شمس الدين بن نجم الدين صاحب الدعوة وعلى أصحابه .
وسيرهم الى مصر ، واستولى على حصن الخوابي^(٤١) ، ثم استولى في ٢٢
ذى الحجة سنة ٦٧١ هـ على بقعة قلاع الدعوة وهي الميتقة والقدموس
والكهف^(٤٢) . وبذلك قضى الظاهر بيرس على دولة الاسماعيليين
الحثيثة التي طالما عرقلت مشاريع زعماء الاسلام لتكوين الجبهة
الاسلامية المتحدة باغتيالها السياسية ، وتأمرها مع الصليبيين ، كما أنها
اعترضت سبيل الظاهر بيرس في حربه ضد الصليبيين^(٤٣) ، وأخرت بذلك
استرداد طرابلس .

أما فيما يختص بالعامل الثاني ، فمن المعروف أن أعداء بيرس كانوا
من الكثرة بحيث لم تغل سنة من سنوات حكمه من حلات يشنها في
الشام ضد الصليبيين ، وفي العراق ضد المغول ، وفي جنوب مصر ضد
النوبيين ، ومن استعدادات حربية لغزو صليبي مرتقب على مصر ، فالخطر

(٤٠) أبو الفداء ، ج ٧ ص ١٠ — السلوك ، ج ١ ص ٥٩٣

(٤١) السلوك ، ج ١ ص ٥٩٩

(٤٢) أبو الفداء ، ج ٧ ص ١١ — السلوك ، ج ١ ص ٦٠٨

(٤٣) Nicola Ziadah, op. cit. p. 8

المغولى لم يكن قد انحسر تماما عن الشام ومصر بعد ، وقوة الصليبيين في الشام وقبرص . والأرمس في آسيا الصغرى . رغم ما اعتراها من ومن واضمحلال بعد عين جالوت ، كانت لا يستهان بها . ولقد سرف بيرس جهوده كلها لمحاربة أعدائه . وقضى فترة حكمه كلها في جهاد متواصل في كل ناحية من نواحي دولته «٤٤» : فالمغول بعد هزيتهم في ٦٥٨ في عين جالوت ظلوا يشكلون خطرا على بلاد الشام ، بل أن خطرهم زاد زيادة واضحة في عهد أبغا بن هولاكو الذى تزوج من ابنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وحرص على أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للاتقام من المماليك «٤٥» ، وواصل المغول عدوانهم على بلاد الشام . والصليبيون لم يرتدعوا من فشل تحالفهم مع المغول للقضاء على دولة المماليك ، فعاود المغول الاتصال بهم ، وواعدوهم واتفقوا معهم على القيام بهجوم مشترك على بلاد الشام ، ولكن بيرس حاربهم حارباً لا هوادة فيها ، انتهت بسقوط أنطاكية واقتطاع قسم كبير من أراضي طرابلس وفلسطين . وعلى الرغم من الصلح الذى عقده بوهيند السادس في سنة ٦٦٩ هـ مع بيرس ، فقد اتصل بأبغاخان عن طريق ممثله الدائم

(٤٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١ — جبال سرور ، دولة الظاهر بيرس في مصر ، ٩٤ ، القاهرة ١٩٦٠

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٤٣ — جبال سرور ، دولة الظاهر بيرس

بارتلمى صاحب مرقية ، واستنصره على المسلمين «٢٦» ، ولكن أبغوا لم يأبه
لذلك ، بل عنفه على قدومه اليه لخوفه من أن يث ذلك الذعر في قلوب
عساكره «٢٧» . كذلك حاول بيبرس غزو قبرص التي لعبت دورا هاما في
مساعدة الصليبيين وفي الاعتداء على سفن المسلمين في البحر المتوسط «٢٨» .
وأما النوبيون ، فقد حرص بيبرس على تأديبهم للغارات التي كانوا يشنونها
على حدود مصر ولشقهم عصا الطاعة عليه «٢٩» . وفي عهد بيبرس وصلت
حملة صليبية صغيرة الى الشام ، ونزلت في عكا في سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م)
بقيادة الأمير ادورد الانجليزى ، كما أرجف بقرب وصول حملة صليبية
أخرى بقيادة لويس التاسع على مصر ، وهى الحملة التي تحولت بعد ذلك
الى تونس «٣٠» .

(٤٦) Claude Cahen, p. 719

(٤٧) مفضل بن أبى الفضائل ، كتاب النهج السديد والدر الفريد ،
باريس ، ١٩١١ ، ص ١٩٥

(٤٨) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٧

(٤٩) جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ١١٥

(٥٠) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر
الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٧٩

(٣)

سقوط طرابلس في أيدي المسلمين

١ - وضع إمارة طرابلس بعد وفاة بوهمند السادس :

توفي بوهمند السادس في ٩ رمضان سنة ٦٧٣ هـ (مايو ١٢٧٥ م) ،
وخلفه على إمارة طرابلس ابنه القاصر بوهمند السابع (١٢٧٥ - ١٢٨٧ م) ،
فكفله أمه الكونتيسة سيبيل الأرمنية ، وأعانها في كفالته برتليو أسقف
أنطربوس « ١ » ، ولكن الكونتيسة لوشيا أرملة بوهمند الخامس كانت تسعى
هي الأخرى المظفر بالسلطان معتمدة في ذلك على تأييد الجالية الإيطالية
بطرابلس بالاضافة الى أخوها بول أسقف طرابلس ، ثم تدخل جماعة
فرسان الداوية والاستارية في هذا النزاع ، فأيد الاستارية الكونتيسة
سبيل بينما أيد الداوية الكونتيسة لوشيا وحزبها الإيطالي ، وانضم الى
هذا الفريق أيضا أقوى بارونات الكونتيسة جي الثاني دي امبرياتشو
المعروف في المصادر العربية باسم سيركي صاحب جبل ، وتبع ذلك قيام
حرب أهلية مريرة كان من نتائجها اضمحلال العمران في طرابلس وتخريب
كثير من المنشآت « ٢ » .

(١) King, op. cit. p. 281

(٢) Ibid. p. 280

وكان سيركى أو جى الثانى صاحب جبيل يسعى للاستيلاء على طرابلس؛ فكتب خيالة طرابلس كى ينضموا اليه ضد الأمير ، كما طلب من السلطان المنصور قلاوون ، الذى كان قد انتزع السلطنة المملوكية من أبناء بيبرس فى سنة ٦٧٨ هـ ، فى ذلك الشأن ، وعرض عليه أن يقتسم معه طرابلس ، فلم يسع قلاوون الا أن يقبل هذا العرض المغرى ، وأمد الأمير سيف الدين بلبان صاحب حصن الأكراد سيركى بجماعة من المسلمين عرفوا باسم الجبليين . وفى آخر شوال سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ركب صاحب جبيل سفنه مع أصحابه وجماعة من الجبليين ، ودخلوا ميناء طرابلس ليلا ، وكان بوهمند قد وصلته أنباء هذه المؤامرة ، فاتخذ عدته للايقاع بالمتآمرين ، وأعد الكائن ونصبها ، وأوقع بصاحب جبيل وأصحابه عندما قصدوا دار الديورية ، وقبض على جى وأودعه سجن طرابلس ، فظل سجيناً حتى توفى . ثم استولى بوهمند على جبيل وأصبحت بذلك تابعة لامارة طرابلس «٣» . أما جماعة الجبليين المسلمين فقد سجنهم بوهمند فى برج منيع قائم على البحر فى مرقية ، وظلوا سجناء فى هذا البرج الى أن أفرج عنهم بوهمند بعد أن افتتح قلاوون حصن مرقية فى آخر سنة ٦٨١ هـ «٤» .

وكان قلاوون قنص حرص منذ توليه السلطنة على مهادنة الصليبيين حتى يتفرغ لدفع العدوان المغولى على الشام وحتى لا يفاجئه الصليبيون بالهجوم على أراضى المسلمين فى الوقت الذى يكون فيه مشغولاً بمقاتلة

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣١٦ ، حاشية رقم ٢

(٤) نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣١٥ ، ٣١٦

المعول «٥» ، لذلك لم يتردد في الموافقة على تجديد الهدنة بينه وبين فرسان الاسبتارية بعكا في ٢٢ من المحرم سنة ٦٨٥ هـ (٣ مايو سنة ١٢٨١ م) ، وبينه وبين بوهند السابع لمدة عشر سنوات كاملة تبدأ في ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٨٥ هـ «٦» . وقد أورد كل من ابن الفرات والنويرى ويبرس الدوادار تفاصيل هذه الهدنة وقد جاء في شروطها ما يلى :

١ — أن تعتد الهدنة على جميع البلاد التابعة للسلطان وعلى ما كان مجاورا منها لطرابلس ، وعلى فتوحاته المسجدة والمستقبلة ، وعلى البلاد التابعة لبوهند وما يدخل فيها .

٢ — أن يتخذ برج الاذقية ومينائها مقرا لنواب السلطان وصاحب طرابلس للإشراف على استخراج الجبايات والغلات مناصفة بينهما وفقا لشروط الهدنة التي كان قد عقدها بيبرس مع بوهند السادس .

٣ — أن يقتسم المسلمون أملاك روجار دلالولاى (Roger de la Colée سيد القليعات) مناصفة .

٤ — أن يسكن على جسر أرتوسيه ١٦ نفرا من غلبان السلطان لحفظ الحقوق (الرسوم) السلطانية على ألا يقوموا بإيذاء رعية الأمير بوهنده .

(٥) جمال سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٣٢

(٦) السلوك ، ج ١ قسم ثالث ، ص ٦٨٥

٥ — ألا تدخل طرابلس غلة للأمير بوهمند ولا غيره دون أن يحصل عليها رسوم .

٦ — على صاحب طرابلس والسلطان قلاوون ألا يقيما أبنية حربية أو قلاعاً في البلاد التي ورد ذكرها في الهدنة .

٧ — ألا تنقض الهدنة بموت أحد الطرفين المتعاقدين أو بتغييره^(٧) .

ثم عقد قلاوون في العام التالي الهدنة بينه وبين الفرير كليام ديباجوك Guillaume de Badjouk^(٨) مقدم الداوية بعكا والساحل والاخوة الداوية بأنطوطوس لمدة عشر سنوات كاملة ، تبدأ من ٥ محرم سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) .

وما أن انتهى خطر المغول ، حتى ولى قلاوون وجهه شطر ما بقى من إمارة أنطاكية البائدة ، ففاجأ حصن الاسبتارية في المرقب بالهجوم في محرم سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) ، بعد أن اتهم أصحاب هذا الحصن بأمور منها

(٧) ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ — بيارس السداودار ، زبدة الفكر في تاريخ الهجرة ، ج ص ١٢٤ ب وما يليها (مخطوط) — النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ص ٢٧٨ وما يليها (مخطوط) .

(٨) محبى الدين بن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٠ وما يليها — ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٦

نقضهم للهدنة «٩» • ولا شك أن قلاوون كان ينوى في أول هذا العام انتزاع الحصن المذكور من أصحابه الاستبارية ، ولكنه لم يفصح عن رغبته ، وآثر أن يفاجئ الحامية الصليبية بالهجوم حتى لا يقوم بوهند السابع بنصرتها • وفي ذلك يقول ابن عبد الظاهر : « وجهاز المجانيق من دمشق ولا يعلم أحد الى أين تسير ، ولا الى أين المصير ، والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعددهم ، وهي كثيرة لا تحصى كثرة ، ومن الناس من يقول : ان العزم الى قلعة الروم ، ومنهم من يقول غير ذلك ... » «١٠» •

وبعد أن افتتح المسلمون حصن المرقب ، أمر قلاوون بالابقاء عليه لخصاته ومناعته ، ورتب فيه حامية قوية من المساليك ، وزوده بالمجانيق والآلات والنشاب والزردخانة والنفط «١١» • ولم يكتف قلاوون بفتح هذا الحصن ، وإنما زحف بعد ذلك الى بارتليو صاحب مرقية ، وكان الظاهر بيرس قد افتتحها ، ثم استردها الصليبيون وعمرها قبالتها حصنا منيعا أعانهم على بنائه بوهند صاحب طرابلس وزوده بطائفة من فرسان الاستبارية • وكان نواب حصن الاكراد لما عاينوا بناءه وعجزوا عن منع الصليبيين من بنيانه أقاموا بالقرب منه برجاً بقرية ميعار «١٢» ، لا يضاهيه

(٩) ابن القرات ج ٨ ص ١٧ — جمال سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٢٣٧ وما يليها •

(١٠) ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ٧٧ ، ٧٨

(١١) نفس المصدر ص ٧٨ — King, the Knights, p. 285

(١٢) نفس المصدر ، ص ٨٨

في المناعة . وعندما شاهد قلاوون مناعة حصن مرقية ، عزم على هدمه ،
واتفق حضور رسل صاحب طرابلس لمؤادته وطلب مراضاته ، فاشترط
عليهم هدم هذا البرج لأنه بنى تحت اشراف بوهند نفسه ، كما اشترط
أيضا اطلاق من كان مسجوناً فيه من الجبيلين المسلمين . فاستجاب بوهند
السابع لرغبة قلاوون ، وسلم الحصن لقلاوون بعد أن عوض صاحبه عن
مالا وضياعا . وتم هدم البرج تحت اشراف الأمير بدر الدين بكتاش
النجي ، وبحضور مقدم افرنجي بعثة بوهند على رأس جماعة من
الحجارين «١٣» . وهكذا لم يبق امام قلاوون سوى مدينة طرابلس نفسها
وبرج اللاذقية ، فأخذ يتحين الفرص للاستيلاء عليها .

وعلى الرغم من استمرار العمل بالهدنة التي كان عقدها قلاوون مع
بوهند السابع لمدة عشر سنوات فقد هاجم الأمير حسام الدين طرنتاي
اللاذقية ، آخر ما تبقى من حصون امارة أنطاكية البائدة ، واستولى عليها
في صفر من سنة ٦٨٦ (أبريل سنة ١٢٨٧ م) ، وتفصيل ذلك أن المنصور
قلاوون أمر حسام الدين طرنتاي بسزالة صهيون واتزاعها من الأمير
شس الدين سنقر الأشقر الذي كان قد امتنع عن الحضور لفتح المرقب ،
واستغل طرنتاي هذه الفرصة ، وعبد الى مهاجمة اللاذقية والاستيلاء
عليها ، اذ كان صاحبها يدين بالولاء لسنقر الأشقر ، فاعتبرها السلطان

(١٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، ٩٠ — أبو المحاسن ، ج ٧ ص ٣١٧ —

من أملاك سنقر أكثر من اعنباره لها من أملاك الصليبيين ، وساعدته الظروف في الاستيلاء عليها : فقد اشتعلت نيران الحرب في إيطاليا بين بيزا وبنوة ، وامتد لهيبها الى الشام ، وقدم أسطول بنوى في ربيع ١٢٨٧ ، لمهاجمة البيازنة ومستعمراتهم «^{١٤}» كما أنه اتفق في هذه الآونة وقوع زلزال عنيف هدم معظم برجها القائم في البحر ويعرف ببرج البيزانية وكان يحس المدخل الى الميناء «^{١٥}» .

ولما توفي بوهند السابع في ١٩ أكتوبر سنة ١٢٨٧ ، كانت وفاته نذيرا بنهاية اماره طرابلس الصليبية : فقد مات بوهند دون أن يعقب في الوقت الذي كانت طرابلس في أشد الحاجة الى قائد قوى وزعيم يتولى قيادتها . وكان من الطبيعي أن ترثه أخته لوشيا زوجة نارجوت دى توسى أمير البحر في نابلى ، ولكن الكونتيسة سييل الأرمنية سعت الى الظفر بالامارة معتدة في ذلك على شعبيتها ، وقاد صراع بين المطالبتين بالسلطان انتهى بتغلب لوشيا على منافستها . الا أن أهل طرابلس لم يقبلوا هذا الوضع ، واحتالوا على استقدام برتليو دى امبرياتشو مثل سييل الأرمنية ، فاستنجدت لوشيا بالاستتارية حلفاء أخيها بوهند في حين استنجد الزعماء الشعبيون ببنوة ، وبفضلهم تسكنوا من اقامة قومون

(١٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٧٠

(١٥) ابن عبد الظاهر ، ص ١٥٢ — أبو الفداء ج ٧ ص ٢٩ —

برئاسة صاحب جييل • ويذكر أبو المحاسن أن بارتليو صاحب جييل ورئيس القومون طلب من السلطان قلاوون أن يعينه على خصومه ، وفي مقابل ذلك تكون طرابلس مناصفة بينه وبين السلطان «١٦» •

كان وضع طرابلس على هذا الوضع مغريا بافتتاحها ، ولكن السلطان قلاوون لم يشأ التدخل في سنة ١٢٨٨ م بسبب وفاة ابنه الصالح علاء الدين على ، بينما أسرعت جنوة بالتدخل في النزاع تسكينا لمصالحها التجارية ، ولم يلبث بارتليو أن عقد اتفاقا مع جنوة بسقetzاه أصبحت طرابلس تحت حمايتها. ولكن لوثيا أسرعت بالقدوم الى عكا ، فأقر أهل طرابلس سلطتها ، واعترفوا بها أميرة على طرابلس ، وخرج الأمر من يد بارتليو ، ولعل هذا هو السبب في لجوئه الى قلاوون وتحريضه له على فتح طرابلس • وبينما كان قلاوون يتردد في نصرة بارتليو ، تلقى من نائبه على الشام خبرا بأن بأن الصليبيين في طرابلس نقضوا الهدنة وأسروا جماعة من التجار «١٧» ، وكان هذا الخبر كافيا لحمله على التدخل حريا •

ب - معركة التحرير :

اكتظت طرابلس بمن وفد اليها من اللاجئين والمشردين من المدن الاخرى التي استولى عليها المسلمون ، ولكنها مع ذلك كانت تعوزها القوة

(١٦) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٣٢١ —

King. p. 288 -- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٧٢

(١٧) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٠ — المقرئى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢

اللازمة للوقوف أمام فلولهم ، وكانت الانقسامات الداخلية والفتن قد أوهنتها وجعلتها عرضة للوقوع في أيدي المسلمين ، وحاولت لوثيا أن تنقذ ما يمكن انقاذه ، وتكتلت قوى الصليبيين للدفاع عنها أمام الغزو الاسلامي الوشيك ، فتولى هذه المهمة عسرى دي لوزنيان صاحب صور ، وهرع الفرسان الذين كان قد استبقاهم في فلسطين الى طرابلس بقيادة جون دي جرابلس ، وشابك في الدفاع عن المدينة قوة هائلة من فرسان الاستتارية بقيادة مقامهم مابو دي كليرمو ، كما أسهم الداوية ، وبعض سفن البنادقة والحبوبة والنبارية « ١٨ » . وذكر المقرئزي أنه قدم لنجدة أهلها أربع شواني بعثها صاحب قبرص « ١٩ » .

واستقر عزم قلاوون على حسم مسألة طرابلس بالاستيلاء عليها لنكت أهلها بشروط الهدنة ، فخيم السلطان بظاهر القاهرة في ١٠ محرم سنة ٦٨٨ هـ نهيدا لرحيله الى الشام ، وعند خروجه في ١٥ محرم سنة ٦٨٨ هـ كتب الى جميع نوابه بالشام بتجهيز الجيوش الى طرابلس وارسال المجانيق وآلات الحصار « ٢٠ » . وفي ١٣ صفر وصل قلاوون الى دمشق فأقام بها أسبوعا لالتساقط الراحة قبل المعركة ، وتجميع جيوش الشام ، ثم زحف في ٢٠ من صفر متجها الى طرابلس على رأس ٣٣ ألفا من الرجال

(١٨) Kinf, p. 298 - Delaville le Roulx, p. 240

(١٩) المقرئزي ، السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٨٤٧

(٢٠) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ - المقرئزي ، السلوك : ج ١ قسم ٣

وعشرة آلاف من الخيالة «٢١»، وشرع في احكام الحصار حولها في مستهل ربيع الاول سنة ٦٨٨ هـ (١٧ مارس ١٢٨٩ م) «٢٢»، ونصب عليها ١٩ منجنيقا من جهة الشرق، وبدأ يرمى الأسوار بالمجانيق حتى نقت وتثلست، وبلغ عدد الحجارين والزرايين نحو ١٥٠٠ شخص . وظل قلاوون مقيما على حصاره لها مدة ٣٤ يوما «٢٣» تهدم خلالها برج الأسقف وبرج الاستتارية الجديد مع السور المتد بينهما . وأدرك المدافعون عبث الدفاع عن المدينة فقر عدد كبير منهم الى الميناء وركبوا السفن الراسية الى قبرص، وكان من بينهم المقدم ماتيوي دي كليرمو وعسوري دي لوزنيان وچون دي جرايلي «٢٤» .

ثم تدفقت جيوش قلاوون على السور المتهدم الى المدينة في ٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (٢٦ أبريل سنة ١٢٨٩ م) . أما سكان طرابلس فقد قروا الى جزيرة تجاه طرابلس، قرية من الساحل، بها كنيسة تسمى سنطباس «٢٥»؛

(٢١) King, p. 288

(٢٢) أبو المحاسن، ج ٧ ص ٣٢١ — Delaville le Roulx, p. 241

King, p. 288

(٢٣) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — المقرئى، ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٧

(٢٤) Delaville, p. 241 — King, p. 288

(٢٥) أبو الفداء، ج ٧ ص ٢٩

وتعرف هذه الجزيرة باسم جزيرة النخلة ، لايتوصل اليها الا في السفن «٢٦» ،
وينسب اليها ميثو بجزيرة سان توماس أو سنطاس «٢٧» ، يسميها
المؤرخ كنج بجزيرة سان نيكولاس «٢٨» . وتغلب الظن أن سنطاس
وسان نيكولاس جزيرتان مختلفتان ، الاولى بها كنيسة هي التي ذكرها
أبو الفداء ، وأهل سان نيكولاس هي التي يعنى بها ابن الفرات جزيرة
النخلة . وحدث أن انحسرت مياه البحر عن طرابلس ، فظهرت مخاضات
عبرها الفرسان الى هذه الجزيرة ، وقتلوا الفارين من أهل طرابلس ممن
لاذوا بكنيسة الجزيرة . وقد شاهد أبو الفداء حصار طرابلس وفتحها ،
ويذكر أنه ركب سفينة الى هذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبا ،
فوجدوها « ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من
تنن القتلى » «٢٩» . وكان بعض أهل طرابلس قد أسرع عند سقوط

(٢٦) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ . ذكر الأدرسي أن تجاه طرابلس
رأبع جزر في صف هي مسايلي البر : جزيرة النرجس وهي جزيرة صغيرة
خالية ، وجزيرة العبد ، وجزيرة الراهب ، ثم جزيرة أردقون (الأدرسي ،
ص ١٨) ويقع أمام طرابلس اليوم عدد من الجزر الصغيرة ، منها جزيرة
تعرف اليوم بجزيرة النخلة وفيها منار لهداية السفن وحسايتها من الاصطدام
برأس طرابلس ، ومنها جزيرة تسمى بجزيرة الأرانب (أنظر لويس لورته ،
مشاهدات في لبنان من كتاب سورية اليوم ، ترجمة كرم البستاني ،
بيروت ١٩٥١ ، ص ٣٠ ، حاشية رقم ٢) .

(٢٧) Michaud, vol IV, p. 657

(٢٨) King p. 288

(٢٩) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٣٠

سورها بركوب سفينة في البحر ، ولكن الريح قذفتهم الى الساحل ، فظفر
الغلمان والأوقاشية بكثير منهم «٢٠» .

هلك من أهل طرابلس بعد سقوطها في أيدي الماليك عدد كبير
يقدره المؤرخون بنحو سبعة آلاف «٢١» ، كان منهم القتلى والغرقى ،
كما أسر من سكان طرابلس نحو ١٢٠٠ أسيرا «٢٢» . ولقد عانى المسلمون
كثيرا أثناء حصار طرابلس من اعتداءات الموارنة أو المردة سكان الجبال
المحيطة بطرابلس الذين خفوا لنجدتها ، وقتل بسببهم عدد كبير من قوات
قلاوون ، واستشهد من الأمراء الكبار الأمير عز الدين معن ، والأمير ركن
الدين منكورس بن عبدالله الفارقاني ، والأمير أحمد بن الأشل «٢٣» ومن رجال
وحدث الجبهة وكفر صارون وحصرون في سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) ،
الحلقة ٥٥ رجلا «٢٤» . وكان قلاوون قد هاجم معاقلم في بشرى واهدن

(٣٠) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٧٤٧ .
والأوقاشية فرقة من خدم السلطان عليها ركوب الخيل للتسيير والرياضة
(راجع القلقشندي ، ج ٥ ص ٤٥٤ — سعيد عاشور ، العصر المالكي ،
ص ٣٩٤)

(٣١) Michaud. p. 448 — جورجى ينى ص ٣٩٣

(٣٢) ابن الفرات ، ص ٨٠

(٣٣) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٥

(٣٤) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — السلوك ، ص ٧٤٧

وخرب هذه القلاع «٢٥». ففرت منهم جساعة يفدر عددها بالالوف الى
فبرص «٢٦» .

ولما فتح قلاوون طرابلس تسكن عسكره من الاستيلاء على أنفة ،
فأمر بنخرب حصنها الذي كان يملكه الاسبنارية . ثم استولى على البرون
وما جاوود من حصون «٢٧» ، ومسح قلاوون لوشبا أخت بوهمند قرنتن
من مرايا ، كما أقطع برنابو دي امبريانشو مدينة جيبيل في مقابل جزية
يقوم بدفعها للسلطان «٢٨» . ويذكر أبو المحاسن بن تغري بردى أن
سير تلبه (برنابو) صاحب جيبيل كان قد اتفق مع قلاوون على أن
يساعده نظير أن تترك له طرابلس مناصفا ، فسأده الى أن تم له مراده ، ولما
رى سير تلبه أن الفرنج رفضوا اتفاقية مع السلطان شرع في التسوية ،
المعالية . فلما علم السلطان بباطل أمره ، عزم على قتاله قبل أن يستفحل
أمره «٢٩» . ولكن قول ابن تغري بردى بتعارض مع الموقف الودى الذى

(٣٥) السدياق . ج ١ ص ٢٥١ — جورجى ينى ، ص ٣٩٠ — محمد
عزة دروزة ، العرب والعروبة ج ١ ص ٤٧٨ — فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ
ص ٣٩٧

(٣٦) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٧

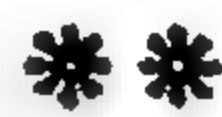
(٣٧) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١ — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٢

(٣٨) ابن الفرات ، ٨١

(٣٩) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢١ — ويذكر صاحب النجوم أن
السلطان كان بغضه ويسعى لقتاله لسويفه من جهة ، ولأنه كان من أصحاب
مقدم حصن مرقية

وقفه السلطان نحو برتليو بعد سقوط طرابلس ، اذ كافأه باقطاع جبل
ما يدل على أن السلطان لم يكن حائقا عليه ، بل يدل على أن قلاوون كان
يقدره تقديرا خاصا ، يضاف الى ذلك أن برتليو كان ابنا لجى الثانى
(سيركى) الذى كان قد استنصر بقلاوون ووقع أسيرا فى يد بوهند
السابع فسجنه حتى مات •

وما أن دخل المسلمون مدينة طرابلس حتى أمر قلاوون بهدمها
وتسويتها بالأرض ، وأنشاء مدينة أخرى لطرابلس تقع بعيدا عن الساحل
حتى يزيل بذلك آثار مدينة الصليبيين ، وحتى تتجنب المدينة الجديدة
الأضرار الى قد تصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا بعد ذلك فى عكا
وقبرص «٤٠» ، واختار لذلك العرض الرطب الواقع بأدنى قلعة صنجيل
فى موقع يقال له وادى الكنائس ، أما الموضع الذى كانت تقوم عليه أطلال
طرابلس القديمة فقد أقام عليه عددا من الأبراج على طول الساحل الشرقى
والشمالى من شبه جزيرة المينا تمكينا للدفاع البحرى عنها •



أحدث سقوط طرابلس فى أيدي المسلمين دويا هائلا ، خفقت له قلوبهم
فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وكتبت البشائر الى الآفاق بهذا النصر
المبين ، وزينت له المدن «٤١» وأقيمت الأفراح • ولكن سقوطها فى أيدي

(٤٠) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٦٢

(٤١) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣

المسلمين لم يكن له رد فعل عكسي في العالم الأوربي ، فان ملكي أرغون وحقلية بادرا بعقد تحالف مع قلاوون بعد استيلائه عليها ، تعهدا فيه بمساعدته ضد أي حملة صليبية تخرج من الغرب ، ونحتي ضد القوى الصليبية الباقية في الشام في حالة خرقها للهدنة . أما ملوك فرنسا وإنجلترا وقتالة وقطالونية فقد شغلوا بالمشاكل القائمة بين حقلية وأرغون «٤٢» .

وفي فتح طرابلس يقول الشاعر شهاب الدين أبو الشناء محيود كاتب الدرج يدح قلاوون :

علينا لمن أولاك نصته الشكر . لأنك للإسلام يا سيفه ذخير
ومنا لك الاخلاص في صالح الدعا . الى من له في أمر نصرتك الأمر
ولله في اعلاء ملكك في الوري . مراد وفي التأييد يوم الوغى سر
الا هكذا يا وارث الملك فليكن . جهاد العدا لا ما توالى به الدهر
فهفت الى عليا طرابلس التي . أقل عناها أن خندقها الحر «٤٣»

كذلك مدحه الشاعر نجم الدين الخيسى بقصيدة جاء فيها :

هنيئا أيها الملك الهسام . بنصر لا يريم ولا يرام
نسزلت على طرابلس بجيش . فدار لغيرها منه لثام

(٤٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٦

(٤٣) ابن تغري بردي ، ج ٧ ص ٣٢٣

وكان الدوح خيم في حماها . فزال وعرشت فيها الخيام
ومثنا زال الحمام ينوح فيها . الى أن صار موضعه الحمام
وكانت قد علت وست فظنت . بأن النيل منها لا يسام
بدر قد أطل على الثريا . وصار مقصرا عنه الغمام
ميرام في السماك لها مرام . فبا ان للسهم لها سهم
فمذ قابلتها سجدت وخرت . ولكن فاتها منك السلام
تعلقت الرجال بها الى أن . تعالى الجيش وانحط القمام
ولو علموا بأخذكها . سريعيا . لقاموا للفرار ومبا أقاموا
وغلنوا أنهم فيها عظام . فهاهم في جوائبها عظام
حسنت مواد أهل الشرك طرا . وقام بمون نصرتك الحمام « ٤٤ »

(٤٤) جورجى ينى ، ص ٣٩٣ — الشيخ كامل البابا ، مجلة الارشاد

الاجتماعى بطرابلس ، العدد ٢٧ ، نيسان ، ١٩٦٢ ، ص ٨

الفصل السادس

طرابلس في ظل المماليك

(١) نيابة طرابلس وأعمالها

- أ - نيابات الشام في عصر المماليك
- ب - نائب السلطنة بطرابلس وكبار موظفي النيابة
- ج - أعمال نيابة طرابلس
- د - كشف بأسساء نواب السلطنة بطرابلس في عصر المماليك

(٢) الأحداث الهامة في نيابة طرابلس

- أ - الفتن والقتال
- ب - الفناء الكبير
- ج - غارات القبارصة على طرابلس
- د - غارات الجنوية على طرابلس

(٣) طرابلس في بداية العصر العثماني

- أ - طرابلس بعد الفتح العثماني
- ب - طرابلس في ظل بني سيف الأكراد •

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

مجلس

الفصل السادس

طرابلس في ظل المماليك

(١)

نيابة طرابلس واعمالها

١ - نيابات الشام في عصر المماليك :

كانت بلاد الشام في عصر الدولة الأموية تنقسم الى خمس وحدات ادارية تسمى أجناد هي : أجناد فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين «^١» ، وهي على هذا النحو لا تختلف كثيرا عن التقسيمات الادارية البيزنطية . وكان جند دمشق يشتمل على المناطق الشرقية الواقعة على حافة البادية ، وهي المناطق التي بدأ العرب بفتحها والتي أحسوا بأنها لا تختلف عن بلادهم . أما جند فلسطين فكانت حدوده من رفح الى اللجون وكان يضم القدس وغزة وعسقلان ، بينما كان جند الاردن يضم كل منطقة الجليل . أما جنودا حمص وقنسرين فكانا يشتملان على أقاليم الشام الشمالية «^٢» حتى منطقة الثغور .

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٨٨ وما يليها

Gaudefroy - Demombynes, la Syrie à l'époque des Mamelouks,

Paris, 1923. p. 217 .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ١٩٢٦ ، ج ٣ ص ٢٣٤

ولما تفككت أوصال الدولة العباسية ، انقسمت بلاد الشام الى امارات مستقلة ، وأصبحت طرابلس على هذا النحو مركزا لامارة بنى عسار الشيعية ؛ ثم نكبت بلاد الشام بالغزو الصليبي الذي ترتبت عليه نتيجتان هامتان : الأولى ، ازدياد أهمية الولاية الرومانية القديمة « البتراء » بحصونها المنيعة في الكرك والشوبك ، وهو الاقليم الذي حرص الصليبيون على الاحتفاظ به ليتحكموا في الطرق المؤدية من مصر الى الحجاز والى الشام ، ويقطعوا على المسلمين طريق الاتصال بين الشام ومصر «^٢» . والثانية ، ازدياد أهمية الساحل ، حيث تحصنت البقية الباقية من الصليبيين الى أن تمكن السلطان الأثرفه خليل من تحريره بصفة نهائية . وقد ظلت مدن الساحل وخاصة طرابلس وبيروت منذ ذلك الحين هدفا لغزوات صليبية موجهة من قبرص في عصر دولتي المماليك البحرية والشراكسة .

ولقد مر التقسيم الإداري للشام في عصر المماليك بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : بعد وقعة عين جالوت ، عندما نشأت نيابتا دمشق وحلب في عهد الظاهر بيبرس .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٢٨

المرحلة الثانية : عندما أضيفت الى النيابتين السابقتين نيابتا الكرك
سنة ٦٧١ هـ «^٢» : وصفد في سنة ٦٦٥ «^٣»

المرحلة الثالثة : بعد قيام نيابة طرابلس في سلطنة المنصور قلاوون ،
وكان سبب الدن بليان الطباخي المنصوري أول من تولى نيابة السلطنة
بـطرابلس «^٦» .

ولم يستقر التقسيم الإداري للشام الا بعد عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م)
عندما توفي السلطان الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل آخر
ملوك حماة من البيت الأيوبي «^٧» ، ثم وليها بعده ابنه الأفضل محمد
بعهد من الناصر محمد : حتى أزاله الأمير قوسون أتابك العساكر في سنة
٧٤١ هـ «^٨» وأصبحت نيابة حماة بذلك سادسة النيابات المملوكية في الشام .
ويضيف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (القرن الثامن الهجري)
الى هذه النيابات الست نيابة سابعة هي نيابة غزة التي يسميها المملكة

(٤) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٧٦

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧٤

(٦) المتريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٤ — السيد عبد العزيز
سالم ، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، ص ٦٣

(٧) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٠٦ ؛ والعصر المماليكي ،

ص ١٩٨

(٨) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٧٤ ، ٢٣٨

الغزاوية «٩» على نحو تسميته لنيابة طرابلس بالملكة الطرابلسية ، ونيابة صنف بالملكة الصفدية . والظاهر أن غزة كانت نيابة صغرى تابعة لنيابة الشام أو نيابة دمشق ، شأنها في ذلك شأن نيابة القدس ، ونيابة حصص ، ونيابة بعلبك ، ونيابة عجلون «١٠» . وهكذا كانت بلاد الشام تنقسم اداريا في عصر المماليك الى ست نيابات رئيسية تتوزع من حيث الأهمية على الترتيب التالي :

١ - نيابة الشام او دمشق : كانت أجل نيابات الشام مقدارا وأرفعها رتبة «١١» ، وحتى أنها عرفت بنيابة الشام أو ملكة الشام ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام «١٢» ، وكان كافلها يحاكي السلطان في الأبهة «١٣» ، بل كان يقوم في دمشق مقام

(٩) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك ، نشره Paul Ravaissé ، باريس ١٨٩٤ ص ١٣٤

(١٠) أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٢٩
(١١) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٨٤ وراجع أيضا النسخ بتقليد نيابة الشام ، ج ١٢ ص ٨ - ٢٣
(١٢) القلقشندي ، ج ١٢ ص ٧
(١٣) زبدة كشف الممالك ، ص ١٣١

السلطان في أكثر الامور المتعلقة بنيابته « ١٤ » ، ويعبر عنه في المكاتبات السلطانية « بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » « ١٥ » . وكانت تتبعها عدة نيابات صغرى تنقسم بدورها الى أقسام ادارية صغرى أو ولايات « ١٦ » .

٢ - نيابة حلب : هي نيابة جلييلة تلى نيابة دمشق في الرتبة « ١٧ » ، ولكن نائبها كان لا يلقب بكافل السلطنة ، كما كان الثبأن بالنسبة لنائب دمشق ، وترجع أهميتها الى خطورة موقعها المتطرف في الشمال ولاشرافها على الثغور الواقعة على الحدود الشمالية لدولة المماليك . وكانت تشمل على نيابات صغرى كما كان الثبأن في نيابة دمشق .

٣ - نيابة طرابلس : تلى نيابة حلب في الأهمية ، وكان نائبها على نقيض نائب دمشق أو حلب ، يجمع بين نيابة الاقليم ، ونيابة القلعة . وكان يلقب بكافل الملكة الشريفة الطرابلسية .

٤ - نيابة حماة يلي نائبها نائب طرابلس في المرتبة ، ولا تتبعها

(١٤) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٨٤

(١٥) المصدر السابق ص ١٨٤

(١٦) أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٢٩

(١٧) القلقشندي ، ج ٤ ص ٢١٧ - زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٢

نيابته صغرى كما كان الشأن في نيابات دمشق وحلب وطرابلس، ولكنها كانت تضم عددا من الولايات من بينها عمل بعين والمعرة «١٨» .

٥ - نيابة صفد : لم تكن تشتل على نيابات صغرى ، ولكنها كانت تضم احدى عشر ولاية نخص بالذكر منها الناصرة وطبرية وتبنين وعثليث . وذلك لأهميتها للحربية كان لقلعتها نائب مستقل يوليه السلطان وهي في ذلك أشبه بـ «نيابتى قلعة حلب وقلعة دمشق» «١٩» .

٦ - نيابة الكرك : كانت هذه النيابة منذ دخولها في فلك دولة المماليك في عهد الظاهر بيبرس من أهم نيابات الشام لموقعها الاستراتيجي الهام بين الشام والحجاز ومصر وحصانة قلعتها ، وكان لا يتولى نيابة الكرك إلا أتابك للمساكر أو من في مرتبته «٢٠» ، وكان يتولى قلعتها نائب مستقل . ويتبع نيابة الكرك أربع ولايات هي زغر ومعان «٢١» ، والشوبك وبر الكرك «٢٢» .

(١٨) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤١

(١٩) نفس المصدر ص ١٥٠

(٢٠) زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٢

(٢١) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٥٧

(٢٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٤٢

ب - نائب السلطنة بطرابلس وكبار موظفي النيابة :

لما تم للسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون افتتاح طرابلس في ٦٨٩ هـ نزلها الأمير سيف الدين التقوى بعسكر يتألف من ستمائة من الفرسان، وكان هذا العسكر أول جيش مملوكي استخدم بها بعد أن استردها المسلمون «٢٣» ، ولم تلبث طرابلس أن تحولت منذ ذلك الحين الى نيابة سلطانية، فتولاها الأمير سيف الدين بلبان الطباخي ، نائب الفتوحات بمساكر الحصون وطرابلس «٢٤». وكان نائب السلطنة بطرابلس يلقب بالجناب العالي «٢٥» ، وكان يتولى منصبه بمرسوم سلطاني أورد القلقشندي نص نسخة منه ، فكتطف منه ما يلي : « وبعد ، فإن أولى من تقرر الثغور بإيالاته ، عن شنب النصر ، وترمي الحصون بكفالاته ، من شام من العدا برتها بشر كالقصر ، وتقسم السواحل سبابتها ، من جاور من أهل الكفر بحردا بين الحصد والحصر ، وتسنع عزماته شوانى العدا أن تدب عقاربها ، أو تركب الموج بغير أيامه مراكبها ، أو ينتقل عن ظهر البحر الى غير سيوفه أو قيوده محاربها ، من لم يزل في نصرة الدين لامعا كالبرق شهابه ، زاخرا كالبحر عبابه ، واصبا على الشرك عذابه ، ظاميا الى موارد الوريد سيفه ، ساريا الى قلوب أهل الكفر قبل جفونهم طيفه ، قائمة مقام شرف الحصون أسنة رماحه ، غنية بروج الثغور عن تصفيحها بالجلد بصفا صفاحه ، مع خبرة

(٣٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٩٠ المقرئى ، السلوك ، ج ١

قسم ٣ ص ٧٥١

(٢٤) المقرئى ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٤

(٢٥) القلقشندي ، ج ١٢ ص ١٧٦

مقدمه الجيوش تضاعف اقدامها ، وتثبت في مواطن اللصاء أقدامها ،
وسدد الى مقاتل أهل الكفر سهامها . وتقرب عليها في البر والبحر منالها ،
وبعد مراميها على من رامها ، ومعدله للرعايا السكون في مهاد أمنها ،
والركون الى ربا اقبالها ووهاد يسها . فسررب الرعايا مصون بعدله ،
والعدل مكنون بين قوله وفعله ... » « ٢٦ » .

وكان نائب السلطنة في طرابلس يعوق في الرتبة والمقام كل من نأبى
حياة وسعد . ولكنه كان مع ذلك أدنى مرتبة من نأبى دمشق وحلب . ويبدو
أن السبب في ذلك يرجع الى أن طرابلس لم يكن بولى قلعته نائب مستقل ،
وانما كان « نائب السلطنة فيها هو المتصرف في شؤون النيابة كلها » « ٢٧ » ،
سا فيها قلعه صحيل . وكان نائب طرابلس عادة من أكبر مقدمى الألوف ،
كدلك لم يكن لسانه طرابلس ورر كالشأن في نيابتي دمشق وحلب ، وانما
كان بها « ناظر المسلكه » وهى وظفه من الوظائف الديوانية ، أقل مرتبة
من الوزاره . ومع ذلك . فقد كان له طرابلس من أرباب الوظائف
الديوانية مثلما كان لسعد تذكر من سهم ناظر المسلكه ، وناظر الجيش ،
وكاتب السر . (أو صاحب ديوان المكاتب) . ويولى السلطان تقليدهم
لهذه المناصب ، ثم يليهم كتاب دست وكتاب درج . ويتولى نائب طرابلس
أمر توليهم هذه المناصب « ٢٨ » .

(٢٦) نفس المصدر ، ج ١٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨

(٢٧) القلقشندي ، ج ٢ ص ٢٣٣ — Nicola Ziadeh, Urban

Life n° 17

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٤

ومن موظفى النيابة الكبار حجاب ثلاثة ، أكبرهم فى الرتبة حاجب الحجاب ، من أمراء الطلبخانة ، أما الحاجبان الآخران فكل منهما أمير عشرة . ومن مناصبها الكبرى أيضا المهندارية ، ويتولاها المهندار الذى يتلقى الرسل ويستقبل السفراء الوافدين وينزلهم فى دور الضيافة ، وشد الدواوين ويتولاها شاد الدواوين أى الذى يتولى مراجعة الأموال الديوانية ، وشد الخاص أى النظر فى شؤون الأموال السلطانية ومراقبة الخزائن السلطانية ، وشد مراكز البريد ، وشد البحر بسينا طرابلس وشد الشوانى ، ونقابة النقباء ، وأمير اخورية البريد أى النظر فى خيل البريد وشد دار الضرب ، وولاية المدينة ، وتقدمه التركمان ، وكلها وظائف يتولى نائب السلطنة أمر تدبير منولبها . ومن الوظائف الدينية ، وظيفة قاضى القضاة على المذاهب الأربعة ، وفانسيا عسكر شافعى وحنفى ، ومفتيا دار عدل ، ومحتسب ، ووكيل بيت المال « ٢٩ » .

وكان نائب السلطنة يقيم فى دار النيابة المعدة لنزوله ، وتعرف بدار السعادة ، وكانت تشغل جزءا من قلعة صنجيل ، حتى يتهيا للنائب الاشراف منها على المدينة كلها « ٣٠ » . وكان يركب فى يومى الاثنين والخميس من

(٢٩) نفس المصدر — زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٣

(٣٠) أنظر نص النويرى الذى أورده سوبرنهايم

S. Bernheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum t. XXV,

1909 p. 46

دار النيابة ، ويخرج في موكبه من الأمراء والأجناد حتى يصل الى ساحل البحر ، ثم يعود الى دار النيابة وبصحبته جميع الأمراء والأجناد ما عدا الأمير المقدم «٣١» ، فانه كان لا يحضر معه الى دار النيابة . ثم يدخل النائب في دار العدل ويجلس بتصدر الايوان . ويجلس عن يمينه قاضيان أحدهما شافعي والآخر حنفي ، ويجلس عن يساره قاضيان مالكي وحنبلي . أما كاتب السر فيجلس أمامه منحرفا الى يساره ، بينما يجلس حاجب الحجاب أمامه منحرفا الى يمينه ، أما كتاب الدست فجلسون خلفه . ثم تتولى الحجاب الصفار أخذ القصص ، وهي الشكايات أو المظالم ، فيوصلونها الى حاجب الحجاب الجالس أمام السلطان ، فيدفعها بدوره الى كاتب السر ، ويقوم النائب بعد ذلك بالفصل في هذه الشكايات . فلما ينفض المجلس يد السباط ، فيأكل النائب ومن يحضر معه ، وينصرف الجميع بعد ذلك «٣٢» .

وبالإضافة الى مهام نائب السلطنة العديدة الملقاة على عاتقه للحفاظ على الأمن وقمع الثورات وحسم مواد الفتن والقتال ، والدفاع عن حدود نيابته من الغزو البحري ، كان يوصى ولاته ونوابه بأعمال طرابلس ، وكبار موظفيه بالكفاية والعدل والتيقظ والاحتراز وبذل غاية الجهد في أداء

(٣١) كان نيابة طرابلس بخلاف نائبها أمير واحد مقدم ألف

(٣٢) القلقشندي ، ج ٤ ص ٢٣٤

أعمالهم ، وملازمة التقوى ، والعمل على اتباع صحة العدل وإبادة الظلم وتأمين الناس وعداوة البلاد وسد الجلل . وقد أورد القلقشندي نسخة مرسوم كتب به عن نائب الملكة الدارابلسية الى نائب حتن الأكراد في سنة ٧١٧ هـ يأمره فيه بإبطال ما أحدث بالحصن فيعهد اليه بارقة ما بها من الخسور وهدم مبانيها واحراق كل مخدر وازالة ما يحصن الأكراد من الفواحش ووجوه الفساد «^{٣٣}» . وكانت مهمة نائب طرابلس دقيقة للغاية لأن نيابة طرابلس كان لها وضع خاص ، اذ كانت في أطرافها الشمالية قلاع ومدن يسكنها النصيرية «^{٣٤}» ، وكان هؤلاء يخالفون أحكام السنة : فهم يؤلهون على بن أبي طالب ويعتبرونه آخر مراحل التجسد الالهى وأهمها، وهم النخر «^{٣٥}» ويرون أنها من النور ، فكان من مهام نائب طرابلس مراقبة هؤلاء النصيرية مراقبة دقيقة ، فيقوم بإبطال بيع الخسور في قراهم ، ويعمل على تعبير بلادهم وقراهم بالمساجد ، « فيقام في كل قرية مسجد ويطلق لهذا

(٣٣) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ٢٠ - ٢٢ - العسرى ، مسالك الأبعصار ، مخطوطة مصورة ج ١٦ ص ٦٨٧

(٣٤) النصيرية ، فرع من الاسماعيلية ، ينتسبون الى محمد ابن نصير الكوفي ، وهم باطنية لأن مذهبهم باطنى التعليم (طالع ما كتبه الدكتور فيليب حتى في تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ص ٢٢٠)

(٣٥) راجع ما كتبه القلقشندي فيما يختص بالنصيرية في صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٠ ، ٢٥١

المسجد من أرض القرية رقعة أرض تقوم به وبمن يعمل فيه من القوام «
كما كان من مهامه أيضا للعمل على ردع النصيرية وارجاعهم الى
السنة»^(٣٦) .

ج - اعمال نيابة طرابلس :

كانت نيابة طرابلس تشتمل بالاضافة الى الحاضرة طرابلس على ست
نيابات كبرى وست ولايات صغرى وست نيابات مستحدثة هي نيابات
قلاع الدعوة اضيفت الى نيابة طرابلس .

اولا - الاعمال الكبرى :

١ - عمل حصن الاكراد : حصن الأكراد حصن منيع أقامه الصليبيون،
كان مقرا للعساكر السلطانية قبل أن يفتح المنصور قلاوون مدينة طرابلس،
ثم أصبح عملا هاما من أعمالها «^(٣٧)» .

٢ - عمل حصن عكار : هو حصن منيع اسلامى البناء ، أقيم فى واد
تحيط به الجبال، وكانت المياه تصل اليه من ذيل من ذبول جبل لبنان «^(٣٨)» .

(٣٦) القلقشندي ، ج ١٣ ص ٣٥ — Nicola Ziadeh, p. 106

(٣٧) نفس المصدر ج ٤ ص ١٤٤ — نخبة الدهر فى عجائب البر

والبحر ، ص ٢٠٨

(٣٨) نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٤٤

٣ - عمل بلاطنس : بلاطنس قلعة تقع غربى مدينة مصياف ، وهى قلعة
حصنية للغاية لها أحد عشر بابا .

٤ - عمل صهيون : صهيون قلعة قديمة من بناء البيزنطيين غاية فى
الحصانة والمنعة رمسها الصليبيون وزودوها بالحصون «٣٩» ، تقوم على
قبة جبل صعب المرتقى ، وتدور عليها خمسة أسوار «٤٠» ، ويقع حصن
صهيون الى الجنوب الشرقى من اللاذقية ، وقد افتتحه السلطان قلاوون
فى ٢٢ صفر سنة ٦٧٦ هـ «٤١» .

٥ - عدل اللاذقية : اللاذقية من أهم مدن الساحل وأكثرها عمرا ،
ولها ميناء يحيط به البحر من ثلاث جهات كالشأن فى ميناء طرابلس «٤٢» ،
وهى من أعظم نيايات طرابلس «٤٣» .

(٣٩) عبد الرحمن زكى ، العسكرة العسكرية فى العصور الوسطى بين
العرب والصليبيين ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ،
١٩٥٨ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٤٠) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩

(٤١) محبى الدين بن عبد الظاهر ، تشرىف الأيام والعصور ، ص ١٥٠

(٤٢) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩

(٤٣) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٥

٦ - عمل المرقب : المرقب قلعة حصينة قائمة على رأس مرتفع مطل على البحر ، أقيمت في عهد الرشيد على أثر بناء قديم «^{٤٤}» ، وقيل في سنة ٤٥٤ هـ «^{٤٥}» ، ثم قام الاستتارية بتحسينها حتى أصبحت بحق من أكثر قلاع الصليبيين مناعة ، وعندما هاجبها بيرس استعصت عليه ، ولكنها افتتحت في سلطنة المنصور قلاوون في ١٧ ربيع الأول سنة ٦٨٦ هـ ، فأبقى عليها لحصاتها وأمر بترميمها •

ثانياً - الولايات الصغرى :

١ - عمل أنطوطوس : هي ثغر من ثغور الشام ، تقع الى شمال طرابلس في منتصف المسافة بينها وبين اللاذقية ، وكانت أنطوطوس عملا من أعمال دمشق ، ثم أصبحت في زمن المماليك من أعمال طرابلس • وذكر أبو القاسم الدمشقي أنها كانت مزودة ببرجين حصينين كالقلعتين «^{٤٦}» •

٢ - عمل جبة المنيطرة : ورد ذكرها في معجم البلدان على أنها قرية من أعمال طرابلس ينسب اليها أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن الجبائي «^{٤٧}» ، وتقع جبة المنيطرة بأعلى جبل لبنان عند منابع نهر ابراهيم،

(٤٤) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩

(٤٥) ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ٨٥

(٤٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٧٠

(٤٧) نفس المرجع ، مجلد ٢ ص ١٠٩

وهي منفذ يصل بين بعلبك في اقليم البقاع وجبيل على الساحل ، وتعرف اليوم باسم المنيطرة «^{٤٨}» .

٣ - عمل الظنيين : ذكر القلقشندي أنها كورة تقع بين مصياف وفامية «^{٤٩}» ، واعلم الظن أنها نفس المنطقة المعروفة اليوم باسم الضنية ، وهي منطقة مرتفعة من أخصب مناطق لبنان وأكثرها إنتاجا للتفاح والأجاص والعنب ، وتقع شمالي زغرتا «^{٥٠}» . وكان يسكن الظنيين جماعة من النصيرية ، وقد تعرض هؤلاء السكان في سنة ٧٠٥ هـ للقتل والأسر عندما أغار عليهم الأمير جبال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق ، والأمير أسندير كرجي بعسكر طرابلس ، والأمير شمس الدين سنقرجاه المنصوري بعساكر صفد ، فخرّبوا ديارهم ، وقتلوا منهم جملة كثيرة ، واستخدم أسندير جماعة منهم في طرابلس بجامكية «^{٥١}» .

٤ - عمل بشرية . بشرية أو بشرى «^{٥٢}» بلدة تقع على هضبة تحيط

(٤٨) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، نشره الدكتور فيليب حتى ،
برنستون ، ١٩٣٠ ص ١٣٢

(٤٩) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٨

(٥٠) حلیم أبو العز ، محافظة الشمال ، من كتاب لبنان في محافظاتة ،
ص ٦٨

(٥١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٥٠

(٥٢) تعرف أيضا في بعض المصادر باسم « جومة بشرية » (نخبة
الدهر ، ص ٢٠٨)

بها الجبال المرتفعة من كل ناحية ، قريبا من غابة الأرز ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ١٤٥٠ مترا وتشرف على أخدود وادي قاديشا «^{٥٣}» .

٥ - عمل جبلة : بلدة صغيرة على ساحل البحر المتوسط ، بينها وبين اللاذقية اثني عشر ميلا «^{٥٤}» .

٦ - عمل أنفة : يسميها الادريسي أنف الحجر «^{٥٥}» ، وهي بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر جنوبي طرابلس في الطريق المؤدى الى جيل وبيروت ، افتتحها المنصور قلاوون بعد فتح طرابلس ، وأمر بإخراجه حصنها ، وكان حصنا منيعا ، وأبقى على قريتين من قراها لأخت البرنس صاحب طرابلس «^{٥٦}» .

ثالثا - نيابات قلاع الدعوة :

سميت هذه القلاع كذلك لأنها كانت من أملاك الاسماعيلية الحشيشية أو الباطنية الذين ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق ويسمون أنفسهم

(٥٣) حلیم أبو العز ، المرجع السابق ، ص ٥٠

(٥٤) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٨

(٥٥) الادريسي ، (Palaestina et Syria) ص ١٧

(٥٦) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١

أصحاب الدعوة الهادية • وكانت هذه القلاع سبعة لاترام في غاية الحصانة والمنعة ، أضيفت كلها الى طرابلس بعد أن أصبحت نيابة ، ثم نقلت قلعة مصياف منها الى نيابة دمشق فأصبحت نيابات قلاع الدعوة ستا «^{٥٧}» • وهناك ظاهرتان واضحتان في قلاع الدعوة ، الظاهرة الأولى أنها متقاربة فيما بينها ، متجسعة على شكل دائرة «^{٥٨}» حتى يسهل الدفاع عنها • والظاهرة الثانية أنها قائمة بأعلى جبال البهرة بحيث تصبح متوعدة المسالك منيعة لاترام ، ثم انها تتحكم في المنافذ الجبلية المؤدية الى بانياس وطرابلس

١ - الرصافة : قلعة منيعة بالقرب من مصياف على جبال البهرة

٢ - الخوابى : قلعة في شمال طرابلس بين سهل القليعة وساحل البحر ، وكانت في حوزة محمد بن علي بن حامد فسلمها للصليبيين في سنة ٤١١ هـ ، ثم أصبحت من أملاك الاسماعيلية «^{٥٩}» •

٣ - القدموس : قلعة منيعة تقع جنوب غربى شيزر على مقربة من

نهر بانياس •

(٥٧) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٦

(٧٥) Lammens, la Syrie, p 221

(٥٩) النويري ، نهاية الأرب ، مخطوط رقم ٥٤٩ بدار الكتب ، نسخة

مصورة ج ٢٨ ص ٧٨

٤ - الكهف : قلعة قائمة على شتر مرتفع عند منابع نهر مرقية ، قريبا من القدموس .

٥ - المنيقة : حصن في جبل الرواديف ، « وبانيه رجل اسمه نصر بن شرف الروادى كان قد استولى على جميع المسلمين الساكنين بجبل الرواديف وما يليه » « ٦٠ » ، وتقع المنيقة بالقرب من الكهف .

٦ - العليقة : قلعة من أمنع حصون طرابلس كان يتولاها الرضى ثم ولده صارم الدين ، فجرت من صارم الدين أمور أوجبت اعتقاله بصر ، ورسم للعسكر المقيم ببلاتنس بئازلتها « ٦١ » ، والعليقة قريبة من المنيقة ، على نحو ساعة منها « ٦٢ » .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٧٨

(٦١) النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٧٧

(٦٢) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٧

د - كشف باسماء نواب السلطنة بطرابلس في عصر المماليك

اسم السيلطان المعاصر	مدة نيابته	اسم النائب
الأشرف خليل	٦٨٩ - ٦٩١	سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري «٦٣»
» »	آخر ٦٩١ - أول ٦٩٢	سيف الدين طغريل الايفاني
الناصر محمد (الاولى)	٦٩٢ - ٦٩٤	عز الدين أيبك الخازندار المنصوري «٦٤»
زين الدين كتبغا	٦٩٤ - ٦٩٨	عز الدين أيبك الموصلى المنصوري «٦٥»
حسام الدين لاشين	٦٩٨	بكتمر
» »	٦٩٨	سيف الدين كرت الحاجب «٦٦»

(٦٣) ظل سيف الدين بلبان يارس وظيفته الى أن رفعه الأشرف خليل الى نيابة حلب في سنة ٦٩١ هـ (السلوك، ج ١ قسم ٣، ص ٧٦٤ - السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام ص ٦٣ - وطرابلس : تاريخها وآثارها الاسلامية، من محاضرات الموسم الثقافي لجمعية مكارم الاخلاق الاسلامية، طرابلس ١٩٦٤ ص ١٣٧)

(٦٤) استقر في نيابة طرابلس والحصون عوضا عن طغريل الذي أعفاه الأشرف خليل، ويبدو أنه لم يرض عن سلطنة العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ - ٦٩٦) فأمر كتبغا بالقبض عليه فاعتقل بالقاهرة (السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٨١٠) . وفي نيابة عز الدين أيبك الخازندار افتتح الجامع المنصوري الكبير بطرابلس .

اسم السلطان المعاصر	مدة نيابته	اسم النقيب
الناصر محمد (الثانية)	٦٩٨ — ٦٩٩	سيف الدين أسندير الكرجي «٦٧» (الاولى)
في عهد خضوع طرابلس للمغول	٦٩٩ — ٧٠٠	فارس الدين الألبكي الساقى
الناصر محمد	٧٠٠ — ٧٠٢	سيف الدين قطلو بك
» »	٧٠٢ — ٧٠٩	سيف الدين أسندير الكرجي «٦٨» (الثانية)
» » (الثالثة)	٧٠٩ — ٧١٠	الحاج بهادر الحلبي «٦٩»
» »	٧١٠ — ٧١٢	جمال الدين أقوش الأفرم «٧٠»
» »	٧١٢ — ٧١٤	سيف الدين تير الساقى المنصورى «٧١»
» »	٧١٤ — ٧١٦	سيف الدين كستاي الناصرى
» »	٧١٦ — ٧٢٦	شهاب الدين قرطاي بن عبد الله الأشرفى الحاجب (الاولى)

== (٦٥) ينسب اليه حكام مازال قائما حتى اليوم يعرف بحكام عزالدين؛
وقد توفي عزالدين مسوما في أول صفر سنة ٦٩٨ هـ (النجوم الزاهرة ،
ج ٨ ص ١٨٣) .

(٦٦) اشترك الأمير كرت في واقعة مجيع المروج في وادى الخازندار
التي وقعت بين غازان خان والناصر محمد ، وفيها قتل في ١٨ ربيع الاول
سنة ٦٩٩ (السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٨٨٦)

(٦٧) ولاء الناصر محمد نيابة طرابلس بعد أن استرجع عرشه في سنة
٦٩٨ هـ مكافأة له على تأمره مع جماعة من مساليك لاجين على قتله واعادة
الناصر الى السلطنة .

= (٦٨) ساهم أسدمر أبام نيابته لطرابلس والفتوحات في فتح جزيرة
أرواد بالسيف عنوة مع الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري
(أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدواداري ، الدر الفاخر في سيرة الملك
الناصر ، ج ٩ ، تحقيق هانز روبرت رويسر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٤١ —
النجوم الزاهرة ، ج ١٥٦) والى سندمر نسب عدد كبير من أبنية
طرابلس في عصر دولة المماليك اسحر به . فقد أسس حكاما وقيسارية وطاحونا
ومساكن للمماليك في طرابلس كما أعاد بناء جزء كبير من قلعة صنجيل ،
وشيد أبراجا بطرابلس راجع النص الذي أورده سوبرهايم عن النويري
ص ٤٧)

(٦٩) أقامه الناصر محمد على سدة طرابلس بعد أن رقى أسدمر الى
سنة حلب مكافأة له على اعادته الى العرش للمرة الثالثة (السلوك ج ٢
قسم ١ ص ٧٥)

(٧٠) ابن أيك الدواداري ، الدر الفاخر ص ١٩٥ — السلوك ج ٢
قسم ١ ص ٩٠ — النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤

(٧١) قبض عليه السلطان الناصر في سنة ٧١٥ وحمل الى قلعة الجبل
(ابن أيك الداوداري ص ٨٣ — السلوك ج ٢ قسم ١ ص ١١٨ — النجوم
الزاهرة ، ج ٩ ص ٣٤)

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
سيف الدين طينال الحاجب «٧٢» (الاولى)	٧٢٦ — ٧٣٣	الناصر محمد
شهاب الدين قرطاي «٧٣» (الثانية)	٧٣٣ — ٧٣٤	» »
جمال الدين آقوش الأشرفي «٧٤»	٧٣٤ — ٧٣٥	» »
سيف الدين طينال «٧٥» (الثانية)	٧٣٥ — ٧٤١	» »
سيف الدين أرقطاي بن عبد الله المنصوري «٧٦»	٧٤١ — ٧٤٣	الأشرف علاء الدين كجك والناصر شهاب الدين أحمد
سيف الدين طينال (الثالثة)	٧٤٣	العصالح اسماعيل بن الناصر
سيف الدين طرغاي الجاشنكير الناصري	٧٤٣	» »
آق سنقر الناصري	رمضان ٧٤٢-٧٤٦	الكامل شعبان
سيف الدين قساري الاستادار	٧٤٦	» »
أسندمر العمري (الاولى)	٧٤٦	حاجي
بيدمر العمري	٧٤٦	» »
ركن الدين بيرس بن عبد الله الأحمدي	٧٤٦	» »

(٧٢) تولى نيابة طرابلس بدلا من شهاب الدين قرطاي بحكم انتقال هذا الأخير الى دمشق نائبا للسلطنة ، وكان طينال مقربا للسلطان ، اذ عقد له على إحدى بناته في سنة ٧٢٦ هـ (السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٢٧٢)

(٧٣) عزل طينال وأقيم على نيابة غزة وذلك لشكوى الأمير تنكز نائب دمشق منه لترفعه عليه وخرق حرمة واعراضه عما يكاتبه فيه (السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٣٥٨)

(٧٤) كان نائبا على الكرك ثم ولاء الناصر على طرابلس بعد وفاة

==

• قرطاي

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
أسندمر العمري «٧٧» (الثانية)	١٣ محرم: ٧٤٧ - أول محرم ٧٤٨	الناصر حسن (الاولى)
منكلى بغا الفخرى أمير جاندار	٧٤٨	» »
م - عود بن خطير (الاولى)	٧٤٨ - ٧٤٩	» »
الجيفسا المظفرى ٧٨٠	٧٤٩ - ٧٥٠	» »
مسعود بن خطير (الثانية)	٧٥٠	» »

= (٧٥) نقل طينال الى نيابة طرابلس عوضا عن آقوش الذى اعتقل
في سنة ٧٣٥ هـ .

(٧٦) استقر سيف الدين أرقطاي في نيابة طرابلس بدلا من طينال
الذى رفع الى نيابة دمشق . ثم أمر السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر
محمد بالقبض على أرقطاي وسجنه بالقلعة حيث توفي في سنة ٧٥٠ هـ
(النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٥٠)

(٧٧) انتقل من نيابة حماة الى طرابلس بعد أن اتسمت أعمال طرابلس
وفاقت نيابة حماة

(٧٨) اشترك في قتل سيف الدين أرغون شاه نائب دمشق في سنة
٧٤٩ هـ (راجع النجوم ج ١٠ ص ٢١٣ - ٢١٥) ثم مضى الى طرابلس
وأعلن فيها العصيان ، فأمر السلطان بالقبض عليه مع جملة من مماليكه
وتم القبض عليه ووسط تحت قلعة دمشق في ٧٥٠ هـ (صالح بن يحيى ،
تاريخ بيروت ص ٢١٢)

اسم السلطان المعاصر	مدة نيابته	اسم النائب
الصالح صلاح الدين	٧٥٠ — ٧٥٢	بطاشين السلاحدار أمير شكار
الناصر حسن (الثانية)	٧٥٢ — ٧٥٥	أيتمش الناصري
» »	٧٥٥ — ٧٥٥	منجك اليوسفي (الاولى)
المنصور أبو المعالي محمد بن حاجي	شوال ٧٦٢ — ٧٦٤	أشقتمر المارديني (الاولى)
الأشرف زين الدين شعبان بن حسين	٧٦٤ — ٧٦٦	أدمر الخازن
» »	٧٦٦ — ٧٦٧	أشقتمر المنصوري
» »	أول ٧٦٧	أشقتمر المارديني (الثانية)
» »	٧٦٧ — ٧٦٨	منجك اليوسفي (الثانية)
» »	٧٦٨	جرجي الأدريني
» »	٧٦٨	أشقتمر المارديني (الثالثة)
» »	آخر ٧٦٨ — ٧٦٩	استمر الزين
» »	٧٦٩	منجك اليوسفي (الثالثة)
المنصور علاء الدين علي بن شعبان	٧٦٩ — ٧٧٥	سيف الدين أيدمر الأنوكي الناصري
» »	٧٧٥ (آخر صفر)	يوسف شاه
» »	٧٧٥ (ربيع آخر)	أشقتمر عبد الغني
» »	أول ٧٧٦ — ٧٧٨	منكلي بغا الإيجيدي البلدي (الاولى)
» »	٧٧٨	أرغون الأسعدي
» »	٧٧٨ — ٧٨٠	منكلي بغا الإيجيدي (الثانية)
» »	٧٨٠ — ٧٨١	يلبغا الناصري
» »	٧٨١ — ٧٨٢	منكلي بغا الإيجيدي (الثالثة)
» »	٧٨٢ — ٧٨٣	اينال اليوسفي
الصالح أمير حاج	٧٨٣ — ٧٨٤	كشيبغا العموي اليلغاوي (الاولى)
الظاهر برقوق (الاول)	صفر ٧٨٤ — ٧٨٦	مأمور القلمطاوي

اسم السطان المعاصر	مدة نيابته	اسم النائب
الظاهر برقوق	٧٨٦ — ٧٩٠	كمشبقا الحموى اليلغاوى (الثانية)
» »	٧٩٠ — ٧٩١	اسندمر المحدثى
الصالح ثم المنصور حاجى	٧٩١	بلغاى تىر القبلاى
المنصور حاجى	٧٩١ — ٧٩٢	منجق الحسنى
الظاهر برقوق (الثانية)	٧٩٢	قرا دمرداش الاحمدى
» »	٧٩٢ — ٧٩٣	اينال من خجا
» »	٧٩٣ — ٧٩٥	فخر الدين اياس الجرجاوى
» »	٧٩٥ — ٧٩٦	دمرداش المحدثى الظاهرى (الاولى)
» »	٧٩٦ — ٧٩٨	ارغون شاه ابراهيمى الظاهرى
» »	٧٩٨ — ٨٠٠	منجك اليوسفى
» »	٨٠٠ — ٨٠١	اقبغا الجمالى الظاهرى الاطروش
» »	٨٠١ — ٨٠٢	يوس الظاهرى بلدا
الناصر فرج	٨٠٢ — ٨٠٣	شيخ المحمودى المؤيد «٧٩» (الاولى)
» »		اقبغا الحسالى الظاهرى الاطروش
» »	٨٠٣	(الثانية)
» »	٨٠٣ — ٨٠٤	شيخ المحمودى (الثانية)
» »	٨٠٤ — ٨٠٦	دمرداش المحدثى الظاهرى (الثانية)
» »	٨٠٦ — ؟	شيخ السليمانى
» »	٨١١ — ؟	سودون بنججه
المؤيد شيخ	٨١٧ — ؟	سودون من عبد الرحمن
» »	٨١٨ — ؟	يشبك شاد الشراب خاناه

(٧٩) أسر شيخ فى موقعة جيلان خارج حلب فى ٩ ربيع الاول سنة ٨٠٣ هـ (النجوم ج

اسم السلطان المعاصر	مدة نيابته	اسم النساب
المؤيد شيخ	٨٢٠ — ٢	بردي بك رأس نوبة
» »	٨٢٤ — ٨٢٥	ثاني بك البجاسي
الاشرف برسباي	٨٢٥ — ٨٢٦	إينال التوروزي
» »	٨٢٦ — ٢	قصوره أمير اخور كبير
إينال	٨٤٩ — ٨٥١	برسباي بن عبد الله حمزه المصري
» »	٨٥١ — ٨٥٣	ينبك بن عبد الله من جاني بك
خشققدم	٨٧٠	محمد بن مبارك
الاشرف قايتباي	٨٧٣ — ٨٧٤	قانسوه اليحياوي
» »	٨٧٤ — ٨٨٠	يشبك البجاسي
» »	٨٨٠ — ٨٨٤	أزدر من مزيد الأشرفي
» »	٨٨٤ — ٨٨٥	برديك المعمار السيفي جرباش كرد
» »	٨٨٦ — ٨٨٩	إينال السلحدار (الاولى)
» »	٨٨٩ — ٨٩٠	بيرس الرجبي
» »	٨٩٠ — ٢	إينال السلحدار (الثانية)
الناصر أبو السعادات محمد	٩٠٣ — ٩٠٤	إينال باي الابراهيمى
» »	٩٠٤	آقبردي الدوادر
» »	٩٠٤	دولات باي من أركماس (الاولى)
» »	٩٠٤ — ٩٠٥	يلباي المؤيدي
جانبلاط	٩٠٥ — ٩٠٦	قيت الرجبي
العادل طومان باي	٩٠٦ — ٩٠٨	برد بك الطويل
وقانسوه الغوري		
الاشرف قانسوه الغوري	٩٠٨	دولات باي من أركماس (الثانية)
الغوري	٢	أركماس من طراباي

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
يخشباي من عبد الكريم	؟	المصري
سودون من يشبك الدواداري	٩١٥ — ؟	» »
أبرك مملوك	٩١٨ — ٩١٩	» »
جانم من ولي الدين	٩١٩ — ٩٢٠	» »
الماس د. ا. دار	٩٢٠ — ٩٢١	» »
تسراز الأشرفي	٩٢١	

(٢)

الاحداث الهامة في نيابة طرابلس

١ - الفتن والفتلاقل :

(١) في عهد الناصر محمد بن قلاوون : شهدت طرابلس في عصر المماليك اضطرابات خطيرة اما بسبب محاولة بعض نواب السلطنة في الشام الخروج على السلطان المملوكي ، أو بسبب خلاف شخصي بين نائب طرابلس وأحد أمرائها ، أو نتيجة نزاع بين نائب طرابلس وأهلها . وقد كان أمر هذه الفتن يمتد في بعض الأحيان ، فلا تحسم الا بتدخل السلطان ، وقد تنتهي فترة الاضطراب في أمد قصير بتدخل النائب الكافل في دمشق أو في القاهرة .

ومن الفتن التي قامت في طرابلس ، الفتنة التي وقعت بين الأمير سيف الدين أسندمر الكرجي نائب طرابلس والأمير بالوج الحسامي من أمرائها ، وكان سببها أن أسندمر استخدم في ديوانه كاتباً سامرياً يقال له أبو السرور ، وأطلق يده في أمور النيابة ، فاستبد السامري وزاد تحكمه ، وكان يستغل مركزه في الاتجار لمخدومه ، وركب الخيول المسومة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، وأساء التصرف في سائر الأمور بطرابلس حتى كثرت لديه الأموال ، وأثرى ثراء فاحشاً ، وزاد على الناس ضرره ؛

فشكوه لنائب طرابلس ، فلم يعبأ بهذه الشكايات ولم يعمل على الحد من سلطات السامري ، فاضطر الأمير بالوج الحسامي من أمراء طرابلس اكبار الى الاتذاني مع أمراء طرابلس الآخرين على كف يد السامري ، ورو عدمه ؛ لومرف معهم ثم نه قابل أسندمر نائب طرابلس ، وواجهه بما ارمكه السامري في حق أهل طرابلس وذكر له ما أصاب الناس على يديه من أضرار . فاتهمه أسندمر بالكذب والتلفيق وأساء اليه وأغلظ عليه في القول ، وكان هذا التصرف كفيلا بإثارة غضب الأمير بالوج عليه ، فقابل بالوج تحدي أسندمر بتحد مماثل ، وأقسم له بأنه لن يتحول عن قتل السامري . وكان من الطبيعي أن يعمل أسندمر على ازالة بالوج من طريقه ، ثم تتحول القضية الى نزاع شخصي بينه وبين بالوج ، فكتب بالوج يشكوه عند النائب الكافل شكوى عريضة أدت الى اصدار الأمر بالقبض على بالوج وحجسه . وعلى أثر ذلك بغى السامري وطغى ، واشتدت وطأته على أهل طرابلس ، واستبد بهم . فلم يسكتوا على ذلك ، وأخذوا يكتبون فيه « محاضر بقوادح حفظت عنه ، وأثبتوها بدمشق ، فكتب الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام فيه ، فقام الأمير بيبرس الجاشنكير في ذلك وكتب بحمل السامري الى دمشق وتسليمه للقاضي المالكي والاقراج غن بالوج ، فأفرج عنه ، وأنعم عليه ، وقيد السامري ، وسلمه للبريد ، فسار به الى حمص ، فاتفق قتله بها ، واتهم أسندمر أنه دس عليه من ضرب العنقه حتى لا يتمكن منه ، فحملت رأسه الى دمشق » « ١ » .

ولما خلع الناصر محمد بن قلاوون نفسه من السلطنة في شوال

سنة ٧٠٨ هـ بعد أن ضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار كفيلا
المالك الشريفة ، ونصب بيبرس الجاشنكير نفسه سلطانا ، أرسل بيبرس
الى نواب الشام رسلا من قبله ليحلفوا هؤلاء النواب على الولاء له ،
ويرسلوا له نسخة الايمان ، فنوجه الى طرابلس الأميران عز الدين أيدي
اليونسي وأقطاي الجمدار «^٢» . وعلى الرغم من وقوف جمال الدين آقوش
الأفرم نائب دمشق الى جانب بيبرس الجاشنكير بحكم كونه خشداشا له ، وموافقه أمراء
دمشق على الحلف لبيبرس ، ومحاولة آقوش الأفرم الضغط على قراستقر نائب
حلب وقبجق الممـسـوري نائب حماة وأسندمر نائب طرابلس حتى
يحلفوا لبيبرس ، فقد رفض الأمراء الثلاثة سلطنة بيبرس ، ورد أسندمر
قائب طرابلس لرسول الأفرم اليه بقوله : « اذهب لأستاذك وقل له : يا بعيد
الذهن وقليل العلم ، بعد أن دبرت أمرا فدا الحاجة الى مشاورتنا ، فوالله
ليكونن عليك أشأم التدبير ، وسيعود وباله عليك » «^٣» تـجـ عن
عصيان نواب طرابلس وحماة حلب اضطراب الأمور في هذه النيابات ،
فاجتمع النواب الثلاثة في حلب وأقسموا أن يعيدوا الناصر محمد الى
السلطنة ولو تعرضوا في سبيل ذلك للموت . وحاول بيبرس ارضاء
هؤلاء النواب المعارضين حتى يعترفوا له بالسلطنة ، فأرسل الى كل منهم
تقليدا بنيابته مع الاحتفاظ لأنفسهم بما يتحصل منها من أموال ، وخلم
على كل منهم خلعة بألف دينار وفرشا قماشه بألف دينار وعشرة رؤوس من
الخيول ، فتظاهر النواب المذكورون بالموافقة على سلطنة بيبرس وحلفوا له ،

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٣٦

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٨ .

ولكنهم لعبوا دورا هاما بعد ذلك في اعادة الناصر محمد الى السلطنة في سنة ٧٠٩ هـ ، ولذلك كافأهم الناصر محمد بأن ولى أسندمر نيابة حماة عوضا عن قبجق الذى تولى نيابة حلب . أما طرابلس فتولى يابتها الحاج سيف الدين بهادر الحلبي «٤» .

(٢) في عهد الظاهر برقوق : ثار يلبغا الناصرى نائب حلب على السلطان في محرم سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) وقبض على حاجب حجاب حلب وعلى أولاد المهندار ، ثم استولى على القلعة ، واستدعى التركمان والعرباز ، وكتب الى تمر بغا الأفضلى الأشرفى المعروف بسنطاش نائب ملطية وزعيم الأشرفية يستميله الى حركته ، ونجح فى ذلك على نحو لم يكن فى الحسبان ، وتعاقد الأشرفية واليلبغاوية «٥» ، ثم أحدثوا انقلابا فى طرابلس فى ٢٤ صفر من نفس السنة ، فقد تمكن الأمير قرايغا فرج الله والأمير يزلاز العسرى الناصرى والأمير دمرداش اليوسفى ، والأمير كمشبغا الخاصكى الأشرفى والأمير آقبا قبجق مع طائفة كبيرة من أمراء المساليك المنفيين بطرابلس من الوثوب على نائبها الأمير أسندمر المحدثى والقبض عليه وقتله مع طائفة من أمراء طرابلس ، نخص بالذكر منهم الأمير صلاح الدين خليل بن سنجر وابنه ، وأعلن الثوار دخولهم فى طاعة يلبغا

(٤) نفس المصدر ج ٩ ص ١١

(٥) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٥٩

الناصرى «٦» ، وأقام بزلا ر نفسه نائبا على طرابلس «٧» . وتبع ذلك دخول حماة وبعليك والكرك وحلب وغيرها من البلاد الشامية فى طاعة الناصرى . ولما أرسل الظاهر برقوق جيشا لمحاربة يلبغا انهزم جيشه هزيمة مخزية ، وانهى الأمر بدخول يلبغا الناصرى فى دمشق فى ٢١ ربيع الآخر من سنة ٧٩١ هـ

ولم يلبث منطاش أن تنازع مع يلبغا الناصرى فى مصر بعد أن نجح الاثنان فى عزل برقوق ونفيه بالكرك ، واستطاع منطاش أن يظفر بالآبابكية فى مصر بعد انتصاره على يلبغا الناصرى ، وانهز برقوق فرصة هذا الخلاف القائم بين يلبغا ومنطاش ، وأعلن نفسه سلطانا ، فبايعه أهل الكرك فى سنة ٧٩١ هـ ، والتف حوله الجراكسة من الشام ومصر ، فكون منهم جيشا زحف به نحو دمشق «٨» ، وبادر منطاش بالخروج الى الشام لمواجهة برقوق ، وفى هذه الآونة نار أهل طرابلس على منطاش واستقلوا بمدىنتهم ، فاضطر منطاش الى النزول على طرابلس فى عسكر كثيف من التركمان والعرب والماليك وغيرهم بقصد استرجاع المدينة ، فخرج أهل

(٦) محمد بن محمد بن بصري ، الدرّة المضيئة فى الدولة الظاهرية ، نشره وليم م . برينر ، مجلد ٢ ، (النص العربى) ، لومس انجلىس ، ١٩٦٣ ص ٥ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٥٩

(٧) ابن مصرى ، ص ٥

(٨) سعيد عاشور ، العصر المالىكى ص ١٥٦

طرابلس لمهاجرة عسكر منطاش . وتسكنوا من هزيتهم ، فأعد لهم منطاش كسينا ، وتظاهر بالانضمام ، فطارده أهل طرابلس ، فخرج عليهم الكسين ، فقتلوا منهم جموعا هائلة «٩» . ثم انتقى منطاش بعد ذلك بعسكر برقوق في موقعة دارت بالقرب من دمشق ، انتهت بهزيمة منطاش . أما طرابلس فقد تولى نيابتها الأمير اياس الجرجاوى . وكان يميل الى النصارى ويقربهم اليه ، وقد حاول في نيابته أن يحول جامع طرابلس الكبير الى كنيسة للنصارى ، شار عليه القضاة وأعيان طرابلس والعامة . وأرادوا أن يرجسوه في سنة ٧٩٥ هـ ، فتدخل السلطان في هذه المشكلة ، وعزله ثم أرسله الى دمشق «١٠» .

(٣) في عهد الناصر فرج بن برقوق :

استغل كبار أمراء المماليك في مصر والشام صغر السلطان فرج بن برقوق «١١» وأعلنوا الثورة عليه ، ففى دمشق خرج عليه نائبها وتم

(٩) ابن صصرى ، ص ٦٥

(١٠) النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢

(١١) لم يكن السلطان فرج بن برقوق يتجاوز من العمر الثالثة عشرة سنة عندما تولى السلطنة ، وكانت ظروف توليه لها غير مواتية ، فالفوضى كانت ضاربة أطنابها في الشام ومصر والأخطار الخارجية كانت تهدد حدود الدولة .

واستسال اليه يونس بلطا الظاهري نائب طرابلس ، فأمره تنم بتجهيز شينى
فى البحر الى ثغر دمياط ليحصل فيه الأمير نوروز الحافظلى وغيره من
الأمرء بثغر دمياط ، فبادر ناصر الدين محمد بهادر المؤمنى بالاستيلاء على
برج الأمير أيتمش البجاسى بطرابلس وركب البحر الى دمياط «(١٢)»
للحصول على ملطفات من السلطان تأميناً لأهل طرابلس .

ولكن أهل طرابلس الذين تسكوا بالولاء للنابى فرج ، ولم يعترفوا
بأصحاب الانقلاب ، ثاروا على اتباع تنم فى سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) عندما
عاد محمد بن بهادر المؤمنى الى طرابلس ومعه الملطفات المذكورة ، فتصدى
له نائب غيبة يونس بلطا فى ٣٠٠ من أجناد طرابلس وقاتله هو ورجاله ،
فانهزم نائب الغيبة ورجاله وتقهقر الى برج أيتمش الذى كان فى حوزة
ابن بهادر ، وحاصره العامة وقاتلوه ، فاضطر الى الهرب الى حماة .
فغضب الأمير تنم لذلك وسير عسكرياً ضحاً لقتال أهل طرابلس بقيادة
الأمير صرق ، واشتبك صرق مع أهل طرابلس فى قتال عنيف دام تسعة
أيام ، لم يؤد الى نتيجة ، ولما ألقى تنم عجز صرق أمام مقاومة أهل
طرابلس عن دخولها ، أرسل اليها نائبها يونس بلطا فى طائفة كبيرة من
العسكر ، فزحف اليها يونس ونجح فى ايقاع الهزيمة بابن المؤمنى ، وتمكن
من دخول طرابلس فى ١٥ ربيع الأول سنة ٨٠٢ هـ . فركب ابن المؤمنى
البحر بمن معه ، وبرفته القاضى شرف الدين مسعود قاضى القضاة
الشافعية بطرابلس ، بقصد الالتجاء الى القاهرة .

وتهيأت ليونس بلطا فرصة الانتقام من أهل طرابلس ففعل « في طرابلس وأهلها ما لا تفعله الكفرة ، وقتل نحو العشرين رجلا من أعيان طرابلس وقضاتها وعلسائها ، منهم الشيخ العالم المفتي جمال الدين بن النابلسي الشافعي ، والخطيب شرف الدين محمود ، والقاضي المحدث شهاب الدين أحمد الأذرعي المالكي ، والقاضي موفق الدين الحنبلي ، وقتل من عامة طرابلس ما يقارب الألف ، وساد الناس مصادرات كثيرة ، وأخذ أموالهم ، وسبى حريتهم . فكانت هذه الكائنة من أقبح الحوادث » (١٣) . ولكن السلطان فرج تسكن أخيرا من اخداد ثورة تتم وأنصاره وهم نواب صفد وطرابلس وحماة وحلب ، وانهى الأمر بقتل كل من تتم ويونس بلطا في رمضان سنة ٨٠٢ هـ « (١٤) » .

(٤) في عهد الناصر ابو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباي وقصره
الغوري :

كان محمد بن قايتباي من الضعف بحيث استبد الأمير قصره من اينال نائب الشام في عهده بأمور الشام استبدادا مطلقا ، وكان قد خرج على ملاعة السلطان في ربيع الآخر سنة ٩٠٥ هـ ، فلم يؤاخذ السلطان على فعلته ، وأقره على نيابة دمشق ، ولكن قصره لم يكتف بذلك بل استولى في شعبان سنة ٩٠٥ هـ على طرابلس ، وقبض على نائبها يلبي المؤيدي

(١٣) النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ١٩١ ، ١٩٢

(١٤) نفس المصدر ص ٢٠٦

وسجنه بقلعة دمشق «١٥» ، ومع ذلك فقد أقام السلطان الأمير قيت الرجبى جاجب الحجاب على نيابة طرابلس عوضا عن يلباي المؤيدى ولم يجسر على معاقبة قصره ، ولكن قيت لم يلبث أن أعيد فى سلطنة الأشرف جانبلاط من يشبك الأشرفى الى حجوية الحجاب • أما طرابلس فأقيم على نيابتها الأمير برد بك الطويل بدلا من قيت الرجبى «١٦» • وفى ذى القعدة من سنة ٩١٥ هـ وقع خلاف كبير بين الأمير سودون من يشبك الدوادارى نائب طرابلس وبين أهلها ، فاضطر السلطان الى استدعائه الى مصر «١٧» ، ليتجنب بذلك ما قد يسببه بقاءه فى نيابة طرابلس على غير رغبة أهلها من قلق واضطرابات ، وأقام مكانه نائبا آخر للسلطنة هو الأمير أبرك مسلوكة .

ب - الفناء الكبير :

نكب العالم كله فى الفترة ما بين عامى ٧٤٢ هـ ، ٧٥١ هـ بوباء خطير اجتاح أقطاره من المشرق الى المغرب وأدى الى فناء ملايين الأنفس حتى عرف فى الرواية الأوربية باسم الفناء الكبير ، وفى مصادر التاريخ الأوروبى الوسيط باسم الموت الاسود Black death «١٨» • وقد انتشر هذا

(١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ٤٣٣

(١٦) نفس المصدر ص ٤٤٥

(١٧) نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٦٨

(١٨) المقرئى ، كتاب اغاثة الامة بكشف النمة ، تحقيق الدكتور . . .

الوباء في بلاد الشرق الأدنى والمغرب الاسلامى وأوروبا من الشرق الأقصى عبر الطرق التجارية المارة بغرب آسيا والشام والأناضول ومصر ، فابتدأ ظهوره في بلاد مغول القبائل الذهبية سنة ٧٤٢ ، أى في المنطقة الواقعة شمالي البحر الاسود وبحر قزوين ، ثم انتشر في بلاد غياث الدين محمد ازبك وامتد بعد ذلك الى أنطاكية والشام والعراق وأرمينية ثم مصر وبلاد الفرنج . ويرجح الاستاذ محمد عبد الله عنان أنه حل بإيطاليا قبل أن يحل بمصر «^{١٩}» بأعذار أنه ظهر بفلورنسة حسب رواية معاصره بوكاشيو في شهر مارس سنة ٢٤٨ (ذو الحجة سنة ٧٤٨ هـ) بعد ظهوره في جنوب إيطاليا . ولكن المقرئ يذكر أن هذا «الوباء الذى لم يعهد في الاسلام مثله ابتداء بأرض مصر آخر أيام التخضير وذلك في فصل الخريف في أثناء سنة ثمان وأربعين ، وما أهل محرم سنة تسع وأربعين حتى انتشر الوباء في الاقليم بأسره ، واشتد بديار مصر في شعبان ورمضان وشوال ، وارتفع في نصف ذى القعدة» «^{٢٠}» .

== جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٠ . تعليق رقم ٣

(١٩) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ص ٩١ ، ٩٢

(٢٠) السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٧٧٢ — النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٩٥

ويبدو أن هذا الطاعون قد انتقل من آسيا الصغرى الى قبرص عن طريق السفن ، فانتشر في قبرص بدليل أن أول أخبار الطاعون وردت فيما ذكره المقرئى اذ يقول : « وفيه (أى فى عام ٧٤٩) قدم الخبر من طرابلس بأن قبرص وقع بها فناء عظيم هلك فيه خلق كثير » « ٢١ » .

ونستنتج من ذلك أن الوباء ظهر فى قبرص قبل أن يظهر فى الشام . ثم عم بعد ذلك فى أرض مصر . وكان أول ظهوره فى حلب فى أول جسادى الأولى سنة ٧٤٨ هـ ، ثم عم « جميع بلاد الشام وبلاد ماردىن وجبالها ، وباد أهل الغور وسواحل عكا وصفد وبلاد القدس ونابلس والكرك وعربان واليوادى وسكان الجبال والضياع » « ٢٢ » . ثم امتد الوباء الى طرابلس لدرجة مخيفة فى الوقت الذى خف فيه فى دمشق « ٢٣ » . وكتب نائب حلب بأن بعض أكابر الصلحاء بحلب رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه ، وشكا اليه ما نزل بالناس من الوباء ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالتوبة وقراءة الدعاء التالى : « اللهم سكن هبة صديقه »

(٢١) : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٥٩

(٢٢) السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ص ٧٧٤ — النجوم الزاهرة ، ج ١٠

ص ١٩٧

(٢٣) السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ص ٧٧٩ — ويذكر أبو المحاسن أن الوباء فى دمشق (كان بها آخر ما كان بطرابلس وحماة وحلب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٣) وصحتها « أخف »

« ما من أحد من رجب بالطائف النازلة الواردة من فيضان الملكوت حتى تشبث
بأذيال لطفك ، ونعتصم بك عن انزال قهرك ياذا القوة والعظمة الشاملة .
والقدرة الكاملة ، ياذا الجلال والاکرام) » فرأى المسؤولون في مصر أن
يعلنوا بنسخ من هذا الدعا . الى حماة وطرابلس ودمشق « ٢٤ » . ولم تخف
وطأة الوباء الا في المحرم سنة ٧٥٠ هـ بعد أن قضى على عدد كبير من
سكان طرابلس .

ج - غارات القبارصة على طرابلس :

لم ينته الصراع بين الصليبيين والمسلمين نهائيا بعد سقوط عكا في
أيدي المساليك في مايو سنة ١٢٩١ م ، فقد اتخذ الصليبيون من قبرص وأرواد
قواعد العدو وان يوجهون منها الغارات على سواحل مصر والشام « ٢٥ » .

-
- (٢٤) السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٧٨٠ - النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤
- (٢٥) حاول الفرنجة في شعبان سنة ٦٩٨ هـ مهاجمة سواحل الشام ،
فوصلت الى بيروت نحو ثلاثين بطة تحمل كل منها سبعائة مقاتل ، ولكن
هذه الغزوة فشلت تماما بسبب تعرض السفن لرياح عنيفة أغرقت معظمها
(راجع صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٤٨) . وفي العشر الآخر من
جسادی الأولى سنة ٧٠٤ هـ جاز على بيروت أسطول افرنجي توجه الى
ساحل صيدا ودخلها الفرنج فقتلوا وأسروا عددا كبيرا من سكانها ونهبوها
(تاريخ بيروت ، ص ٥١)

وكانت طرابلس أكثر مدن الساحل تعرضا لهذه الغارات الانتقامية ، فمنذ عام ٦٩٨ هـ تعرضت هذه المدينة لغارات الاسبتارية في أرواد «٢٦» ، فرسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون للوزير بانشاء أربعة شوان حربية بدار الصناعة في المحرم سنة ٧٠٢ هـ لفتح جزيرة أرواد ، فأعدت الشوانى وشحنت بالمقاتلة وآلات الحرب ، وأبحرت الى طرابلس بقيادة الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصورى ، وساهم الأمير أسندمر كرجى نائب طرابلس والفتوحات الساحلية في هذه الغزوة وتمكن أسطول المماليك من فتح جزيرة أرواد بالسيف عنوة «٢٧» ، وقتلوا ما يقرب من ألف شخص من سكانها ، وغنموا غنائم كثيرة «٢٨» .

(٢٦) هي جزيرة تقابل أنطرطوس كان قد اجتمع فيها أعداد هائلة من الفرنج وسكنوها وسوروها وأقاموا بها الحصون ، وكانت مركزا لعدوان الفرنج على ساحل طرابلس (النويرى ج ٣٠ ص ٤)

(٢٧) اشترك الأمير سيف الدين أسندمر في هذه الغزوة بمركب حمل فيه جماعة من الجند بينما نزل هو قبالة الجزيرة بالبر الشرقى ، أما الشوانى فتوجهت بالعسكر اليها ، ففتحت الجزيرة في ٢ صفر ٧٠٢ هـ

(وفى فتح هذه الجزيرة راجع : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ٤ — ابن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر ، ص ٤١ — أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ج ٧ ص ٥٧ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٥٦)

(٢٨) ذكر النويرى أن عدد القتلى بلغ نحو ألفين ، والأسرى نحو خمسمائة (النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ٤)

وعلى الرغم من وقوع أرواد في أيدي المسلمين ، فقد واصل الصليبيون غزواتهم على الساحل الشامى والمصرى ، متخذين قبرص مركزا للاعتداءات على سواحل المسلمين ، وكان موقع قبرص الرائع فى البحر المتوسط قبالة الساحل الشامى يؤهلها للقيام بأعمال القرصنة والاعتداء المتواصل على الموانئ المصرية والشامية «٢٩» . وكان هنرى الثانى دى لوزنيان (١٢٨٥ - ١٣٢٤ م) يتولى حكم هذه الجزيرة فى الوقت الذى سقطت فيه عكا ، فانتقل الى جزيرته جماعة فرسان الاسبتارية الذين كانوا يتولون الدفاع عن عكا ، فأنزلهم فى ليماسول ، وتمكن الاسبتارية فى عام ١٣١٠ م من الاستيلاء على جزيرة رودس واتخذوها قاعدة لهم للاعتداءات على سواحل المسلمين بغية استرجاع الأراضى المقدسة «٣٠» ، وأصبح القيام بحرب صليبية ذريعة لتبرير ابتزاز أموال من الكنيسة ، ولهذا فإن فيليب الرابع ملك فرنسا نذر نفسه للحرب المقدسة منذ أن تمكن من السيطرة على البابا بعد انتقال كرسى البابوية الى أفنيون فى سنة ١٣٠٥ ، وقبل ذلك بترحيب بالغ من رجالات الطبقات المختلفة فى مجتمع المصور الوسطى الذين نظروا الى موضوع الحرب المقدسة على أنه أمر جدى ،

(٢٩) سعيد عشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٠٦

(٣٠) Aziz Surial Atiya, The Crusade in the later Middle Ages, p. 288

وعرضت على البابا وملك فرنسا والمجلس الكنسي المنعقد في فيينا سنة ١٣١١ / ١٣١٢ م العروض المختلفة والمشروعات الهامة من رجال قضوا سنين عديدة في الشرق وآخرين لم يخرجوا قط الى ما وراء البحر «٣١» .

وأنعشت فكرة القيام بحرب صليبية أدب الدعاية للحرب المقدسة ، فاقترح بيير ديبوا في كتاباته استرجاع الأراضي المقدسة ، واستعادة أملاك الامبراطورية البيزنطية ، وغزو مصر ، كما اقترح وليم دي نوجاريت صديق ملك فرنسا المخلص الحد من قوة المساليك الذين يساندتهم كاثوليك مزيفون ، اذ يزودونهم بالأخشاب وآلات الحرب ، ويبيعون لهم الأطفال الذين ينشئهم المساليك في الطباق أو المدارس العسكرية نشأة حربية (الجلبان أو الأجلاب) «٣٢» .

وبينما كان المجلس الكنسي منعقدا في فيينا سنة ١٣١١ للنظر في مشروع القيام بحملة صليبية كتب فولك دي فياريه مقدم فرسان الاستتارية برودس الى فيليب الرابع المعروف بالجميل معبرا عن رغبته في

(٣١) Ibid. p. 48 - محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون

في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٤٤

(٣٢) Aziz Suria, p. 54 . وفي المساليك الجلبان راجع : عبد المنعم

ماجد ، نظم دولة سلاطين المساليك ورسومهم في مصر ، ج ١ القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥ وما يليها .

الاشتراك في الحملة ، وأنهى إليه بأنه — مبالغة منه في إثبات جديته —
ود أمر بإنشاء سبع بطسات في قطالونية ، وثلاث في أربونة ، و١٦ في
مرسيليا . و١٢ في جنوة بالإضافة الى سفن أخرى كبيرة منها : راسية
في پيزه وستة في البندقية ؛ كذلك جهاز الاستبارية خمس سفن في جنوة
واثنتين في البندقية بمختلف الأسلحة والامدادات بحيث أصبحت جميعا
تعت أهبة الاستعداد للابحار قبل أن يحل ربيع ١٣١١ م «٣٣» . وفي أثناء
ذلك بعث هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرص رسولين الى البابا كلابنت
الخامس والمجلس الكنسى لعرض وجهة نظره عن الحملة ، وهدفها اضعاف
قوى الممالك الحربية بحصار بحرئ يقوم به الصليبيون ضد مصر والشام ،
ومنع الخونة النصارى الذين يزودون قوى الممالك بعناصر جديدة ،
ويسدون عسكرهم بسواد الحرب والسلاح ، ولضمان انجاح هذا الحصار
لابد أن تنفذ هذه المهمة دون اشتراك قومونيات البندقية وبيزة وخنوة
وغيرها من الجيهنوربات الايطالية التى تشكك فى اخلاصها للحركة
الصليبية بسبب ارتباط مصالحها بالاسلام ، فاذا ما نجح الصليبيون فى
تطبيق هذا الحصار لمدة سنتين أو ثلاث فان ذلك سيقضى حتما على قوة
البحرية المصرية ومواردها «٣٤» . وينصح هنرى دى لوزنيان باتخاذ
قبرص قاعدة للحملة المزمع تسييرها ، حتى اذا ما جاءت اللحظة المناسبة

(٣٣) Aziz Surial, p. 57

(٣٤) Ibid. p. 58

يتيمياً للحملة أن تنفذ خططها في مهاجمة مصر أولاً باعتبارها المصدر الرئيسى لجميع الكوارث التى لحقت بالصلبيين ، ثم الشام بعد ذلك «٣٥» . وعلى الرغم من أن البابا لم يعمل بهذه الخطة التى رسمها هنرى دى لوزنيان فان بطرس الأول دى لوزنيان حفيد هنرى سينفذها فى غزوته للاسكندرية سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥ م) «٣٦» .

ثم كان اعتلاء بطرس الأول دى لوزنيان بن هيو الرابع عرش قبرص فى سنة ١٣٥٩ م فاتحة عهد جديد فى تاريخ الحركة الصليبية المتأخرة التى بلغت ذروة نشاطها فى سنة ١٣٦٥ بغزوة القبارصة للاسكندرية ، وكان بطرس هذا من أشد ملوك الصليبيين عداً للاسلام ، اذ كان شديد التحمس للقضية الصليبية . وكان موقع قبرص الاستراتيجى قد أتاح للملوكها أن يظهروا فى صورة الأبطال الحقيقيين للمسيحية ؛ وعلى الرغم من أن بطرس قد وضع كل ثروات جزيرته تحت تصرف الصليبيين ، فان حاجته الى مزيد من الرجال والأموال لضمان انجاح خطته كان واضحاً ، وهذا يفسر رحلاته الطويلة الى بلاطات أوروبا استجداء لمساعدة ملوكها له بالمال والعتاد «٣٧» . ومنذ بداية حكمه صمم بطرس على نذر نفسه للحرب

(٣٥) Aziz Surial, p. 60

(٣٦) Ibid. — جمال سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ،

ص ٢٤٦ — سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٤ ، ٥٥

(٣٧) Aziz Surial, p. 322

المقدسة ، أملا في تحطيم قوة الاسلام الممثلة في آسيا الصغرى ومصر والشام . ويعتبر استيلاؤه على الاسكندرية في سنة ١٣٦٥ ونهبها خلال أربعة أيام «٣٨» ، أعظم حدث وقع في تاريخ الحركة الصليبية في القرن الرابع عشر . وقد مهد بطرس لحملته على الاسكندرية بغزوة تهييدية لسواحل الشام لايها الممالك بنية في مهاجمة الشام لاسترجاع بيت المقدس ، واشترك في هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة ، ونجح في دخول طرابلس في نيابة منجك اليوسفى في أول سنة ٧٦٧ هـ ، وأضرم

(٣٨) راجع غزوة القبارصة في الكتب الآتية : النوبرى ، الامام بالاعلام ، مخطوطة ج ١ ورقة ٣٢٦ - ٣٣٥ والمقرئى ، السلوك ، ج ٧ ورقة ٤٧ - ١١ نجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩ ، ٣٠ -

Et, Combe, le texte de Nuwari sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre de Lusignan, Fatouk I University, Bulletin of the Faculty of Arts, Vol. III, 1946, p. 99 - 110 Aziz Sorial, op. cit. p. 345 - 378

جمال الدين الشبال ، الاسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي بمجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ١٩٤٩ ص ١٠٠ -
الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٤٩ ص ٢٣٥ - محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون في مصر ، ص ٢٤٦ - ٢٥٢ - سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٤ ، ٧٥ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى ، ص ٨٥ - ٨٧ .

النيران في أبيتها ، كما هاجم اللاذقية وأنظر ملوس بعد ذلك «٣٩» .
ويبدو أن بعض نصارى طرابلس أتباع البطريك جبرائيل الحجولاوى
قدموا المساعدات للغزاة ، فما ان انسحب القبارصة من طرابلس حتى أمر
الأمير منجك اليوسفى بالقبض عليه وحرقه خارج طرابلس عند جامع
طينال «٤٠» .

وكان من الطبيعى أن يحتاط أمراء الممالك في الشام من غزوات
قبرصية ماثلة لغزوتهم لاسكندرية في سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، فأمر
الأمير منجك اليوسفى نائب طرابلس للمرة الثانية (٧٦٧ - ٧٦٨ هـ) بأن
يحترز الناس من مساحب قبرص على السواحل ، وعهد منجك لأصحاب
الدرك بالسواحل بمراقبة البحر ، كما ألزم بنى بحر أمراء الغرب بالسكنو
في بيروت ، والركوب ليلا ونهارا . كذلك عزم يلبغا الخاصكى الذى كان
يقوم مقام السلطان على غزو قبرص وافتتاحها ، فرسم للأمير ييدير
الخوارزمى بعبارة الشوانى والحالات «٤١» ، لهذا الغرض في دار الصناعة
بيروت «٤٢» ، فاستخدم ييدير في انشائها عددا كبيرا من الصناع ،

(٣٩) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٩٥

(٤٠) نفس المرجع ص ٣٩٦

(٤١) هي سفن مخصصة لحمل ذخائر الأسطول (عبد المنعم ماجد ،
تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٧٥)
(٤٢) أمر يلبغا بتجنيد جميع النجارين في الشام لقطع أخشاب شجر
الصنوبر والقرو وغيرها من جبل شغلان الواقع بالقرب من أنطاكية ونشرها
لصناعة السفن في مصر (راجع النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٠)

وأمر العسكر بمرافقة الساحل خوفا من قدوم سفن صاحب قبرص على حين غفلة فتدمر ما تم انشاؤه . ولكن مهمة انشاء هذا الأسطول الشامي لم تتحقق ، اذ توفي يلبيغا الخاصكي في ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) فتوقف العمل «^{٤٣}» في انشاء بقية السفن . وكان يلبيغا قد أمر أيضا بتجنييد البحارة والنفطة للسفر في المراكب التي تنتجها دار الصناعة بسمر بعد خروج القبارصة من الاسكندرية ، ويذكر المقرئ أن: «اهم» بعمل الشواني البحرية لغزو الفرنج ، فجمع من الأخشاب والحديد والآلات ما يجلب ومنه ، وشرع النجارون في عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى (تقع بين الروضة وبولاق) وتولى عملها الوزير فخر الدين ماجدين . . . فقام في ذلك أتم قيام ، وبذل همه واستفرغ وسعه ، وتصدى له ليلا ونهارا ، واستقر شاد العمل الأمير علاء الدين طيغا العلاني استأدار الأمير يلبيغا ناظر العمل بهاء الدين بن المفسر ، فقدم العمل مائة شينى ما بين غراب وطريدة برسم حمل الخيل ، وكان أمرا مهولا ، ونودى بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله الى بيت الأمير يلبيغا الأتابك للعرض وأخذ النفقة للسفر في المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر ، وكتب أسماؤهم ، وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت لهم نقباء ، وقاموا في مساعدة صناع المراكب . وكتب الى طرابلس وغيرها

(٤٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٢١٣

من بلاد الساحل بأشياء مراكب حربية ، وجمع رجالها ، وكان عسلا
جليلا » « ٤٤ » .

وحاول الفرنجة — بعد أن اتضحت نية السلطان في القيام بعمل
انتقامي — أن يهادنوه ، فأرسلوا وفدا للمفاوضة في تجديد الصلح وفتح
كنيسة القيامة بيت المقدس « ٤٥ » ، ولكن يلغا رفض مطالبهم ، وأصر

(٤٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٧ ص ٤٩

(٤٥) يروى المقرئى خبر وصوله رسل الفرنج الى الاسكندرية
فيقول : « وفي أول شهر رجب قدم الخبر بوصول رسل الفرنج الى ميناء
الاسكندرية ، وأنهم طلبوا رهائن عندهم حتى ينزلوا من مراكبهم ويؤدوا
رسالتهم ، فلم تؤمن مكيدتهم ، واقتضى الحال اجابتهم ، فأخرج من سجن
الوالى المعروف بخزانة شمائل جماعة وجب قتلهم ، وغسلوا بالحمام ،
والبسوا ثيابا جميلة وسافروا الى الاسكندرية ، فأكرمهم النائب ، وأشاع
أنهم من رؤساء الثغر ، وبعث بهم الى الفرنج ، وشيع خلفهم نساء وصبيان
يصيحبون وييكون كأنهم عيالهم ، وهم يخافون الفرنج عليهم ، فمشى ذلك
على الفرنج وعلى أهل الثغر لانتظام حال المملكة وملاك أمرها وجودة
تديرها ، فتسلم الفرنج الجماعة ، ونزلت رسالتهم من المراكب وقدموا
الى قلعة الجبل ، ... فحملوا الى هناك وجلس الأمير يلغا الأتابك ، وقام
الأمرء والحجاب بين يديه ، وأدخلوا عليه ، فمالهم مجلسه ، وظنوا أنه
السلطان ، فقبل لهم هذا مملوك السلطان ، فكشفوا عن رؤوسهم ، وخروا
على وجوههم يقبلون الأرض ، ثم قاموا ، ودنوا اليه ، وناولوه كتاب
ملكهم وقدموا هديته اليه ، ففرق ذلك بحضرتهم فيمن بين يديه واختار
منه طشتا وأبريقا من ذهب وصندوقا لم يعرف ما فيه ، وتضمنت رسالتهم =

على أن يبدأ ملك قبرص بطلب الصلح ، فلم يسع بطرس الا أن يرسل رسله الى القاهرة للمفاوضة في الصلح «٤٦» ، واشترط السلطان عليهم أن يعيد بطرس أسرى المسلمين ، فأجابه الى رغبته ، ويسجل عودة الأسرى نهاية المرحلة الأولى من المفاوضات ، وتبدأ المرحلة الثانية بعد ذلك ، وهي مرحلة استمرت ما يقرب من أربع سنوات كانت تتخللها بين الحين والحين غارات قبرصية على سواحل الشام ومصر ، للضغط على السلطان المملوكي ، وارغامه على قبول الصلح مع القبارصة «٤٧» . ولكن السلطان لم يغفر للقبارصة تجرأهم على مهاجمة الاسكندرية وسواحل الشام ، ولذلك كان يتحرق للانتقام منهم ، ولم يكن قد قبل بعد مبدأ التفاوض معهم الا تظاهرا وانما كان يعمل على التسويف والمساومة في عقد الصلح حتى يتم خلال ذلك انشاء الأسطول الذي كان يلبغا الخاصكى قد أمر بإنشائه في بيروت والقاهرة ، وعندئذ لم يجد بطرس بدا من تشديد الضغط على مصر بهاجمة سواحل الشام من جديد ، ففى أوائل المحرم

أنهم في طاعة السلطان ومساعدوه على متسلك قبرس حتى ترد الأسرى التي أخذت من الاسكندرية ، ويعوض المال ، وسألوا تجديد الصلح ، وأن يسكن تجارهم من قدوم الثغر وأن يفتح كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت قد غلقت بعد واقعة الاسكندرية ، فأجابهم بأنه لا بد من غزو قبرس وتخريبها .. » (السلوك ، ج ٧ ص ٥١)

(٤٦) أرسل ثلاث رسل قطلان يشاونه في بلاط السلطان هم چان

دلفونسو ، وجورج ستيكا ، وبول دي ييلونيا (راجع Aziz Sami)

(p. 371)

Ibid. p. 372 (٤٧)

سنة ٧٦٨ هـ (نوفمبر ١٣٦٦) جهز بطرس أسطولا ضخما يتألف من ١١٦ سفينة ما بين شوانى وبطسات للاغارة على ساحل الشام ، ولكن عاصفة عاتية فصلت وحدات هذا الاسطول بعضها عن بعض ، فلم يصل منه الى طرابلس سوى ١٥ سفينة بقيادة فلوريونت دى لسيار ، أطلق رجالها يد النهب فى المدينة ، ثم عادوا الى قبرص «٤٨» . ومع ذلك فقد تجددت محاولات بطرس لطلب الصلح فى يونيو سنة ١٣٦٧ م ، ولكن سفارته التى كان يرأسها جاك دى نورس التركبولى عادت الى الماغوصة (فماجوستا) بدون نتيجة . وعلى أثر ذلك عاد القبارصة يغيرون من جديد على طرابلس فى سبتمبر من نفس العام ، (أول عام ٧٦٩ هـ) ، واشترك فى هذه الغزوة مقاتلون من البنادقة والجنوية والقبارصة والخرائطة (الكريتين) والروادسة والفرنسيين والهنكر (الهنغارين) ، بلغ عددهم ١٦ ألف مقاتل ، فى ١٣٠ سفينة ما بين شينى وقرقورة وغراب وطريدة وشختورة ، منهم ألف فارس والبقية رجاله ، فقدم البنادقة فى ثلاثين غرابا والجنوية فى عشرين والروادسة فى عشرة ، والأغراب فى خمسة عشر والبقية من قبرص «٤٩» .

(٤٨) Ariz Surial, p. 373

(٤٩) النويرى السكندرى ، الامام بالاعلام ج ٢ مخطوط رقم ١٩٣٤ بدار الكتب المصرية ص ٧٠ (نسخة محمود حيدى منقولة عن النسخة رقم ١٤٤٩) . ويذكر المقرئى أن مراكب القبارصة بلغ عددها ١٣٠ مركبا (السلوك ج ٧ ص ٦٠ - وتاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط رقم ٨٥٥٤ ح بدار الكتب ص ٢٤ و)

وكان بطرس نفسه مشتركا في هذه الغزوة هو وصاحب رودس وصلت سفن القبارصة سليمة الى ميناء طرابلس ، وكان نائبها ومعظم عسكرها غائبين عنها في ذلك اليوم «٥٠» فاغتنم القبارصة الفرصة ونزلوا من سفنهم الى ساحل البلدة . ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الفرنج لكثرة طروق القبارصة لمدينتهم وعيشتهم على سواحل الشام ، فتصدى لهم جماعة من أهل طرابلس ومن بقى من عسكرها ، وترامى الفريقان بالسهم ، ثم اشتبك المسلمون معهم في قتال شديد ، فتقهقر المسلمون ودخل المدينة طائفة من المغيرين ، فنهبوا بعض الأسواق ، ولكن المسلمين تتابعوا من كل ناحية لطلب الجهاد ومغازاة القبارصة ، ووقعت بينهم وبين المغيرين عدة وقائع استشهد فيها من المسلمين نحو الأربعين ، بينما قتل من الفرنج نحو الألف حسب رواية أبي المحاسن «٥١» وقيل قتل من المسلمين واحد وعشرون حسب رواية النويري السكندري ، وقيل أربعة أنفس بينما قتل من الفرنج ثمانمائة «٥٢» . ثم انسحب القبارصة منهزمين الى سفنهم ، وحاولوا النزول في جبلة ولكن ريحا عاصفا فرق سفنهم في البحر وصرفهم عن

(٥٠) السلوك ، ج ٧ ص ٧٠ . تاريخ الملك الاشرف قايتباي ،
(مخطوط) ورقة ٢٤ و

(٥١) أبو المحاسن ج ١١ ص ٥٢ . ٥٣ . السلوك ، ج ٧ ص ٦٠

(٥٢) النويري السكندري ، المخطوط السابق ص ٦٨

الاغارة على جبلة ، ثم اتجه أسطول بطرس الى اللاذقية فاستعصت عليه المدينة لمناعة التحصينات ووجود سلسلة في الميناء كسرت عددا من سفنهم وهياج البحر ، ثم أغار بطرس ببقية سفنه على بانياس وأحرقها وأحرق ما كان بها من السفن الراسية ، وأخيرا أغار على بلدة اياس «٥٣» .

واستمر التوتر بين مصر وقبرص قائما الى أن لقي بطرس دي لوزنياف مصرعه على أيدي جماعة من النبلاء في ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) ، ولم يؤثر موته في تخفيف حدة التوتر في العلاقات بين قبرص ومصر ، فقد واصل القبارصة غاراتهم المدمرة على سواحل مصر والشام في بداية عهد خلفه بطرس الثاني (١٣٦٩ — ١٣٨٢) ، ففي العام الاول من حكمه خرج القبارصة في أربع بطسات بقيادة جان دي مورف أغار بها على سواحل صيدا والبترون الواقعة جنوبي طرابلس ، وأنطرطوس واللاذقية «٥٤» . ولم يكد يفي شهر واحد على هذه الغارة المدمرة حتى هاجم القبارصة مدينة الاسكندرية للمرة الثانية في وضح النهار . ويذكر المقرئ أن الفرنج عندما رست سفنهم في مياه الاسكندرية بعثوا الى نائبها يسألونه ما اذا كان السلطان يرغب في الاتفاق معهم أم لا . فلما أجابهم بالنفي اتجهوا بسفنهم الى رشيد وحاولوا النزول الى بر المدينة ، ولكنهم أخفقوا بسبب الرياح

(٥٣) راجع الملاحق الخاص بغزوة طرابلس المنويرة في نهاية الكتاب

العاصفة ، فأبحروا من رشيد الى صيدا وأغاروا عليها ثم رجعوا الى
جزيرتهم خائبين «٥٥» .

ولم يجد السلطان الملوكي بدا من عقد الصلح مع ملك قبرص بعد
كثرة ما عاناه أهل السواحل الشامية والمصرية لكثرة مباحثة الفرنج
لبلادهم مما سبب كسادا في تجارة مصر مع الممالك المسيحية ، وتم الصلح
في سنة ٧٧٢ هـ (أكتوبر ١٣٧٠ م) .

د - غارات الجنوية على طرابلس :

أدى التنافس التجارى بين البندقية وچنوة في القرن الثامن الهجرى
الى احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجارى في البحر المتوسط ، ولكن
الجنوية لم يرضوا عن هذا الوضع ، فأخذوا يغيرون على سواحل الشام
ومصر ، واشترك معهم في هذه الغارات بعض القراصنة من القطلان
والروادسة والقبارصة «٥٦» . ففى سنة ٧٨٠ هـ خرج ييدير الخوارزمى نائب
الشام عن طاعة السلطان ، فسير اليه السلطان فرقة من عسكر مصر ردت
عن غرضه ، وحاول الهرب الى بلاد التركمان فلم يفلح ، وألقى القبض

(٥٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٧ ورقة ٦٧ ، ٦٨

(٥٦) احمد دراج ، الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجرى ،
القاهرة ١٩٦١ ص ٩ - سعيد عاشور ، العصر المالىكى ص ٢٦٨

عليه ، فأرسل الى مصر وهناك أعلن توبته ، فأعيد الى منصبه . وانتهر
الچنوية فرصة عصيان بيدمر واضطراب أمور الشام في هذه الفترة ،
وأغاروا على جهات ساحل طرابلس ، ولكنهم ردوا عنها خائبين «٥٧» . وفي
جصادي الآخرة سنة ٧٨٤ (١٣٨٢ م) أغلوت سفن الچنوية على ثغر صيدا
ونزلوا في البر ودخلوا المدينة ، وعاثوا فيها ، ثم توجهت سفنهم بعد ذلك
الى بيروت ، فسبقتها العساكر الشامية اليها ، فأحجم الچنوية عن النزول
الى برها ، وعادت سفنهم الى المأغوصة من قبرص «٥٨» . ثم مضت أيام
على ذلك وعاد أسطول الچنوية للاغارة على بيروت في ١٢ غرابا كبيرا
ودخلت هذه السفن ميناء بيروت ، وكانت به قرقورتان للبنادقة فاستولى
الچنوية عليهما ، وشحنوهما بالرجال وقدموها حتى تمكن الرماة منهم
بالجروح والحجارة من صواريها على برج بيروت الصغير ، فانسحب
المسلمون وتحصنوا بالأسوار ، ونزل الچنوية ، ولكن فرقة من المسلمين
بقيادة سيف الدين يحيى من آل بحر أصحاب الغرب تسكنت من قهرهم ،
وانهزم من كان قد نزل من الچنوية على البر وقتل منهم عدد كبير «٥٩» .

وعلى الرغم من مبادرة الچنوية الى مصالحة السلطان في ٧٨٨ هـ

(٥٧) محمد أسعد طلس ، تاريخ الأمة العربية ، « عصر الانحدار »

بيروت ١٩٦٣ ص ٦٦

(٥٨) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٥٣

(٥٩) نفس المرجع ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٣٠

(١٣٨٦ م) فقد عادوا الى الاعتداء على سفن المسلمين في البحر ، وأغار
بعض قراصنتهم على طرابلس في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) في سلطنة الناصر
فرج بن برقوق ، واستولوا على سفينتين محلتين بكسيات كبيرة من
البضائع ، كانتا تنأهبان للإقلاع الى مصر « ٦٠ » . وفي سنة ٨٠٦ هـ
(١٤٠٣ م) خرج الجنوية في سفنهم الى ثغر العاليا بآسيا الصغرى ،
فاستعصى عليهم ، فأبحروا منه الى طرابلس في نيابة الأمير دمرداش
المحمدي ، فنزلوا الى البر ، ولكن المسلمين تكاثروا عليهم ومنعواهم من
دخولها ، فرجع الجنوية منهزمين الى مراكزهم « ٦١ » . كذلك أغار الجنوية
على ثغر بيروت في ٢٠ محرم سنة ٨٠٦ هـ ، ثم نزلوا على طرابلس فزحف
اليهم الأمير شيخ الخاصكي نائب طرابلس « ٦٢ » وأرغهم على ركوب
سفنهم .

ثم تحوات غارات غارات الجنوية على الموانئ المصرية الشامية الى
غارات يقوم بها القبطان والقبارصة خلال النصف الاول من القرن السادس
عشر الميلادي مما اضطر برسباى الى غزو قبرص سنة ١٤٢٦ باعتبارها
وكرًا من أوكار القراصنة « ٦٣ » .

(٦٠) سعيد عاشور ، العصر المالكي ، ص ٢٦٩

(٦١) صالح بن يحيى ، ص ٥٦ — أحمد دراج ، الماليك والفرنج ،
ص ٢٢

(٦٢) نفس المرجع ، ٥٧

(٦٣) أحمد دراج ، ص ٣٣

(٣)

طرابلس في بداية العصر العثماني

انظر طرابلس بعد الفتح العثماني :

أخذت العلاقات بين مصر المملوكية وبين الدولة العثمانية تضطرب منذ أن افتتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م في عهد معاصره السلطان المملوكي الأشرف إينال (١٤٥٣ - ١٤٦٠) ، وأصبحت الدولة العثمانية منذ ذلك الحين في نظر سلاطين المماليك منافسا خطيرا لدولتهم «^١» ، ثم ازداد توتر العلاقات بين الدولتين في عهد السلطان الأشرف قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦ م) الذي كان يشاهد بعين الريبة والحذر ازدياد قوة العثمانيين نموا وتضخما ، وكانت علاقات الود المتبادلة بينه وبين السلطان العثماني محمد الثاني قناعا زائفا يخفى وراءه حقيقة هذه العلاقات من تغاير وتحاسد وتربص كل من الدولتين بالأخرى «^٢» ، فقد كانت فتوحات العثمانيين في أوروبا قد توقفت ، وبدأ سلاطين آل عثمان يتطلعون الى ناحية المشرق الاسلامي الذي تسيطر عليه قوتان كبيرتان هما الدولة الصفوية والدولة المملوكية . كان قايتباي يدرك

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٩٧

(٢) أحمد السيد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال في

المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ ص ٢٠٣

تساما ما يجول في خاطر العشائين وما اتجهت اليه نيتهم ، وكان واثقا من تربصهم بدولته وانتظارهم لفرصة مواتية يثبون فيها على بلاده عاجلا كان ذلك أم آجلا ، ولهذا السبب حرص على تحصين ثغوره المعرضة للغزو انعشاني من جهة البحر مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط وطرابلس الشام واللاذقية . فلما تولى بايزيد الثانى العرش بعد أبيه محمد الفاتح (١٤٨١ - ١٥١٢ م) ظهر العداء سافرا بين الدولتين خاصة بعد أن تنازع بايزيد مع أخيه جم من أجل العرش ، والتجأ جم الى قايتباى الذى احتفل بقدومه في شعبان سنة ٨٨٦هـ (٤٨١ م) احتفالا عظيما ، وزوده بالمال اللازم والجند لاستعادة حقه في العرش بعد السيف « ٣ » ، وكان هذا التصرف من جانبه سببا في تحول الحرب الباردة الى مصادمات مسلحة .

ولما توفى قايتباى في عام ١٤٩٦ تعاقب بعده على السلطنة عدد من السلاطين الضعاف سادت في عهودهم الفوضى وعم الاضطراب في الفترة التى امتد فيها حكمهم (١٤٩٦ - ١٥٠١ م) ، ثم تولى السلطنة الأشرف قانصوه الغورى ، وفي عهده ساءت العلاقات بين دولة المماليك الشراكسة والدولة العثمانية الى درجة كبيرة بسبب انتصار العثمانيين على الصفويين في معركة تشالدران سنة ١٥١٤ واستيلائهم على الجزيرة والموصل وديار بكر ، واقتربهم من أملاك المماليك من جهة ، مما أدى الى قيام الغورى

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٧

بمحاربة الشاه الصفوى ضد السلطان سليم ، وبسبب إيواء الغورى للأمير قاسم أحد أبناء الأمير أحمد الذى قتله سليم ، واتخاذ الغورى من قاسم أداة لتهديد العثمانيين . وفى هذا الوقت الذى توترت فيه العلاقات بين الدولتين الى درجة تنذر بحرب وشيكة الوقوع كان الغورى يعانى أزمة مالية مستحكة بسبب افلاس الخزانة السلطانية نتيجة للتدهور الذى أصاب الاقتصاد المملوكى على أثر اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، وتدمير البرتغاليين للبحرية المملوكية فى خليج ديو فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ ، وتحكمهم فى الطريق التجارى الى الهند عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ونشاط الفرسان الاستارية فى مياه البحر المتوسط الشرقية (٤) .

وكان لزاما على الغورى لانهاش الخزانة السلطانية الخاوية اصطناع سياسة تصفية فى جمع الأموال ، فأحدث من المظالم ما لم يحدث من قبل فى سائر الدول ، من ذلك أن حسين نائب جدة فى أيامه كان يأخذ العشر من تجار الهند عشرة أمثال ، فامتنع التجار من دخول بندر جدة وآل أمره الى الخراب (٥) . كذلك أخرب بندر الاسكندرية وبندر دمياط وامتنع تجار الفرنج من دخول هذه البنادر ، ومنها أنه فرض ضرائب على بيع الغلال والفاكهة والملح ، وأكثر من مصادرة أموال التجار والأعيان ،

(٤) راجع : المديك والفرنج ص ١٣٧ - ١٤٤

(٥) ابن اياس ، ج ٥ ص ٨٨

ومنها أنه « كان يولى النواب على أعمال البلاد الشامية ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف » ، فكان كل واحد من الناس يتسنى الهجرة من بلاده الى غيرها بسبب الظلم الذى كان يصيبهم على أيدي نواب السلطنة «^٦» . ولم يكتف الغورى بذلك بل تلاعب فى عملات الذهب والفضة فزيفها بادخال النحاس والرصاص فى سكها حتى تستفيد الخزانة مما يقتصده من الذهب «^٧» .

وعانى أهل الشام وخاصة سكان طرابلس من جور السلطان اذ كان يرسل اليهم القباض ليجمعوا الأموال التى كان يفرضها عليهم بسبب المشاة العربان الذين يخرجون أمام العسكر فى التجريدة «^٨» ولعل ذلك كان من أسباب تحامل أهل الشام عامة وأهل طرابلس خاصة على المماليك ، وقد بدا ذلك واضحا عند هزيمة المماليك فى مرج دابق ، فانقلب عليهم أهل حلب وفتحت مدن الشام الأخرى أبوابها للعثمانيين . وفى هذا الوقت الذى كانت تغلى فيه نفوس أهل الشام سخطا على المماليك بسبب تعسف نواب السلطنة معهم ، كان السلطان العثمانى سليم يحرز انتصارات ساحقة على الصفويين ويستولى على امارة دغاادر التركمانية التى كان المماليك يشاؤونها بحمايتهم ، ويتأهب لدخول الشام . وأوهم بعض الخونة من

(٦) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٩٠ ، ٩١

(٧) نفس المصدر ص ٨٩

(٨) نفس المصدر ص ٩

النواب السلطان الغورى بأن السلطان سليم لا ينوى مهاجمة الشام وإنما يعد العدة للقضاء نهائيا على دولة الصفويين .

ولم تكن قوات العثمانيين فى حاجة الى أكثر من معركة واحدة لفتح الشام ، فلقد نجحوا فى موقعة مرج دابق (رجب ٩٢٢ هـ) فى هزيمة جيوش المماليك بقيادة الغورى نفسه ، وساعد على هذا انحياز أهل الشام وخاصة العصابات المحلية التى كانت تتحامل على المماليك الى جانب العثمانيين ، كما ساعد أيضا على هزيمة المماليك بعض الخونة من الأمراء أمثال خير بك وچان بردى الغزالى وتمكن العثمانيون بعد انتصارهم فى مرج دابق من الاستيلاء على حلب وقلعتها بدون حصار ، ثم استولوا على دمشق وحماة وحمص وبعبك بالأمان . ومن بعبك زحفوا الى طرابلس ليتخذوا بعد ذلك الطريق الى مصر ، فدخلوا طرابلس بغير حرب «٩» ، وأقام السلطان سليم على ولايتها قائدا عثمانيا سلسها لمحمد آغا شعيب . وكانت تتبع طرابلس جبيل والبترون وجبة بشرى والكورة والزاوية والضنية «١٠» .

ثم كوفى چان بردى الغزالى على خيائه بنياية الشام «١١» وأضيف الى نيابته القدس وصفد وغزة والكرك . ولما استتب الأمر فى نيابة طرابلس

(٩) ابن اياس ، ج ٥ ص ١٥٢

(١٠) محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجرى ، ج ١ دمشق ١٩٥٩ ص ٢٨٢

(١١) ابن اياس ، ج ٥ ص ٣٨٤

لتسلمها محمد آغا شعيب احتفظ لنفسه بالحاضرة بينما أقطع ما يتبعها من ولايات للامير قيقباى بن عساف التركمانى «١٢» فيما بين عامى ٩٢٤ الى ٩٣٠ هـ (١٥٨١ — ١٥٢٣) • ثم خلف قيقباى أخوه الأمير منصور ابن عساف الذى تنازع مع محمد آغا شعيب لتحزب منصور مع بنى سيف الأكراد ، وأخذ محمد آغا منذ ذلك الحين يتشدد فى استيفاء الأموال المترتبة عليه ، وكان من الطبيعى أن يثور منصور على محمد آغا ، وينتهى النزاع بينهما بمقتل محمد آغا بإيعاز من منصور «١٣» الذى أصبح نطاق حكمه يمتد الى عكار «١٤» فى الشمال •

(١٢) ظهر التركمان فى طرابلس فى عهد الناصر محمد بن قلاوون الذى استقدمهم من شمال الشام ، وقد عهد الناصر محمد الى تركمان الكورة بطرابلس بالنزول الى ساحل كسروان وأوكل اليهم حراسة الساحل ابتداء من أنطلياس الى جسر المعاملتين (أحمد عزت عبدالكريم ، ص ١٣٤ — محمد عزة دروزة ، ص ٢٧٩) • وعندما خرج منطاش على السلطان برقوق تواتق بنو عساف التركمانيون معه ضد السلطان ، فلما أخذ برقوق حركة منطاش انتزع كسروان من التركمان ، ولكنهم ظلوا مع ذلك حرسا على السواحل بين بيروت وطرابلس • كذلك انحاز عساف الى العثمانيين فكافأه السلطان سليم بولاية كسروان وجبل •

(١٣) أرسل له الأمير منصور عبد المنعم وولدى جيش : الشيخ يوسف والشيخ سليمان ونحو ٥٠٠ مقاتل ، فكمنوا له فى حارة الحصارنة ، وعندما دخل عبد المنعم وولدا جيش للمحاسبة فى جامع طيلان أمام القاضى وثب عبد المنعم ورفاقه على محمد آغا وقتلوه مع ابنه (جورجى ينى ، ص ٣٩٨)

(١٤) محمد عزة دروزة ، ص ٢٨٢

ب - طرابلس في ظل بني سيف :

ظل چان بردى نائب الشام على ولايته للسلطان العثماني سليم ، فقد قام بقمع الحركات المعادية للعثمانيين فسجن البحتريين الموالين للسلايك ، وقتل ابن الحرفوش وابن الحنش ، وأرسل رأسيهما الى القسطنطينية . رؤوس الخارجين على السلطان « ١٥ » . فلما توفي السلطان سليم في سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) ، وخلفه ابنه سليمان القانوني ، استضعفه چان بردى لصغر سنه ، وشق عليه عصا الطاعة ، وأعلن نفسه حاكما مستقلا على دمشق وتلقب بالسلطان الملك الأشرف أبي الفتوحات وخطب باسمه في الجامع الأموي بدمشق ، وسكت العملة باسمه ، ثم استولى على بيروت وطرابلس واتجه الى حلب لمحاصرتها ، ثم كتب الى خير بك والى مصر يحرضه على الخروج عن طاعة السلطان العثماني ، ويسنيه في نظير ذلك بالوعود الخلافة . ولكن خير بك أفشى سره للسلطان ، ورفض الانضمام اليه . وأخفق چان بردى في الاستيلاء على حلب ، الأمر الذي مكن السلطان سليمان من ايقاع الهزيمة به في ظاهر دمشق ، وانهى مصير چان بردى بالقتل في ٢٧ يناير سنة ١٥٢١ « ١٦ » (٢٢ صفر سنة ٩٢٧ هـ) . وبعد أن انهزم چان بردى

(١٥) Lammens, La Syrie, p. 56

(١٦) ابن اياس ، ج ٥ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

وقتل أقر السلطان سليمان الأمير اياس في نيابة الشام عوضاً عن الغزالي ،
وفرحات بك (فرهاد) في ايالة طرابلس «١٧» .

ولم يطل لبث فرهاد بك في طرابلس اذ استدعاه السلطان للاشراف
على بلاد الأناضول أثناء غيابه في غزوة رودس «١٨» . وظل الأمير منصور
ابن عساف يحكم طرابلس حتى سنة ١٥٧٢ م ، وفي هذه السنة أصدر
السلطان العثماني سليم الثاني أمره بأن تكون ولاية منصور من نهر الكلب
شمالاً إلى بيروت الى حماة ، غير أن الوشايات ضده أخذت تعمل عملها عند
السلطان مراد الثالث ، ففي سنة ١٥٧٩ قدمت ضده الشكايات بسبب
جوره وظلمه وحبه لسفك الدماء ، فاضطر السلطان الى اصدار الأمر
بانتزاع طرابلس من حكمه ، واقامة وزير فيها يكسر شوكته وتعين
يوسف باشا سيف الكردي من آل سيف الأكراد حكام عكار الاقطاعيين على
طرابلس «١٩» .

ولم يكد يوسف سيفاً يتولى طرابلس حتى توفي الأمير منصور
ابن عساف في سنة ١٥٨٠ ، فخلفه ابنه محمد الذي قتل غيلة في كمين نصبه

(١٧) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٣٩١ — أحمد عزت عبد الكريم :

ص ١٤٠

(١٨) Lammens, la Syrie, p. 59

(١٩) محمد عزة دروزة ، ص ٢٨٤

له يوسف سيفاً في ١٥٩٠ بين البترون والمسيحة «٢٠» ، وانقرضت بذلك أسرة بني عساف .

وقد عظم نفوذ آل سيفاً في طرابلس في عهد زعيمهم يوسف باشا سيفاً (١٥٧٩ - ١٦٢٤ م) حتى حجب نفوذه نفوذ الباشا العثماني نفسه في طرابلس ، وامتد سلطان آل سيفاً في الشام حتى وصل الى حماة وحمص «٢١» . وكان نطاق حكمهم يتسع أحياناً فيشمل طرابلس وعكار وجبله والمرقب والحصن وجبة بشرى وجبيل ، وإنكمش أحياناً حتى ينحصر في عكار كما حدث في عهد الأمير فخر الدين المعنى الثاني «٢٢» . وفي عهد يوسف سيفاً تشدد مع التجار الأجانب وتعسف معهم في تحصيل الرسوم مما دعا الجاليات الأجنبية في طرابلس الى الخروج عنها في سنة ١٦١٢ الى الاسكندرونة فراراً من استبداده . ولما توفي يوسف سيفاً في ٢٠ يوليو سنة ١٦٢٤ خلفه ابنه حسن ، الذي عمل على مساندة فخر الدين ، ولكن صلات العداء لم تلبث أن استؤنفت من جديد ، واستمر العداء قائماً بينه وبين فخر الدين المعنى الى أن دخلت طرابلس في فلك امارة فخر الدين وبذلك أصبحت تابعة لجبل لبنان في عهده ، الى أن قتل الأمير المذكور هو وأولاده بأمر السلطان العثماني في أبريل سنة ١٦٣٥ .

(٢٠) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٢٧١

(٢١) أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٧١

(٢٢) محمد عزة دروزة ، ص ٢٨٦

الباب الثاني

الحضارة

الفصل السابع

بعض مظاهر الحضارة في طرابلس في العصر الاسلامى

(١) مدينة طرابلس

أ - المدينة العتيقة

ب - المدينة المحدثه

(٢) الحياة الاقتصادية والعليه في طرابلس الاسلاميه

أ - الزراعة والصناعة

ب - التجارة

ج - الحياة العليه

(٣) الدفاع البرى والبحرى

الفصل السابع

بعض مظاهر الحضارة في طرابلس في العصر الاسلامى

(١)

مدينة طرابلس

١ - المدينة العتيقة :

طرابلس مدينة قديمة البناء ، فينيقية النشأة على الرغم من أن اسمها الذى تعرف به يونانى الأصل ، وكانت طرابلس تشغل الموضع الذى تقوم عليه اليوم طرابلس المينا . ولقد شهدت طرابلس منذ أن افتتحها العرب ، وخاصة فى الفترة التى أصبحت فيها قاعدة لامارة بنى غمار ، ازدهارا اقتصاديا لم تشهده من قبل ، انعكست آثاره على عمرانها فى هذا العصر .

وكانت طرابلس العتيقة ، قبل أن تخربها جيوش قلاوون وتدمر مبانيها وتسويها بالأرض ، من أجمل مدن الشام وأبهجها ، ومن أكثرها رياضاً وغياضاً ، فكانت تحفها البساتين وتكثر فيها المياه والثمار وكان أكثر دورها مبيضة بالكلس الأبيض ، وقد أجمل ابن مامية الرومى هذه الصفات فى قوله :

بأربعة سادت وساد مقامها: . على سائر الأمصار في البحر والبر
بأبيض ثلج واحمرار كثيها: . وخضرة مرج قد جلا زرقه البحر «^١»

ولقد ابتدح المؤرخون العرب طرابلس القديمة ، فذكروا أنها من
أحسن المدن وأطيبها ، بينما ذموا مناخ المدينة المحدثه فوصفوا مكانها برداءة
هوائه بسبب ما يحدثه من الوخم «^٢» . تألفت طرابلس القديمة في العصر
الفاطمي ونما عمرانها واتسعت مرافقها اتساعا تشهد به أقوال الرحالة
الذين زاروها في أواخر القرن الرابع الهجري وفي النصف الأول من
القرن الخامس ، فقد أشار المقدسي الى أن طرابلس مدينة حصينة ،
وأنها أجمل من مدينتي صيدا وبيروت «^٣» كذلك وصفها الرحالة الفارسي
ناصر خسرو في شعبان سنة ٤٣٨ هـ (فبراير ١٠٤٧ م) أعظم وصف ،
ووصف بساتينها ومزارعها ، واجتذبت تحصيناتها اهتمامه فأشاد بها ووصفها
بقوله: « وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارج
والترنج والموز والليمون والتمر ، وكان غسل السكر يجمع حينذاك .
ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلّة على البحر

(١) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٧٢ .

(٢) العمري ، مسالك الأبصار ، الجزء الثاني ، القسم الثالث مخطوط
رقم ٢٥٦٨ (نسخة مصورة) ص ٤٤٩ — القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٣ — ابن
الشحنة ، ص ٢٦٣ — ابن تغرى بردى ، ج ٧ ص ٣٢٢

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦

فَإِذَا دَاجَ عِلَّتْ أَمْوَاجُهُ السُّورُ «٤» ، أَمَا الْجَانِبُ الْمَطْلُ عَلَى الْيَابَسِ فِيهِ
خَنْدَقٌ عَظِيمٌ عَلَيْهِ بَابٌ حَدِيدِي مُحْكَمٌ . وَفِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْمَدِينَةِ
قَلْعَةٌ مِنَ الْحَجَرِ الْمَصْقُولِ «٥» عَلَيْهَا شُرَفَاتٌ وَمَقَاتِلَاتٌ مِنَ الْحَجَرِ نَفْسُهُ ،
وَعَلَى قَسَمَتِهَا عَرَادَاتٌ لَوْ قَاتَيْتُهَا مِنَ الرُّومِ ، فَهَمَّ يَخَافُونَ أَنْ يَغِيرَ هَؤُلَاءُ عَلَيْهَا
بِالسُّفَنِ « . وَيَصِفُ نَاصِرُ خَسْرُو يَبُوتَهَا الْمُرْتَفَعَةَ وَشَوَارِعَهَا وَأَسْوَاقَهَا
فَيَقُولُ : « وَأَرَبَطْتُهَا أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ طَبَقَاتٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ سِتُّ طَبَقَاتٍ
أَيْضًا ، وَشَوَارِعَهَا وَأَسْوَاقَهَا جَسِيلَةٌ وَنَظِيفَةٌ حَتَّى لَتَظُنَّ أَنَّ كُلَّ سَوْقٍ قَصْرٌ
مَزِينٌ ، وَقَدْ رَأَيْتُ بِطَرَابِلُسَ مَا رَأَيْتُ فِي بِلَادِ الْعَجَمِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْفَوَاكِهِ
بَلْ أَحْسَنَ مِنْهَا مِائَةَ مَرَّةٍ » ، وَيَتَنَقَّلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى وَصْفِ الْجَامِعِ الْأَعْظَمِ
الَّذِي تَخَرَّبَ فِي جَسَلَةٍ مَا تَخَرَّبَ مِنْ أَسْنَانِ طَرَابِلُسَ بَعْدَ تَهْدِيمِهَا عَلَى أَيْدِي
الْمَمَالِكِ ، فَيَقُولُ : « وَفِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ جَامِعٌ عَظِيمٌ نَظِيفٌ ، جَسِيلُ النُّقْشِ
حَصِينٌ ، وَفِي سَاحَتِهِ قُبَّةٌ كَبِيرَةٌ تَحْتَهَا حَوْضٌ مِنَ الرِّخَامِ ، فِي وَسْطِهِ فَوَارَةٌ
مِنَ النِّحَاسِ الْأَصْفَرِ » ، وَيُشِيرُ نَاصِرُ خَسْرُو إِلَى سَقَايَةِ فِي سَوْقِ طَرَابِلُسَ
كَانَتْ تَمُدُّ النَّاسَ بِمَا يُلْزِمُهُمْ مِنْ مِيَاهٍ ، وَيَذْكُرُ فِي جَسَلَةٍ حَدِيثَهُ عَنْ اقْتِنَاعِهَا
جُودَةَ وَرَقِهَا الَّذِي يَفُوقُ وَرَقَ سَرَقَنْدٍ ، وَالْمَكُوسَ الَّتِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا فِي

(٤) أَشَارَ الْمُقْرِيزِيُّ فِي السُّلُوكِ إِلَى أَنَّ سُورَهَا كَانَ مِنَ السَّمَكِ بِحَيْثُ
كَانَ يَتَسَعُّ لِمُرُورِ ثَلَاثَةِ فَرَسَانٍ بِخِيُولِهِمْ عَلَيْهِ (السُّلُوكُ ج ١ قِسْم ٣ ص ٧٤٧)

(٥) لَعَلَّهَا بَرَجٌ ضَخْمٌ مَهْمَتُهُ الْإِشْرَافُ عَلَى مَرَجِ طَرَابِلُسَ الْمَطْلِ عَلَى
نَهْرِ قَادِشَا وَتَلَّةِ الْحَجَّاجِ

ميناء طرابلس من السفن القادمة من بلاد الروم والافرنج والمغرب
والأندلس ، فكانت بتقدير العشر ، ثم يختتم حديثه عن طرابلس بذكر
سكانها ، فيشير الى أنهم كلهم على المذهب الشيعي وأن جملة عددهم
عشرون ألفا وأن لهم مساجد حسنة المظهر «^٦» .

وإذا كانت طرابلس العتيقة قد ازدهرت في عصر الفاطميين — في زمن
المستنصر بالله — فإن ازدهارها الذي أصابته في زمن بني عمار كان أكثر
وأعم ، ففي هذا العصر عمرت المدينة عمراناً لم تشهده في عصورها
السابقة أو اللاحقة ، وكثرت ثرواتها ، وتألفت الحياة العلمية فيها الى حد
أصبحت فيه كعبة الوافدين للمدرس والتحصيل ، ويشهد بهذا التألق عظم
الثروات التي غنمها الصليبيون عند افتتاحهم لها ، فقد « حصل في أيديهم
من أمتعتها وذخائرها ودقاتر دار علمها وما كان منها في خزائن أربابها
ما لا يحصى عدده ولا يحضر فيذكر » «^٧» .

ولم تتأثر عائلة طرابلس واقتصادها النامي بالغزو الصليبي ، فقد
اتسعت المدينة عمراناً وأصبحت أربابها تستد من البحر حتى تلة الحجاج

(٦) ناصر خرو ، سفرنامه : ترجمة الدكتور بحبي الخشاب .

القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣

(٧) ابن القلانسي ، ص ١٦٣

حيث تقوم قلعة صنعيل «^٨» ، وقد أشرنا من قبل الى التقدم الذي أحرزته طرابلس في المجالين الاقتصادي والعلمي في العصر الصليبي .

ب - المدينة المحدثه :

لما فرغ السلطان قلاوون من فتح طرابلس في ٤ جمادى الآخرة سنة ٦٨٩ هـ أمر بأن تهدم المدينة « بما فيها من العسائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها » «^٩» ، واقامة مدينة أخرى لطرابلس على ضفتي نهر طرابلس المعروف بنهر أبي على «^{١٠}» ، على بعد نحو ميل من المدينة القديمة المخربة «^{١١}» ، وذلك حتى تندرج ذكرى المدينة الصليبية في طي النسيان، وحتى تتجنب المدينة المحدثه ما قد يصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا

(٨) السيد عبيد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، ص ٥٧

(٩) ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٣ ، طبعة مصر ، ص ٣١٣

(١٠) السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٨ - ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١

(١١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، تحقيق رينو والبارون دي سلان، باريس ١٨٤٠ ص ٢٥٣ - ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣١٣

ويذكر ابن بطوطة أن البحر على ميلين من المدينة (رحلة ابن بطوطة، طبعة بيروت ص ٦٤) وما ذكره ابن بطوطة أقرب الى الصحة

في عكا وقبرص . وبادر الناس بالبناء ، واستخدم في بناء دورها الحجر والكلس الأبيض ، بحيث أصبحت مبانيها كلها مبيضة ظاهرا وباطنا ، كذلك استخدمت في المنشآت الجديدة بقايا أبنية المدينة الخربة ، وما زلنا نرى بقايا الأبنية الصليبية مستخدمة من جديد في العقود والحنايا التي تعلو الدروب ، وفي عقد مدخل حمام عز الدين أيك الموصلى ، نائب طرابلس فيا بين عامى ٦٩٤ ، ٦٩٨ هـ ، وفي عقد المدخل الى الجامع المنصوري الكبير ، وفي غير ذلك من آثار طرابلس ، بل ان مئذنة جامع طرابلس الكبير تحبل طابع الأبنية الايطالية في العصر الوسيط «١٢» ، ويغلب هذا الطابع الايطالى أيضا على شوارع المدينة «١٣» . ولم يكن لهذه المدينة المحدثه سور يحسبها «١٤» ، اكتفاء بالأبراج الضخمة التى أخذ الممالك يقيمونها بحذاء ساحل شبه جزيرة المينا لتسكين الدفاع عن طرابلس من جهة الساحل . وكانت المياه تأتيها من جبل لبنان عن طريق جسر للمياه قديم لعله من عمل الصليبيين بدليل أنه يحبل حتى اليوم اسم قناطر البرنس ، وتتوزع مياه الجسر المذكور في شوارع المدينة وتدخل دورها وتصل الى طبقاتها المرتفعة «١٥» .

(١٢) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٦٣

(١٣) Van Berchem, Voyage en Syrie, p. 116

(١٤) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٢

(١٥) ابن الشحنة ص ٢١٣ - جورجى ينى ص ٣٧٢

كان موضع طرابلس المحدثه معسكرا لقوات صنجيل «١٦» بأدنى
القلعة الموسومة بهذا الاسم ، يقال له وادي الكنائس ، ولكن هذا الموضع
كان معروفا بركود ريحه وكثرة مستنقعاته ، فقد ذكر ابن فضل الله العمري
المتوفى سنة ٧٤٨ هـ أنه « لما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة ،
ذمية المسكن ، فلما طالت مدة سكناها ، وكثر بها الناس والدواب ،
وصرفت المياه الأجنة التي كانت حولها تقايع ، وعملت بساتين ، ونصب
بها المنسوب والغراس ، فخفف ثقلها وقل وخمها » «١٧» ، وكان أسندمر
الكرجي عندما تولى نيابتها دائم الاحساس بالوخم والرطوبة ، فشكا
ذلك الى الحكيم أمين الدين سليمان بن داود المتطبب ، فأشار عليه بأن
يستكثر فيها من الابل وسائر الدواب ، ففعل ذلك ، فخفف وخمها «١٨» ،
وقد وصفها العمري ومن نقل عنه أمثال ابن الشحنة والقلقشندي وصفها
رائعا وأشاد بما طرأ عليها من توسع عمراني سريع ، فذكر أنها في زمنه
« مدينة ممتدة » «١٩» كثير الزحام ، ذات بیمارستانين «٢٠» ومساجد ومدارس

(١٦) أبو الفداء ، المختصر ج ٤ ص ١٣٨

(١٧) العمري ، مسالك الأبصار ج ٢ قسم ٣ ص ٤٤٩ - القلقشندي ،

ج ٤ ص ١٤٣ - ابن الشحنة ، ص ٢٦٣

(١٨) نفس المرجع

(١٩) في نص ابن الشحنة « مدينة متسدينة »

(٢٠) أحدهذين بیمارستانين أنشأه الأمير بدرالدين محمد بن الحاج

أبي بكر المتوفى بحلب في سنة ٧٤٢ هـ (أبو الفداء ، ج ٧ ص ١٥٩)

وزوايا»^(٢١) وأسواق جلييلة وحمامان حسان موصوفة ، وجميع أبنيتها بالحجر والكلس مبيضا ظاهرا وباطنا ، تحيط بها غوطتها ، وتحيط بغوطتها مواضع مزدرة ،اتها بديعة المشترف ، تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها ... »^(٢٢) ويصف نهرها فيذكر أنه يحكم على ديارها وطبقاتها ، وتصل مياهه الى المواضع المرتفعة من دورها التي لا يرقى اليها الا بالدرج العالية ، ثم يشير الى ثروتها الزراعية ويعدد محصولاتها فيذكر منها الجوز والموز وقصب السكر والبلح والكروم ، ويذكر أيضا شهرتها في صناعة السكر ، وما يصل اليها من السفن القادمة من مختلف أنحاء البلاد^(٢٣) ، فهي لذلك بلد زراعى تجارى فى آن واحد^(٢٤) .

وزارها الرحالة ابن بطوطة فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة، وكان نائبها وقت زيارته الأمير سيف الدين طينال الحاجب الذى ولى نيابتها فى المرة الأولى من ٧٢٦ هـ الى ٧٣٣ هـ ، فيصفها بقوله : «ثم وصلت الى مدينة طرابلس ، وهى احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنهار ، وتحفها البساتين والأشجار ، ويكتنفها البحر برفاقه العميمة والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهى حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة

(٢١) ذكر القلقشندي أن بها بیمارستان واحد

(٢٢) راجع نص العمرى فى الملحق

(٢٣) العمرى ، ج ٢ قسم ٣ ص ٤٤٨

(٢٤) القلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٣ — ابن الشحنة ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

البحر ، وتسلكها الروم زمانا ، فلما استرجعها الملك الظاهر «٢٥» خربت ، واتخذت هذه الحديثة • وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان «٢٦» الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة «٢٧» ، ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج الى ظاهر المدينة ، فاذا عاد اليها ، وقارب الوصول الى منزله تترجل الأمراء وتزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون • • • ويختتم ابن بطوطة وصفه لطرابلس بذكر حماماتها فيقول : « وبهذه المدينة حمامات حسان ، منها حمام القاضي القرمي ، وحمام سندمور ، وكان سندمور أمير هذه المدينة ، ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات » «٢٨» •

(٢٥) صحتها الملك المنصور قلاوون

(٢٦) عرف عند العامة خطأ بهذا الاسم ، والاسم محرف من طينال ، وطينال هو الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الناصري الحاجب ، تولى نيابة طرابلس في جمادى الآخرة سنة ٧٢٦ هـ ثم نقل في ربيع الاول سنة ٧٣٣ الى نيابة غزة ، ثم أعيد الى نيابة طرابلس في سنة ٧٣٥ ، وعمر بظاهرها مسجدا جامعاً ، ثم عزل في المحرم سنة ٧٤١ ، وأعيد الى نيابة طرابلس للمرة الثالثة في سنة ٧٤٣ ، وتوفي في هذا العام

(٢٧) كانت تتع مداخل قلعة صنجيل بأعلى تلة الحجاج الصليبية ، وتعرف بدار النيابة ، ومن هذا الموضع المرتفع كان يتهاى للنائب الاشراف على المدينة • (راجع ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١)

(٢٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٥

ولقد بلغت طرابلس في منتصف القرن الثامن الهجرى ذروة عظمتها ونموها العمرانى واتسعت أعمالها حتى فاقت في أهميتها نيابة حياة ، وتهيم نواب السلطنة فيها بالبناء والتشييد ، وبتوسيع نطاقها ، فشمسوها برعايتهم ، وأولوها جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم ، وجعلوها بالمباني الفخمة التى ما تزال قائمة حتى يومنا هذا . وبالإضافة الى هذه الحركة العمرانية والمعمارية الزاهرة ، استعادت طرابلس رخاءها الاقتصادى ، فكثر أسواقها ، واتسعت مرافقها ، ونمت تجاراتها ، وكثرت خاناتها ، وتعددت حماماتها ، وازداد عدد مساجدها ومدارسها ، ونشطت أسواقها التجارية بسبب الصادرات والواردات بحيث أصبحت طرابلس في هذا العصر المملوكى بماؤها العديدة التى تشق عنان السماء وتكسر بسموقها الأفقية السائدة في أنبيتها ، وبقبابها ذات الخوذات المتكورة أو المضلعة ، وبمداخلها وبواباتها العظيمة التى تنتهى من أعلى بجوفات مقربصة ، وبجدران آثارها التى تمتد بطولها كتابات نسخية منقوشة ، وتزدان بصفوف من الحجارة التى يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود ، أصبحت هذه المدينة بكل هذه العناصر صورة مصغرة من قاهرة الممالك .

وقد لاحظ غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري مدى التشابه الكبير بينها وبين مدن مصر فقال : « وهى مدينة حسنة ، بها جوامع ومدارس وحمامات وعمائر حسنة ، وهى على شاطئ البحر المحيط ، ويقال انها شامية مصرية لحسن هيئتها » (٢٩) ونقل ابن الشحنة وصفا

لطرابلس عن الشيخ بدر الدين بن حبيب استعرض فيه محاسنها وجسمها
بين المزيّتين النامية والمصرية جاء فيه : « ولعسى انها بلدة لطيفة ومدينة
أمطارها خفيفة ، ملأتها جديدة ، ومحاسنها عديدة ، وماؤها دافق ،
ومرعاهها موافق ، وأزهارها باسمة ، ومناظرها لمادة الاسار حاسمة ، وهي
برية بحرية ، شامية مصرية ، يجلب اليها هدية النوتى والفلاح ، وتسمج
بأوطانها تغريد الحاوى والملاح ، تعلو بواديها ، وتسمو بندق ناديها ،
وتزهو أنسها ، وتنخر بنية أسعتها وقناة أبرنسها ، وتظهر العز بقبة
نصرها ، وتبهر من مائلها بلسان رأس نهرها . » (٣٠) ، وفي هذا النص
إشارة الى مواضع من طرابلس مثل حى القبة المرتفع الذى كانت تصل
المياه الى دوره بقساطل (٣١) ، وقناة الأبرنس وهو جسر للسياح ما زالت
آثاره قائمة حتى اليوم على ضفتى نهر أبى على ، ومنطقة رأس النهر وهى
المنطقة التى يصب فيها نهر أبى على فى البحر .

وحظيت طرابلس فى عصر دولة المماليك الشراكسة بعناية خاصة
فزودها نواب السلطة بكثير من المنشآت الفخمة من مدارس ومساجد
وأضرحة ، وعمل بعض السلاطين كالمؤيد شيخ على إبطال المظالم المحدثه
على أهل طرابلس فى سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) وكالظاهر برقوق الذى أبطل
ما كان يؤخذ فى طرابلس عند قدوم النائب اليها من قضاة البر وولاية
الأعمال عن كل واحد خمسمائة درهم (٣٢) ، وكالظاهر جقق اذ أبطل

(٣٠) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤

(٣١) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١

بعض الرسوم المفروضة على الأموال وخراج الكروم سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م)
وكالأشرف قايتباي الذي ألغى الرسوم المفروضة على مذهب طرابلس
سنة ٨٧٢ هـ «٢٣» .

واحتفظت طرابلس بازدهارها الاقتصادي في القرن السادس عشر،
ثم ندهور هذا الاقتصاد بالتدريج بسبب سوء الإدارة العشائية وبسبب
الخلافات الداخلية بين الباشوات الأتراك ، ولم تلبث طرابلس أن تنازلت
عن مكانتها الأولى لمدينة بيروت التي أصبحت العاصمة الفعلية للبنان
عقب الاستقلال «٢٤» .

(٣٢) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩١

(٣٣) سجلات هذه المراسيم على جدران المدرسة القرطائية والجامع
المنصوري الكبير

(٣٤) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها في
العصر الاسلامي ، ص ٦٦

(٢)

الحياة الاقتصادية والعلمية في طرابلس الاسلامية

١ - الزراعة والصناعة :

كان لنشأة طرابلس في السهل الواقع على مصب نهر أبي على أثر كبير في قيام طائفة من سكانها بالاشتغال بالزراعة ، وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة بها ، وتعرف أحيانا بالمرج ، وإنما كانت تمتد على ضفتي نهر أبي على ، وعلى سفوح الجبال القريبة منها في اهدن وزغرتا والضنية والكورة .

ولقد اشتهرت طرابلس قبل الغزو الصليبي بالجمع بين الثمار المصرية والشامية «١» ففيها قامت زراعة قصب السكر والنخيل «٢» ، وقصب السكر من الزراعات التي اقتصت بها مصر الاسلامية ، كذلك اشتهرت طرابلس بجودة فواكهها ، فقد كان يحمل من طرابلس الى مصر في زمن

(١) ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣١٣

(٢) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ١٩٦١ — ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٣ —

Heyd, Histoire du Commerce, t. II, p. 459

الحاكم بأمر الله الفواكه اليابسة والرطبة «^٢» أمثال النارج والترنج والموز والليمون والتمر «^٤» .

ويصف الشريف الادريسي محاصيلها الزراعية في عصره بقوله :
« ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة ، وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشيء الكثير » «^٥» ،
أما الزيتون فكانت أشجاره تغطي سفوح جبالها والمناطق السهلة والمرتفعة المحيطة بها فتتحول هذه الجبال الى مناطق خضراء لا يقطع تواصل اخضرارها سوى ضيعات متناثرة على سفوح الجبال دورها مبيضة بالكلس ناصعة البياض . ومن المعروف أن سهول الزيتون تبدأ بالكورة وتتصل بالزاوية والضنية ثم عكار ، وهي من أعظم سهول الزيتون في العالم .
أما العنب فتقوم زراعته في منطقة الضنية ، في حين تقوم زراعة قصب السكر والفواكه الأخرى كالكرام والحامضيات في المروج المحيطة بطرابلس .

وفنلت طرابلس في عصر دولتي المماليك البحرية والشرابية أشهر

(٣) يحيى بن سعيد الانطاكي ، ص ٢٠٠

(٤) ناصر خسرو ، ص ٨

(٥) الادريسي ، ص ١٧

مدن الشام في زراعة قصب السكر الذي يعد من أهم ثروتها الزراعية «٦»،
وفي زراعة الكروم والجوز والنخيل والموز «٧» .

وقد ترتب على ثروة طرابلس الزراعية قيام عدة صناعات اقتصت بها
طرابلس في العصور الإسلامية، فمن الزيتون كان يستخرج الزيت في المعاصر بها
والمساكن بالمناطق الجبلية منها «٨» ومن الزيتون التي تنتجها طرابلس
والمناطق التابعة لها تقوم صناعة الصابون التي اشتهرت بها طرابلس «٩» ،
ولذلك كان الصابون من أهم الموارد الاقتصادية الرئيسية في طرابلس
اذ كانت تقوم بتصديره ، وقد أقيم لهذا الغرض خان يعرف بخان الصابون
ما زال قائما حتى اليوم .

ومن قصب السكر كان يصنع السكر الطرابلسي الذي ذاعت شهرته
في المصون الوطني ، فقد أشار الاصطخري في النصف الثاني من القرن

(٦) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٣ - ابن فضل الله العمري ،
مخطوط ، ج ٢ قسم ٣ ص ٤٤٩ - ابن الشحنة ، ص ٢٦٣ - القلقشندي ،
ج ٤ ص ١٤٣

(٧) ابن فضل الله العمري ، نفس الصفحة .

(٨) راجع نص الوفاق المسجلة بمدرسة الخيرية أحمد بطرابلس

(٩) جورجى بنى ص ٣٧٢ . طالع نص النقش الكتابي المسجل على

عقب عقيد الباب الشرقي من الجامع المنصوري المؤدى الى الصحن
فيه ذكر باعفاء طرابلس من « طرح الصابون والزيت والبلس »

(Sobernheim, p. 59)

الرابع الهجرى الى قيام زراعة قصب السكر ، كما أكد ناصر خسرو والادريسي وأبو الفداء شهرتها في هذا النوع من الزراعة . أما العمري فقد ذكر في جيلة ما ذكره عن طرابلس صناعة السكر «^{١٠}» ما يدل على استمرار هذه الصناعة «^{١١}» بها .

وفي أواخر العصر الوسيط كانت طرابلس تزود أوروبا بالسكر الذي يتخذ أشكالا مختلفة فهو اما في صورة رقائق أو ناعم كالدهنيق أو في شكل حلوى «^{١٢}» . ويذكر النويرى السكندري عند تعرضه لذكر غزوة القبارصة لطرابلس في سنة ٧٦٩ هـ ، أن الفرنج لما دخلوا طرابلس دخل بعضهم في دار الحاج محمد بن بهادر التاجر وكان يحفظ فيها كميات كبيرة من السكر في جفان ، فحاصر المسلمون الدار ولم يجد الفرنج ما يدافعون به عن أنفسهم سوى هذه الجفان وهي مملوءة بالسكر فكانوا يقذفون بها المسلمين عوضا عن الحجارة «^{١٣}» .

والى جانب صناعة السكر فاقت طرابلس غيرها من مدن الشام في صناعة الورق ، فقد ذكر ناصر خسرو أنه كان « يصنع بطرابلس الورق الجصبل مثل

(١٠) العمري ، مسالك الأبصار ص ٤٤٩

(١١) Nicola Ziadeh, Urban life, p. 132

(١٢) فيليب حتى ، لبنان في التاريخ ، ص ٤١٤

(١٣) النويرى . الامام بالاعلام ، مخطوط رقم ١٤٤٩ ص ١٥٥

الورق السمرقندي بل أحسن منه «^{١٤}» ، كذلك اشتهرت طرابلس بصناعة المنسوجات الحريرية ، فالمقريري يذكر في السلوك أن بطرابلس القديمة « أربعة آلاف نول قزازه » «^{١٥}» . وكان يعمل في صناعة المنسوجات الحريرية ، وفقا لما ذكره هايد نقلا عن بورخارد الذي زار طرابلس في سنة ١٢٣٢ ، أربعة آلاف عامل «^{١٦}» ، وذكر جون بولونر الذي زار طرابلس في سنة ١٤٢٢ م أن بطرابلس ١٢٠٠ حائك يصنعون الثياب الحريرية والمخيلية «^{١٧}» . وظلت طرابلس حتى العصر الحديث مركزا هاما لهذه الصناعة ، فقد ذكر لويس لورته في رحلته بلبان فيما بين ١٨٧٥ - ١٨٨٠ أن الحرير أهم ما تنتجه طرابلس وتصدره «^{١٨}» . واليوم تشتهر طرابلس بصناعة نسيج الحرير المعروف بالغباني «^{١٩}» ، ولاشك أن هذه الشهرة ترجع الى تقاليد قديمة .

(١٤) ناصر خسرو ، ض ١٣

(١٥) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٨ . والمقصود بقزازه نسيج الاقشة الصوفية والحريرية والقطنية

(١٦) Heyd, op. cit. t. I, p. 179

(١٧) فيليب حتى ، لبنان في التاريخ ، ص ٤١٣

(١٨) لويس لورته ، مشاهدات في لبنان ، ترجمة كرم البستاني

ص ٢٥

(١٩) حلیم أبو المز ، محافظة الشمال ، ص ٥٩

ب - التجارة :

كان من الطبيعي أن تصبح طرابلس في العصر الاسلامي مركزا تجاريا هاما في الشام لسببين : الأول أن لها ميناء واسعا يمكن أن يتسع لعدد كبير من السفن ، والسبب الثاني قيام حرفتي الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها الى الخارج •

ولقد ظهرت طرابلس منذ أن خضعت لمصر الفاطمية كمدينة تجارية هامة ، وهو أمر تؤيده أقوال الرحالة والمؤرخين العرب ، فناصر خسرو يشيد بذكر أسبواقها وخاناتها ويستدح صناعة الورق فيها ويعظم ثروتها الزراعية ، كما أنه يشير الى اتخاذها قاعدة تجارية في البحر المتوسط تصل اليها السفن من مختلف الأقطار للتجارة «٢٠» • والادريسي يؤكد أنها « مدينة عظيمة والوارد والصادر اليها كثير » كما يذكر أنها « معقل من معاقل الشام مقصود اليها بالأمته وضروب الأحوال وصنوف التجارات » «٢١» ، ومنذ أن تلاشى أمر عكا وصور وأنطاكية وجبيل والبترون كقواعد تجارية للصليبيين تركزت النشاطات التجارية في الشام في عصر المماليك في ثلاثة مدن ساحلية هي بيروت وطرابلس واللاذقية «٢٢» •

(٢٠) ناصر خسرو ، ص ١٣

(٢١) الادريسي ، ص ١٧.

(٢٢) Nicola Ziadeh. op. cit. p. 134

غير أن نجاح المماليك في القضاء على بقايا الصليبيين في الشام أدى بطبيعة الحال الى امتداد فترة من الركود المؤقت للعلاقات التجارية التي تربطها بأوروبا نتيجة لمحاولات البابوية ايقاف التجارة الأوربية مع مصر المملوكية.

ومع ذلك فإن الدول الأوربية والجمهوريات الإيطالية التي كان يتعامل معها المماليك في مصر والشام لم تكن تستطع أن تستغنى عن حاصلات الشرق التي ترد عن طرق التجارة التي يسيطر عليها المماليك ، ولهذا حرص البنادقة وغيرهم على الابقاء على صلات الود مع المماليك «^{٢٣}». وكان قيام طرابلس المحدثثة في سنة ٦٨٩ هـ عاملا من عوامل ظهورها كمركز تجارى هام في الشام ، وسوق رئيسية للتصريف والاستيراد في آن واحد ، وأصبحت على الرغم من غارات القبارصة والجنوية والقطلان وتهديد القراصنة للسفن التي تحمل التجارة المملوكية في البحر المتوسط ، أعظم موانئ الشام نشاطا في التجارة ، يؤكد ذلك ما ذكره ابن بطوطة وابن فضل الله العسرى والقلقشندي وابن الشحنة في القرنين الثامن والتاسع الهجرى . فابن بطوطة يشيد بأسواق هذه المدينة ، ويذكر أن البر يكتنفها بمرافقه العسيرة والبر بخيراته المقيمة «^{٢٤}» ، والعسرى يعظم تجارتها ويشير الى اتخاذها مرسى للسفن الوافدة اليها «^{٢٥}» ، والقلقشندي يمتدح ميناءها

(٢٣) Nicola Ziadeh, p. 139

(٢٤) ابن بطوطة ، ص ٦٤

(٢٥) العسرى ، ص ٤٤٩

ويذكر أنها مركز للسراكب التجارية تباع بها بضائعهم ، وأنها « بلدة متجر وزرع كثيرة الفائدة »^(٢٦) . وابن الشحنة يذكر نصا نقله الشيخ بدرالدين بن حبيب جاء فيه : « وترد اليها تجار الفرنج بأنواع البضائع ويحصلون منها القطن الكثير وأمتعة الهند المختلفة ، وهي بندر عظيم »^(٢٧) .

وينعكس الازدهار التجارى فى طرابلس المملوكية فيما أقيم بها من من خانات وفنادق وأسواق وقياسر ، وهو أمر أجمع عليه المؤرخون والرحالة ، عربا كانوا أم عجماء . ولكن هذا الازدهار لم يلبث أن تلاشى بالتدريج فى أواخر عصر المساليك وذلك بعد أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٢ وما ترتب على ذلك من تحول قوافل التوابل الى أسواق لشبونة بدلا من جدة وطرابلس والاسكندرية ، وندرة ما كان يصل الى طرابلس من التوابل الهندية ، مما أدى الى خراب بنادر الاسكندرية وجدة ودمياط وطرابلس .

ج - الحياة العلمية :

شهدت طرابلس فى عصر بنى عمار ازدهارا علميا لم تشهد نظيرا له فى عصورها السابقة أو اللاحقة ، وأصبحت بحق مركزا علميا جليلا يقصده طلاب المعرفة للدرس والتحصيل ، فقد أسس فيها القاضى جلال الملك

(٢٦) الفلقشندي ، ج ٤ ص ١٤٣

(٢٧) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤

ابن عمار دارا للعلم في سنة ٤٧٢ هـ على غرار دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القاهرة ، لتكون مركزا من مراكز التشيع «^{٢٨}» . وكانت خزائن الكتب في دار العلم بطرابلس تضم من الكتب ما يتجاوز المائة ألف مجلد جمعها القاضي أبو الحسن بن عمار ، طوال مدة حكمه لطرابلس ، وكان يبعث رسالا الى الأقطار المختلفة للبحث عن الكتب النادرة مهما بلغ ثمنها «^{٢٩}» . وقد تعرضت هذه المكتبة كلها للتدمير والحرق بعد أن افتتحت جيوش الصليبيين مدينة طرابلس في سنة ٥٠٣ هـ «^{٣٠}» ، ودخلت مكتبة بنى عمار بذلك في جيلة المكتبات التاريخية التي لاقت نفس المصير ، وبددتها الوقائع والحروب مثل مكتبة الخليفة الناصر العباسي بن المستضيء الشهيرة التي أغرقها التتار عند دخولهم بغداد ، ومكتبة الحكم المستنصر في قرطبة التي أحرق معظمها في زمن ابن أبي عامر وضاعت البقية الباقية منها في غمار الفتنة «^{٣١}» .

وذكر أسامة بن منقذ أن متولى دار العلم بطرابلس قبل سقوطها

(٢٨) محمد كرد علي ، خطط الشام ج ٤ ص ٣٨

(٢٩) جورجى نبي ، تاريخ سوريا ، ص ٢٨٤

(٣٠) ابن القلائسي ، ص ١٦٣ — Runciman, op. cit. vol.

II, p. 69

(٣١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس،

بيروت - ١٩٦٣ ص ٣١٤ : حاشيه رقم ٥

في أيدي الفرنجة هو العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي «^{٣٢}» ، ونستدل من اسمه على أنه أندلسي من مدينة طليطلة ، ولعله رحل من الأندلس بعد سقوط مدينة طليطلة في أيدي القشتاليين في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، فنزل بطرابلس الشام واستقر بها ، فقد كانت دار العلم بطرابلس تجتذب العلماء والطلاب ، وكانت مركزا عليا هاما يقصده شيوخ العلم والأدب ، ومن جملة من قصدها أبو العلاء المعري «^{٣٣}» ، كما قصد طرابلس في عهد بني عمار أبو الفتح نصر بن الحسن الشاشي الذي توفي بها في سنة ٤٧١ هـ «^{٣٤}» .

ولقد ظهر من شعراء طرابلس الكبار الأديب أحمد بن الحسين ابن حيدرة المعروف بابن خراسان الطرابلسي «^{٣٥}» ، وكان شاعرا مجيدا ،

(٣٢) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، تحقيق الدكتور فلييب حتى ، برلستون ١٩٣٠ ص ٢٠٨

(٣٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٣

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، ج ٢ ، مدريد ، ١٨٨٣ ، ص ٥٧٩

(٣٥) يبدو أن أسرة حيدرة الطرابلسية كانت من الأسرات التي اشتغل أفرادها بالعلم والأدب ، ولقد أورد ابن الفرضي اسم أحد علمائها وهو خيثمة بن سليمان بن حيدرة الطرابلسي الذي أخذ عليه كثير من علماء الأندلس (ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، مجلد ١ ، مدريد ١٨٩١ ص ٥٢ ، ٣٨٥)

هجا فخر الملك بن عمار ، قاضى طرابلس وصاحبها ، كما هجا أخا فخر الملك ،
فأمر به قاضى طرابلس ، فضرب حتى مات فى سنة ٤٩٧ هـ «٣٦» ، وذكر
صاحب مرآة الزمان أن لابن حيدرة هذا آيات فى بركة له بطرابلس مالا
خبرا فى بستان له ، منها :

سقى الله أرضا نهرها البحر طاميا .^١ وأرجاؤها من كل ناحية خضرة
جواد بها خمر ومسك ترابها .^٢ وأشجارها البيض الرعايب والسمة
أرجى اصطبارا عن هواها وطيبها .^٣ وأرجو ولكن ما يطاوعنى صبره
ومن شعره أيضا :

أجابنا عذرونا فى محبتكم .^٤ كوني بحمص وأتم فى طرابلس «٣٧»

وممن أنجبتهم طرابلس فى هذا العصر من شعرائها وكتابها الكبار
أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد المعروف بالرفاء «٣٨» ، وكان بارعا فى
اللغة والأدب «٣٩» ، والشاعر عبدالله بن أحمد بن الحسين بن أحمد الحميرى
المعروف بابن النصار الكاتب «٤٠» ، الذى انتقل من طرابلس بعد أن استملى

(٣٦) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦ — النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٨

(٣٧) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦

(٣٨) ولد بطرابلس فى سنة ٤٧٣ هـ وتوفى فى سنة ٥٤٥ هـ

(٣٩) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٤٥

(٤٠) ولد بطرابلس فى سنة ٤٧٩ هـ ، وتوفى فى سنة ٥٦٧ هـ

عليها الفرنج ، واستقر بدمشق «^{٤١}» . ومن علمائها في الفقه ابن أبي كامل الذي أخذ عليه كثير من أهل العلم «^{٤٢}» .

ولم تفقد طرابلس مكائنها العلمية في عصر تبعيتها للصليبيين ، ففيها ازدهرت مدرسة اليعاقبة في الطب والفلسفة والتاريخ : وبرز من مؤرخيها أبو الفرج بن العبري صاحب التاريخ المعروف ، كما تعلم فيها كثير من المحاربين والمقدمين الفرنج اللغة العربية «^{٤٣}» .

وفي القرن الثامن الهجري بدأت طرابلس تسترد مركزها العلمي القديم ، فنبغ فيها جملة من العلماء في الأدب واللغة والفقه أمثال الكاتب المجدد محمد بن بكتوت الظاهري القلندري الحنفي المتوفى سنة ٧٣٥ هـ «^{٤٤}» ، وعماد الدين محمد بن صفى الدين النويري صاحب ديوان طرابلس ، المتوفى سنة ٧١٧ هـ «^{٤٥}» والقاضي تاج الدين أبو عبد الله محمد البارنباري المصري كاتب سر طرابلس المتوفى في سنة ٧٥٦ هـ «^{٤٦}» والقاضي شمس الدين

(٤١) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٥

(٤٢) ابن الأبار ، كتاب التكملة لكتاب الصلة ، مجلد ، مدريد ١٨٨٩ ص ٥٩٩

(٤٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ج ٤ ص ٣٩

(٤٤) السلوك، ج ٢ قسم ١ ص ١٨٠ - النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٠٧

(٤٥) السلوك ج ٢ قسم ١ ص ١٨٠

(٤٦) النجوم ، ج ١٠ ص ٣٢

أبو عبد الله محمد بن الشيخ تقي الدين عبد الله الدمشقي ، وكان عالما
دينا مجاهدا مرابطا ، يلبس السلاح في سبيل الله ويفزو ، وسمع الكثير
وألف وأفتى ، وتوفي في سنة ٧٦٩ هـ « ٤٧ » .

وفي القرن التاسع نبغ الفقيه علي بن خليل الطرابلسي المتوفي
سنة ٨٤٤ هـ وقد ألف كتابا بعنوان « معين الحكام » « ٤٨ » . ولكن الحياة
العلمية في طرابلس أخذت في الركود عند النصف الثاني من القرن التاسع
الهجري ، ولم تلبث حركة الآداب والعلوم في طرابلس أن خفت عند
الفتح العثماني .

(٤٧) نفس المصدر ، ج ١١ ص ١٠٠

(٤٨) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ص ٥٧

(٣)

الدفاع البرى والبحرى

كان أمر الدفاع عن طرابلس قبل الغزو الصليبي يعتمد على أسوارها الحصينة ، فقد كانت طرابلس العتيقة مدينة مزودة بسور منيع من الحجر ، ويدور البحر بها من ثلاثة أوجه «١» ، بينما كانت تقوم في الجهة الشرقية البرية قلعة حصينة «٢» من الحجر المصقول ، مزودة بشرفات ومقاتلات حجرية ، وبأعلاها عرادات لتيسير مهمة الدفاع عنها من البر «٣» . ويحيط بهذا السور الشرقى خندق عظيم باعتباره أكثر جهات السور تعرضا للهجوم من البر ، بينما لم تكن للأسوار الأخرى المطلة على البحر خندق يدور بها على أساس أن البحر خندق طبيعي . وكان للخندق الشرقى باب معكم من الحديد «٤» . وكانت الأسوار التي تدور بطرابلس من الجهات البحرية ملاصقة لرمال الشاطئ الى حد أن مياه البحر كانت تضرب في السور وتعلوه اذا علت أمواجه «٥» .

(١) الادريسي ، ص ١٧

(٢) العمرى ، مخطوط ، ج ١٦ قسم ٣ حوادث ٦٨٨

(٣) ناصر خسرو ، ص ١٣

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر

كانت أسوار طرابلس القديمة من المناعة والوثاقة ما جعلها تستعصى على الغزاة البيزنطيين والصليبيين بعد ذلك ، وفي ذلك يقول ابن القلانسي: « وثغر طرابلس برى بحرى متين القوة والحصانة ، شديد الامتناع على منازل ، أقام عليه بسيل نيفا وأربعين يوما يحاول افتتاحه أو وجود فرصة في تملكه ، فلم يتم له فيه أمر ولا مراد ، فرحل عنه قافلا الى بلاد الروم^(٦) . كذلك استعصت طرابلس على الصليبيين بعد ذلك ، فلم تستسلم لهم الا بعد عشر سنوات من الدفاع والمقاومة على الرغم من قيامهم بإنشاء حصص بشرف عليها ويواصل منه الفريضة الهجوم عليها ، وعلى الرغم من اشتراك الأسطول الجنوي مع العسكر البري في احكام الحصار عليها .

فلما تهدمت طرابلس العتيقة في سنة ٦٨٩ هـ ، خصص السلطان قلاوون للدفاع عن طرابلس فرقة من الفرسان تتألف من ستمائة فارس بقيادة الأمير سيف الدين التقوى ، وهو أول جيش استخدم بطرابلس بعد فتحها^(٧) ، وقد كان عسكر هذا الجيش يقيم في أبراج القلعة الصليبية . وفي الأبراج المقامة على ساحل المينا ، وكان يشرف على القلعة نائب طرابلس نفسه اذ كان يجمع بين وظيفته كنائب للسلطنة ووظيفة نائب القلعة . وكان يتولى أيضا عبء الدفاع عن طرابلس والسواحل بالإضافة الى حمايتها

(٦) ابن القلانسي ، ص ٤٤

(٧) السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٥١ - ابن الفرات . ج ٨ ص ٩٠

درف محاية من العربان الغيابة والنجاة ، والتركمان والأكراد الذين استقروا ببعض أعمالها الشمالية ، وقد لعب بنو بختر أصحاب الغرب الذين يرتفع نسبهم الى بنى النعمان بن المنذر بن ماء السماء «^٨» في الدفاع عن ساحل الشام من طرابلس حتى بيروت من غارات القبارصة في أواخر القرن الثامن الهجرى .

وكان لطرابلس في العصر الفاطمى أسطول حربي يدافع عنها من البحر ، وقد تسكن هذا الأسطول بقيادة على بن حيدرة من التغلب على أسطول بيزنطى كان في طريقه الى صور لمساعدة ثوارها بزعامة العلاقة على الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٣٨٧ هـ ، وكان لهذا الأسطول الطرابلسى الفضل الأعظم في القضاء على ثورة العلاقة «^٩» . ولما استقل بنو عمار بطرابلس اهتموا اهتماما خاصا بتعزيز أسطول طرابلس ، وقد لعب هذا الأسطول دورا هاما في فترة الحصار الصليبي على طرابلس ، ويذكر ابن الأثير أن الامبراطور البيزنطى أمر أتباعه في اللاذقية بارسال الميرة الى الفرنج المحاصرين لطرابلس ، فحصلوها في البحر « فأخرج اليهم فخر الملك بن عمار أسطولا ، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد ، فظفر المسلمون بقطعة من الروم ، فأخذوها ، وأسروا من كان بها وعادوا » «^{١٠}» .

(٨) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٦٥

(٩) ابن القلانسي ، ص ٥٠

(١٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥

ويبدو أن هذا الأسطول الطرابلسي تعرض لخسائر جسيمة عندما تدخل الجنوية في حصار طرابلس ، ففرت معظم قطعه ، وأصبحت السفن الباقية عاجزة عن مقاومة الحصار الصليبي . غير أن بعض هذه السفن تمكن من اختراق هذا الحصار البحري واتجه الى مصر لالتماس معوتها والدخول في طاعتها ، فسير اليهم الأفضل شاهنشاه واليا « يصل اليهم في البحر ومعه الغلة والميرة في المراكب لتسلم اليه البلد ، فوصل اليهم شرف الدولة بن أبي الطيب واليا من قبل الأفضل ومعه الغلة ، فلما وصل اليها قبض على جماعة أهل فخر الملك بن عمار وأصحابه وذخائره وآلاته وأثاثه ، وحمل الجميع الى مصر في البحر » (١١) . ونستدل من هذا النص أن الاتصال البحري بين مصر وطرابلس لم يكن عسيرا في تلك الآونة ، فقد كان لمصر أسطولها البحري العظيم الذي لعب دورا هاما في تمييز السواحل الشامية وقت الغزو الصليبي بالعدد والسلاح والأقوات ، وكانت السفن المصرية تخرج من تنيس (١٢) ومن الاسكندرية الى طرابلس الشام وصوره ولكن طرابلس لم يعد لها أسطولها الخاص في عصر المماليك ، وذلك لاهتمام المماليك بالجيش أكثر من اهتمامهم بالأسطول (١٣) ، وإن كانوا

(١١) ابن القلانسي ، ص ١٦١

(١٢) ابن المديم ، ج ١ ص ٢٢٢

(١٣) منذ أن استرد المماليك المدن التي كانت في أيدي الصليبيين لم-

يقومون بإنشاء ما يلزمهم من سفن عند الضرورة ، ومع ذلك فقد كان لطرابلس بعد أن استرجعها المسلمون بعض القطع الراسية في مينائها . وقد اشتركت سفينة من سفن طرابلس في فتح أرواد في سنة ٧٠٢ هـ « ١٤ » ، ثم نشطت دار الصناعة بطرابلس بعد غزو القبارصة للاسكندرية في إنشاء السفن الحربية سنة ٧٦٧ هـ « ١٥ » .

واقتصرت ميناء طرابلس في عصر المماليك على استقبال السفن التجارية المختلفة ، اذ كانت طرابلس بندرا تصل اليه السفن من سائر أقطار البحر المتوسط شأنها في ذلك شأن بندر جدة في البحر المتوسط ، ولكنها لم تبلغ من الناحية الحربية الدرجة التي بلغت الاسكندرية في مصر واللاذقية وعكا في الشام فان هذه الموانئ كانت مزودة بسلاسل تحمي السفن الراسية في الميناء وتمنع دخول السفن غير المرغوب في دخولها . وقد كان ميناء طرابلس دائم التعرض لغزو القبارصة ، بينما استعصى على

== يعودوا يهتمون بإقامة أسطول ثابت ، فبيبرس نفسه مؤسس أسطول المماليك ، كتب في إحدى رسائله الى ملك قبرص يقول : « أتمم خيلكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيل » النويري ، نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٨ ص ٥٥ - السلوك للسقريزي ، ج ١ قسم ٢ ص ٥٩٤ حاشية رقم ٣

(١٤) أبو الفداء ، المختصر ج ٧ ص ٥٧ - النجوم الزاهرة ، ج ٨

ص ١٥٦

(١٥) السلوك ج ٧ ص ٤٩

القبارصة غزو اللاذقية مثلاً إذ أن « بميناها سلسلة متينة ، فنطط (بطرس صاحب قبرص) ثلاث شوانى عليها حصلت داخل المينا ، فتبادر المسلمون ورفعوا سلسلتها بدولابها لم يكن للقبرصى ذلك فى حساب ، فقبض المسلمون على شينى منها ، فقتلوا من فيه من الرجال والأعلاج ، وانكسر الاثنان لثقلهما على السلسلة وعملها فيهما » (١٦) .

وكانت السفن التجارية الاسلامية والفرنجية تصل ما بين مصر والشام عن طريق ميناء طرابلس ، وذلك منذ العصر الفاطمى ، فقد أمر العزيز بالله بإرسال الميرة من غلات مصر لنجدة منجوتكين فوصلت الى طرابلس ومنها على ظهور الابل الى أفامية (١٧) . كذلك كانت السفن تبحر من طرابلس حتى العصر الذى خضعت فيه طرابلس للصليبيين وتصل الى مصر ، ففي سنة ٦٣٩ هـ قدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس فى البحر الى القاهرة ، وكثر قصاد المظفر صاحب حماة الى مصر (١٨) .

وكان لابد لنواب السلطنة فى طرابلس من الاهتمام بتحصين ميناء طرابلس بسلسلة من الأبراج الدفاعية الضخمة ، ومن المعروف أنه كان

(١٦) النويرى السكندرى ، الامام بالاعلام ص ١٣٤

(١٧) ابن القلانسى ، ص ٤٢

(١٨) السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٨

يتوزع على شاطئ طرابلس الميناء عدد من الأبراج تبدأ من رأس النهر
وتنتهى عند قرية البحصاص الواقعة الى الجنوب من طرابلس على بعد
نحو كيلومترين منها ، وكل أبراج مستحدثة أقيمت فى زمن المماليك . كما
أبقى المماليك على بعض القلاع الصليبية الساحلية التى تقع الى الجنوب
من طرابلس لحماية الساحل المستد من طرابلس الى بيروت مثل حصن أنف
الحجر (أنفة) وحصن القالمون ، وحصن أبى العدى وحصن أرطوسية ،
وهى حصون ذكرها الادريسي «١٩» . وقد وصلت اليها آثار هذه القلاع
والحصون مستدة على الساحل من طرابلس الى جيل .

الفصل الثامن

الآثار الباقية

(١) المساجد :

الجامع المنصوري الكبير - مسجد عبد الواحد المكناسي -
مسجد الأمير طينال - مسجد العطار - مسجد الدباغين - زاوية
أرغون شاه - مسجد الأويسي •

(٢) المدارس والخانقاه :

المدرسة القرطائية - المدارس المحيطة بالجامع الكبير - جامع
ومدرسة البرطاسي - المدرسة الزرقية - المدرسة السقرية -
المدرسة الخاتونية - المدرسة الظاهرية - المدرسة الطويشية -
المدرسة العجمية - الخانقاه •

(٣) التحصينات البرية والبحرية :

قلعة صنجيل - أبراج المينا •

(٤) المنشآت المدنية :

الحمامات - الخانات والأسواق - جسر فهر قاديشا - سبيل التينة •

الفصل الثامن الآثار الباقية

(١)

المساجد

١ - الجامع المنصوري الكبير :

اقيم في مدينة طرابلس المحدثّة على الضفة اليسرى من نهر أبي علي :
وهو من أعظم المساجد انجامة بطرابلس أقامه السلطان الملك الأشرف
صلاح الدين خليل في سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) ، وكان موضع هذا الجامع
كنيسة أقيمت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي تعرف باسم سان جان :
في الوقت الذي كان ريسوند دي سان جيل يحاصر مدينة طرابلس القديمة
من حصن صنجيل القائم على تلة الحجاج ، وقد تهدمت هذه الكنيسة
في جيلة ما تهدم من أبنيتها عقب الزلزال العنيف الذي حدث سنة ١١٧٠
وشاهد بنيامين التطيلي آثاره المدمرة عند زيارته لتلك المدينة « ١ » ، وذلك

(١) أشار بنيامين التطيلي الذي زار طرابلس في سنة ١١٧١ هـ . إلى
هذا الزلزال بقوله : « وحدث منذ وقت مضى زلزال في طرابلس قتل بسببه
عدد كبير من الناس واليهود ، اذ وقعت عليهم الدور والجدران وسبب

نخرياً مريعاً » . Viajes de Benjamin de Tudela, trad. espagnole.
par Ignacio Gonzalez LLubera, Madrid, 1918, p. 67

بعد سقوط البيت الطولوشى وقيام الأسرة الأنطاكية بسنوات • وقد عمل
بوهند على ترميم الكنيسة الفرنجية الخربة ، ونرك مهندسوه الايطاليون
طابع بلادهم فى البرج اللومباردى القائم حاليا بأعلى المدخل الشمالى للجامع •
يريدو أن هذه الكنيسة تأثرت كذلك بزلزال سنة ١٢٨٧ م الذى أحدث
فيها أضرارا جسيمة ، ثم تهدمت على أثر دخول جيوش المماليك الظافرة فى
مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ ، وبقيت منه أجزاء استغلها مهندس الجامع فى
بنائه ، ولا نستبعد أن يكون المنصور قلاوون قد قنع ببناء بيت للصلاة
فى نطاق جدران الكنيسة الخارجية حتى يفيد من برجها اللومباردى
فيتخذها مئذنة للجامع ، ولعله استغل جدران الكنيسة القديمة وبابها
الرئيسى وبرجها بعد أن انتزع منه النواقيس • غير أن ابنه وخليفته
السلطان الملك الأشرف خليل حول البوابة القوطية الطراز التى تتوسط
جدار الجامع الشمالى الى باب اسلامى الأسلوب «٢» • والبوابة بصورتها
الحالية على شكل عقد مدبب ، سنجاته يتناوب فيها اللونان الأبيض

(٢) Sobernheim, C. I. A., t. XXV, p. 51

ومن المحتمل أن تكون هذه البوابة قد انتزعت من الكنيسة القديمة،
ووضعت فى مدخل الجامع المنصورى لتكون شاهدا ماثلا يسجل انتصار
المسلمين على الصليبيين ، كما فعل الأشرف خليل بعد ذلك ببوابة كنيسة
سان چان بعكا ، التى انتزعها الأمير علم الدين الدوادارى متولى تخريب
عكا وصور وعثليث وغيرها من قلاع الصليبيين التى فتحها الأشرف خليل ،
وحملها الى القاهرة حيث نصبها العادل زين الدين كتبغا فى المدرسة التى
نسبت فيما بعد الى الناصر محمد بن قلاوون فى شارع بين القصرين
بالنحاسين (السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٥١)

والأسود ، ويحتضن العقد صفان من زخرفة هندسية متسوجة من دالات ،
منسلة على شكل « زجاج » ، ويرز من أعلى هذين الصفيين عن الآخر ،
وأغلب الظن أنها إسلاميان وذلك لشيوع هذا النوع من الزخرفة في
الطرابلس الإسلامية . وعلو الصف العلوي من هذين الصفيين أذارين
منبججة بارزة عددها ثلاثة . تستند على افريز أنقى يستند على شكل رف ،
تحت صفى الدالات من كلا جانبيها . ويقوم هذا الافريز على عسودين
صغيرين ، تاجاهما من الطراز القوطي «^٣» .

هذا الإطار البارز ذو الطابع اللاتيني يحيط بباب إسلامي الطابع ،
فإن عقده المدب يستد جانباه الى أدنى البوابة بحيث يؤلفان عضادتي
البوابة ، ويستمر تناوب اللونين الأسود والأبيض في صفوف أحجاره .
أما عتبه ، وهو قطعة واحدة من الحجر ، فيستند على مسندين محدبين ،
وطبلة العقد صماء يكسوها ملاط خشن المظهر ، تتوسطه زخرفة نباتية
من العصر العثماني مكتوب تحتها عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله » .
أما النش التاريخي فمسجل على لوحة من الخشب ، مثبتة على عتب
الباب ، مساحتها ٣٩×٢٦ سم^٢ . ويتألف النقش من ثلاثة أسطر من
الخط النسخي ، يفصل بين كل منهما شريط ، ويرجع هذا النقش الكتابي
بناء الجامع الى الأشرف خليل في سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) أي بعد سقوط
طرابلس في يد أييه المنصور قلاوون بأربع سنوات «^٤» . ونقرأ في هذا

(٣) Van Berchem, Voyage en Syrie, p. 118 - Coberheim, p. 51

(٤) M. Van Berchem, et Edmond Fatio, Voyage en
Syrie, p. 118

النقش النص التالي : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم ، سيدملوك العرب والعجم ، فاتح الأمصار ، ومبيد الكفار ، الملك الأشرف ، صلاح الدنيا والدين خليل ، قسيم أمير المؤمنين : ابن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون السالحي ، خلد الله ملكه ، في نيابة المقر العالي الأميري الكبير العزى عز الدين أيبك الخزندار الأشرف المنصوري نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة ، عفا الله عنه ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، والحمد لله وحده) « ٥ » . وبأعلى العضادة اليسرى للباب ، وتحت نهاية النص السابق ، نقش تاريخي بالخط النسخي الصغير ، ومن نفس الأسلوب نصه . (تولا عبارة هذا الجامع المبارك العبد الفقير لله « ٦ » تعالى سالم الصهيوني ، ابن ناصر الدين العجسي عفا الله عنه) .

والجامع بناء إسلامي لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية مما يدل على أنه بني بناء جديدا . وأنه لم يبن داخل كنيسة ، وتخطيط الجامع يتبع النظام القديم للمساجد الجامعة ، فيشتغل على ثلاث مجنبات تحيط بصحن مستطيل ، وعلى بيت للصلاة . وتعلو هذه المجنبات قبوات متعارضة ، وتطل المجنبات على الصحن بعقود منكسرة مثلثة الرؤوس ، تقوم على دعائم ضخمة مربعة القاعدة . وتتألف المجنبة الشمالية من سبعة عقود ،

(٥) Combe, Sauvaget, wiet; Répertoire Chronologique
d'Épigraphie arabe, tome XIII le Caire 1944. p. 122 -Sob ernheim.
op. cit. p. 52

(٦) وردت في نص سوبرنهايم « الى الله » والقراءة الصحيحة « لله »

أما كل من المجنبتين الشرقية والغربية فمن خمسة عقود أكثر اتساعاً من عقود المجنبة الشمالية . ومجنبت الصحن أقيست في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (٣١٥ م) في نيابة المقر السيفي كستاي الناصري (٧١٤ - ٧١٦ هـ) ، وعهد بأعمال البناء إلى أحمد بن حسن البعلبكي . وقد سجل ذلك كله في لوحة مندمجة في الجدار الشمالي المطل على الصحن ، ونص الكتابة ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . أمر بإنشاء هذه الروافد تكملة الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المظفر المنصور ناصر الدنيا والدين محمد ابن قلاوون خلد الله ملكه في نيابة المقر الشريف العالي السيفي كستاي الناصري كافل المملكة الشريفة انطرابلسية أعز الله أنصاره بإشارة المقر العالي البدرى محمد ابن أبي بكر شاء الدواوين المعصورة أدام الله نعمته . وكان الفراغ منه في شهر سنة خمس عشر وسبعمائة . وصلى الله على سيدنا محمد . ولا عمارته العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد ابن حسن البعلبكي) «^٧» .

وواجهة بيت الصلاة تطل على الصحن بسبعة عقود أكثر اتساعاً من عقود المجنبة الشمالية ، ويشتمل بيت الصلاة على بلاطين موازيين لجدار

القبلة : ينقسمان الى ١٤ أسطوان . ويعلو كل أسطوان منها قبوة متعارضة
فيما عدا أسطوان المحراب فتعلوه قبة قائمة على مقرنصات مقوسة .
وفصل البلاطين صف من الدعائم الضخمة عددها ستة ، ويستند العقد
الأخير من الجهة الغربية على دعامة ملتصقة بالجدار الغربي .

والى يمين المحراب منبر من الخشب يزدان بزخارف ملونة ، أقامه
نائب طرابلس الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله المنصوري المتوفى
سنة ٧٣٤ هـ . ويعلو مصراعى باب المنبر تحت صف المقرنصات الأعلى
مباشرة نقش كتابى بالخط النسخى نصه : (أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك
العبد الفقير الى الله تعالى قرطاي بن عبد الله الناصري أثابه الله ، فأقام به
من ماله بكتوان بن عبد الله الشهابي ، تقبل الله منه ، وذلك في شهر
ذو القعدة سنة ست وعشرين وسبعية) «^٨» .

والمظهر العام للجامع لا يدل على عناية بينائه ، فجردان الجامع كلها
مغطاة بطبقة بيضاء من الجير ، والمسجد كله عاقل من الزخرفة «^٩» .
ويتوسط الصحن بناء يتكون من أسطوانتين : الشمالى منهما تتوسطه
نافورة للوضوء ، بأعلاها قبة ، والجنوبى ينتهى بمحراب عليه لوحة رخامية

Rep. Ch. E A., t. XIV, p. 225 - Sobernheim. (٨)
p. 55

Van Berchem, op. cit. p. 118 (٩)

نقش عليها النص التالي : (أمر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ازدمر الأشرفي ، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة أعز الله أنصاره ، في أيام مولانا وسيدنا قاضي القضاة الشافعي الامام في مستهل ربيع الآخرة سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بمباشرة محمد الشاد) « ١٠ » .

ويطلو المدخل الجنوبي الشرقي للمسجد لوحة عليها النص التالي : (الحمد لله رسم بالأمر العالي السلطاني الملكي المؤيدي أبي النصر شيخ أعلاه الله تعالى وشرفه وأنقذه وصرفه بإبطال المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود ويبطل ذلك جميعه في هذه الأيام الزاهرة ، خلد الله سلطانها ، وأدام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الأول سنة سبعة عشر وثمانمائة و الحمد لله) « ١١ » .

وعلى عتب العقد نصف الدائري بالباب الشرقي للمسجد المؤدي الى الصحن نقش كتابي نصه (برسم الدخان وما يستأديه من يكون متكلما في ديوان الحجوية الكبرى واستادارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك « ١٢ » وباعفائها من ذلك جميعه ومن طرح الصابون والزيت

(١٠) Sobernheim, p. 57

(١١) Ibid. p. 56

(١٢) خطأ في الكتابة

والبلس ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها من جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديما والحادثة مستقبلا ومنع خازن دار الكافلى من التعرض الى ذلك ، وأخذ شىء منه ، واستقرارها فى حماية سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على حكم المربع الشريف ، وأخذ ينقش ذلك فى رخام جامع الكبير بطرابلس بأمر الكافلى المشار اليه بالمملكة الشريفة ، وأن يسطر ذلك بتاريخ ثانى شهر الله الحرام سنة «١٣» ثمان وتسعمائة والحمد لله («٢٤») .

ومئذنة الجامع هى البرج اللومباردى الذى أشرنا اليه ، وهى مئذنة تتفتح فى أوجهها نوافذ مزدوجة ذات طرر ، تقوم عقودها على أعمدة صغيرة .

٢ - مسجد عبد الواحد المكناسى :

يعتبر هذا المسجد من أقدم مساجد طرابلس فى عصر دولة المماليك البحرية ، وهو مسجد صغير يقع خلف سوق الصاغة ، بناه الشيخ عبد الواحد المكناسى ، أحد الأولياء الذين نزلوا مدينة طرابلس بعد أن حررها قلاوون من الصليبيين ، وكان مشهورا بالفضل والتقوى والزهد ، ويتميز هذا المسجد ببساطته التامة ، وعقود بيت الصلاة فيه تقوم على دعائم ضخمة مربعة الشكل ، وهى أقرب الى عقود مساجد المغرب

(١٣) خطأ فى الكتابة

(١٤) Sobernheim, p. 59

الاسلامي منها الى عقود المساجد السورية . ويتوسط صحن الجامع نافورة صغيرة يحيط بها حوض نقش بأعلاه النص التالي : (أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى عبد الواحد المكناسي غفر الله له ولوالديه ولمن كان السبب فيه وذلك في تاريخ سنة خمس وسبعمائة) « ١٥ » .

وبيت الصلاة يتألف من أسكوبين تخترقهما ثلاث بلاطات ، ويعلو الأسكوب الشمالي قبوات متعارضة تقوم على دعائم ضخمة . ويحيط بصحن المسجد ثلاث مجنبات تعلوها أسقف مائلة من الآجر على نحو النظام الشائع في مساجد المغرب ، وتستند هذه الأسقف على أعمدة وأوتار خشبية . وقبة المسجد مضلعة من الخارج ، وترتكز على رقبة من طابقين ، الأدنى منهما تفتح فيه أربع نوافذ معقودة ، والأعلى مزود بشمان نوافذ . أما من الداخل فالقبة مفصصة تشتمل على ١٦ فصا ، وترتكز هذه الخوذة المفصصة على طابق مشن في أركانه الثانية جوفات مقوسة . وتذكرنا هذه القبة بصفة عامة بالقباب التونسية .

أما المئذنة فطابعها يختلف عن بقية مآذن طرابلس إذ تتكون من ساق مثمنة الشكل تنتهي من أعلى بقبة نصف كروية ، وينفتح في جدران المئذنة من أعلى ثمان نوافذ .

٢ - مسجد الأمير طينال .

سماه العامة حاليا مسجد الأمير طيلان «١٦» : وهو تحريف واضح من اسم طينال . ويعتبر هذا المسجد أهم مساجد طرابلس وأجسلها على الإطلاق بعد الجامع المنصوري الكبير . وتذكرنا زخارفه وعناصره المعمارية بمساجد القاهرة أكثر مما تذكرنا بآثار دمشق . ويقع هذا الجامع بظاهر مدينة طرابلس : وسط البساتين التي تحيط بالمدينة بالقرب من باب طيلان . وكانت تقو . في موضع هذا المسجد قديما كنيسة مهدمة من عصر الصليبيين . هجرت زمنا طويلا بعد أن استولى قلاوون على طرابلس ، ثم استخدمها الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الناصري نائب طرابلس في إقامة هذا المسجد سنة ٧٣٦ هـ . وتاريخ انشاء هذا المسجد مسجل في النقش الكتابي الذي يعلو باب المسجد ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرفي العالي المولوى الأميرى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة اتساما ، فى أباء الملك الناصر فى شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة) «١٧» . وهناك نقش كتابى آخر بالقرب من النقش السابق ، عبارة عن وقفية سجل فيها اسم نائب السلطنة . ثم حدود الوقفية . (أنظر الملاحق)

(١٦) وقع ابن بطوطة فى نفس هذا الخطأ اذ سى الأمير طينال بطيلان

(١٧) Rép. Ch. E. A. t. XV, p. 59 - Sobernheim, p 87

والمسجد يتألف من قسمين منفصلين : الشمالى منها بيت للصلاة
يشتمل على ثلاثة بلاطات ، الأوسط أفصح من البلاطين الجانبيين ، وينقسم
هذا البلاط الأوسط الى اسطوانين تعلوهما قبتان • واحدى هاتين
القبتين نصف كروية على مقرنصات مثلثة ، يتناوب فى عنقها ١٢ عقدا
ونافذة ، والقبة الثانية مشابهة لها تقوم على مقرنصات مقوسة •

أما القسم الجنوبى من المسجد فضريح دفن فيه طينال يشتمل على
تسعة أساطين ، ويتوسط هذا الضريح قبة كبرى تقوم على رقبة مشنة ،
ويكتنف الضريح شرقا سلم وفى الجزء الشمالى قاعة جنازية تحتوى على
قبرين «١٨» •

ونلاحظ أن بالمسجد عمودين مركزيين ، يقوم عليهما عقدان من
النوع الرابط الشائع فى العرائر قوطية الطراز • ويغلب على الظن أن هذين
العمودين وتاجيهما من الكنيسة القديمة ، ويعتقد الاستاذ فان برشم أنه
لو صح ذلك ، أى أنه لو ثبت انتماء هذه الآثار الى الكنيسة لجاز تحديد الرواق
الأوسط والرواقين الجانبيين لهذه الكنيسة ، وعندئذ تكون رأس الكنيسة فى
مكان الضريح «١٩» • أما الاستاذ بروس كندى فيرى أن هذين العمودين
والعمودين الآخرين اللذين تقوم عليهما القبة الجنوبية بالمسجد ، كانت

Van Berchem, op. cit, p. 120 (١٨)

Ibid. p. 120 (١٩)

مركز الكنيسة الكرملية القديمة ، لأن مجاز هذه الكنيسة كان يتجه من الشرق الى الغرب أى بعكس اتجاه البلاط الأوسط في المسجد ، كما يرى احتمال كون الأسطوان الذي تعلوه القبة الشمالية بالمسجد جزءا من الرواق الشمالى للكنيسة ، بينما يرجح تهديم المهندس للرواق الجنوبي تمكينا لاقامة البوابة الضخمة المؤدية الى ضريح سيف الدين طينال « ٢٠ » .

أما هذه البوابة المتصلة بقاعدة انقبه القبلىة بالمسجد ، والمؤدية الى ضريح طينال ، فتعتبر من أجسل البوابات المملوكية ، وهى قطاع مستطيل الشكل مجوف ينتهى من أعلى بعقد منكسر ، ويشغل ركنى القطاع مقرنحسان ينتهيان من أعلى — بعد أربع حطات متراكبة — بجوفة نصف كروية يحيط بها العقد المذكور . • تزدان واجهة البوابة بزخرفة تقوم على تناوب صفوف الحجارة البيضاء مع الصفوف السوداء ، ويحيط البوابة من أعلى ومن الجانبين افريز من الدالات المتصلة على شكل «زجاج» . ويملأ مدخل الباب عقد مخفف للضغط به سنجات متعاشقة يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود .

وأرضية المسجد تكسوها زخرفة من الفسيفساء الملون فى غاية الروعة والجمال ، أسلوبها اسلامى خالص « ٢١ » . أما المئذنة فمربعة الشكل .

Bruce Condé Tripoli of Lebanon, p. 48 (٢٠)

Van Berchem, op cit. p 121 (٢١)

تزدان جوانبها بعقود صساء ذات وسائد ، وتستاز هذه المئذنة بأشغالها على درج مزدوج في الداخل « ٢٢ » أحدهما يؤدي الى خارج المسجد والآخر يفضى الى الداخل « ٢٣ » . وتنتهى المئذنة من أعلى بشرفة بارزة عن الجدار تفتح في كل وجه منها نافذة مستطيلة الشكل ، ويعلو الشرفة جوسق مستدير . ويعتقد بعض الأثريين أن هذه المئذنة كانت في الأصل برج الأجراس التابع للكنيسة الكرملية « ٢٤ » ، ومجموع القباب التي يضمها المسجد والضريح أربعة ، أصغرها قبة المحراب ، وهى قبة صغيرة متعددة الفصوص (٢٤ فصا) تقوم على قاعدة مربعة في أركانها جوفات مقوسة تؤلف حطة أولى من المقرنصات ، وتعلو هذه الجوفات حطة ثانية ثم تعلوها بدورها حطة ثالثة من المقرنصات المسطحة على شكل عقود متصلة تتخللها نوافذ .

وللضريح منبر بأعلاه لوحة من الخشب نقش عليها بالخط النسخي النص الآتى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى

(٢٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق ١٩٢٨ ص ٥٣

(٢٣) تشبه في ذلك مئذنة عبد الرحمن الناصر بالمسجد الجامع قرطبة ، وهى مئذنة كانت مزودة بطلعين مفصول بينهما بالبناء وأحد هذين الطلعين يؤدي الى صحن الجامع والثانى يؤدي الى خارج المسجد . (راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للمؤلف ، ص ٣٩٠)

(٢٤) Bruce Condé, op. cit. p. 50

أولاً: «٢٥» أن يكونوا من المهتمين ، تكمل هذه منبر في شهر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة («٢٦» . وفي أدنى المنبر بأعلى الباب سطر من الكتابة النسخية نصه : (عمل المعلم محمد الصفدي رحم الله من نرحم عليه) «٢٧» .

٤ - مسجد العطار :

يقع هذا المسجد في قلب مدينة طرابلس على الضفة اليسرى من نهر أبي علي ، بالقرب من خان المصريين وخان الخياطين ، في شارع سوق الصباغة أهم شوارع المدينة . ويعتبر هذا المسجد ثالث مساجد طرابلس أهمية ، أسسه بدر الدين بن العطار أحد العطارين الأثرياء بطرابلس في سنة ٧٥٩ هـ على نفقته الخاصة ، ولذلك نسب اليه «٢٨» ، وجعل له أربع صفوف ، « كل صفة لها مدرس له معاوم يتناوله من وقف الجامع » «٢٩» .

(٢٥) هكذا نقشت كللة أولئك

Rép. Ch. E. A., t. XV, p. 60 - Sobernheim. (٢٦)

op. cit. p. 93

(٢٧) تستاز آثار طرابلس يتسجيل أسسها الصنائع والعرفاء عليها . وهو أمر لا يتوفر في كثير من الآثار الإسلامية في مصر .

(٢٨) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ص ٣٩١

(٢٩) عبدالغنى النابلسي ، الرحلة الطرابلسية ، عن سوبرنهايم ص ١٠٤

وتاريخ انشاء هذا الجامع مسجل بأعلى عتب المدخل في لوحة نصها :
(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا الباب المبارك والمنبر عمل المعلم محمد
بن ابراهيم المهندس سنة أحد وخسين وسبعائة) « ٢٠ » . ويذكر الاستاذ
محمد كرد علي أن هذا الجامع كان كنيسة في زمن الصليبيين ، ثم تحول
الى جامع « ٢١ » .

وبوابة هذا المسجد تشبه في زخارفها بوابة المدرسة القرطائية
المجاورة للجامع الكبير ، فهي عبارة عن قطاع مفرغ مستطيل الشكل ،
تعلو دحية نصف كروية قائمة على أربع حطات من المقرنصات الشائعة في
مباني الماليك . ويتوسط الواجهة فيما بين عتب الباب والمقرنصات
تريعة من الفسيفساء تتوسطها جامة تحتشد حولها تكوينات هندسية من
فروع متقاطعة ومجدولة تتخللها زهرة الزنبق . وعتب الباب مؤلف من
سجلات متعاشقة على شكل زهرة الزنبق ، يتناوب فيها اللونان الأبيض
والأسود ، على مثال سجلات سائر الآثار السلوكية بطرابلس . أما المئذنة
فتعتبر من أفخم مآذن طرابلس في عصر الماليك ، فهي برج مربع الشكل
يدور حوله عند منتصفه أفريز أفقي بارز ومسطح ، وتنتهي المئذنة من أعلى
بشرفة مكعبة الشكل بارزة عن بناء برج المئذنة ، وترتكز هذه الشرفة على
صف من المقرنصات الجميلة ، القائمة على أربعة أعمدة في الأركان ،
تيجانها من النوع الاسلامي المقرنص ، ويتوسط كل وجه من وجوه الشرفة

(٢٠) Sobernheim, p. 105

(٢١) محمد كرد علي ، ج ٦ ص ٥٤

العليا نافذة مزدوجة يقوم عقداها على عמוד مركزي مشترك • ويتوج هذا الطابق جوسق مشن الشكل يكتفه في الأركان الأربعة قبيبات زخرفية جبيلة ، وينتهي الجوسق من أعلاه بغطاء مخروطي •

وعلى الجدار الواقع الى يسين فتحة الباب نقش كتابي مسجل فيه مرسوم أصدره السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢١ هـ •

٥ - مسجد الدباغين :

هو مسجد صغير يقع على الضفة اليسرى من نهر أبي على بجوار الجسر الجديد ، ويتميز هذا المسجد بسنذته المشنة التي تنتهى من أعلى بالطابق المربع البارز ، وبقبة المضلعة • ويعلو مدخل هذا المسجد لوحتان من الحجر عليهما نقش كتابي عبارة عن مرسوم صادر من السلطان الملك الأشرف قايتباى فى ٢٣ جىادى الآخرة سنة ٨٨٢ هـ ، وذلك عند زيارته لمدينة طرابلس قادما من بعلبك ، يأمر فيه بإبطال المكوس المفروضة على جساعة الدباغين «٣٢» ولقد جدد بناء هذا المسجد فى سنة ٩١٢ هـ على يد ابن يوسف شيخ الدباغين بطرابلس فى سلطنة الأشرف قانصوه الغورى •

٦ - زاوية ارغون شاه :

يطلق عليها أهل طرابلس زاوية الغنشا ، وتقع قريبا من المدرسة

السقريقية والخاتونية في الطرف الغربي من طرابلس ، على الطريق المؤدية الى جبانة باب الرمل «٣٣» . ولا نعرف تاريخ بناء هذا المسجد على وجه الدقة ، ولكن أسلوب البناء يدل على أنه أقيم قرب نهاية عصر دولة المماليك الشراكسة ، أى في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ونلاحظ في مئذنة هذا المسجد بدء ظهور التأثيرات التركية ، فهي مئذنة أسطوانية الشكل تنتهى في أعلاها بست حطات من المقرنصات تحمل شرفة ذات عشرة ضلوع تزدان بزخارف هندسية وتوريقات رائعة ، وتختلف كل حشوة عن غيرها في هذه الضلوع العشرة للشرفة . وعلى مدخل هذا المسجد نقش كتابي يتضمن مرسوما صادرا من السلطان قايتباي في ١٥ جادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ (١١ أكتوبر سنة ١٤٧٥ م) في نيابة أودمر الأشرفي يأمر فيه بحماية زراع أراضى الوقف للمسجد المذكور وتسليمها الى السيد نور الدين الأدهمى الحسينى . وقد جدد بناء هذا المسجد بعد أن تهدم الجانب الجنوبي منه ، ولكن هذا التجديد لم يمس الواجهة الشرقية على الاطلاق .

٧ - مسجد الأويسنة

يقع بالقرب من مسجد عبد الواحد المكناسى ، بناء وفقا لوقفية

الجامع محيي الدين الأويسى فى سنة ٨٦٥ «٢٤» هـ ، ويتميز هذا الجامع بقبته الوسطى الكبرى التى تمهد لظهور القباب التركية • وبأعلى مئذنة هذا المسجد نقش كتابى نستدل منه على أن المسجد المذكور جدد فى عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى فى سنة ٩٤١ هـ على يدى رجل يدعى حيدرة «٢٥» •

(٣٤) محمد كرد على ، ج ٦ ص ٥٤

(٣٥) الى جانب المساجد المذكورة يوجد عدد كبير من المساجد التى أقيمت فى أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة ، وأهمها مسجد التوبة الملاصق للجسر الجديد القائم على نهر أبى على ، وقد أقيم هذا المسجد فى عصر دولة المماليك ، اذ أن نظام بنائه يشبه نظام بناء جامع طرابلس الكبير وقد تهدم بناء هذا المسجد على أثر الفيضان العظيم فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٠٢٠ هـ ، فجدد فى عهد السلطان العثمانى أحمد الأول فى سنة ١٠٢١ هـ ، ويمتاز مسجد التوبة بقبته المفصصة وبكتابات الأثرية التى ترجع الى عهد المؤيد شيخ الممبودى • ومن مساجد طرابلس أيضا مسجد الطحام الذى أقيم فى محلة بوابة الحدادين فى سنة ٩٦٧ هـ على يدى محمود بن لطفى الزعيم ، فى سلطنة سليمان القانونى

(٢)

المدارس والخانقاه

١ - المدرسة القرطائية :

تعتبر مدينة طرابلس المدينة الوحيدة في لبنان التي تحتفظ بسدد هائل من آثار المدارس المملوكية ، وقد وصل إلينا الكثير منها في حالة ممتازة من الحفظ ولكن بعضها قد تخرب وتهدمت أجزاء منها • ونقتصر هنا على دراسة أمثلة من هذه المدارس •

يحيط بالجامع المنصوري الكبير عدد من المدارس لا يقل عن ست ، أهمها وأجملها على الإطلاق المدرسة القرطائية ، أما الخمسة الأخرى فيجتمعة حول البوابة الشمالية للجامع المذكور باستثناء المدرسة النورية التي تقع على مسافة قصيرة شرقي الجامع •

وتعتبر المدرسة القرطائية أجمل آثار طرابلس وأفخمها جميعا ، وتقع لصق الجامع الكبير من الجهة الجنوبية الشرقية ، وينسب بناؤها إلى الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله الناصري ، الذي أقام منبر الجامع الكبير في سنة ٧٢٦ هـ على الرغم من اختفاء الكتابة التاريخية التي كانت محفورة على جدارها القبلي «^١» • وينكر الاستاذ سوبرنهايم وجود

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ص ١٢٨

آثار لهذه المدرسة الوقت الحاضر فيقول :

«٢» (L'école qu'il y a fondée n'existe plus) ، ويسمى
البناء القائم لصق الجدار اشرقى الجامع المنصوري بالمدرسة الشمسية «٣»،
ويخلط بين هذه المدرسة والمدرسة القرطائية ، اذ ينسب الى المدرسة
الشمسية المنسورات والمراسيم المنقوشة على الجدار القبلى للمدرسة
القرطائية .

والواقع أن المدرسة المسماة بالشمسية هي التي تقع الى يسار
الداخل الى المسجد الكبير ، وتعتبر من ملحقات هذا الجامع ، وان كانت
قد أقيمت ضريحا لمنشئها شمس الدين المولوى ، سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٩ م)
تقريبا ، ولهذه المدرسة منظره تطل على المدخل الى الجامع المنصوري
الكبير ، يعلوها عقد ذو وسائل متصلة ، وقد رأينا مثل هذا العقد في مثذنة
جامع سيف الدين طينال بطرابلس ، وفي مصر نماذج من هذه العقود نراها
ممثلة في أحد عقود بوابة الفتوح بالقاهرة وفي عقد مدخل مسجد الظاهر
بيبرس وفي عقد مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير وفي نافذة مثذنة سنجر
الجاولي كما نجدتها أيضا في أحد العقود المنسوبة الى الظاهر بيبرس بقلعة

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 55

(٣) Ibid. p. 61 - 62

صيدا البحرية • وهناك من الأثرين من يرجع هذا النوع من العقود الى
الغليبيين «٤» ، وهو افتراء واضح •

ومدخل هذه المدرسة الشسية سد بالبناء واتخذت فيها مخازن
ومرافق أخرى ، ولم يتبق من واجهتها سوى النافذة المعقودة ذات الوسائد
التي تحدثنا عنها •

ونعود مرة ثانية الى الحديث عن المدرسة القرطائية ، وبوابتها تعتبر
من أروع أمثلة البوابات السلوكية ، اذ تنطق خطوطها بسا تميز به من
جبال ودقة لا نظير لهما ، فهي حلقة متصلة مترنة الأجزاء ، وتعبّر عن ايقاع
وتوازن • ويتوسط عتب الباب لوحة عليها نقش كتابي نصه (بسم الله
الرحمن الرحيم ، ان المتقين في جنات وعيون ، أدخلوها بسلام آمنين ،
ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) «٥» •

ويعلو هذا الباب عقد مخفف للضغط تتعاشق فيه سنجات من الرخام
سوداء وبيضاء على التعاقب • ويعلو هذا العقد تربيعة من الفسيفساء
تتوسطها جامة سوداء تخرج منها أشرطة أربعة مجدولة ، تمتد حول التربيعة

(٤) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٥ ، Bruce Condé op.
cit. p. 34 , 49

(٥) لم يرد هذا النص بين النصوص التي نشرها سوبرنهايم في كتابه
عن نقوش طرابلس •

ثم يعلو ذلك ثلاثة طوابق من المقرنصات ، تنتهى من أعلى بجوفة نصف كروية عقدها منكسر ، يحيط بها عقد بارز يدور به صفان من دالات متصلة على شكل زجاج . وعلى جانبى المدخل عمودان يعتقد الأستاذ رزس كندى أنها من النرخ "الثرنجى" ١ . ويفتح فى الجدار الشمالى للمدرسة نوافذ ، تكسوها زخارف متشابكة . أما محراب المدرسة فينطق بوضوح عن الفكرة الزخرفية والهندسية التى طبقها المهندس ، اذ يعبر عن تناسق تام فى تكوين العناصر الزخرفية بما يحتويه من فسفساء ملونة . ويكسو النصف الأدنى من جدار المحراب وزرات من الرخام الملون ، وأرضية المدرسة من الفسفساء الملون تؤلف تكوينات هندسية رائعة تشبه الى حد كبير الفسفساء التى تكسو صحن جامع السلطان حسن بالقاهرة وغيره من المساجد والمدارس المملوكية .

وتنقسم المدرسة من حيث التصميم الى قسمين : الرواق الشمالى وأرضيته أقل ارتفاعا من أرضية المصلى . ويتوسط هذا الرواق الشمالى حوض مربع ، يقابل مدخل المدرسة ، بداخله نافورة . ويحيط بالحوض قناة تجرى فيها المياه الجارية من الحوض ، وبأعلى هذا الحوض قبة . أما الرواق الآخر فتعلوه أمام المحراب قبة قائمة على مقرنصات مثلثة ، وتفتح فى الجدار القبلى أربع نوافذ مشبكة ، عتب كل منها من الخارج يحتوى

على ثلاث لوحات . تحتشد فيها زخارف هندسية بارزة بروزاً طفيفاً ،
ويعلو الأعتاب عقود مخففة للضغط سنجاتها متعاشقة سوداء وبيضاء على
التعاقب ، وطبقات هذه العقود تزخر بالكتابات القرآنية . وتتصل المدرسة
انصرافاً بالجامع الكبير عن طريق قنطرة سقفها معقود بقبوات متعارضة .
ويعلو مدخل الباب المؤدى للجامع نافذتان مرتفعتان وظيفتهما ادخال
الضوء الى الطريق الضيق الواقع خلف المدرسة . ويزدان الجدار القبلى
للمدرسة براسيم سلطانية محفورة فى لوحات مرصعة فى الجدران ، أولها
نقش كتابى يقع بين النافذة الاولى والثانية من هذا الجدار ، وهو عبارة
عن مرسوم أصدره الأشرف برسباى فى مستهل رمضان سنة ٨٢٦ هـ يأمر
فيه بإبطال المكوس الخاصة بخيل البريد . والمنشور الثانى منقوش على
لوح حجرى يرصع جدار بيت حديث البناء ، قبالة مدخل الجامع من الجهة
الشرقية ، وهو مرسوم صادر من ديوان الجيوش بتاريخ مستهل شعبان
٨٥١ هـ ، بإبطال الضرائب المفروضة على انتياب والدخان . وهناك غير
هذين النقشين نقوش أخرى كثيرة يكتظ بها الجدار القبلى للمدرسة
القرطائية ، نشرها الأستاذ سوبرنهايم (٧) .

٢ - المدارس المحيطة بالجامع :

ذكرنا فيما سبق أنه يحيط بالجامع المنصوري ست مدارس ، وقد

تحدثنا عن مدرستين احدهما القرطائية والثانية الشمسية • والمدرسة الثالثة تقع الى يمين الداخل الى الجامع المنصوري من جهة الشمال ، وهي مدرسة مجهولة الاسم ولكن أسلوب بنائها يبين أنها من مدارس عصر دولة المساليك الشراكسة ، وواجهة المدخل عبارة عن قطاع فسيح مجوف على شكل مستطيل ينتهى من أعلى بجوفة مقوسة مكسوة بالفسيفساء الرخامية الملونة ، وتزدان بزخرفة هندسية أساسها نجمة ذات عشرة رؤوس ، تتشعب من رؤوسها خطوط متقاطعة فيما بينها ، وهذه الجوفة تشبه الجوفات التى تعلو محاريب المساجد المملوكية • وتقوم هذه الجوفة على مقرنصات غاية فى الروعة والجمال ، ويعلو البوابة افريز أفقى من دالات متصلة على شكل زجاج بارز يحيط بها من أعلى ، ثم يدور على جانبي البوابة الى أن يصل الى الارض • ويسود الواجهة مظهر زخرفى بسيط ناشئ من تناوب المداميك السوداء مع المداميك البيضاء (٨) •

ومن بين المدارس الثلاثة الأخرى المحيطة بالجامع الكبير مدرستان تقعان قبالة الباب الشمالى للجامع المنصوري على الصف الأيسر من الطريق ، الشرقية منهما هى المدرسة الناصرية ، وهى مدرسة صغيرة نسبيا ، وبوابتها قطاع مستطيل مفرغ فى الجدار ، ينتهى من أعلى بجوفة مقوسة نصف كروية عابطة من الزخرفة ، تقوم على صف من المقرنصات ، تحته دائرة

مستديرة بداخلها نقش كتابي نصه (عز لمولانا السلطان الملك الناصر) ،
وتزدان الواجهة بافريز بارز من الدالات المتصلة كما تزدان بالمداميك
الملونة وتاريخ بناء هذه المدرسة يتراوح بين عامي ٦٩٣ و ٧٤١ هـ
(١٢٩٣ - ١٣٤٠ م) .

أما المدرسة المجاورة لها من الغرب فهي المعروفة بمدرسة الخيرية
محسن ، وقد أخطأ سوبرنهايم في تحديد موقعها على خريطته «^٩» . ويرجع
تاريخ بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجري (بعد سنة ٧٠٩ هـ) . وبوابتها
عبارة عن قطاع مستطيل الشكل مجوف ، ينتهي من أعلى بعقد منكسر
يتناوب في سنجاته المتعاشقة اللون الأبيض والأسود . ويحيط بالبوابة من
أعلى ومن الجانبين حتى مستوى الأرض افريز من الزخرفة على شكل
مقرنصات مسطحة متصلة ، ويتوسط كل من الجدار الأيمن والأيسر
للبوابة نافذتان ، عقداهما نصف دائريان ، يتناوب في سنجاتها اللونان
التقليديان الأبيض والأسود، ويتوسط البوابة ، بين العقد والباب ، لوحة
مربعة مسجل عليها وقفية نصها (بسم الله الرحمن الرحيم ، وقفت جهة
المرحوم قطلو المصينة والمعصرة والرابع فوق المعصرة وخمس قراريط وربع
بطاحون الداودية والسندمرية ، بأرض كفر قاهل ، والبستان ظاهر طراييلس
وثلاث قراريط ونصف بسوق أسندمر ، وثلاث الدير يعرف بأرض أصنون،

ومسكة زيتون والقاعة والبحرة والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون
الجديدة بعردات ، وكرم زيتون في بطرام ، وطبقة ومخزن بقيسارية
الأفرنج (« ١٠ ») .

أما المدرسة السادسة من مجموعة مدارس الجامع فهي المدرسة
النورية ، وتقع شرقى المدرسة الناصرية على الناصية الأخرى من الشارع
المؤدى الى السوق الرئيسى بطرابلس ، أسسها نائب طرابلس الأمير
نور الدين سنة ٧٣٣ هـ وبوابة هذه المدرسة من أجمل بوابات المدارس
المسلوكية في طرابلس .

٢ - جامع ومدرسة البرطاسي :

تقع على الضفة اليسرى من نهر أبى على بالقرب من الجسر العتيق ،
واسم منشئ هذه المدرسة مسجل على شريط من الكتابة النسخية يقطع
واجهه المدرسة أفقيا ، على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف . ويمتد هذا
الشريط في مدماك قائم بذاته من يمين القطاع المجوف للبوابة الى يساره .
ونقرأ في هذا الشريط النص الآتى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أوقف هذه
المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسي عفا الله
عنه ، على المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعى ، واقامة

الجمع والصلوات المكتوبة . و شرط أن لا يرسم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له الحق في ذلك) « ١١ » . وأما تاريخ الانشاء فلم يرد ذكره ، ويظهر من أسلوب بنائها ورخارفها أنها أقيمت في أواخر عصر دولة المماليك البحرية .

وأهم ما يميز به هذا الجامع واجهته المبينة بحجارة داكنة اللون ، والجوفة العليا القائمة على المقرنصات والتي تعد من أجمل ما أبدعه الفنانون في عصر المماليك . ونلاحظ التشابه الكبير بين هذه الواجهة وواجهة المدرسة القرطائية . ويعلو العتب أربع حشوات من الزخرفة الهندسية القائمة على الخطوط المتقاطعة في زوايا قائمه . ويبدو أن المدرسة كانت قد تعرضت لأضرار جسيمة بسبب سيل جارف حدث في سنة ١٩٥٥ م وطغى على طابقها الثاني : وقد قامت إدارة الآثار اللبنانية بترميمها تحت إشراف الأمير موريس شهاب . وتمتاز المدرسة بقبابها الثلاثة نصف الكروية ، وأهمها القبة الوسطى القائمة على جوفات مثلثة تغطيها ست حطبات من المقرنصات . ويغلب على الفن أن هذه القبة أضيفت في أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة لشبهها الكبير بالقباب العثمانية . ومحراب الجامع يعتبر أجمل محاريب المدارس المملوكية في لبنان على الإطلاق ، إذ تكسوه فسيفساء مذهبة قائمة على تكوينات زخرفية من العناصر

النباتية والهندسية ذات لون فيروزي على أرضية مذهبة «١٢» تشل كأسا تنبت منه فروع نباتية ، والمئذنة مربعة الشكل شأنها في ذلك شأن المآذن الطرابلية التي ترجع الى عصر الماليك . وتزدان واجهتها الغربية بنافذة توأمية ذات عقدتين متجاوئين منكسرين عند الرأس ، يستند جانبها المشترك على منكب قائم على عمود صغير ، وتتناوب في هذين العقدتين السنجات البيضاء والسوداء ، ويذكرنا هذان العقدان بالعقود الخلافية بقرطبة وطليلة . ويحيط بالعقدتين إطار مستطيل يحصر النافذة في نطاق غائر . ويغلب على الظن أن مهندس هذه المئذنة أندلسي الأصل ، هاجر من مسقط رأسه الى طرابلس وساهم في بناء آثارها ، وسجل أصله الأندلسي المغربي على زخرفة هذين العقدتين التوأمين ، اذ جمع فيهما بين التقاليد الأموية الأندلسية الشائعة في الأندلس وهي العقود المتجاوزة التي تشبه حدود الفرس والتي تتناوب فيها السنجات الملونة ، وبين التقاليد المغربية الشائعة في الطراز الموحدى ، وقوامها العقود المتجاوزة المنكسرة والنوافذ التوئية التي تحيط بها طرز مستطيلة غائرة في البناء . والواقع أن عصر الماليك هو العصر الذى تسربت فيه التأثيرات الأندلسية الى مصر والشام ذلك لأنه العصر الذى توثقت فيه عرى الصداقة بين دولة الماليك فى مصر ودول أسبانيا المسيحية ، على أثر انتصار الماليك على التتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وانتصار الأشرف خليل على بقايا الصليبيين فى الشام وطرده لهم منها الى قبرص ورودس ، وقد أكسب هذان

الاتتصاران سلاطين مصر هيبة دول أوربا واسبانيا بالذات ، وهنا بدأت الصداقة بين مصر وأسبانيا تعمل عليها ، فقد تبادلت الدولتان السفارات والرسائل الودية والهدايا السنية . كذلك كانت العلاقة طيبة بين ملوكهم : الأحمر بغرناطة وسلاطين مصر ، وكان من نتائج ذلك أن زار بلاد الشام ومصر عدد كبير من أهل غرناطة سواء للتعلم أو للتدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الإقامة ، ومن أمثال هؤلاء عبد الواحد المكناسي الذي أقام مسجدا بطرابلس^(٥) ، وسيدي أحمد بن عمر أبو العباس المرسى نزيل الاسكندرية وغيرهما . وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير في نقاذ التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية والشامية في عصر المماليك^(١٣) . وسنرى في طرابلس تأثيرا أندلسيا ثالثا في المدرسة المعروفة بالطويشية .

ويتألف الجامع في الداخل من اسكويين ممتدين بجذاء جدار القبلة ينقسمان الى ثلاثة بلاطات عمودية على هذا الجدار ، البلاط الاوسط منها أكثر اتساعا . وينقسم هذا البلاط الاوسط الى قسمين مربعين : الشمالي

(٥) راجع ترجمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عمر أبو العباس المرسى في البحث الممتاز الذي كتبه المؤرخ الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيال في كتاب « اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي » القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٩١ - ٢١٣

(١٣) أنظر مقالى : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٨ - ٩٩ وكتابى : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩ - ٣١

تشغله نافورة مشينة مفصصة تعلوها قبة على مقرنصات مثلثة ذات حطات ستة،
يعلوها صف مشن من عقود نصف دائرية مديية ولها نافذتان توءمتان بأعلاهما
فتحة مستديرة ثم عنق من ١٦ نافذة . أما القبة الجنوبية فأمام المحراب
وهي أصغر نوعاً ما من القبة الأولى . وتقوم على جوفات مقوسة نصف
كروية . أما المحراب فيعلوه منور مستدير .

٤ - المدرسة الزريقية :

تقع على الضفة اليسرى من نهر قاديشا ، في محلة السوق
داخل طرابلس ، وتعتبر أقدم مدارس طرابلس إذ أنشأها
الأمير عز الدين أيوب الموصلي لتكون مسجداً سنة ٦٩٧ هـ
(١٢٨٨ م) وتاريخ الانشاء مسجل على لوحة في جدار المدرسة
الواقع على يسار المدخل ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا
المسجد المبارك ، الفقير الى الله أيوب الموصلي . عفا الله عنه في تاريخ
عشرين جادى الآخر سنة سبع وتسعين وستائة) . وأيوب المذكور
تولى نيابة طرابلس من ٦٩٤ هـ الى تاريخ وفاته سنة ٦٩٨ هـ . ثم أضيف
الى هذا المسجد مصلى صغير المساحة سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م) أسسه
سيف الدين كرتاي وسجل هذا الانشاء على طيلة عقد المدخل بأعلى عتب
الباب مباشرة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه الزاوية
المباركة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين كرتاي السيفي ، وذلك في
تاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة) ، ونلاحظ أن عتب الباب

يزدان بثلاث حشوات مكسوة بتكوينات هندسية ، الحشوة الوسطى أصغر من الحشوتين الأخرتين ، وبوابة المدرسة الزريقية قطاع مستطيل مجوف ينتهي من أعلى بجوفة نصف كروية قائمة على مقرنين مثلثين ، وعقد البوابة يندمج منبتاه في مداميك عضادتي البوابة ، وهي عاطلة تماما من الزخرفة باستثناء زخرفة عتب الباب • ويزعم الأستاذ بروس كندى أن

هذه البوابة صليبية الطراز «^{١٥}» •

٥ - المدرسة السقرقية :

وتقع في طرف المدينة الجنوبي الغربى المؤدى الى جبانة باب الرمل بالقرب من مسجد أرغون شاه بناها الأمير سيف الدين أقطرق ، حاجب نيابة طرابلس لتكون مسجدا وضريحا سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) • وتاريخ انشاء المدرسة مسجل على جدار واجهتها الجنوبية الشرقية في شريط يمتد على كل من جانبي البوابة ويتضمن هذا الشريط الكتابي تاريخ البناء ، والعقارات الموقوفة عليها ، ونلاحظ أنه يتوسط كل زوج من نوافذ الواجهة تحت صف الكتابة مباشرة رنك المنشىء وهو عبارة عن دائرة يتوسطها حزام أفقى بداخله سيف يتجه من أعلى الجانب الأيسر الى أدنى الجانب الأيمن • وتكسو عتبات النوافذ زخارف هندسية من النوع الشائع في العصر التركى • ويعلو الضريح قبة مضلعة غاية فى الجمال ، تقوم على رقبة مشنة قائمة بدورها على قاعة مربعة فى أركانها جوفات مقوسة مزينة بزخارف نباتية قوامها المراوح النخيلية ، ويتدلى تحت كل جوفة مقرنصات من ثلاث حطات •

٦ - المدرسة الخاتونية :

تقع وجهها لوجه امام المدرسة السقريقية ، بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين أيدير الأشرفي نائب طرابلس سنة ٧٧٥هـ «١٦» . وتاريخ انشاء هذه المدرسة وأساء العقارات الموقوفة وشروط السيدة الواقفة مسجلة جميعا بأعلى المدخل ، ونص النقش ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد أنشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الأشرفي العالي المولوى المخدوم الكافى العزى أيدير الأشرفي ملك الأمراء أعز الله أنصاره فى شركة آدره الكريمة الجهة ، المصونة ، أرغون تغسدها الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة .) ويلى ذلك الوقفية وتاريخها ٢٣ شعبان سنة ٧٧٣ ثم اسم متولى البناء الأمير جمال الدين يوسف بن العزى غزان السيفى ، ثم تاريخ الفراغ من البناء سنة ٧٧٥ هـ «١٧» وعز الدين أيدير المذكور هو أيدير بن عبدالله الأنوكى الداوادر نائب طرابلس فيما بين ٧٧٣ هـ ، ٧٧٦ هـ . وعلى الرغم من تآكل كسوة جدران المدرسة فائنا نشاهد رنك الكأس على جانبى عتب النافذة .

٧ - المدرسة الظاهرية :

هى مدرسة صغيرة بباب الحديد جنوب غربى المدرسة البرطاسية ، وسميت بالظاهرية لأن الذى بناها هو الأمير سيف الدين تغرى برمش

(١٦) خطط الشام ج ٦ ص ١٢٩

(١٧) Sobernheim, p. 116

الظاهرى بن أحمد البهنسى التركمانى الأمير أخور الكبير فى عهد السلطان
الظاهر برقوق لدفن ولديه سنة ٧٧٩ هـ (١٣٩٦ م) • ومدخل المدرسة
مسدود اليوم ، ولكن الواجهة بكتابتها النسخية مازال ظاهرة • وتاريخ
انشاء المدرسة مسجل على عتب المدخل فى خمسة أسطر من الكتابة النسخية ،
ونص الكتابة ما يلى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، المال والبنون زينة الحياة
الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا • قوله الحق
وله الملك • عمر هذا المكان المبارك المقر السيفى تغرى برمش
الظاهرى أعز الله أنصاره مسجدا لله تعالى وتربة لدفن ولديه الأخوين
الشقيقين السعيدين الشهيدى سيدى الأمير قاتمر وسيدى أمير تغرى
بردى الطفلين المنعصين «^{١٨}» على الدنيا ، المتحايين فى دار الدنيا ،
والمجاور «^{١٩}» والمجاورين فى دار الآخرة تغمدهما الله برحمته ، وأسكنهما
فسيح جنته ، وجمع بينهما وبين والديهما فى دار كرامة ، وذلك فى ثالث
شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة • رحم الله من ترحم عليهما) «^{٢٠}»
وتلاحظ فى أول السطر الخامس نقش يمثل رنك الساقى وهو عبارة عن
صورة كأسين محفورين فى ثلثى الرنك •

وبالمدرسة محراب ، الجزء الأدنى من جوفته مغطى بأشرطة رأسية

(١٨) قرأها سوبرنهايم « المتعصبين » •

(١٩) كلمة زائدة لم يكملها الخطاط لانتهاء السطر فأعاد كتابتها فى

السطر الجديد •

(٢٠) Sobernheim, op. cit p. 122

من الرخام الملون بينما تكسو الحنية العليا زخرفة من الفسيفساء قوامها
الفروع المتداخلة •

ويمكننا أن نميز فيها اللون الأحمر والأبيض والفيروزى والأسود
ويقوم عقد المحراب على عمودين ، يزدان بدناهما بقنوات معصورة •

٨ - المدرسة الطويشية :

تقع بالقرب من منطقة الجامع الكبير ، وتشتمل على ضريح مؤسسها
الأمير سيف الدين الطويشى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧١ م) • وتمتاز هذه
المدرسة بظاهرتين :

١ - البوابة الرائعة التى تعرض مثالا من أروع أمثلة المقرنصات
المملوكية ، وبأعلاها جوفة نصف كروية على شكل محارة تحتشد فيها
زخرفة مشعة فى أربع مجموعات • وعقد البوابة من النوع المفصص
بفصوص نصف دائرية وأخرى مثلثة صغيرة على التعاقب ، على النحو
الذى نشاهدده فى العقود الأندلسية المغربية فى عصر الموحدين ، مما يجعلنا
نرجح تسلل بعض التأثيرات المغربية الأندلسية الى عمائر الماليك فى بلاد
الشام •

ويحيط بالبوابة اطار بارز على شكل مستطيل يتوج أعلى العقد ،
ثم يمتد طرفاه أفقيا بطول جدار الواجهة يمينا ويسارا •

٢ - النافذة ذات العقد المزدوج بالطابق الثاني (على يسار الواجهة) ،
فعقدا هذه النافذة مفصصان ينتهيان من أعلى بجوفتين نصف كرويتين
تكسوهما زخرفة على شكل محارة ، ويحيط بهما إطار مستطيل الشكل .
ويرتكز العقدان من الجانبين على عمودين بهما قنوات معصورة ويذكرنا
العقدان بالعقود الأندلسية .

أما قبة الضريح فهي مفصصة (متعددة الفصوص) ، يتناوب في محيط
قاعدتها الفصوص نصف الدائرية والفصوص المثلثة .

٩ - المدرسة العجمية :

تقع بالقرب من قلعة صنعيل ، أسسها هي والتربة الملحقة بها الحاج
شس الدين محمد السكر في رمضان سنة ٧٦٦ هـ . واسم هذا الرجل
نراه مسجلا على منبر بمدينة دمياط سنة ٧٧١ هـ . وتاريخ المدرسة
العجمية مسجل على عتب مدخلها ، ونصه : (أمر بإنشاء هذه التربة المباركة
العبد الفقير الى الله تعالى محمد السكر عفا الله عنه . وكان الفراغ منها
في مستهل رمضان سنة ست وستين وسبعمائة) .

وهناك مدارس أخرى في طرابلس عديدة ، بعضها مجهول الاسم
والتاريخ وبعضها الآخر متخرب والبعض منها من عصور متأخرة ، نخص
بالتذكير منها : المدرسة القصادرية والمدرسة الرفاعية والمدرسة العسرية
ومدرسة الشيخ الوطار الى آخر ذلك .

١٠ - الخانقاه :

ويمكننا أن نضيف الى هذه المدارس خانقاه من عصر دولة المماليك الشراكسة يرجع تاريخ بنائها الى سنة ١٤٦٧ م . ومن المعروف أن عصر المماليك هو العصر الذي سادت فيه روح الجهاد ضد الصليبيين سواء في الشام قبل أن يطردهم الأشرف خليل نهائيا منها وفي قبرص ورودرس بعد ذلك ، وكانت الخانقاوات أبنية تجمع بين الناحية الدينية والحرية ، فهي نوع من الأربطة أقيمت للمتصوفين أو الشيوخ المحاربين يقيمون فيها قبل أن يسهوا في الجهاد ، وقد كثرت الخانقاوات في مصر المملوكية فمنها خانقاه قوصون التي أقيمت في سنة ٧٣٦ هـ وخانقاه طوغاي المنشأة سنة ٧٤٩ هـ ، وخانقاه نظام الدين المقامة سنة ٧٥٧ هـ ؛ ولكن تخلف من هذه الخواثق ثلاث هي خانقاه بيرس الجاشنكير (٧٠٦ - ٧٠٩ هـ) وخانقاه شيخو (٥٧٦ هـ) وخانقاه فرج بن برقوق بالصحرَاء . ونظام بناء الخانقاه يشبه نظام بناء المدرسة ، وخانقاه طرابلس التي أشرنا اليها وصلت اليها في حالة سيئة من التشويه ، فقد تحولت اليوم قاعاتها وغرفها الى بيوت للاجئين ، ولم يتبق على حالته الأصلية منها سوى بعض جدرانها ومدخل الايوان القبلي ، وينفتح هذا الايوان على الصحن بعقد كبير نصف دائري مطول تتناوب في سنجاته قطع حجرية سوداء وبيضاء ، ويقوم العقد على منكين يعتسدان على عمودين من الجرانيت تاجاهما اتخذتا من بقايا الكنائس الصليبية المخربة . ويدور بالعقد من أعلى افريز بارز مسطح على شكل عقد مسائل .

(٣)

التحصينات البرية والبحرية

عندما استولى السلطان المنصور قلاوون على طرابلس المينا ، هدم أسوارها المنيعة وسواها بالأرض ، ونقل موضع طرابلس الى المحلة اللاتينية المسورة التي تبتدىء من جامع التوبة قرب جسر اللحامة ، وتضم سوق الحراج والملاحة وسوق البزركان وسوق الصاغة وسوق العطارين ثم ساحة الجامع الكبير بدارسه ومحلة قبوة الطرطوسى تجاه بوابة الحدادين «١»

وكان يحيط بهذه المحلة سور من بناء الصليبيين يستد محيطه من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، بامتداد نهر أبى على ، وكان يفتح فيه أبواب : منها باب بيروت والباب الأحمر فى الجنوب الغربى من المدينة وباب المسلح بجوار الجسر العتيق ، ويبدو أن سور هذه المحلة أصيب بأضرار جسيمة أو تهدم بتأثير الزلازل أو بسبب حصار القوات المملوكية لطرابلس ، لأن ابن تغرى بردى يؤكد أن مدينة طرابلس التى أقامها

(١) الشيخ كامل البابا ، من آثار التاريخ الطرابلسى ، حديث بسجلة الارشاد الاجتماعى ، ص ٨.

قلاوون كانت بغير سور»^٢• ولعل قلاوون اكتفى بقلعة صنجيل وبالأبراج القائمة على المينا للدفاع عن مدينته • ويذكر الشيخ كامل البابا أنه لم يتبق من سور طرابلس وأبوابها الا بقايا باب المسلح في سوق الحراج»^٣•

وأهم آثار طرابلس الحربية الباقية ، القلعة المعروفة بقلعة صنجيل،
وأربع أبراج على المينا •

١ - قلعة صنجيل :

تقع بأعلى تلة الحجاج ، حيث تشرف على طرابلس المملوكية الممتدة على نهر أبى على وطرابلس المينا فى آن واحد ، وهو موقع رائع اختاره ريموند دى سان جيل لاقامة قاعدته العسكرية التى يشن منها هجومه المتواصل على طرابلس المينا ، أو ليحاصر منها مدينة بنى عمار • وفى هذا المكان أقام حصنا تتحصن فيه قواته العسكرية على التل ، وسخر سان جيل فى بناء هذه القلعة الأسرى المسلمين من أهل البلاد ، وكان من جملةهم الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى • وفى سنة ١١٠٩ م تمكن خلفه برترام دى طولوشة من التغلب على طرابلس بفضل مساعده الأسطول الجنوى وملك بيت المقدس •

(٢) ابن تغرى بردى ، ج ٧ ، ص ٣٢٢

(٣) الشيخ كامل البابا ، المرجع السابق ص ٩

وعندما سقطت طرابلس في أيدي المماليك اكتسحها سيل من التخريب والتدمير ، فلم يبق من قلعة صنجيل سوى أسسها القديمة وبوابتها الخارجية والأنصاف السفلى من معظم سورها الشرقى المطل على نهر أبي علي ، بأبراجه وبقايا الكنيسة الصليبية فيها ، وأصبحت القلعة مجرد خرائب وجدران دارسة . فلما شيدت مدينة طرابلس الجديدة في المحلة اللاتينية ، لم يكن في برنامج نواب السلطنة بطرابلس إقامة سور حولها اكتفاء ببقايا السور القديم ولوقوع طرابلس الجديدة بعيدة عن الغزو البحرى أدنى قلعة صنجيل . وهنا أصبح من الضروري ترميم القلعة التتعة ، وإعادة بنائها حتى تكون حصنا يحمى المدينة من جهة الجنوب فى الوقت الذى تركزت فيه بقايا القوى الصليبية فى رودس وقبرص ، وأصبحت تؤلف خطرا متواصلا يهدد سواحل الشام ومصر .

ويبدو أن مهمة تجديد بناء القلعة أقيمت على عاتق الأمير سيف الدين أسندمر كرجى المنصورى نائب السلطنة بطرابلس فيما بين عامى ٧٠٠ ، ٧٠٩ هـ (١٣٠١ — ١٣٠٩ م) فقد ذكر النويرى أنه عمر فيما عمره بطرابلس « بعض القلعة ، وأقام أبراجا » « ٤ » ، واليه تنسب بوابة القلعة الحالية بعقدتها الذى يتناوب فى سنجاته اللونان الأسود والأبيض على التعاقب ، كما ينسب إليه كثير من أسوارها وأبراجها « ٥ » . كذلك يشير المقرئزى الى

(٤) نص النويرى عن Sobernheim ص ٤٧

(٥) Bruce Cande, op. cit. p. 22

أعمال أسندمر فيقول : « وفي سنة ٧٠٧ بنى الأمير أسندمر نائب طرابلس قلعة مكان حصن صنجيل »^(٦) . وقد وصفها ابن الشحنة بقوله : « ولها قلعة ذات اشراف وحسن منظر ، يسكن فيها النائب »^(٧) .

ومدخل القلعة على شكل مرفق يصل الى باب ثان ، تعلوه لوحة تذكارية سجل عليها بالخط النسخي منشور عسكري صادر من السلطان الأشرف شعبان بن الناصر محمد بتاريخ ٧٤٦ هـ يتضمن بيانا بالميزانية الحربية . ويبدو أن جانبا كبيرا من القلعة قد تخرّب في عصر دولة المماليك الشراكسة ، فرمت في سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) بأمر السلطان سليمان القانوني بعد زيارته للشام ، ثم عسرت بعض أجزاء منها بعد ذلك بنحو قرن في عهد يوسف باشا سيف ، ثم رمت أخيرا على يدي مصطفى آغا بربر الذي كان متسللا لطرابلس في أيام الأمير الشهابي^(٨) .

وبناء القلعة خليط من أساليب مختلفة منها الصليبي ومنها السلوكي ومنها العثماني ، على أن الأجزاء الإسلامية يمكن تمييزها بسهولة عن الأجزاء المسيحية ، ونلاحظ أن أغلب أبراج الجانب الشرقي يرجع الى عصر

(٦) السلوك ، ج ٢ قسم ١ ص ٤٠

(٧) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤

(٨) لورته ، مشاهدات في لبنان ، ص ١٣

الصليبيين ، وما زالت الحفائر تجرى اليوم — تحت اشراف بعثة أمريكية —
بأرض القلعة لدراسة نظام بنائها دراسة علمية منظمة •

٢ - أبراج المينا :

رأى نواب السلطنة بطرابلس في عصر دولة المماليك البحرية ضرورة
تحصين ميناء طرابلس وذلك بإنشاء أبراج تمتد على ساحل شبه جزيرة
المينا ، لتأليف خط دفاعى قوى أمام أى اعتداء صليبي موجه من جزيرتى
قبرص ورودس ، فى الوقت الذى لم يكن لطرابلس أسطول ثابت يدفع
عنها غارات القبارصة والروادسة • وكان تحصين ميناء طرابلس الذى
خربته عساكر المماليك وسوت مبانيه بالأرض يعنى إنشاء مراكز دفاعية
على الميناء على أبعاد متفاوتة ، ولم تكن هذه المراكز تزيد عن كونها أبراجا
حصينة مزودة بالجند ومشحونة بالسلاح وآلات الحرب • ولا نعرف على
وجه الدقة تاريخ إنشاء كل من هذه الأبراج ، وكل ما نعرفه فى هذا
السبيل أن طرابلس زودت بسبعة أبراج لم يبق منها فى الوقت الحاضر
سوى برجان فى حالة متوسطة وآثار برجين آخرين مهدمين ، ويمكننا مع
ذلك تحديد مواقع هذه الأبراج السبعة على خريطة لطرابلس ، فقد كانت
تستد من مصب نهر أبى على شرقا الى رأس جزيرة المينا غربا ، ويمكننا أن
نذكرها مرتبة كما يلى : برج الشيخ عفان ، وبرج السباع ، وبرج رأس

النهر ، و برج المغاربة الذى يقال له أيضا برج عز الدين «٩» ، و برج السراى
او برج الديوان ، وقد سمي بالسراى لأنه أقيمت عليه سراى الديوان
الجسركى بطرابلس ، و برج المشتى و برج أبى العدى «١٠» • ولم يبق من
هذه الأبراج السبعة سوى أبراج السباع ورأس النهر والشيخ
عفان والسراى •

والى جنوب طرابلس ، وعلى بعد نحو كيلو مترين منها موضع يعرف
بالبحصاص كان يقوم فيه برج يسمى برج البحصاص «١١» • وذكر
السخاوى فى الضوء اللامع برجا فى طرابلس هو برج أيتمش البجاسى
الشركسى أتابك العساكر فى أيام السلطان الملك الظاهر برقوق على ساحل
طرابلس «١٢» ، ولعله هو نفس برج السباع الحالى أو برج طرابلس الذى
هاجمه القبارصة ، وسنستعرض فيما يلى آثار الأبراج الباقية •

(٩) نفس المرجع ص ١٩ • ولعله أثنىء فى نيابة عز الدين أيبك
الموصلى

(١٠) لعله حصن أبى العدى الذى ذكره الادريسى من بين أعمال
طرابلس الصليبية • (الادريسى ص ١٧)

(١١) العسرى ، مخطوط ج ٢ قسم ٣ ، ص ٤٥٠ — ابن الشحنة ،
ص ٢٦٦

(١٢) السخاوى ، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الضوء
اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٣٥ هـ ج ٢ ، ص ٣٢٤ — ابن تغرى
بردى ، ج ١٢ ص ١٨١

برج السباع : هو أهم هذه الأبراج جميعا ، لأنه ما يزال يحتفظ بصورته الأولى ، كما أنه يعتبر من أجمل الأبنية الحربية التي وصلت إلينا ، ويقع بين برج السراى و برج رأس النهر • وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ بنائه ، فكان برشم يميل الى جعل هذا التاريخ في حدود سنة ١٤٠٠ م (٨٠٢ هـ) على أساس أن عبارته وزخرفته يجعلان بين الحصانة والوثاقة اللتين تتجليان في عتائر أسرة قلاوون ، وبين الرشاقة والأناقة اللتين تنعكسان على آثار قايتباى ، وهو اذلك ينسب بناء البرج الى الأمير ايتش البجاسى أتابك العساكر فى سلطنة الظاهر برقوق • ويعتمد فان برشم فيما ذهب اليه على نص لأبى المحاسن فى المنهل ، وآخر للسخاوى فى الضوء ، فالأول يقول : « وعسر بطرابلس برجا على الساحل الملح لأجل المرابطين ، ووضع فيه جبلة مستكثرة من السلاح ، ووقف عليه أوقافا » • والثانى يقول : « وهو صاحب البرج الذى بطرابلس على ساحل البحر » « ١٣ » •

أما سوقاچيه فيرجح نسبة برج السباع الى السلطان قايتباى لتشابه الكبير لقاعة استقبال السلطان قايتباى بأعلى قلعة حلب التى ترجع الى سنة ١٤٧٥ م « ١٤ » • ويرى بروس كندى أن هذا البرج أقيم

Van Berchem, p. 122 (١٣)

J. Sauvaget, Notes sur la defense de la marine de (١٤)

Tripoli, dans Bulletin de la Musée de Beyrouth, Paris, Decembre 1938 .

في أواخر القرن الثالث عشر أو بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم جدد في أواخر القرن الخامس عشر في أيام قايتباي لمواجهة أي غزو قد يقوم به العثمانيون «^{١٥}» . ويضيف الشيخ كامل البابا ، مؤرخ طرابلس الكبير ، وأعظم خبرائها في الحجج والوقفيات القديمة ، أن هذا البرج بنى فيما بين عامي ١٤٤١ ، ١٤٤٢ في عهد الأمير جلبان نائب طرابلس ، على أنقاض برج قديم كان يعرف ببرج الصلاحى وأن الأمير جلبان وقف على مصالحه وعماراته والمرابطين فيه خمسة قرى منها : نصف قرية علما ونصف قرية كفرفو التابعة اليوم لزغرتا ، ونصف قرية بينو ، ونصف قرية الحصين من قضاء العلويين اليوم ، ونصف قرية القطين «^{١٦}» .

ونعتقد أن برج السباع أنشئ في طليعة القرن الرابع عشر الميلادي للتشابه الكبير بين بوابة البرج بعقدما وسنجاتها التي يتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود وبين بوابة قلعة صنجيل من جهة وبوابة مدرسة الخيرية حسن من جهة ثانية وكلتاهما من أوائل القرن الرابع عشر ، وقد ذكرنا فيما سبق أن بوابة قلعة صنجيل أقيمت في سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م)

(١٥) Bruce Condé, op. cit. p. 137

(١٦) اكتشف الشيخ كامل البابا مخطوطة من عصر المماليك ترجع بناء هذا البرج كلية في خلال العامين اللذين أشرنا إليهما . راجع الشيخ كامل البابا ، من آثار التاريخ الطرابلسي ، ص ٩

وأن الذى أمر ببنائها الأمير أسندمر كرجى نائب السلطنة بطرابلس ، أما مدرسة الخيرية حسن فقد أقيمت هى الأخرى فى نفس هذا العام .

ولا نستبعد أن يكون أسندمر كرجى هو منشئ برج السباع ، اذ نعتد فى ذلك على نص ذكره سوبرنهايم نقلا عن النويرى جاء فيه : «فوضت نيابة السلطنة الى الأمير سيف الدين أسندمر كرجى المنصورى فاستمر بها الى سنة تسع وسبعائة ، وعمر بها حاما عظيما أجمع التجار ممن يجوب البلاد أنه ما عمر مثله فى بلد من البلدان ، وعمر قيسارية وطاحونا... وعمر أيضا بعض القلعة ، وأقام أبراجا » (١٧) .

كل ذلك يساعدنا على ارجاع بناء برج السباع الى أسندمر كرجى، وهو أمر تؤكد ضرورة اقامة أبراج ضخمة على الساحل بعد تهديم طرابلس العتيقة . وليس من المعقول أن تظل منطقة المينا بطرابلس بدون أبراج دفاعية حتى عصر قايتباى . ولعله كان يسمى يومئذ ببرج الصلاحى نسبة لصلاح الدين خليل . ونعتقد أن برج السباع وبرج أيتمش شىء واحد ، فبرج أيتمش البجاسى الناصرى الذى لعب دورا هاما فى الصراع القائم بين الأمير ناصر الدين محمد بهادر المؤمنى يشايه أهل طرابلس وبين يونس بلطا الظاهرى نائب طرابلس ، الخارج على السلطان فرج برقوق فى

سنة ٨٠٢ هـ ، والذي كان في سيطرة ابن بهادر ، لا نشك في أنه كان أكبر أبراج المنطقة حتى يتخذ حصنا لأنصار ابن بهادر يتحصنون فيه الى حين عودته من مصر ومعه المملوكات ، ولا نشك أيضا في أن برج أيتمش كان قائما قبل قيام هذه الفتنة بأمد طويل حتى يصبح في سنة ٨٠٢ هـ مسرحا للأحداث التي أشرنا اليها ، وأما نسبته الى أيتمش البجاسي فأمر قد يكون مرجعه أنه اتخذه مقرا له أو أنه قام فيه بعمرة أو أضاف اليه اضافة .

ثم رمم البرج ترميما تاما في عهد الأمير جلبان ، ونحن في ذلك تؤيد الرأي الذي أبداه الشيخ كامل البابا .

وننتقل الآن الى وصف البرج : فهو عبارة عن برج ضخيم مكعب الشكل على أساس مستطيل طوله ٢٨ر٥٠ مترا ، وعرضه ٢٠ر٥٠ مترا ، مشيد بالاحجار المسننة بطريقة منسقة ، ويندمج في سمك البناء أبدان من الأعمدة تظهر على سطح الجدران الخارجية بارزة بروزا طفيفا عن البناء ، ومدخل البرج في الواجهة الغربية ، ونلاحظ أن البوابة بعقدها ومدخلها تبرز قليلا عن بقية جدار الواجهة «^{١٨}» . وتتميز البوابة بعقدها المنكسر الذي يتناوب في سنجاته اللونان الأبيض والأسود ، ويمتد تناوب الألوان في عضادتي العقد ، ثم يستمر في داخل القطاع المستطيل المجوف للبوابة

حتى فتحة الباب ، ويدور حول السنجات الملونة افريز بارز ، يلتقى مع الطرة المستطيلة العليا عند منبتى العقد • ويعلو الأطار المستطيل فوق رأسى العقد مباشرة جوفة مستطيلة يبدو أنها كانت تحدد موضع اللوحة الانشائية؛ وقد ضاعت هذه اللوحة فى الوقت الحاضر • ويعلو الباب عتب كبير عبارة عن لوحة واحدة سميكة من الحجر يعلوها عقد مخفف للضغط سنجاته متعاشقة •

وهناك ظاهرة نلاحظها فى هذا البرج كما نلاحظها فى أبراج قلعة صنجيل ، وهى ميل الجدران فى الجزء الأدنى من السور نحو الخارج ميلا واضحا ، ولهذا الميل وظيفة نفعية ، فهو يساعد على دفع الأحجار المتساقطة من أعلى الشرفات البارزة فى عنف نحو الأعداء • ويعلو بوابة البرج قرب سور المشى كوايل كانت تدعم شرفات بارزة عددها خمسة • ومدخل البرج يؤدى الى قاعة واسعة يعلوها ست قبوات متعارضة ، تنكئ فى الوسط على دعيمتين مركزيتين تقعان فى نفس محور المدخل «١٩» ، ثم تنكئ فى الجوانب على دعائم ملتصقة بالجدران • وسقف القاعة قليل الارتفاع ، ونلاحظ أن جدار المدخل مزود على جانبى الباب بفتحتين صغيرتين ، احدهما تنتهى بمنفذين للسهم ، الأيمن منحرف ، والأيسر معتدل ، والفتحة الثانية تؤدى الى منفذ واحد للسهم ، وجدار الفتحة القبلى محفور على شكل محراب • ونلاحظ أيضا أن الجدار الشمالى به

أربع منافذ للسهام ، والجدار الشرقي به أربعة ، أما الجدار الجنوبي فيه ستة •

ويتوسط القاعة بين الدعيتين فوهة بئر تتجمع فيه مياه الأمطار التي تصل اليه من السقف عن طريق قنوات فخارية بداخل البناء • وكانت هذه القاعة تزدان فيما مضى بحلية ملونة ، فإن الافريز البارز الممتد ما بين الباب والدعيسة المقابلة له ، ما زال يحتفظ في سنجاته بالمظهر الزخرفي البسيط الناشئ من تناوب اللونين الأبيض والأسود • وعلى الجدار القبلي للقاعة رنك مسلوكي بين زخارف هندسية ، وهو رنك الكأس ، وعلى الجدار الغربي الذي ينفتح فيه الباب خسة رنوك تشل الكأس بعضها مرسوم باللون الأسود ، والبعض بألوان أخرى •

أما الدرج فيدور في سلك جدار النواجة الغربية ، ويؤدي الى الطابق العلوى ، ويذكرنا نظام هذا البرج بالنظام المعارى المتبع في سورية ، ويتألف الطابق العلوى من قاعة أكثر تعقيدا من القاعة السفلية ، فهي فسيحة متسقة تنفتح في جدرانها ثمان جوفات عميقة تعلوها قبوات نصف اسطوانية ، وللبرج مسجد صغير به محراب ونافذتين ومنور علوى وخزانة لحفظ المصاحف •

وبرج السباع يعتبر من أهم الآثار الاسلامية بطرابلس ، وأجمل مثال لفن العمارة الحربية ، بما يتضمنه من عناصر معمارية وزخرفية متنوعة وموزعة جميعا في ايقاع وتصميم متناسق •

برج الشيخ عفان : يلي برج السباع من ناحية الغرب ، وقد جدد هذا البرج تجديدا شوه معالمه الأثرية .

برج السراى او الديوان : أدمج هذا البرج في مجموعة أبنية حكومية خاصة بالدرك اللبناني ، الا أن هذه الأبنية نسفت في حوادث ثورة ١٩٥٨ « ٢٠ » ، فعاد البرج الى الظهور من جديد ، وهو برج مربع الشكل ، يدعم جدرانه أبدان مندمجة في داخل البناء على النحو الذى شاهدناه في برج السباع ، ولم يتبق من هذا البرج سوى الطابق الأدنى ، وقاعته الداخلية تعلوها قبوات متعارضة تقوم على دعائم ملتصقة في الجدران .

برج داس النهر : يقع على بعد ١٢٠٠ مترا شرقى برج السباع على مقربة من مصب نهر أبى على ، وهذا البرج أصغر حجما بكثير من برج السباع وأقل ارتفاعا منه ، اذ يتألف من طابق واحد ، وهو على شكل مربع طول ضلعه ١٦ مترا ، ويختلف هذا البرج في بنائه عن الأبراج الأخرى الواقعة على الساحل اذ يقوم في أركانه الأربعة ركائز أسطوانية مندمجة في البناء أشبه بأبراج صغيرة ملتصقة بزوايا البرج الكبير على نحو ما نشاهده في قلعة حصن الأكراد ، وبالذات في قلعة قايتباى بالاسكندرية . وجميع جدران البرج كسيت بحجارة مصقولة ، سطوحها ناعمة ، ولكن هذه الكسوة الرقيقة انتزعت من أجزاء كثيرة من هذا البرج ، خاصة من الركائز الركنية ومن الواجهتين الجنوبية والشرقية . ومدخل البرج باب منخفض

صغير ، يفتح في الواجهة الجنوبية ، وقد جرد تماما من عناصره الزخرفية ، ويتعاقب في مداميك هذا الباب اللونان الاسود والابيض ، ويؤدي الباب الى قاعة تعلوها أربع قبوات متعارضة ترتكز عند تلاقيها على دعيمة وسطى ، بينما ترتكز في الجوانب الاخرى على الجدران ، وتشبه قبوات برج رأس النهر نظائرها في برج السباع . وفي الجدار القبلى من البرج جوفة صغيرة لمحراب ، وفي داخل سك الجدار الشرقى درج يؤدي الى سطح البرج « ٢١ » .

أما تاريخ بناء هذا البرج فيرجع فيما يظهر الى عصر السلطان الاشرف قايتباى وذلك للتشابه الكبير بين هذا البرج المربع بركائزه الاسطوانية في الأركان وبرج قايتباى الذى بناه في الاسكندرية سنة ٨٨٢ هـ « ٢٢ » ويرجع سبب اهتمام قايتباى بتحسين طرابلس وغيرها من ثغور الساحل الشامى والساحل المصرى « ٢٣ » الى اضطراب العلاقات وتوترها بين دولة

(٢١) كان يعلو هذا البرج بأعلى المشى شرفات بارزة ، على نحو ما نشاهده في برج قايتباى .

(٢٢) راجع كتابى تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى ص ٩٢ - ٩٧ ، تخطيط الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامى ص ١٠٧ - ١١٠

(٢٣) زود قايتباى الاسكندرية بطاينة ، وأقام في نفس العام طاينة أخرى في رشيد

الماليك والدولة العثمانية «٢٤» لدرجة حدوث مصادمات مسلحة بين الطرفين ، وأغلب الظن أن قايتباي أسس هذا البرج عند زيارته لمدينة طرابلس في سنة ٨٨٢ هـ في رحلته المشهورة الى بلاد الشام وأطراف دولة الماليك «٢٥» .

(٢٤) أحمد السيد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ،

ص ٢٠٣ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ٩٧

(٢٥) ذكر ابن اياس أن السلطان قايتباي خرج في جمادى الأولى

سنة ٨٨٢ في غفلة الى بلاد الشام ليتفقد تحصيناتها ويكشف على أمر

النواب والقلاع بنفسه ، وقبل أن يصل الى حلب عرج في طريقه الى

طرابلس حيث أشرف على تحصيناتها . (ابن اياس ج ٣ ص ١٣٥) .

ويعلو مدخل مسجد الدباغين بطرابلس لوحة منقوش عليها مرسوم صادر

من قايتباي في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ عند زيارته لطرابلس قادما

من بعلبك .

(٤)

المنشآت المدنية

١ - الحمامات :

لم يتبق من بين الحمامات الكثيرة التي كانت تزخر بها طرابلس في عصر المسالك سوى ثلاث حمامات هي حمام النورى ، وحمام عز الدين وحمام الحاجب .

أما الحمام النورى فيقع بالقرب من الجامع المنصورى الكبير ، وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته في الوقت الحاضر ، أقيم في سنة ١٧٣٣ هـ ، في نفس الوقت الذى أنشئت فيه المدرسة النورية ، ويتكون هذا الحمام من غرف تعلوها قبوات وقيبات تنفتح فيها مضامى (أى فتحات صغيرة لادخال الضوء) مسدودة بقيعان القناني الزجاجية الملونة ، في احكام صنعة وأجل ترتيب ، وأكبر هذه الغرف الغرفة المعروفة بالبيت الساخن ، وتحيط بها مجسوعة من المخادع الخاصة ، تسمى الخلوات ، ومضامى البيت الساخن تؤلف تكويناً زخرفياً رائعاً ، يقوم على عقود دائرية متقاطعة فيما بينها ، تحيط بأطراف القبة ، ويشغل الفراغ المركزى زخرفة نجمية الشكل . وأغلب قبيبات هذا الحمام من النوع المفصص القائم على جوفات مقوسة في أركانه .

أما حمام عز الدين فيقع بين الجامع المنصورى الكبير ونهر أبى على ، وقد أقام هذا الحمام الأمير عز الدين أبك الموصلى في سنة ٦٩٤ هـ . وكان نائبا للسلطنة في طرابلس والفتوحات على الساحل فيما بين عامى

٦٩٤ هـ ، ٦٩٨ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها . وقد دفن هذا الأمير في تربته التي أنشأها لنسق حمامه ، وما زالت نافذة هذه التربة نحمل نقشاً تاريخياً يسجل تاريخ وفاته ، ونقش تحته رنك الأمير ، ونطالع في هذا النقش النص التالي : (بسم الله الرحمن الرحيم هذه تربة العبد الفقير الى رحمة الله تعالى أيبك ابن عبد الله الموصلى نائب السلطنة الشريفة بالفتوحات المحروسة رحمه الله تعالى المتوفى في خامس شهر صفر من سنة ثمان وتسعين وستمائة من الهجرة النبوية) . وقد استغل عز الدين أيبك بقايا كنيسة صليبية في بناء حمامه ، فاستخدم نقوشها ورخامها وأحواضها لذلك الغرض ، ومدخل الحمام يفتح على الشارع بعقد مدبب . على رأسه قطعة من افريز بارز مزدوج ، جوانبه تعبر عن أصله اللاتيني ، وعلى رأس العقد كتابة لاتينية نصها *CS. JAC. D. L.* « ١ » . وأغلب الظن أن هذا الجزء من البوابة من بقايا كنيسة سان جاك التي كانت تقوم في نفس هذا المكان أو قريبا منه ، وفي نهاية البوابة يفتح باب عقده نصف دائري منكسر انكسارا لطيفا ، وعلى عتب هذا العقد نحتت صورة « حبل فصحن » بن وردتين ، ويعلو هذه الصورة النقش الكتابي الآتي : *ECCE AGNUS DEI*

ويتسيز الحمام من الداخل بقبواته ذات المضادى وغرفه الثلاثة المعروفة بالبراني (وهي غرفة الثياب) والوسطاني (وهي الغرفة الدافئة ، وترتفع درجة حرارتها قليلا عن الغرفة السابقة) ، والحامي (وهي البيت الساخن) .

أما حمام الحاجب ، فقد بناه الأمير سيف الدين أسندمر كرجى

المنصوري سنة ٧٠١ هـ بجوار المدرسة الزريقية التي بنيت قبل ذلك بأربع سنوات فقط . ويذكر النويري أنه « عر بها حماما عظيما أجمع التجار من يجوب البلاد أنه ما عر مثله في البلدان » ، وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته حتى اليوم منذ أكثر من ٦٥٠ سنة مضت «^٢» وعلى عكس ما يزعمه مؤلفو الكتاب الذي أصدره اليونسكو من أن هذا الحمام قد اندثر ولم يتبق منه الا بقايا قليلة ، «^٣» ، فإن هذا الحمام يعتبر أول الحمامات الثلاثة من حيث احتفاظه بعناصره المعمارية ، فهو يشتغل على أكثر من ١٢ قبية ، كلها مخرمة بضاربي مزججة سليمة ، لا أثر فيها لهدم أو تشويه . وتدرج في تخطيطه الغرفة الباردة فالدافنة فالساخنة ، بينما تتوزع حولها الخلوات الخاصة .

ب - الخانات والأسواق :

يحتل المركز العمراني الاقتصادي قلب مدينة طرابلس . ويتمثل هذا المركز في الخانات والأسواق ، أما الخانات فكانت تقع عادة بجوار الحمامات والأسواق ، وأهمها خان المنزل وخان الخياطين وخان المصريين وخان العسكر ، وخان الصابون .

ويعتبر خان المنزل أجمل خانات طرابلس وأهمها ، فقد بناه الأمير سيف أسندير كرجي فيما بين عامي ٧٠٠ ، ٧٠٩ هـ ، وواجهه هذا الخان

(٢) Bruce Condé, p. 120

(٣) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ، ص ١٥

غربية الشكل ، اذ يحف بباطن عقد البوابة المنكسر قطاعات مثلثة الأطراف
تؤلف نوعا من الدالات المتصلة البارزة ، وتعتبر هذه الزخرفة تطورا
لزخرفة الدالات الشائعة في زخرفة بوابات المساجد والمدارس المملوكية
بطرابلس . ويحتل طبله العقد جامة كبيرة حفرت فيها توريقات كثيفة ،
أما الظاهرة الغربية في هذا الخان فهي أن عقود مفضضة بنصوص من
زهرة الزنبق ، تشل تطورا فريدا في تاريخ عمارة الماليك . ويعلو
الواجهة افريز بارز يزدان بصف من المقرنصات الزخرفية المسطحة على
شكل ورقة نبات متكررة .

أما خان الخياطين فقد بناه الأمير بدر الدين قبل سنة ٧٤٠ هـ ، وتتصل
عمارته بعمارة حمام عز الدين وخان المصريين ، وتؤلف جميعا جانبا هاما
من المدينة التجارية . وخان الخياطين أشبه بدرب مقفل طوله نحو
خمسين مترا ، ويتميز بوجود صفين من العقود الجانبية ، ويقطع الدرب
من أعلى عشرة عقود عرضية أشبه بالقناطر ، ولا يغطي هذه العقود سقف ،
وفي هذا الخان الذي يقوم في نفس الوقت بوظيفة المصنع والسوق ، كانت
تحاك الثياب وتباع بالجملة على التجار «^٤» لتوزيعها .

أما خان المصريين الذي ما يزال يستخدم حتى اليوم مخزنا ، فقد
أقيم فيها بين عامي ٧٠٩ هـ و ٧٥٦ هـ . وتدور غرفه حول صحن مركزي
مستطيل الشكل ، ويعلو الغرف قبوات نصف أسطوانية عمودية على
الصحن .

—————

وخان العسكر يرجع تاريخ بنائه الى أواخر عصر دولة الماليك البحرية ، وقد استخدمه الماليك ثكنة عسكرية ، فسمى بذلك الاسم . ويتكون الخان من مجموعتين من البناء تدور كل منهما حول صحن مستطيل بداخله حوض للسقاية ، وتنفتح على الصحن أبواب معقودة ، عقودها منكسرة من النوع الشائع في عمارة الماليك . وأهم العناصر المعمارية بالخان بواباته بعقودها المدية ذات السنجات الزنبقية .

وأهم أسواق طرابلس المملوكية سوق الحراج ، ويقع الى الجنوب الشرقي من شارع الصاغة ، وهو سوق تعلوه قبوات متعارضة ترتكز على ١٤ عمودا جرانيتية ضخمة ، لا تيجان لها . ويرجع بعض المؤرخين تاريخ انشاء هذا السوق الى عصر الماليك ، بينما ينسبه الآخرون الى العصر الصليبي . ويغلب على الظن أن هذا السوق أقيم في مكان كانت تشغله كنيسة ، واستخدمت بعض أعمدتها وعقودها في اقامة هذا السوق .

ومن أسواق طرابلس المملوكية أيضا سوق السلاح الذي ورد ذكره في وقفية للأمير طينال وكان يقع بجوار حمام أسندير ، وسوق الحلاوين الواقع بالقرب من المدرسة السقرقية ، وسوق العطارين .

ج - جسر نهر قاديشما :

يعرف عند العامة باسم قناة الابرنس «*» ، وتشير التقاليد المحلية أنه

أقيم في زمن الصليبيين فيما يقرب من سنة ١١٨٧ ، أى في بداية العصر
الذى أصبحت طرابلس تابعة لامارة انطاكية . وهو عبارة عن جسر من
الحجر يخترق نهر أبى على على جدار سمكه نحو مترين ويستد ٩١ مترا ،
وتخترقه ٣ عقود . وقد تهدم الجدار في فيضان سنة ١٩٥٥ تاركا قطعة
طولها ٨ مترا على الضفة اليسرى (الشرقية) ونحو ٣ أمتار على الضفة
اليسرى (الغربية) . وكان هذا الجسر يمد الحصن والمنطقة المرتفعة من
طرابلس بالمياه .

والى الشمال من الجسر يسكننا رؤية آثار قنطرة اسلامية لا أثر عليها
للكتابات «٦» .

هـ - سبيل التينة :

يقع على الضفة اليسرى من نهر أبى على في المدينة العليا تجاه المسجد
المعلق ، أسسه محمد بن زين الدين مبارك شاه العلوى في سنة ٨١٦ هـ .
وفي أركان اللوحة الانشائية أربع رنوك تمثل الدواة «٧» .

(٦) Van Berchem, p. 121 - Bruce Condé, p. 25 .

(٧) Sobernheim, op. cit. p. 121

ملاحق الكتاب

(ملحق رقم ١)

الأقوال في واقعة طرابلس الشام

من كتاب « الامام بالاعلام فيما جرت به الأحكام
والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية »
للنويري السكندري (١)

« لما قصد غزو الشام أتى اليهم من الجزيرة « ٢ » في مراكب كثيرة ،
وغالبها قوارب الصيادين ليخيف برؤيتها المسلمين ، فأوهم بها أهل البلد ،
فهربوا منه ، فدخل البلد ، وبها عريد ، وقد اختلفت الأقوال في دخوله
طرابلس ، وسأذكر تلك الأقوال التي نقلتها السنة الرجال ان شاء
الله تعالى :

فمنهم من قال : لما أتى القبرسي اللعين الى ميناء طرابلس لقتال من
بها من المسلمين ، نزلت فرسانه ورجاله من الأسطول الى الساحل ، وزحفوا
الى البلد ودخلوه ، فصار أهل البلد يرمونهم بالحجار من أعلى الديار ،
فأوا في أنفسهم العبر من كثرة رمى الحجار ، وقاطع عليهم جيش المسلمين
من جهة الساحل ما بين فارس وراجل ، فسمعت الفرنج بقطع المسلمين عليهم
الطريق ، فنشف في فم كل واحد منهم الريق ، وضربتهم المسلمون بالسيوف

(١) الامام بالاعلام ، (مخطوط) نسخة محمود حمدي رقم ٤١٩٣
بدار الكتب المصرية ص ٦٧-١٥٥ ، والمقصود بواقعة طرابلس ، الغزوة التي
قام بها البقارصة في سنة ٧٦٩ هـ ومحوهم طرابلس

(٢) يقصد بطرس دي لوزيلين ملك قبرص الذي أغار بنفسه على
طرابلس

صاروا صرعى على الأنوف . هذا ما بين الساحل والبلد ، وأما من كان منهم داخل البلد فقاتلوا من قاتلهم من المسلمين الى أن قتلت النصارى أجمعين ، ولم يقتل من المسلمين بطرابلس سوى إحدى وعشرين ومنهم من قال لم يقتل من المسلمين بطرابلس سوى أربعة أنفس وهم مغرياز وتركمانى ورجل من أهلها ، وقتل خارج البلد من الافرنج نحو ثمانمائة عالج ، فصارت أكاديشهم «^٧» على ابر غائرة بالكر والفر ، قائلة بلسان حالها صرنا من مراكب المسلمين واسترحنا من حملنا للفرنجة الكافرين ، ومنهم من قال قتل من الفرنج أربعائة عالج ، ومنهم من قال هدم المسلمون قنطرة بين طرابلس والبحر كان المسلمون يمرون عليها ويروحون ، فلما هدمها المسلمون تخلفت الفرنج عن المسر «^٤» لهدمها فقتلهم المسلمون عن آخرهم .

ومنهم من قال : تحصنت جماعة من الفرنج بدار بطرابلس معهم أسلحتهم لما تيقنوا نصره المسلمين عليهم ، فبا جسر أحد من المسلمين اليهم ، فرمى المسلمون النار بالدار ، فاحترقت الدار والكفار .

ومنهم من قال : ان أهل طرابلس طافوا حول الدار بالنار ، ورمت الفرنج عليهم من أعلاها الحجار ، فصار الدخان صاعدا اليهم ، فلما أضر بهم الدخان سلموا أنفسهم ، فقبض المسلمون عليهم ، وأتوا بهم الى نائب

(٣) الأكاديش جمع أكديش وهو الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الآلات والعدد والمقصود بها هنا الخيل التى يركبها الفرنج

(٤) يقصد المرور عليها أو عبورها

السلطان ، فقال يكونون عندنا أسارى ، نقرت المسلمون وقالوا لا والله لا نريد الا قتلهم . فقال اتركوا ابى منهم / اثنين دونكم والبقية فاقتلوهم ، فقتلوهم وتركوا له اثنين ليستخبرهما عن حال القبرسى . فقال لأحدهما : أخبرنى كم أتى معكم من جنس . فقال العليج الغير مسئول للذى هو مسئول : اسكت ولا تخبر بشيء ، ما هو الا الموت . فقال المسئول : بل أخبره وأسلم بعد اخبارى له . فقال له صاحبه : أترضى لنفسك بلعن أهل ملكك ؟ مت على دين آبائك وأجدادك . فقال له : مت على دينك ، وأنا قد طابت نفسى للاسلام . ثم أشار الى نائب السلطان وقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . ثم قال : أخبرك أيها الأمير الكبير أن طوائف الفرنج الذين أتوا مع القبرسى جنوية وبندقية وخراطة «٥» وروادسة وفرنسية وهنكر «٦» وأغراب ، وجعلتهم ستة عشر ألف عالج ، منهم ألف فارس ، والبقية رجاله ، فأتت البنادقة فى ثلاثين غرابا «٧» ، والجنوية فى عشرين ، والروادسة فى عشرة ، والأغراب فى خمسة عشر ، والبقية من قبرس . فحيثئذ أحسن اليه نائب السلطان بسبب اسلامه واخباره بما أخبر ، وجعله من جيلة أجناده . وأما العليج الآخر فعرض عليه الاسلام

(٥) من جزيرة كريت

(٦) أى من بلاد هنغاريا أو المجر

(٧) الغراب (جمعها أغربة وغربان) مراكب حربية شديدة البأس ، وقد سويت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التى على شكل رأس غراب (راجع : عبد المنعم ماجد : نظم المسالك ورسومهم فى مصر ، ج ١ ص ١٩٢)

فأباه ، فأمر بقتله فقتل • ثم ان طرابلس انتت من قتلى الأفرنج ، فأحرقوا بالنار لزوال رائجتهم •

ومنهم من قال : كان وصول الأفرنج الى طرابلس يوم الأحد في خمسة وخسين غرابا ، وطريدة «^٨» واحدة ، وعشرة قراقر «^٩» • فلما عاينهم المسلمون حبسوا ستة من الأفرنج كانوا تجارا بطرابلس ، أحدهم شاب جميل الصورة محتشم ، قيل انه كان ابن صاحب چنوة ، وقيل انه كان ابن أخت القبرسي ، وأن أحد نصارى الذميين دس له سيفا ، فقتل به ستة من المسلمين المسجونين ، فلما علم المسلمون ما فعل ذلك العلج بالمسلمين المسجونين ، هجبوا عليه ذبحوه ، وذبحوا من كان معه من العلوج ، فلما دخل جند القبرسي البلد تسارعوا الى السجن ليخلصوه ، فوجدوه مذبوحا هو ورفقته الأعلاج ، فصرخوا صرخة واحدة • وقبل ان المسلمين قتلوا الذي دس للعلج السيف حتى قتل به المسلمين المسجونين •

ومنهم من قال : ان القبرسي لما تقدم الى طرابلس أتى في إحدى وسبعين ومائة مركب ، فأنزل منها يوم الأحد سبعة صفوف بالأتراس والسيوف ، وخلفهم الرماة بالقسي ، فزحفوا الى أن دخلوا البلد وذلك بعد هرب أهلها منها الى قنة الجبل ، فنهبت الأفرنج منها تسع حارات ،

(٨) الطريدة (جمعها طرائد) سفن لنقل الخيل (ماجد ، نفس نفس المرجع ص ١٩٣)

(٩) مفردها قرقورة وهي سفينة كبيرة لنقل المؤن والأقوات وامداد الأسطول بكل ما يلزمه

أخذوا منها ما قدروا عليه من المال والأثاث ، فأتى القاضى شمس الدين ، قاضى بلد عرقة ، راكبا على فرس أصيل ، قد تبعه نحو سبعين فارسا من التركمان ، فقال لهم القاضى : معشر الاخوان من أراد سكنى الجنة والنقلة من دار المحنة والفتنة فليطلق على الكفار الأعنة ، ويقوم نحوهم أطراف الأسنة ، فقالوا بأجمعهم : كلنا نريد سكنها ونختار مأواها ، ونروم مأداها لنستريح من التعب فى الدنيا بسكنى جنة المآدى ، فقال : إذا سمعتم تكبيرى فاحملوا أيها الاخوان نبيت الليلة فى فردوس الجنان ونصير غدا من جملة الشهداء القاطنين فى الجنة ، كذا جاء فى السنة ، وقد أيد الله أهل السنة بحجج أمضى من الأسنة . فقالوا : أنت دليلنا عليها ، فسر بنا اليها . فكير حينئذ القاضى وكبر القوم فى ذلك اليوم ، وحملوا على الفرنج بالسيوف ، اذاقوهم الخوف ، فانهزم بقيتهم ملايين البحر ، وأوداج القتلى تشخب من النحر ، فكان عدة من قتل منهم القاضى وأصحابه مائتين وثلاثين علجا ، فكومهم المسلمون كيما ، وألقوا عليهم خشبا وعيدانا ، وأحرقوهم شيوخا وكهولا وشبانا ، فصعد دخانهم الى الجوالا ، وكل من بالمراكب من الكفار ينظرون لاحراقهم بالنار ، فرجعوا من حيث أتوا خاسرين ، وعلى أصحابهم المقتولين المحروقين نادمين ، وصار المسلمون يفتشون على من بقى منهم بالساحل واحل ، فبينما هم كذلك واذا بجماعة منهم فى ساقية قصب هلكى من الخوف والعطب ولم يجدوا منهم حيا غير عالج واحد ، فجعل حين رأى المسلمين قصدوه يقرأ آية الكرسي ، فأتوا به الى الأمير صارم الدين بن الهدباني ، قالوا له : انا وجدنا هذا العالج بساقية القصب وهو يتلو آية الكرسي ، وصار يتلوها وهو واقف بين يديه ، فقال لو كانت على رأسك قتلتك ، فانك لو كنت مسلما ما أتيت مع الكافرين

تقاتل المسلمين ، وضربه بطبر « ١٠ » كان بيده قتله ، وقال هذا زنديق يسر الكفر ويظهر الايمان ، فالتار أولى به الآن . ثم تراجع الناس من الجبال فقتلت من الفرنج المسجونين نحو العشرين فيهم ابن أخت صاحب قبرس . وقتلت امرأة من أعلى سطح دارها علجين برميها بالحجارة عليهما ، وقتل الأمير جرجى « ١١ » وولده قتالا شديدا في تلك الوقعة ، وحصل للقاضى شمس الدين قاضى عرقة وأصحابه التركمان الأجر وبياض الوجه بما أنكوه في الفرنج . قال بعض أسارى الفرنج : لما أتى القاضى وأصحابه التركمان لقتالنا رأينا الارض كلها امتلأت خلقا معها أسلحتها تقتل فينا . وقيل أن القاضى جعل قاضى قضاة طرابلس لاثباته عن شجاعته وحياته فكان فعله ذلك كفعل الصالح القاضى وجيه الدين عبد الرحمن النويرى الشهير بالناطق قاضى باب النورية بالصعيد الأدنى من مصر ، لما تجهز لقتال الفرنج حين أتوا في سنة ست عشرة وستمئة في أرض مصر كما تقدم ذكر الوقعة المذكورة وكيفيتها في هذا الكتاب . . .

ومنهم من قال : ان القبرصى لما أتى بمراكبه الى مدينة طرابلس الشام

(١٠) الطبر فأس يستخدمها المقاتلة أحيانا في الحرب والنزال ، وحامل الطبر يسمى الطبردار وهو الذى يحمل فأس السلطان عند ركوبه في المواكب (راجع القلقشندى ، ج ٥ ص ٤٥٨ وما يليها — سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٣١)

(١٢) هو الأمير جرجى الادرمى ، كان نائبا للسلطنة بطرابلس

في سنة ٧٦٨

يريد غزو المسلمين بها ، فلما أرسى بأفروطته «١٢» ورأى جيوش المسلمين قد أقبلت بعد أن أنزل منها بعض رجال دخلوها وغنسوا منها بعض الغنائم ، فنظروا بهم المسلمون فقتلوهم ، فأرسل الملعون يقول : انما أنزلت من مراكبي بعض رجالى لأجسكم ، ولو أتيتكم بنفسى وجميع رجالى لصارت سرايلس فى ساعة واحدة كوما من الكيمان ، فجأوبه بعض مقدمى جيوش المسلمين ، فقال : انزل الآن بجيشك ، وقاتل وخذ البازد ، لأنك تزعم أنك سلطان ونحن مساليك ، والسلطان بالضرورة يغلب المساليك ، فلم يجد الملعون له جوابا يجيبهم به ، فلو أتى بجيشه لصار هو وجيشه على الصعيد كالحصيد ، ثم ان المسلمين سبوه سبا قبيحا ، وقالوا له : ان أهل جزيرتك قزازون «١٣» ، وأنت معلم القزازين الأرذلين ، ولو كنت سلطانا لنزلت من مراكبك وقاتلت المسلمين ، ولكنت حين ظفرت بالاسكندرية أقمت بها ولا هربت ، فلو أقمت فيها يا كلب النصارى لرأيت العجب من سبوا المنقلب ، ولكن ما وسعك الا الهرب كاللصوص اذا سرقوا هربوا قبل أن يعثر عليهم فيقتلعوا ويصلبوا ، فلم يجد نه جوابا يذكره ، فرجع بحسرتة .

ومنهم من قال : لم ينزل من مراكب الفرنج الى الساحل سوى ألف وخمسمائة رجل بين فارس وراجل ، فهربت جماعة من أجناد البلد الى الجبل ، فحينئذ صادفت الفرنج ثلاثة من المسلمين بالساحل فقبضوهم ،

(١٢) معناها الأسطول

(١٣) قزازون من قزازة والقزازة نسج الاقشعة الحريرية بوجه خاص ، والقزاز هو الحائك . (السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٨٤ حاشية رقم ١)

واستخبروهم عن البلد ومن فيه من الجند ، فقالوا لهم خرجوا للقاء الأمير منجك «١٤» ، لكن الآن تحضر النجدة ، فقال بعضهم أذبحوهم فانهم لم يخبروا بالصدق . فقالوا : ليس في ذبحكم لنا فائدة لكم ، فانا لله صادقون في مقاتلتنا لكم ، فتركوهم وزحفوا دخلوا البلد ، واذا بابن مالك مقدم التركمان ظهرت غبرة خيله قد أتى في جماعة من التركمان ، ثم ظهرت أيضا غبرة خيل ابن صخر وقد أتى في العشير ، فلما رأتهم العلوج الكلاب من المراكب رجعوا بها الى داخل البحر ، وضرب النفير بالمراكب ، فسمعت الفرنج التي بالبلد حس النفير ، فرمى كل واحد ما نهبه وطلب النجاة لنفسه ، فقتلهم المسلمون عن آخرهم ، ووجد المسلمون بطرابلس العتيقة الخراب نحو مائة من الفرنج ، فذبحوهم عن آخرهم ، وتتابع جيوش المسلمين من كل ناحية ومكان أتت تطلب الجهاد لتغازي أهل الكفر والعناد ، فلما رأى القبرسي الجيوش قد أقبلت اليه من كل جهة ومكان ارتحل الملعون بأسطوله الى جزيرة رواد المقابلة لطرابلس ، فبينما الناس كذلك واذا بثلاث مراكب قدمت الى ساحل السويدية من أرض الشام بريح العدة لم يظهر بها أحد من الفرنج ، فمضى المسلمون اليها في القوارب ، فوجدوا بها الأسلحة والزاد والقتلى والجرحى من الفرنج ، فسألوا الجرحى عن أمرهم ، فقالوا : ان الجنوية قاتلت القبرسي بسبب ابن صاحب جنوة الذي قتله المسلمون بسجن طرابلس ، كما تقدم ذكر قتلهم له ، وبسبب قتل المسلمين أيضا لجماعة الجنوية الذين أنزلهم القبرسي من أسطوله حتى قتلوا

(١٤) هو الأمير منجك اليوسفي نائب السلطنة بطرابلس للمرة الثالثة

وقت نزول القبارصة على ساحل طرابلس

بسيوف المسلمين ، فقتلت الجنوية من كان في هذه المراكب من أصحاب القبرسى ، وهؤلاء القتلى ونحن الجرجى ، فصارت المراكب خالية ممن يرأسها ، فقطعت الجنوية سرياقات مراسيها ، حتى رمى الريح اليكم ، فعند ذلك غنمها المسلمون ...

ومنهم من قال : ان الأمير جرجى وقف على ساحل طرابلس ومعه الجيوش الاسلامية ، فأرسل القبرسى من مراكبه وهى بالميناء مرسية قاربا ، ففرز من فيه رمحا فى البحر فيه ورقة ، ورجع الى المراكب ، فخرج قارب المسلمين من الساحل أخذها وأتى بها الى الأمير جرجى ، واذا فيها « أما بعد ، فان مراسيمنا الشريفة برزت بعدم احراق طرابلس ، لو اقتضت مراسيمنا الشريفة ذلك فعلناه ، ولكن البلاد بلادنا ، والقدس مدينتنا ، فان مكتممونا من بلادنا فنحن واياكم على العهد والصلح وان لم تم تسكنونا فيتنا وبينكم السيف ، ومع ذلك يعطى الله النصر لمن يشاء من عباده » . فكتب اليه الأمير جرجى يقول فى الجواب : « أما قولك برزت مراسيمنا الشريفة فهذا الكلام لا يصدر الا عن سلطان ذى رأى ، وأما أنت فلص من لصوص النصارى ولست بسلطان ، فلو كنت سلطانا أقمت بالاسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها بل هربت بسرعة والهروب من شأن اللصوص ، بل حوصلت وطرت . وأما قولك البلاد بلادنا ، فالأمر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، وأما قولك القدس قدسنا فحاشا لله أن يكون القدس لك ، لأنك رجس نجس ، والقدس طاهر مطهر ، وما ينبغى للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاورا للطهر المطهر . وأما قولك السيف بيننا وبينكم فتفقد عسكريكم كم خرج منه قتيل وجريح ورهين ، ولم يكن

بطرابلس الآن مقاتل لك غيرى ، وأنا أقل ممالك السلطان ، فأنزل وقاتلنى
بدا معك ومعى « وطوى الكتاب ورده فى القارب الى الرمح تربط فيه
ورجع • فأتى قارب القبرسى أخذه ، فلما وقف الملعون على هذا الجواب
المسكت حصل له الفرق ، وغص بريقه وانخنى ، ولم يجد لما سمعه جوابا
ولا اتجه عنه خطابا ، فالأجوبة المسكتة مبهتة ، يعجز عن رد جوابها المنطيق
لعجزه عما لا يطيق •

ومنهم من قال : ان صاحب قبرس جرح عدة جروح من المسلمين فى
وقعة طرابلس الشام عدة جروح ، فحصل له الزائد ، وكان الذى جرحه
عند هروبه وهو طالب مركبه رجل مسلم ، رمى نفسه عليه فى البحر وهو
يضر به بالسيف على جوشنه «^{١٥}» ، فتقرب منه الغراب فرفعه منه جماعة ،
وجماعة منه قطعت المسلم بالسيوف قطعاً ، فصار القبرسى فى ألم من جراحاته
تلك ، فارتحل أسطوله من ساعته قاصدا بلده • فقال لسان حاله عند ارتحاله
قد تعكست وحق المسيح أحوالى بسبب قتل رجالى ، فان رجعت طالبا
الجزيرة سمعت بها الجناز الكثيرة ، فلا بد لى من غزوة قوية ليتحصل
لى من أموال المسلمين ما اقترضته من القيسيين ، فلو رجعت اليهم بغير
رد السلف ، غضب على كل قسيس وانحرف ، وتكرهنى الرهايين ،
ويعرم على جماعة القيسيين ، فتتنفى منى عامة النصرانية ، ويمتنع عن
مخاطبتي جميع أهل ماء المعمودية ، فأصير بالطرد آيس من دخول الكنائس ،
وتقول طوائف النصارى قد داخل هذا المجروح العكس وعاد نجهه بعد

(١٥) الجوشن درع يلبس على الصدر بغير ظهر بعكس الزرد الذى
يغطي الجسم كله

استقامته في نفس . وذلك للصوصيته بالاسكندرية . وفعلته الغير مرضية ، وما رزق بها النصر الا لعدم مقابله لجيوش مصر ، بل صال على السوام وقال أنا ربيير الملك الهام ، ثلثرت بالاسكندرية التي عجز عنها جميع ملوك النصرانية ، وتقول النصارى قتل المسلمون بطرابلس رجاله المشاة منهم والخيالة ، فيقيمون على القيامة ، ويقولون قد امتنعت النصارى بسببه من زيارة كنيسة القيامة ، فياليتني اصطلحت مع المسلمين لما جاءني رسولهم ناصر الدين ، وكنت أرسلت لهم الأسارى ، وبقيت بحرمتي ونفاذ كلمتي ، وصرت في انشراح ، وسلت من الجراح . ولكن ما بقي بعد ذلك الا القتال ، والحرب والنزال ، فداووا جراحي ليحصل بغنائم المسلمون سروري وأفراحي ، وسار بأفروطته فاجتاز ببلدة جبلة التي هي مقبورا بها الشيخ الصالح ابراهيم بن أدهم ، فلقى به عند محاذاتها النعم والهم ، وذلك أن أهل جبلة لما عاينوا أسطوله قادم عليهم دخلوا ضريح الشيخ ابراهيم وهم يستغيثون قائلون : يا ابراهيم ان كان لك سريرة عند ربك فهو يدفع عنا هذا العدو الذي لا طاقة لنا به . وساروا يدعون الله تعالى في دفعه عنهم ، واذا ريح عاصف خرجت من خزائن القدرة الربانية فرقت المراكب في البحر يمينا وشمالا ، فصرف الله بها العدو عن أهل جبلة ...

فلم يتعظ الملعون بما جرى له فصبر إلى أن اجتمعت له مراكبه ، فصار بها إلى اللاذقية وبيناها سلسلة متينة ، فنطط ثلاث شواني عليها حصلت داخل المينا ، فتبادر المسلمون ورفعوا سلسلتها بدولا بها بما لم يكن للقبرزي ذلك في حساب ، فقبض المسلمون على شينى منها ، فقتلوا من فيه من الرجال والأعلاج ، وانكسر الاثنان لثقلها على السلسلة ، وعسلها

فيهما . قال المؤلف . غفر الله له ولوالديه وللأقرين اليه ولجميع المسلمين ،
حدثني محمد بن بهادر الكركرى بغير الاسكندرية المحروس قال : كنت
باللاذقية عند اتيان القبرسى بأفروطته اليها فهاج عليه ريح عاصف فانكسر
له ثلاث شوانى ، وأتى منهم الى البر دون العشرين علجا بالعموم ، وقذف
البحر الى الساحل عشرة أفراس موتى ، وجلس فى قاع البحر شينى صار
طرف صاربه ظاهرا فوق الماء ، فغطس الغطاسون عليه ، فوجدوه جلس بقاع
البحر بين جبلين صغيرين ، فلم يقدرُوا على اخراجه من بينهما ، ولا قدرُوا
على النزول اليه ليعلموا ما فيه ، وحصل لهم أيضا ثلاث مراكب رمتهم
الريح اليهم ، ووجد فيها الجواشن والخود والزرديات ، وحصل لهم أيضا
مركب آخر وجدوا فيه رؤوس خيل بعددها ، ووجدوا فيها أزواد كثيرة
وبعض أثاث مما حصل لهم بطرابلس . . .

ومنهم من قال : أن عمر الحلوانى ذكر أنه كان حاضرا بوقعة طرابلس
وبوقعة اياص ف قيل له حدثنا بما رأيت فيهما ، قال : لما أتت الفرنج الى مينا
طرابلس . ونزلوا البر زحفوا الى أن دخلوا البلد ، فأتى المسلمون لهم من
جهة الساحل جازوا بينهم وبين البحر فقتلوا منهم ما يزيد على ثلاثمائة
علج ، وقتلت امرأة علجا فارسا من أكابرهم ، وذلك أنها رمت عليه ستارة
حائط سطحها ، كان واقفا تحتها ، فوقعت عليه فقتلته هو وفرسه ، فأمر
نائب السلطان بطرابلس لما بلغه ذلك أن يعطى لها سلبه ، ف قيل له ان قيمة
سلبه عشرة آلاف درهم تعطى بعضه ، فقال بل تعطى جميعه .

وقال المؤلف . . . حدثنى الشيخ الصالح أبو محمد اسماعيل بن سليمان
الحلبى بالاسكندرية وكان اذ ذاك مقيما بها قال : لما دخلت الافرنج طرابلس
الشام فى أوائل سنة تسع وستين وسبعمائة دخل منهم دار الحاج محمد

ابن بهادر الناجر اثنا عشر علجا . وكان له بها جفان سكر كثيرة ، فأحاط المسلمون بالدار فصارت الفرنج تكسر تلك الجفان السكر وترمي بها على المسلمين عوضا عن الحجارة التي عجزوا عن قلعها لقوة عمارة الدار ، ولعدم الفوس ليست معهم يقلعون بها الحجار اذ ليس معهم غير سيوفهم ، فأتى اليهم الأمير جرجى برجاله عمل عليهم الحيلة حتى قبضهم منها ، وقرهم «١٦» ، فقالوا : ان نصارى أهل الذمة التي بسواحلكم يكاتبون القبرسى يعرفونه عن أحوالكم ، ويحرضونه على غزوكم ، فهم الذين كانوا السبب في اتيان القبرسى اليكم ، فكتب الأمير جرجى بذلك الى السلطان والأمير يلغا الخاسكى ، فمنعوا اذ ذاك من التوجه الى قبرس بسبب متاجرهم التي بها والتي يستصحبونها معهم اليها ، فضاعت متاجرهم التي بقبرس وبادت متاجرهم التي جهزوها اليها ، وحفظت السواحل بالتركيز والقبض على المتجسسين ، وقتل النصارى المخبرين . انتهى . ثم قال أيضا : ولما لم يقض القبرسى أربه من طرابلس سار بأفروطته الى أنطربوس ، أقام بها يوما وليلة ، فأحرقها جميعها لما لم يجد فيها أهلها ، وذلك لهروبهم منها عند معاينتهم لأفروطته الآتية اليهم . ثم ان الملعون توجه بأفروطته الى مرقية ، أحرق منها ثلاثة بيوت : فأدركه ابن قنقر التركمانى بمن معه من التركمان ، فهرب منه الملعون فتوجه الى بانياس تحت المرقب ، فأقام بها يوما وليلة ، وكان أهلها لما عاينوه تركوا له البلد وهربوا منه ، فأحرقها راجرق أشجارها ، فأدركه جيش المسلمين ، فهربت الفرنج منهم الى المراكب ، فلم يقبض المسلمون من علوج القبرسى غير علج واحد ، فأتى به الى نائب المرقب . »

(١٦) أرغهم على الاعتراف له بسبب غزوتهم لساحل طرابلس

(ملحق رقم ٢)

وصف مدينة طرابلس الشام

من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
لشهاب الدين بن فضل الله العمري « ١ »

« بيت عند الفتح عوض اطرابلس العتيقة ، وكانت تسمى قديما
بدار العلم ، وتداولها ملوك بني عمار ، وكانوا في الأول لهم القضاء بها ،
ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة ، ذميمة المسكن ، فلما
طالت مدة سكنها ، وكثر بها الناس والدواب ، وصرفت المياه الأجنة التي
كانت حولها نقايص ، وعملت بساتين ، ونصب بها المنصوب والغراس ، فخفف
ثقلها ، وقل وخمها . وقد كان بها اسندمر الكرجي نايبا ، وبقي لا يستقل
من لوثة وخم ، فشكا الى الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داود
المتطبب وخامتها ، وسأله عما يخفف بعض ذلك ، فأشار عليه أن يستكثر
بها من الجبال وبقية الدواب ، ففعل ذلك ، وأمر به الأمراء والجند ،
فخفف ما بها ، وكان الأمر كما أشار به الحكيم ، وسألت عن تعليل هذا
كثيرا من الأطباء ، فقال أنه لا يعرفه ، وفوق كل ذي علم عليم ، وأما
ما قاله لي الصدر بن أبي بكر بن غانم رحمه الله ، فقال : ان السبب
فيما يعرض الأجسام بها أنها لمجاورة البحر وعرة حارة فتكون في أول
الليل كذلك ، فلا يقبل فيها تقبل الغطاء ، فاذا نام النائم قليلا الدثار ،
بفاجيه البرد الشديد في آخر الليل من قبل الجبال المجاورة لها فيجىء

(١) نسخة مصورة للمخطوطة ، رقم ٢٥٦٨ تاريخ ، بدار الكتب
المصرية ، القسم الثالث من الجزء الثاني ص ٤٤٨ — ٤٥٠

البرد عقيب الحر . والمسام مفتحة ، والنائم في غفلته ، فيحدث له ما يحدث .
ونها نهر يحكم على ديارها وسبقاتها ، يتخرق الماء في مواضع من أعالي
بيوتها التي لا يرقى اليها الا بالدرج العلية ، وحولها جبال شاهقة صحيحة
الهواء ، خفيفة الماء ، ذوات أشجار وكروم ومروج وأغنام ومعز ، ومجتمع
بها الجوز واللوز وقصب السكر والبلح ، ويعمل بها السكر ، ويسوى
اليها وفود البحر ، وترسى بها مراكبهم ، موضع زرع وضرع ، وهي الآن
مدينة مستدة كثيرة الزحام ، ذات مارستانين ومساجد ومدارس وزوايا
وأسواق جليلة وحمامات حسان موصوفة ، وجميع أبنيتها بالحجر والكلس ،
مبيضا ظاهرا وباطنا ، تحيط بها غوطتها ، ويحيط بغوطتها مواضع
مزدراعتها ، بديعة المشرف ، تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها . وهو
مسلكة ذات جيش وتركسان وخاصة ، لأهل الجبال بها يد في الرمي على
القوس الثقيل بالنشاب الخارق ، ولها حصون وقلاع تجاورها قلاع الدعوة
المعروفة ، وقاعدتها مصياف ، ومن جنلتها قلعة القدموس ، وبها حمام
يخرج بها أنواع حيات كثيرة لا تحصى ، حتى ان القاعد في داخلها
ليغتسل والحياة طافرة من الأنبوب مع الماء حتى أن الخارج من الحمام
ليرفع قماشه من الأرض ليلبسه والحيات تتساقط منه ، ولكنها لا تؤذي
أحدا ، ولا عرف هذا عنها في وقت من الأوقات . وبالقرب من هذه القلعة
قلعة الخوابي ، حدثني الأديب بدر الدين حسن الغزي أن في سورها أعنى
قلعة الخوابي مكانا اذا لدغت أفعى أو حية أحدا وحمل لكي يشاهد ذلك
الموضع من سور الخوابي بعينه أو كان الملدوغ عاجزا ، فأرسل رسولا
له الى ذلك الموضع ، فأتى اليه وشاهده بعينه ، قيل أن عطب السليم
الملدوغ نجا السليم وكانت عاقبه الى سلامة . وهذا من عجائب ما يحدث

به في الآفاق ، فما أدري أهذا الطلسم هناك أو لخاصية في ذلك الحجر .
وعلى كل الحالين هذا أمر عجيب غريب ، وانغرب ما فيه هذا يفيد تفهم
للذيع برؤية رسوله له اذا لم يره هو بنفسه ، فسبحان من له الحكم
واليه مرجع الأمر كله . ووادي الفوار قريب حصن الأكراد غربا بشمال
على الطريق السالكة ، صفته هناك صفة بير قايمة في الأرض ، وفي أسفل
لير سرداب تمتد الى الشمال يفور في كل أسبوع يوما واحدا لا غير ،
فيسقى به أرض ومزدرعات ، وينزل عليه التركسان ويردوه ، وبقية الأيام
يابس لاماء فيه ، ويسمع له دوى كالرعد قبل فورانه ، والسرداب خلفه
البناء . وذكر من دخل السرداب أن في نهايته نهرا كبيرا أخذا من الغرب
الى الشرق تحت الأرض ، وله جريان معين وبه موج وريح عاصف
ولا تعرف أين يجري ولا من أى جهة يجيء . وداخل البحر الشامي
بطرابلس عند برج الحصاص بقدر رمية حجر فوارة ماء حلو عذب يطلع
على وجه الماء علو ذراع أو أكثر ، يبين ذلك عند سكون البحر لكل
أحد .

(ملحق رقم ٣)

نص وقفية جامع طينال

(بسم الله الرحمن الرحيم امر بإنشاء هذا الجامع المعبر بذكر الله تعالى مولانا المقر الأشرفي العالي المولوي الكافلي السيدى المالكى المخدومي السيفي طينال المالكى الناصري ، كافل المالك الشريفة الطرابلسية بلغه الله آماله ، وتقبل في الصالحات أعماله ووقف عليه لمصالحه المعينة في كتاب وقفه جميع البستان المعروف بالحموى بظاهر طرابلس وجميع الحانوتين الملاصقين لبابه وجميع البستان المعروف قديما بالطنطاش بسقى طرابلس وجميع الحانوتين الملاصقين لسوق السلاح بجوار الحمام المعروف بأسندمر وهي الآن ملك الواقف وجميع ثلث الخان المعروف بدار الوكالة القديمة وجميع القرية المعروفة بازرونية من عمل عرقا بجون طرابلس وشرط أنه مهما فضل من ريع هذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعينة في كتاب يصرف للفقراء والمساكين المقيمين بطرابلس والواردين إليها حسب ما يراه الناظر في ذلك من غير أن يرتب لأحد مرتبا في كل شهر أو كل يوم ، ومن غير ذلك أو بدله أو رتب شيئا مستمرا كانت عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) «١» .

نص وقفية تربة طينال

(بسم الله الرحمن الرحيم امر بإنشاء هذه التربة المباركة رحم الله

ساكنها مولانا ملك الأمراء المشار اليه أثابه الله وتقبل منه وجزاه خيرا ورضى عنه ووقف على مصالحها وأرباب وظائفها المعينة في كتابها جميع الطبقة المجاورة لها من الشرق وتعرف بالخطيب وجميع القيسارية المستجدة المجاورة لمسجد الأرزني من الغرب بسكن الخلعين وعدة حوانيتها ست عشرة وطباقتها ست عشرة وجميع الحاتوتين بطرف سوق الحدادين من الصنف الغربي المعروف قديما بأبي ربه وجميع الحوانيت والطباق انشاء الواقف بالعرصة القديمة وجميع الست حوانيت المستجدة انشاء الواقف وتعرف قديما بمظفر بسويقة القاضي والثلاث طباق الراكبة عليه وجميع الحاورة المجاورة لهذا الجامع من القبلة وشرط أنه مهما فضل من ريع هذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعينة في كتاب الوقف يصرف للفقراء والمساكين المقيمين والواردين كما شرط في وقف الجامع من غير ترتيب ومن رتب لأحد مرتبا مستترا أو جدد لأحد شيئا على سبيل الراتب كان الله محاربه ومحاسبه ومكافيه وحشره مع الأخسرين (٢) *

(ملحق رقم ٤)

مرسوم أصدره السلطان قايتباي
(منقوش بأعلى مدخل مسجد الدباغين)

(الحمد لله لما كان بتاريخ ثالث عشرين جمادى الآخرة من شهر
سنة اثنين وسنة اثنين وثمانين وثمانمائة برز المرسوم الشريف المولوي
السلطاني الملكي الأشرفي أبو النصر قاتباي خلد الله ملكه الشريف عند
حلول ركابه بطرابلس المحروسة بإبطال ما على جماعة الدباغين بطرابلس
من المكس المقرر لديوان المواقف الشريفة وأن لا يكلفوا الى الدرهم
الفرد وأن ينقش ذلك في بلاطة على المسلخ بطرابلس لتسطر هذه المثوبة
في الصعائف الشريفة وملعون ابن ملعون من يجدد ذلك أو يغيره « ١ ») .

مرسوم أصدره السلطان قايتباي
(منقوش على عتب باب مسجد أرغون شاه)

(الحمد لله لما كان بتاريخ خامس عشر جمادى الآخرة سنة ثمانين
وثمانمائة ورد مرسوم شريف مربع جيشي من الأبواب الشريفة السلطان
الملك الأشرف قاتباي خلد الله ملكه بأن جهات وقف المرحوم أرغون شاه
بالسقي بطرابلس المحروسة لا تؤجر لا لمتجوه ولا ذى شوكة واجهاز
الندا لزراع الأراضي بالحماية والرعاية ومنع من يعارضهم حسب ما شرط

به الواقف في كتابه وتسليم الأراضي للسيد الحبيب النسيب السيد
نور الدين محمود الحسيني الأدهسي الناظر والشيخ بها بالزاوية المذكورة
فأشار به المقر الأشرف العالي المولوى السيفى أزدمر الأشرفى مولانا ملك
الأمراء كافل المملكة الطرابلسية أعز الله أنصاره ورسم بتقش ذلك على باب
المدرسة حسب ما شرط به الواقف في كتابه وملعون من يغير ذلك ويسعى
في تجديده «٢» .

(ملحق رقم ٥)

نص اللوحة الانشائية ووقفية جامع ومدرسة السقرقية

(بسم الله الرحمن الرحيم وقف الجنب الكريم السيفى أقطرق
الحاجب هذا المكان المبارك مسجدا لله تعالى وتربة للدفن ووقف على
مصالحه وعمارة أثائه وتطاويقه جميع المزرعتين من عمل حصن الأكراد ؛
وهما مرج السلطان وقميرة وجميع البستانين المتلاصقين بقرية رشعين من
عمل طرابلس أحدهما يعرف بمسعود والآخر بابن الأفرمى ، وجميع
الحوانيت الأربعة المتلاصقات بالصف الشرقى من سوق الحلاوين
بطرابلس وجميع الدار الملاصقة للمسجد وجميع الأود الثلاث المتلاصقات
بخان المصريين بطرابلس وجميع الحصة الشائعة وقدرها والنصف والربع
من جميع الدار شمالى خان المهندس بالجسر العتيق وجميع الفرز
المعروف بكرخولد للمسجد المذكور وقفا شرعيا يبدأ من ريعه بعمارته
واصلاحه ويصرف منه فى كل شهر أربعون درهما للامام بالمسجد المذكور
وخمسون درهما الى مؤذنين بالنوبة يؤذنان بمأذنة المسجد المذكور
وثلاثون درهما الى قيم المسجد والتربة ، وخمسون درهما الى خمسة
أنفار يقرؤون بالمكان المذكور حزبا كاملا فرادى ومجتمعون وخمسة عشر
درهما فى ثمن زيت وقناديل وآلة الكنس والاستسقاء ، ويصرف فى يوم
الاثنين من كل أسبوع ثلاثة دراهم فى ثمن خبز يفرق بباب التربة ودرهم
واحد فى ثمن ماء وثلج ، وكذلك يصرف فى يوم الخميس من كل أسبوع
ويصرف فى كل شهر احدى عشر درهما فى ثمن كسوة من قميص ولباس

رَفِيعٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ لِلْأَيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ وَالْفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا فَضَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ
يُصْرَفُ إِلَى مَنْ كَانَ فَقِيرًا مُحْتَاجًا مِنْ أَوْلَادِ الْوَاقِفِ وَأَنْسَالِهِ ، وَمَنْ عَتَقَانِهِ
بِالسُّوْيَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مُحْتَاجٌ صُرِفَ إِلَى الْفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَابِ التَّرْبَةِ
وَشَرَطُ الْوَاقِفِ النَّظَرُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ لِلْأَرْشَدِ مِنْ أَوْلَادِهِ وَأَنْسَالِهِ وَإِلَى مَنْ كَانَ
أَمِيرَ حَاجِبٍ كَبِيرًا بِطَرَابِلُسَ ، وَشَرَطُ الْوَاقِفِ أَنْ لَا يُؤْجَرَ وَقْفُهُ بِأَكْثَرَ مِنْ
ثَلَاثِ سِنِينَ وَلِيُصْرَفَ هَذَا وَلَا تُقَدَّرَ عَلَيْهِ مَظَالِمٌ وَلَا مَكُوسٌ حَسَبِمَا تَضْمَنُ
ذَلِكَ كِتَابُ الْوَقْفِ الْمُؤَرَّخُ بِمُنْتَصَفِ الْقَعْدَةِ الْحَرَامِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ
وَسَبْعِمِائَةَ الثَّابِتِ الْمَحْكُومِ بِهِ بِمَجْلِسِ الْحَكَمِ الْعَزِيزِ بِطَرَابِلُسِ الْمُحْرُوسَةِ
وَنُقِشَ ذَلِكَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتُونَ وَوَلَاءَ لِهَذَا الْمَسْجِدِ مِنَ الْمَاءِ بِعَقْدٍ
وَاجِبٍ نِصْفٍ وَرَبِيعٍ أَصْبَحَ مِنْ قَنَاةِ طَرَابِلُسِ « أ » •

المراجع

أولا : المصادر العربية

١ — الادريسي (الشريف محمد بن العزيز) : وصف فلسطين والشام من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، نشره جوانيس جيلدميستر (Joannes Gildemeister) بعنوان Palaestina et Syria, Bonnensis, 1885

٢ — أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر الكنانى الشيزرى) : كتاب الاعتبار ، تحقيق الدكتور فيليب حتى ، برنستون ، ١٩٣٠

٣ — الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والمسالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ، ١٩٦١

٤ — الأنطاكي (يحيى بن سعيد) : صلة كتاب سعيد بن بطريق ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٠٩

٥ — ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق دون فرنشسكو كوديره ، مدريد ١٨٨٩

٦ — ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) : كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشره وحققه تورنبرج ، أبساله ١٨٤٣

٧ — ابن أبى طالب الأنصارى الدمشقى (شمس الدين أبى عبد الله محمد) : كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، نشره مهرن ، ليزج ، ١٩٢٣

٨ - ابن أبي انفضائل (مفضل) : كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما
بعد تاريخ ابن العسيد ، باريس ، ١٩١١

٩ - ابن الأثير (على بن أحمد بن أبي الكرم) : الكامل في التاريخ ،
طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ

١٠ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق الاستاذ
عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣

١١ - ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد) : بدائع الزهور في وقائع
الدهور ، نشره الأساتذة باول كاله ومحمد مصطفى وسوبرنهايم ،
الاجزاء الثالث والرابع والخامس ، اسطنبول ١٩٦٠-١٩٦٣

١٢ - ابن أيك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله) : الدر الفاخر في سيرة
الملك الناصر ، ج ٩ ، تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٣ - ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة في
تاريخ علماء الأندلس ، نشره دون فرنسيسكو كوديره
Don Francisco Copera ، مدريد ١٨٨٣

١٤ - ابن بطريق (سعيد المعروف بأوتيا) : كتاب التاريخ المجموع على
التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥

١٥ - ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد) رحلة ابن بطوطه ، بيروت ، ١٩٦٠

١٦ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) : النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزء ، طبعة دار الكتب المصرية
القاهرة ، ١٩٣٨

١٧ - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق
وليم رايت William Wright ، لندن ، ١٩٠٧

١٨ - ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين يوسف بن فيزوغلى السبط)
كتاب مرآة الزمان ، ج ٨ طبعة شيكاغو ١٩٠٧ ، وحيدر آباد
١٩٥١ ، ١٩٥٢

١٩ - ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) : زبدة كشف المسالك
وبيان الطرق والمسالك ، نشره پول رافيس Paul Ravaisson
باريس ١٨٩٤

٢٠ - ابن الشحنة (أبو الوليد مجد الدين محمد الحلبي) : كتاب الدر
المنتخب في تاريخ مسلكة حلب ، نشره الاستاذ يوسف سرقيس ،
بيروت ١٩٠٩ .

٢١ - ابن شداد (القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين ،
تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤

٢٢ - ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي الحلبي) : الأعلام
الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، نشره الدكتور سامي الدهان
المعهد الفرنسي بدمشق ، دمشق ، ١٩٦٢

٢٣ - ابن صصري (محمد) : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، نشره
وليمم . برينر المجلد الثاني (النص العربي) ، لوس انجليس ، ١٩٦٣

٢٤ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق
الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١

- ٢٥ — ابن عبد الظاهر (محيي الدين) تشریف الأيام والعصور في سيرة المنصور . تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١
- ٢٦ — ابن العديم الحلبي (كمال الدين أبو القاسم عمر) : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١
- ٢٧ — ابن فضل الله العسري (شهاب الدين) : كتاب مسالك الأبصار في مسالك الأمصار ، مخطوطة (نسخة مصورة) محفوظة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٦٨ تاريخ ، القسم الثالث من الجزء الثاني .
- ٢٨ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ ابن الفرات تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، (الأجزاء السابع والثامن والتاسع) بيروت ، ١٩٣٩
- ٢٩ — ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي) : تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق دون فرنشيسكو كوديرة ، مدريد ، ١٨٩١
- ٣٠ — ابن انقلاسي (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق . بيروت ، ١٩٥٨
- ٣١ — ابن كثير الدمشقي (عباد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر) البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٣ طبعة مصر ، ١٩٣٢
- ٣٢ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٦٥
- ٣٣ — أبو شامة (عباد الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦

- ٣٤ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر في أخبار
البشر ، صيدا ١٩٥٩
- ٣٥ - البيذق (أبو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ؛
تحقيق الاستاذ ليقى بروقنسال ، باريس ١٩٢٨
- ٣٦ - الجزنائي (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس
نشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢
- ٣٦ - الحلبي (كامل حسين بن محمد البالى) : فهر الذهب في تاريخ حلب،
حلب ، ١٩٢٦
- ٣٧ - الدوادار (بييرس) : زبدة الفكر في تاريخ الهجرة ، مخطوط محفوظ
بمكتبة جامعة القاهرة (نسخة مصورة) رقم ٢٤٠٢٨
- ٣٨ - الذهبي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد) : العبر في خبر من
غير ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٣٠
- ٣٩ - الروذراورى (أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين) : ذيل
كتاب تجارب الأمم ، ج ٣ ، طبعة مصر ، ١٩١٦
- ٤٠ - الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر) : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،
تحقيق الاستاذ السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٤٦
- ٤١ - صالح بن يحيى : تاريخ بيروت وأخبار الامراء الباحثين من بنى
العرب ، نشرة الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت ، ١٨٩٨
- ٤٢ - علوى (ناصرى خسرو) : سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب،
القاهرة ١٩٤٥

٤٣ — العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين) : الفتح
القسي في الفتح القدسي ، نشره الاستاذ محمد محمود صبيح ،
القاهرة ، ١٩٦٥

٤٤ — غلبون الطرابلسي (أبو عبدالله محمد بن خليل) : تاريخ طرابلس
الغرب المسمى «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار» ،
نشره الاستاذ الطاهر أحمد الزاوي ، القاهرة ١٣٤٩ هـ

٤٥ — القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : صبح الأعشى في صناعة
الانشا ، ١٤ جزء القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٥

٤٦ — مجهول : مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ،
نشرها الاستاذان ليقي پروينسأل Lévi Provençal وغرسيه غومث
Garcia Gome^z ، مدريد ١٩٥٠

٤٧ — مجهول : تاريخ الملك الأشرف قايتباي ، مخطوطة محفوظة بدار
الكتب المصرية تحت رقم ٨٥٥٤

٤٨ — المقدسي (اشمس الدين أبو عبد الله محمد) : أحسن التقاسيم في
معرفة الأقاليم ، طبعة ، رنوية ، لندن ، ١٩٠٦

٤٩ — المقرئزي (تقى الدين أحمد بن علي) : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة
الخلا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٥٠ — السلوك لمعرفة دول الملوك ، الأجزاء المطبوعة ، تحقيق
الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والجزء السابع مخطوطة مصورة بدار
الكتب المصرية

٥١ — المقرئى : كتاب اغائة الامة بكشف الغمة ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشىال والدكتور محمد مصطفى زىادة ، القاهرة ، ١٩٥٧

٥٢ — النورى (شهاب الدين اأمد) : نىاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية ، الازاء من ١٩ الى ٣١ تحت رقم ٥٤٩

٥٣ — النورى (محمد بن قاسم السكندرى) : كتاب الالام بالاعلاء فىما جرت به الأحكام والأمر المقضية فى واقعة الاسكندرية ، مخطوط ، نسخة محمود حمدى رقم ٤١٩٣ محفوظة بدار الكتب المصرية

٥٤ — ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) : معجم البلدان ، خمس مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٥٥ — ... المشترك وضعا والمفترق صقعا ، نشره وستفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٦

٥٦ — اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح) : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٠

٥٧ — اليونينى (قطب الدين أبو الفتح) : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، طبعة حيدر آباد ، ١٩٥٤

ثانيا : المصادر غير العربية والمترجمة

٥٨ — Viajes de Benjamin de Tudela, traduccion espanola
por Ignacio Gonzalez Llubera, Madrid, 1918

٥٩ — مجهول : أعسال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمه وعلق عليه
الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨

ثالثا : المصادر العربية الحديثة والمترجمة

٦٠ — أبو عز الدين (الاستاذ حليم) : محافظة الشمال ، محاضرة من
سلسلة محاضرات دار الندوة اللبنانية بعنوان « لبنان في محافظات »
السنة ١٥ ، النشرة ١ : ٢ — بيروت ١٩٦١

٦١ — البابا (الشيخ كامل) : من آثار التاريخ الطرابلسي ، حديث بسجلة
الارشاد الاجتماعى ، طرابلس ، العدد ٢٧ نيسان ١٩٦٢

٦٢ — بدر (الدكتور مصطفى طه) : مغول ايران بين المسيحية والاسلام

٦٣ — الترك (الاستاذ غالب) : محافظة الجنوب ، من سلسلة محاضرات
دار الندوة اللبنانية . دار الندوة ، بيروت ١٩٦١

٦٤ — توفيق (الدكتور عمر كمال) : مملكة بيت المقدس الصليبية ،
الاسكندرية ١٩٥٨

- ٦٥ — حبشي (الدكتور حسن) : الحرب الصليبية الاولى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٤٧ ، والطبعة الثانية ١٩٥٨
- ٦٦ — : نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨
- ٦٧ — حتى (الدكتور فيليب) : لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة ، والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩
- ٦٨ — : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، جزآن . بيروت ١٩٥٨
- ٦٩ — حسن (الدكتور حسن ابراهيم) : انتشار الاسلام بين المغول والتتار ، القاهرة ١٩٣٣
- ٧٠ — خورى (الاستاذ ميخائيل نجم) : سيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس . رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بيروت الاميريكية ١٩٦١ (بالآلة الكاتبة)
- ٧١ — الدبس (يوسف) : تاريخ سورية . الجزء الخامس . بيروت ١٩٥٥
- ٧٢ — دراج (الدكتور أحمد السيد) : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال في المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩
- ٧٣ — المسالك والفرنج في القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ٧٤ — دروزة (الاستاذ محمد عزة) : العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجرى ، ٣ أجزاء ، دمشق ١٩٥٩
- ٧٥ — اندويهي (أسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ١٨٩٠

٧٦ — رستم (الدكتور أسد) : الروم والعرب ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٦

٧٧ — الزاوى (الاستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ،
القاهرة ١٩٦٣

٧٨ — زكى (دكتور عبد الرحمن) : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى
بين العرب والصليبيين ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٧
سنة ١٩٥٨

٧٩ — سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : بيوت الله مساجد ومعاهد ،
ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٩

٨٠ — : تاريخ الاسكندرية وحضارتها
فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦١

٨١ — : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى
العصر الاسلامى ، مجلة كلية الآداب ، عدد ١٦ ، السنة ٦٢ ، ١٩٦٣

٨٢ — : الصلات التاريخية بين الشام ومصر
فى العصر الاسلامى ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو ١٩٦٤

٨٣ — : تاريخ المسلمين وآثارهم فى
الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٨٤ — : الآثار الاسلامية فى دير سانت
كاترين بطورسينا ، مجلة العلوم ، العدد الاول للسنة العاشرة ،
يناير ١٩٦٥

٨٥ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي ، بيروت ١٩٦٥

٨٦ - : طرابلس الشام تاريخها وآثارها الاسلامية ، من محاضرات الموسم الثقافي لجمعية مكارم الاخلاق الاسلامية ، طرابلس ١٩٦٤

٨٧ - : المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

٨٨ - سركيس (الأستاذ يعقوب) : مقال عن البصرة ، مجلة سومر ، ج ١ مجلد ٢ ، بغداد ١٩٤٨

٨٩ - سرور (دكتور محمد جمال الدين) : دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧

٩٠ - : النفوذ الفاطمي على بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٩

٩١ - : دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠

٩٢ - : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة ١٩٦٠

٩٣ - شيخو (الأب لويس) : بيروت ، تاريخها وآثارها ، بيروت ١٩٢٧

٩٤ - الشيال (دكتور جمال الدين) : الاسكندرية في العصرين الأيوبي

- والمملوكى ، بسجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ، ١٩٤٩
- ٩٥ - الشيال (دكتور جمال الدين) : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة
وتطورها ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ١٩٤٩
- ٩٦ - : اعلام الاسكندرية ، الاسكندرية
١٩٦٥ .
- ٩٧ - الشدياق (الشيخ طنوس بن يوسف) : أخبار الأعيان في جبل
لبنان : بيروت ١٩٥٤
- ٩٨ - الصياد (الدكتور فؤاد عبد المعطى) : المغول في التاريخ ، القاهرة
١٩٦٠
- ٩٩ - طلس (الأستاذ محمد أسعد) : تاريخ الامة العربية ، عصر الانحدار ،
بيروت ، ١٩٦٣
- ١٠٠ - عاشور (دكتور سعيد عبدالفتاح) : قبرس والحروب الصليبية ،
القاهرة ١٩٥٧
- ١٠١ - : أوروبا في العصور الوسطى ،
ج ٢ ، النظم والحضارة ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٠٢ - : مصر في عصر دولة المماليك
البحرية ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٠٣ - : الحركة الصليبية ، جزآن ،
القاهرة ١٩٦٣

١٠٤ — عاشور (دكتور سعيد عبدالفتاح) : العصر الماليكى فى مصر والشام ،
القاهرة ، ١٩٦٥

١٠٥ — : الناصر صلاح الدين ، القاهرة
١٩٦٥

١٠٦ — عبد الكريم (الدكتور أحمد عزت) : التقسيم الإدارى لسورية فى
العهد العثمانى ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، مجلد ١ ،
مايو ١٩٥١

١٠٧ — العدوى (دكتور ابراهيم احمد) : الأمويون والبيزنطيون ،
القاهرة ١٩٥٣

١٠٨ — : الدولة الإسلامية وامبراطورية
الروم ، القاهرة ١٩٥٨

١٠٩ — : العرب والتتار ، المكتبة
الثقافية ، ١٩٦٣

١١٠ — العرينى (دكتور السيد الباز) : مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة
١٩٦٠

١١١ — عنان (الاستاذ محمد عبدالله) : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط
المصرية ، القاهرة ١٩٣١

١١٢ — : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ،
القاهرة ١٩٤٧

١١٣ — غراية (دكتور عبد الكريم) : العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١

- ١١٤ - فريجة (الدكتور أنيس) : أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ، منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت ، بيروت ١٩٥٦
- ١١٥ - كرد علي (الاستاذ محمد) : خطط الشام ، ج٣، ج٦، دمشق ١٩٢٦
- ١١٦ - لامس (الأب هنري) : تسريح الأبصار فيما يحتويه لبنان من الآثار ، بيروت ، جزآن ١٩١٤
- ١١٧ - لامونت (جون) : الحروب الصليبية والجهاد ، مقال في «دراسات اسلامية» ترجمة الاستاذ أنيس فريجة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠
- ١١٨ - لباد (الاستاذ ميشيل) : الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصيف ، بيروت ١٩٥٢
- ١١٩ - لورته (لويس) : مشاهدات في لبنان ، من كتاب سورية اليوم ، الاستاذ كرم البستاني ، بيروت ١٩٥١
- ١٢٠ - لويس (برنارد) : العرب في التاريخ ، تعريب الدكتور نبيه أمين فارس والدكتور يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤
- ١٢١ - ماجد (دكتور عبد المنعم) : الناصر صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة ١٩٥٨
- ١٢٢ - : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٢٣ - : الامام المستنصر بالله الفاطمي ، القاهرة ١٩٦٢

- ١٢٤ - ماجد (دكتور عبد المنعم) : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣
- ١٢٥ - : نظم دولة سلاطين المساليك ورسومهم في مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤
- ١٢٦ - مزهر (دكتور يوسف) : تاريخ لبنان العام ، ج ١ بيروت
- ١٢٧ - مؤنس (دكتور حسين) : نور الدين محمود ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٢٨ - ميخائيل (دكتور نجيب) : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ سورية ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٢٩ - نسيم يوسف (دكتور جوزيف) : الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآداب عدد ٢٦ ، سنة ٦٢ ، ١٩٦٣
- ١٣٠ - : لويس التاسع في الشرق الاوسط القاهرة ١٩٥٩
- ١٣١ - : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٣
- ١٣٢ - نقاش (دكتور زكى) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ، بيروت ، ١٩٥٨
- ١٣٣ - نويهض (الاستاذ عجاج) : أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، بيروت ١٩٦٢
- ١٣٤ - ينى (جورجى) : تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١

رابعاً : المراجع الأوربية الحديثة

١٣٥ - عطية (الدكتور عزيز سوريال) : الحركة الصليبية في العصر الوسيط المتأخر ، لندن ، ١٩٣٨ (باللغة الانجليزية)

Atiya(Aziz Surial) : The Crusade in the later Middle age,
London, 1938

١٣٦ - بولانجير (رويير) : لبنان (مجموعة الدليل الازرق) ، باريس ١٩٥٥ (باللغة الفرنسية)

Boulanger (Robert) : Liban, (Les Guides Bleus), Paris, 1955

١٣٧ - بهل (إف) : طرابلس ، مقال بدائرة المعارف الاسلامية

Buhl (Fr.) : Tarabulus, Encyclopédie de l'Islam

١٣٨ - كاهن (كلود) : سورية الشمالية في عصر الصليبيين ، باريس ١٩٤٠ (بالفرنسية)

Cahen (Claude) : La Syrie du Nord à l'époque des
Croisades , Paris, 1940

١٣٩ - كومب (اتين) : نص النويرى عن واقعة القبارصة بالاسكندرية
مجلة جامعة الاسكندرية كلية الآداب ، مجلد ٣ ، ١٩٤٦ (بالفرنسية)

Combe (Et.) : Le texte du Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie
par Pierre de Lusignan, Alexandria University, Bulletin
of the Faculty of Arts, vol. III, 1946

١٤٠ - كوندى (بروس) : طرابلس لبنان ، بيروت ١٩٦١ (باللغة الانجليزية)

Condé (Bruce) : Tripoli of Lebanon, Beirut, 1961

١٤١ - دى لاڤيل لى رولكس : فرسان الاستارية فى الارض المقدسة
وقبرس ، باريس ١٩٠٤ (بالفرنسية)

Delaville le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Sainte, et à
Chypre (1100 - 1310), Paris, 1904

١٤٢ - ديومبين (جودفرى) : الشام فى عصر المساليك . باريس ١٩٢٣
(بالفرنسية)

Demombynes (Gaudelroy) : La Syrie à l'époque des
Mamelouks, Paris 1923

١٤٣ - ديب (بير) : الكنيسة المارونية ، مجلد ١ ، باريس ١٩٣٠
(بالفرنسية)

Deb (Pierre) : L'Eglise Maronite, vol. I, Paris, 1930

١٤٤ - ديل (شارل) : تاريخ الدولة البيزنطية ، باريس ، ١٩٢٤
(بالفرنسية)

Diehl (Charles) : Histoire de l'Empire Byzantin, Paris 1924

١٤٥ - ديسو (رينيه) : الطبوغرافية التاريخية للشام فى العصور القديمة
وفى العصور الوسطى ، مطبوعات الادارة العليا للجمهورية الفرنسية
فى سورية ولبنان ، المكتبة الاثرية والتاريخية ، مجلد ٤ ، باريس
١٩٢٧ (بالفرنسية)

Dussaud (René) : Topographie historique de la Syrie antique

et médiévale, le Pub. du Haut Commissariat de la Rép. française en Syrie et au Liban, Bibliothèque archéologique et historique, t. IV, Paris, 1927.

١٤٦٠ هـ ديسو (رينيه) : ديشام - ميريج : ميوزيكا القديمة في العصور
الوسطى : باريس ١٩٣١ (بالفرنسية)

Dussaud (R.) : Deschamps (P.) : Seyrig (H.) : La
Syrie antique et médiévale, Paris 1931.

١٤٧٠ هـ فورز (ادورف) : الإمبراطورية البيزنطية : لندن ١٩١١
(بالإنجليزية)

Fobes (Edward) : The Byzantine empire, London 1911.

١٤٨٨ هـ جينوف (ادورف) : تاريخ اتيار وتسقوط الإمبراطورية الرومانية
: بلندن ١٩١٣ (باللغة الإنجليزية)

Gibbon (Edward) : The history of the decline and fall of
the Roman Empire, vol. VI, London 1911.

١٤٩٩ هـ هاردي (دولالم) : تليفينيون : لندن ١٩٣٥ (بالإنجليزية)

Hildes (Edmund) : The Phoenicians, London 1908.

١٥٠٥ هـ هيلاند : تاريخ الجبل : في الشرق : بلندن ١٨٧٥
(بالفرنسية)

Hdyd History of the Levant 2 vols, Leipzig, 1883.

١٥١١ هـ كنج (امج) : فرسان الاستاذ في الاموط القديمة : لندن ١٩٣١
(بالإنجليزية)

King (E. J.) : The Knights, Hospitallers in the Holy Land,
London 1931

١٥٢ — لامنس (هنرى) : سورية ، مختصر تاريخى ، بيروت ١٩٢١
(بالفرنسية)

Lammens (H.) : La Syrie, précis historique, Beyrouth 1921

١٥٣ — لايبير (پوقيه) ، جوتيه ، چوچيه : مصر ، ، مختصر تاريخ
مصر ، مجلد ١ ، القاهرة ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Lapierre (Bovier) & Gauthier & Jouget : L'Egypte, dans
Précis de l'histoire d'Egypte, t. I, Le Caire 1932

١٥٤ — لبنان فى مواجهة تقدمه (مطبوعات معهد التخطيط لمواجهة النمو)
بيروت ١٩٦٣ (بالفرنسية)

Le Liban face à son développement, Pub. de l'Institut de
formation en vue du développement, Beyrouth, 1963

١٥٥ — ميشو ، تاريخ الحركة الصليبية ، مجلد ٤ ، باريس ١٨٢٢ (بالفرنسية)

Michaud, Histoire des Croisades. vol. 4, Paris 1822

١٥٦ — ناتيه (جاك) : تاريخ لبنان ، باريس ١٩٦٣ (بالفرنسية)

Nantet (Jacques) : Histoire du Liban, Paris 1963

١٥٧ — أومان : الامبراطورية البيزنطية ، لندن ١٩١٤ (بالانجليزية)

Oman, The byzantine empire, London 1914

١٥٨ — تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان : عضوية الاساتذة بول كويار

والأمير موريس شهاب وأرماندو ديلون ، اليونسكو ، باريس
١٩٥٤ (بالفرنسية)

Rapport de la mission envoyée par l'Unesco en 1953 au
Liban : membres Mrs : Paul Collart, Faur Maurice
Chelab et Armando Delon, publié sous le titre : Liban,
aménagement de la ville de Tripoli et du site de
Baalbek, Paris 1954

١٥٩ — جامع مؤرخي الحركة الصليبية ، مجلد ٣ ، ٤ (بالفرنسية)

Recueil des Historiens des Croisades, vols III, IV.

١٦٠ — رى : المستعمرات الصليبية في الشام في القرنين ١٢ ، ١٣ ،
باريس ١٨٨٣ (بالفرنسية)

Rey (P.) : Colonies francaes en Syrie aux XII et XIII e
siècles, Paris, 1883

١٦١ — ريشارد (جان) : كوتية طرابلس في ظل الأسرة الطولوشية ،
باريس ١٩٤٥ (بالفرنسية)

Richard (J.) : Le Comté de Tripoli sous la dynastie
Toulousaine, Paris, 1945

١٦٢ — روسيه : تاريخ الحركة الصليبية ، باريس ١٩٥٧ (بالفرنسية)

Rousset (P.) : Histoire des Croisades, Paris 1957

١٦٣ — رنسمان (ستيفان) : تاريخ الصليبيين ، مجلد ٢ ، كامبردج ١٩٥٢
(بالانجليزية)

Runciman (Steven) : A history of the Crusades, vol. II,
Cambridge 1952

١٦٤ — سوقاچيه : ملاحظات عن الدفاع البحرى بطرابلس ، مجلة متحف
بيروت ، باريس ١٩٣٩ (بالفرنسية)

Sauvaget (J.) : Notes sur les defenses de la Marine de
Tripoli dans B. de la musée de Beyrouth, Paris 1938

١٦٥ — شلومبرجر (جوستاف) ، السكة فى الشرق اللاتينى ، باريس
١٨٧٨ (بالفرنسية)

Schlumberger (Gustave) : Numismatique de l'Orient Latin,
Paris, 1878

١٦٦ — سوبرنهايم (موريتز) : مجموعة النقوش العربية ، جزء ٢٥ ،
١٩٠٩ (بالفرنسية)

Sobernheim (Mortiz) : Corpus Inscriptionum Arabicarum,
t. XXV, 1909

١٦٧ — ستقسن : الصليبيون فى الشرق ، كامبردج ، ١٩٠٧ (بالانجليزية)

Stevenson (W. B.) : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907

١٦٨ — فان برشام (ماكس) ، فاتيو (ادموند) : رحلة فى سورية ،
القاهرة ١٩١٤ (بالفرنسية)

Van Berchem & Fatio (E.) : Voyage en Syrie, dans Mémoires
de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t.
37, le Caire 1914

١٦٩ — فازيليف : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ترجمه من الروسية
برودان ، باريس ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Vasiliev, Histoire de l'Empire byzantin, trad. du Russe par
Brodin, Paris 1932

١٧٠ — فييت (جاستون) : بنو عمار ، مقال بدائرة المعارف الاسلامية
الطبعة الجديدة (بالفرنسية)

Wiet (Gaston) : Banu Ammar, Ency. de l'Islam

١٧١ — نقش لأحد أمراء طرابلس من أسرة بنى عمار
باريس ١٩٢٨ (بالفرنسية)

Wiet (Gaston) : Une inscription d'un prince de Tripoli de la
dynastie des Banu Ammar, dans Memorial Henri Basset,
Pub. par l'Institut de H. E. M. t. XVIII, Paris 1928

١٧٢ — فييت ، كومب ، سوقاچية : مجموعة النقوش العربية ، القاهرة
١٩٣١ — ١٩٤٤

Wiet & Combe & Sauvaget : Répertoire Chronologique
d'Épigraphie Arabe, le Caire, 1931 — 1944

١٧٣ — وودهاوس : المنظمات الحربية الدينية في العصور الوسطى ،
لندن ، ١٨٧٩ (بالانجليزية)

Woodhouse (F. C.) : The military religious orders of the
middle ages, London, 1879



١٧٤ — ينى (اميل) : بيروت ، في محافظات لبنان ، ١٩٦١ (بالفرنسية)

Yanni : (Emile) : Beyrouth, dans *Physionomies du Liban*,

Beyrouth, 1961

١٧٥ — زيادة (دكتور نقولا) : الحياة العمرانية في الشام في عصر
المماليك البحرية ، بيروت ، ١٩٥٣ (بالانجليزية)

Ziadeh (Nicola) : *Urban life in Syria under the early*

Mamluks, Beirut, 1953

فهرس موضوعات الكتاب

مفترسين

صفحة

١١ مقدمة

متمهنة

٤٠ (١) (١) طرايبليس: نوتهسبيره

١٠٠ (٢) (٢) موقع طرايبليس أو أثره في كيانها الاقتصادي

١٨٠ (٣) (٣) طريق طرايبليس للقنصلية

المجلد الأول

تاريخ طرايبليس في العهد الإسلامي

الفصل الأول

طرايبليس في العهد الإسلامي حتى العهد العثماني

٣٣١ (١) (١) فتح طرايبليس

٣٧٧ (٢) (٢) طرايبليس في العهد العثماني

٣٧٧ (٣) (٣) طرايبليس في العهد العثماني

٤٢٢ (٤) (٤) طرايبليس في العهد العثماني

(١) (١) طرايبليس في العهد العثماني

٤٧٧ (٢) (٢) طرايبليس في العهد العثماني

٤٧٧ (٣) (٣) طرايبليس في العهد العثماني

صفحة

- ب - ولادة الفاطميين على طرابلس بعد ريان الخادم ... ٥٠
- ١ - القائد نزال الكتامي ... ٥٠
- ٢ - جيش بن محمد بن الصمصامة ... ٥١
- ٣ - على بن جعفر بن فلاح ... ٥١
- ٤ - الأمير تميم التنوخي ... ٥١
- ٥ - ميسور الخادم ... ٥٢
- ٦ - القاضي أبو الحسن على بن عبد الواحد بن حيدرة
الكتامي ... ٥٢
- ٧ - القائد أبو سعادة ... ٥٢
- ٨ - مختار الدولة بن نزال الكتامي ... ٥٣
- ج - غارات البيزنطيين على طرابلس ... ٥٣
- أولا - حملة ابن الششقيق (سنة ٣٦٥) ... ٥٣
- ثانيا - حملة بسيل الثاني الأولى (٣٨٥ هـ) ... ٥٦
- ثالثا - حملة بسيل الثاني الثانية (٣٨٩ هـ) ... ٥٨

الفصل الثاني

طرابلس إمارة عربية مستقلة في ظل بني عمار

- (١) المرحلة الأولى (٤٦٢ - ٤٩٢) ... ٦٣
- أ - تأسيس الإمارة ... ٦٣
- ب - عصر جلال الملك أبو الحسن على بن عمار
(٤٦٤ - ٤٩٢) ... ٦٨

صفحة

٧٣	(٢) المرحلة الثانية (٤٩٢ - ٤٩٥)
٧٣	أ - طرابلس في ظل فخر الملك بن عمار ...
٧٦	ب - الصليبيون في الشام ...
٨١	ج - موقف فخر الملك من الصليبيين ...
٨٣	د - سقوط بيت المقدس وموقف الفاطميين ...
٨٨	هـ - ريموند الصنجيلي وبداية الحصار على طرابلس ...
٩٣	(٣) المرحلة الثالثة (٤٩٥ - ٥٠١ هـ) ...
٩٣	أ - الحصار الصليبي الثاني حول طرابلس في سنة ٤٩٧
	ب - فخر الملك يقاوم وليم جوردان السوداني
٩٧	(٤٩٨ - ٥٠١ هـ) ...

الفصل الثالث

سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين

١٠٥	(١) الانقلاب الداخلي في طرابلس وسقوط أسرة بني عمار ...
	أ - خروج فخر الملك بن عمار الى بغداد لاستتفار الخليفة العباسي المستظهر والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٥٠١ هـ) ...
١٠٩	ب - انصواء طرابلس للفاطميين (٥٠١ - ٥٠٢) ...
١١٣	(٢) استيلاء برتران بن صنجيل على طرابلس في سنة ٥٠٢ هـ
١١٣	أ - الموقف حول طرابلس بعد وصول برتران ...

صفحة

١١٧	ب - الحصار الثالث وسقوط طرابلس في أيدي الصليبيين في سنة ٥٠٢
١٢٢	(٣) عوامل سقوط طرابلس
١٢٢	أ - ضعف الجبهة الإسلامية
١٢٤	ب - استهتار الفاطميين بالموقف في طرابلس
١٢٧	ج - مساعدة الجنوية والمردة للصليبيين
١٣٠	د - استيلاء الصليبيين على المدن المحيطة بطرابلس ..

الفصل الرابع

طرابلس كونتية صليبية

١٣٥	(١) نشأة الكونتية وحدودها الجغرافية
١٤٠	(٢) قمامصة طرابلس من البيت الطولوشي
١٤٠	١ - ريموند دي سان جيل
	٢ - السرداني وليم چوردان ونزاعه مع برتران بن ريموند الصنجيلي
١٤١	٣ - الكونت برتران بن ريموند الصنجيلي (١١٠٩ -
١٤٦	١١١٢ م)
١٤٩	٤ - الكونت بوثر بن برتران (١١١٢ - ١١٣٧)
١٥٢	٥ - الكونت ريموند الثاني بن بوثر (١١٣٧ - ١١٥٢)
	٦ - الكونت ريموند الثالث بن ريموند الثاني (١١٥٢ -
١٥٧	١١٨٧)

صفحة	
١٦٢	(٣) أمراء طرابلس من البيت النورماندى بأنطاكية
١٦٢	١ — بوهند الرابع (١١٨٧ — ١٢٣٣ م)
١٦٩	٢ — بوهند الخامس (١٢٣٣ — ١٢٥١)
١٧٠	٣ — بوهند السادس (١٢٥١ — ١٢٧٥)
١٧٨	(٤) علاقة كوتية طرابلس بالدول المسيحية المجاورة
١٧٨	أ — علاقة الكوتية بالدولة البيزنطية
١٨٥	ب — علاقة الكوتية بمملكة بيت المقدس
١٩١	ج — علاقة الكوتية بامارة أنطاكية
١٩٦	(٥) نظم الحكم والحضارة في كوتية طرابلس الصليبية
١٩٦	أ — الكونت وسلطاته
١٩٩	ب — مقدمو الكوتية
٢٠١	ج — النظام الحربى
٢٠٤	د — النظام المالى
٢٠٨	هـ — الكنيسة
	و — منظمات الرهبان العسكريين (أو جماعة الفرسان
٢١٢	الاستبارية والداوية)
٢٢٣	ز — عناصر السكان البلديين في كوتية طرابلس
٢٢٣	١ — المسلمون
٢٢٥	٢ — النصارى
٢٢٩	٣ — اليهود
٢٣٠	ج — الحياة الاقتصادية في الكوتية

صفحة

ط - الحياة العلمية ٢٣٢

الفصل الخامس

استرداد المسلمين لطرابلس

- (١) محاولات صلاح الدين وخلفاؤه من البيت الأيوبي . . . ٢٣٦
- أ - المد الاسلامي في عهد نور الدين ٢٣٦
- ب - سياسة صلاح الدين والمادل نحو كوتية طرابلس ٢٤٩
- (٢) غزو بيرس لأراضى الكوتية ٢٦٥
- أ - تجريد كوتية طرابلس من حصونها ومعقلها الامامية ٢٦٥
- ب - عوامل تأخير استرداد المسلمين لطرابلس ٢٧١
- (٣) سقوط طرابلس في أيدي المسلمين ٢٨١
- أ - وضع اماره طرابلس بعد وفاة بوهنبند السادس . . . ٢٨١
- ب - معركة التحرير ٢٨٨

الفصل السادس

طرابلس في ظل المماليك

- (١) نيابة طرابلس وأعمالها ٢٩٩
- أ - نيابات الشام في عصر المماليك ٢٩٩
- ب - نائب السلطنة بطرابلس وكبار موظفي النيابة . . . ٣٠٥
- ج - أعمال نيابة طرابلس ٣١٠
- أولاً - الأعمال الكبرى ٣١٠
- ثانياً - الأعمال الصغرى ٣١٢

صفحة	
٣١٤	ثالثا - نيابات قلاع الدعوة
٣١٧	د - كشف بأسساء نواب السلطنة بطرابلس في عصر الماليك
٣٢٦	(٢) الأحداث الهامة في نيابة طرابلس
٣٢٦	أ - الفتن والقتال
٣٢٦	١ - في عهد الناصر محمد بن قلاوون
٣٢٩	٢ - في عهد الظاهر برقوق
٣٣١	٣ - في عهد الناصر فرج بن برقوق
٣٣٤	ب - الفناء الكبير
٣٣٧	ج - غارات القبارصة على طرابلس
٣٥١	د - غارات الجنوية على طرابلس
٣٥٤	(٣) طرابلس في بداية العصر العثماني
٣٥٤	أ - طرابلس بعد الفتح العثماني
٣٦٠	ب - طرابلس في ظل بني سيف

الباب الثاني

الحضارة

الفصل السابع

بعض مظاهر الحضارة في طرابلس في العصر الاسلامي

٣٦٦	(١) مدينة طرابلس
٣٦٦	أ - المدينة العتيقة
٣٧٠	ب - المدينة المحدثه
٣٧٨	(٢) الحياة الاقتصادية والعلمية في طرابلس الاسلامية

صفحة	
٣٧٨	أ - الزراعة والصناعة
٣٨٣	ب - التجارة
٣٨٥	ج - الحياة العلمية
٣٩١	(٣) الدفاع البرى والبحرى

الفصل الثامن

الآثار الباقية

٤٠٠	(١) المساجد
٤٠٠	١ - الجامع المنصوري الكبير
٤٠٧	٢ - مسجد عبدالواحد المكناسى
٤٠٩	٣ - مسجد الأمير طينال
٤١٣	٤ - مسجد العطار
٤١٥	٥ - مسجد الدباغين
٤١٥	٦ - زاوية أرغون شاه
٤١٦	٧ - مسجد الأويصة
٤١٨	(٢) المدارس والخانقاه
٤١٨	١ - المدرسة القرطائية
٤٢٢	٢ - المدارس المحيطة بالجامع
٤٢٥	٣ - جامع ومدرسة البرطاسى
٤٢٩	٤ - المدرسة الزريقية
٤٣٠	٥ - المدرسة السقرقية
٤٣١	٦ - المدرسة الخاتونية
٤٣١	٧ - المدرسة الظاهرية

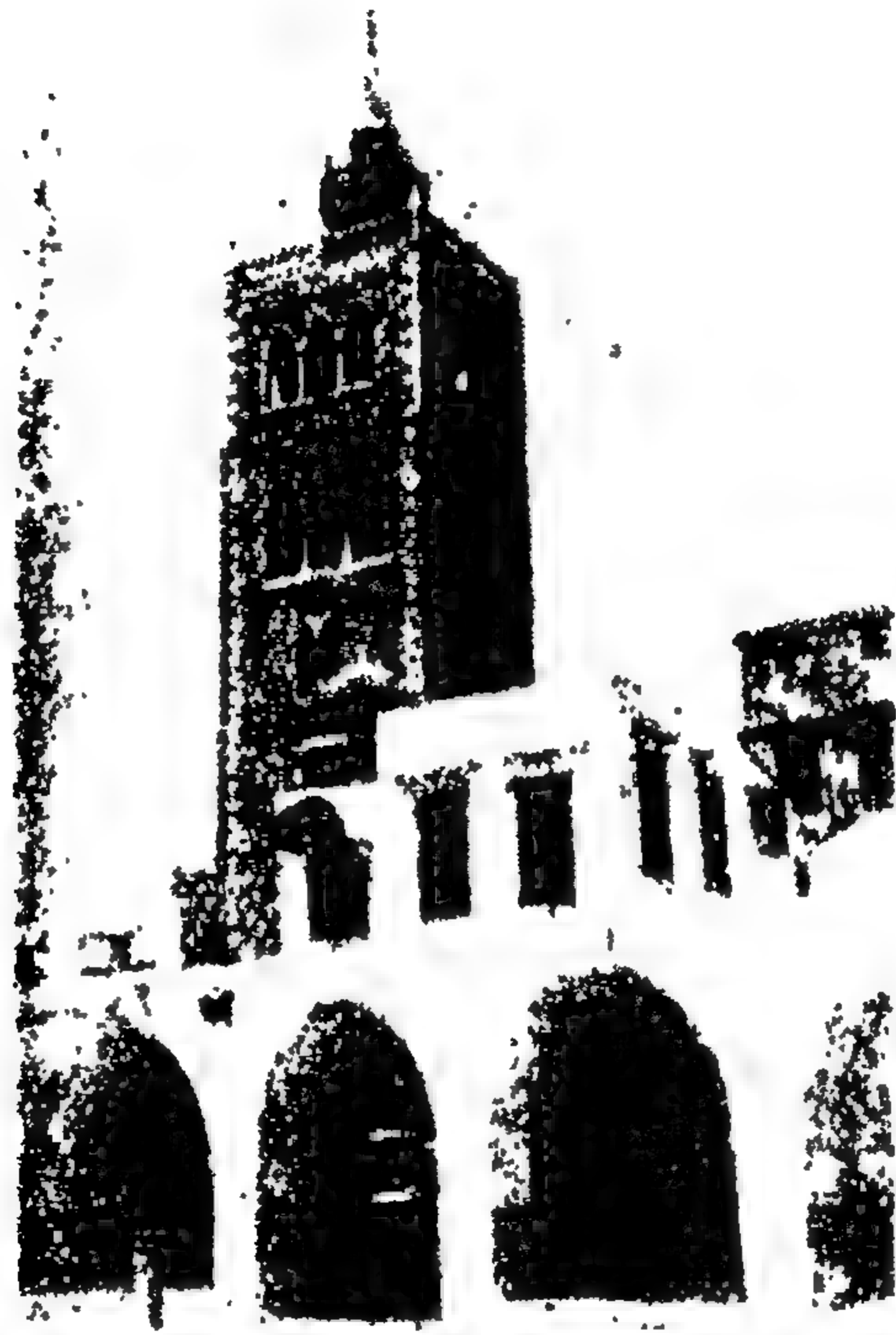
٤٣٣	٨ — المدرسة الطويشية
٤٣٤	٩ — المدرسة العجمية
٤٣٥	١٠ — الخانقاه
٤٣٦	(٣) النحتينات البرية والبحرية
٤٣٧	١ — قلعة صنجيل
٤٤٠	٢ — أبراج الميناء
٤٥١	(٤) المنشآت المدنية
٤٥١	أ — الحمامات
٤٥٣	ب — الخانات والأسواق
٤٥٥	ج — جسر نهر قاديشا
٤٥٦	د — سبيل النيسة

الملاحق

٤٥٩	ملحق رقم ١ : الأقوال في واقعة طرابلس الشام (عن النويري السكندري)
٤٧٢	ملحق رقم ٢ : وصف مدينة طرابلس الشام (عن ابن فضل الله العمري)
٤٧٥	ملحق رقم ٣ : أ — نص وقفية جامع طينال (نقش كتابي)
٤٧٥	ب — نص وقفية تربة طينال (نقش كتابي)
٤٧٧	ملحق رقم ٤ : أ — مرسوم أصدره السلطان قايتباي (نقش كتابي)
٤٧٧	ب — مرسوم أصدره السلطان قايتباي (نقش كتابي)
٤٧٩	ملحق رقم ٥ : نص اللوحة الانشائية ووقفية جامع ومدرسة السقرقية

لوحات الكتاب

« لوحة ١ »



الجامع المنصورى الكبير : المئذنة الشمالية والمنذنة

« لوحه ٢ »



الجامع المنصوري : عقد المدخل

« لوحه ٣ »



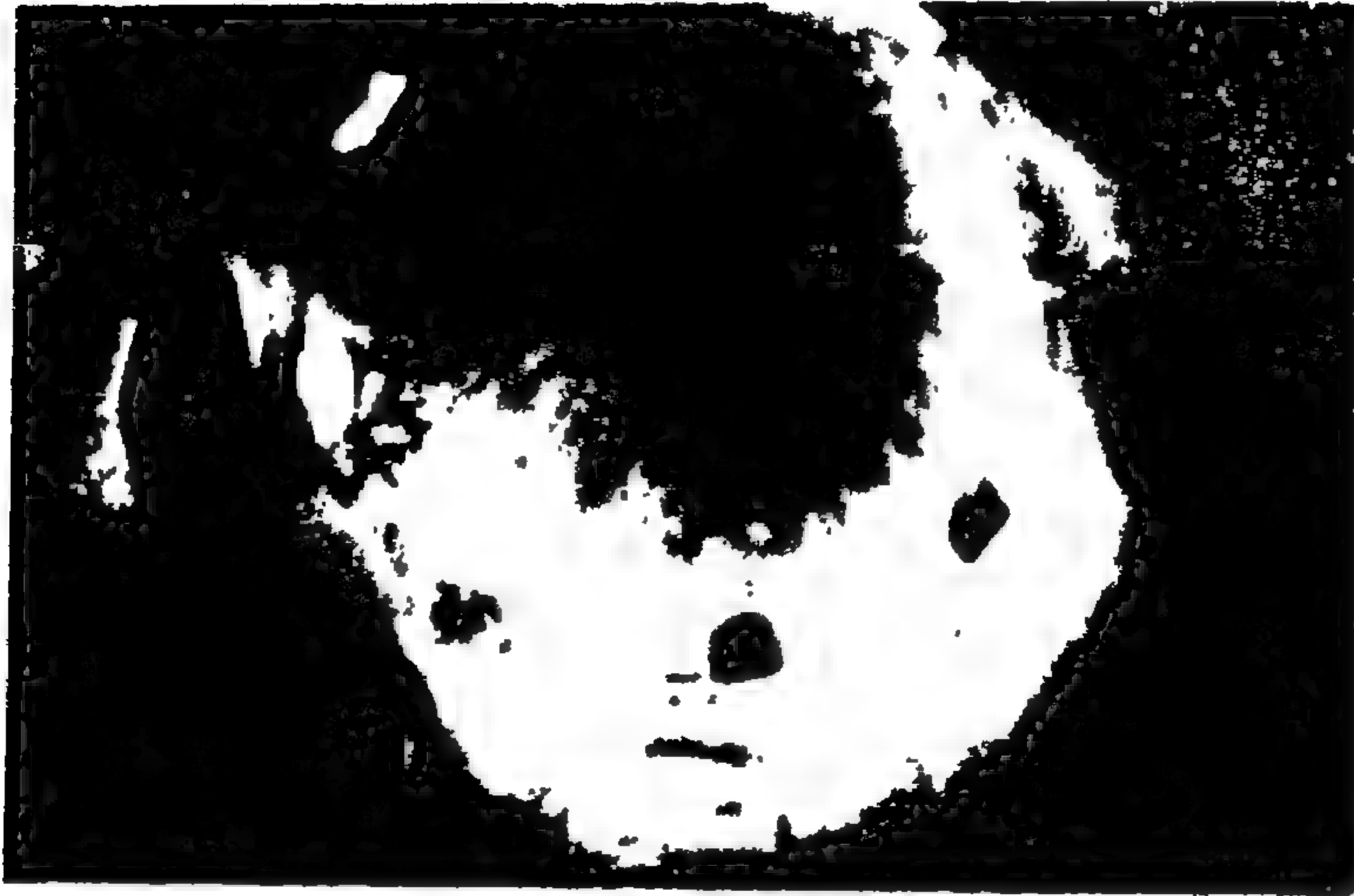
الجامع المنصوري الكبير : قبة الوضوء وواجهة ست الفداد

« اوحده »



.. محمد عبد. اوحده المكاني : بيت الصلاه

« لوحة ه »



جامع عبد الواحد المكناسي : قبة الضريح

« لوحة ٦ »



جامع ومدرسة طينال : المنذنة والقباب من الخارج

« لوحه ۷ »



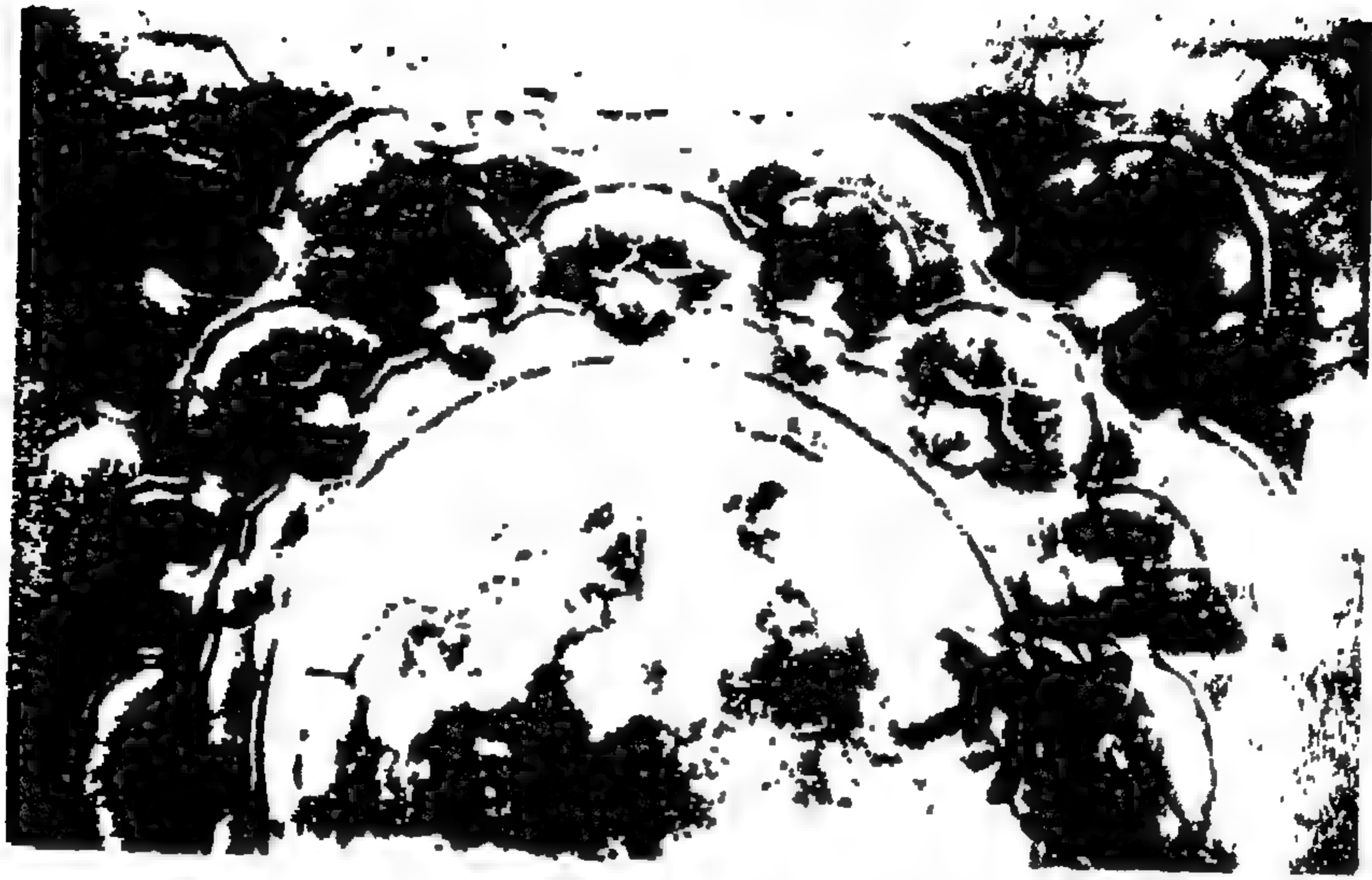
بوانه ضريح طينال

« لوحه ٨ »



جامع ومدرسة طينال فة المحراب والمنبر

« لوحة ٩ »



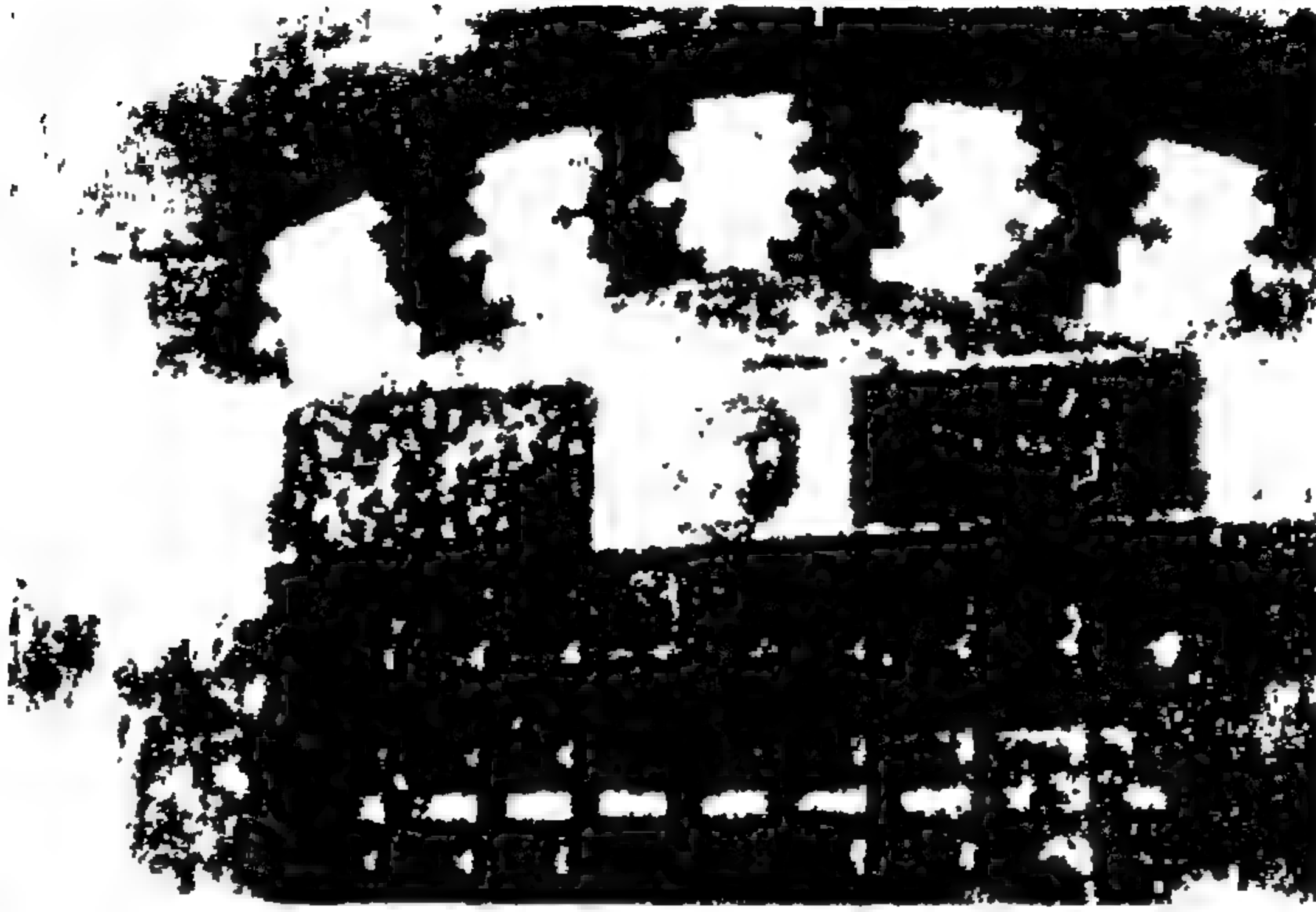
مقرنصات بمدخل جامع المطار

« لوحة ١٠ »



المدرسة القرطائية : واجهة المدخل

« لوحة ١١ »



المدرسة القرطائية : احدى النوافذ القبلية

« لوحة ١٢ »



نافذة بالمدرسة الشسبية

« لوحة ١٣ »



واجهة المدرسة المجاورة للجامع الكبير

« لوحة ١٤ »



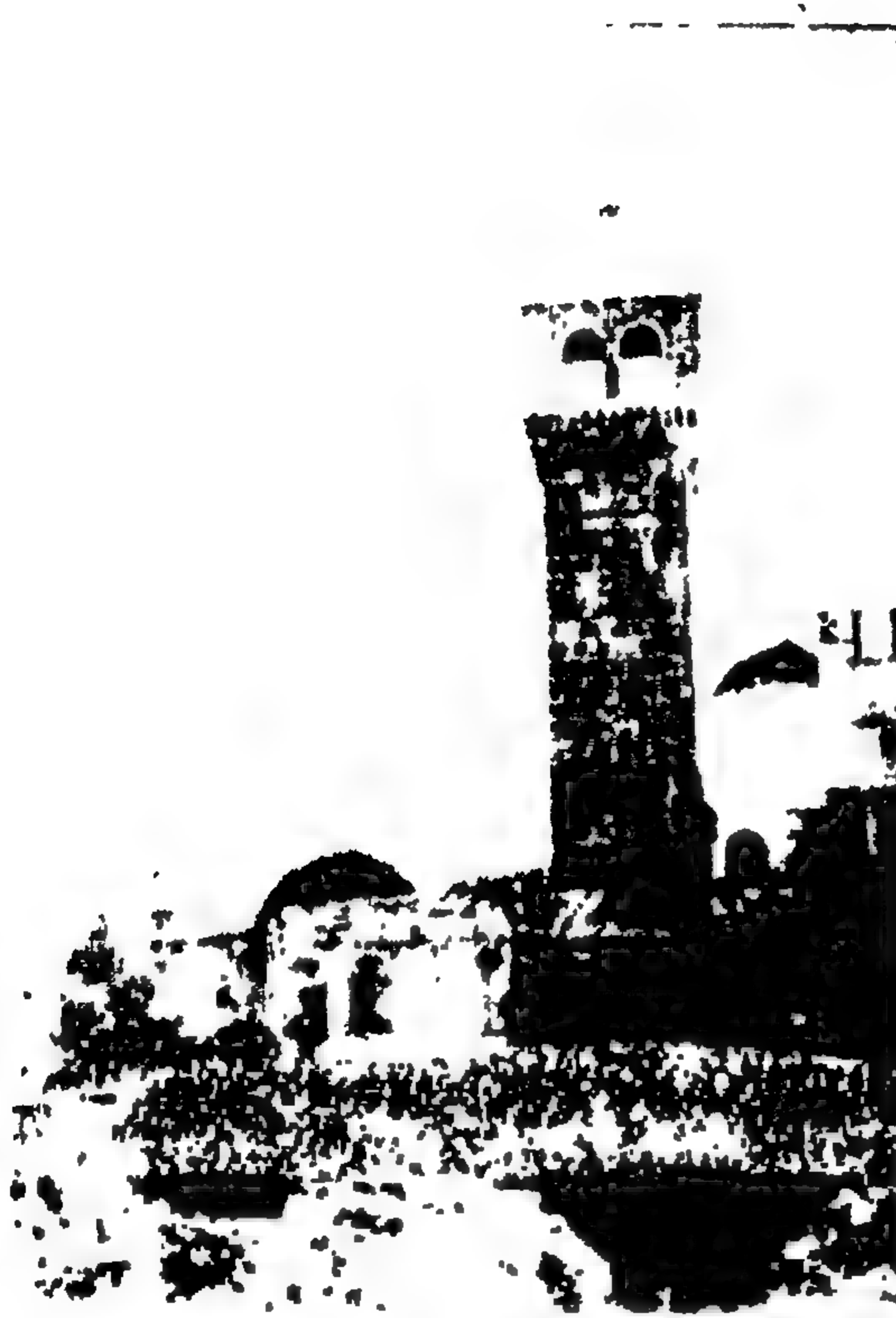
واجهة مدرسة الخير حسن

« لوحة ١٥ »



واجهة المدرسة الزيرية أمام الجامع الكبير

« لوحة ١٦ »

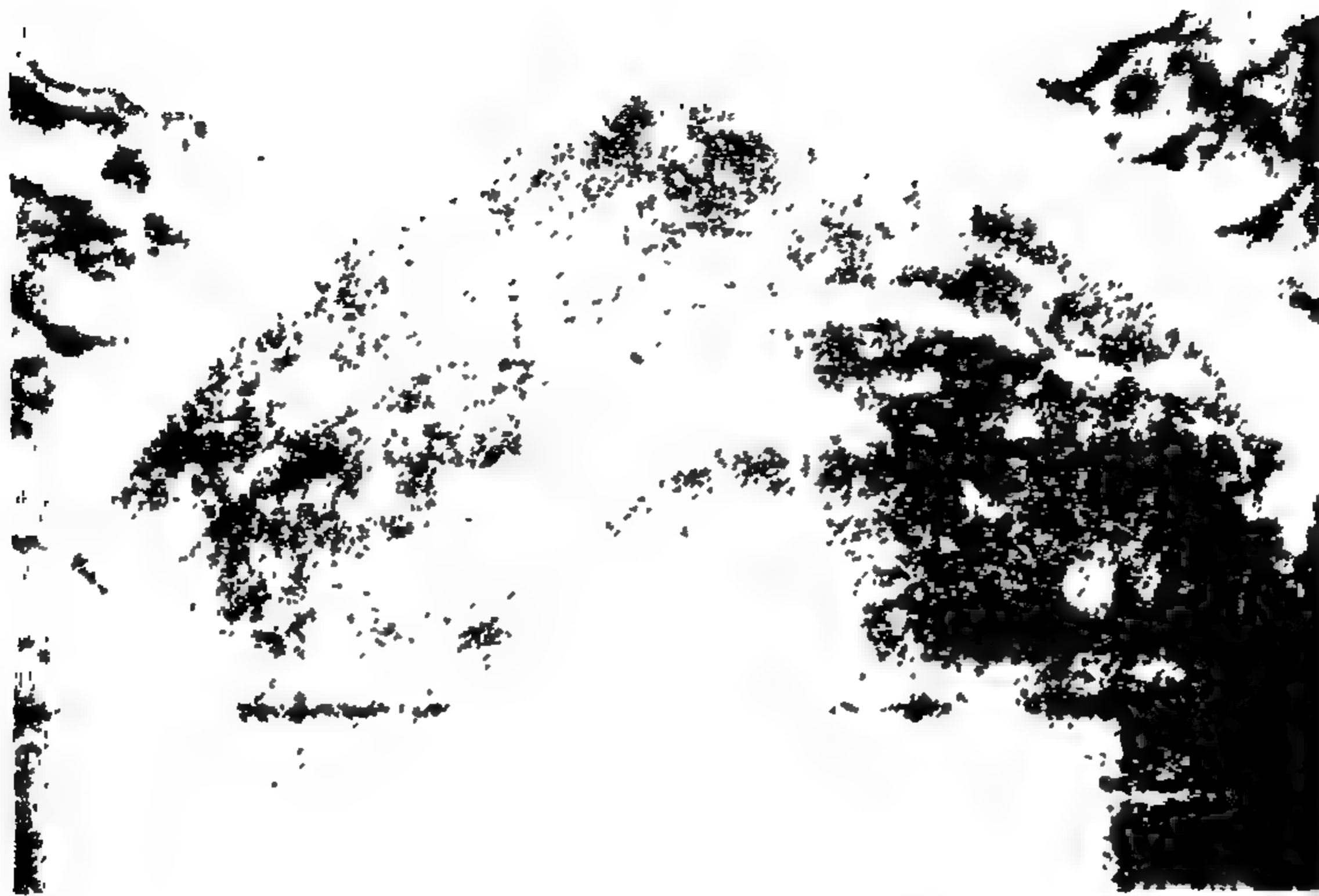


مدرسة البرطاس : المئذنة

« لوحة ١٧ »



مدرسة البرطاس من جهة نهر أبي علي



مدرسة البرانس - مفرصات، التربة الدائمة

« لوحه ١٩ »



مئذنة المدرسة الحجاجية

« لوحة ٢٠ »



قاعة سينما : المدخل

أوجه ٢١ «



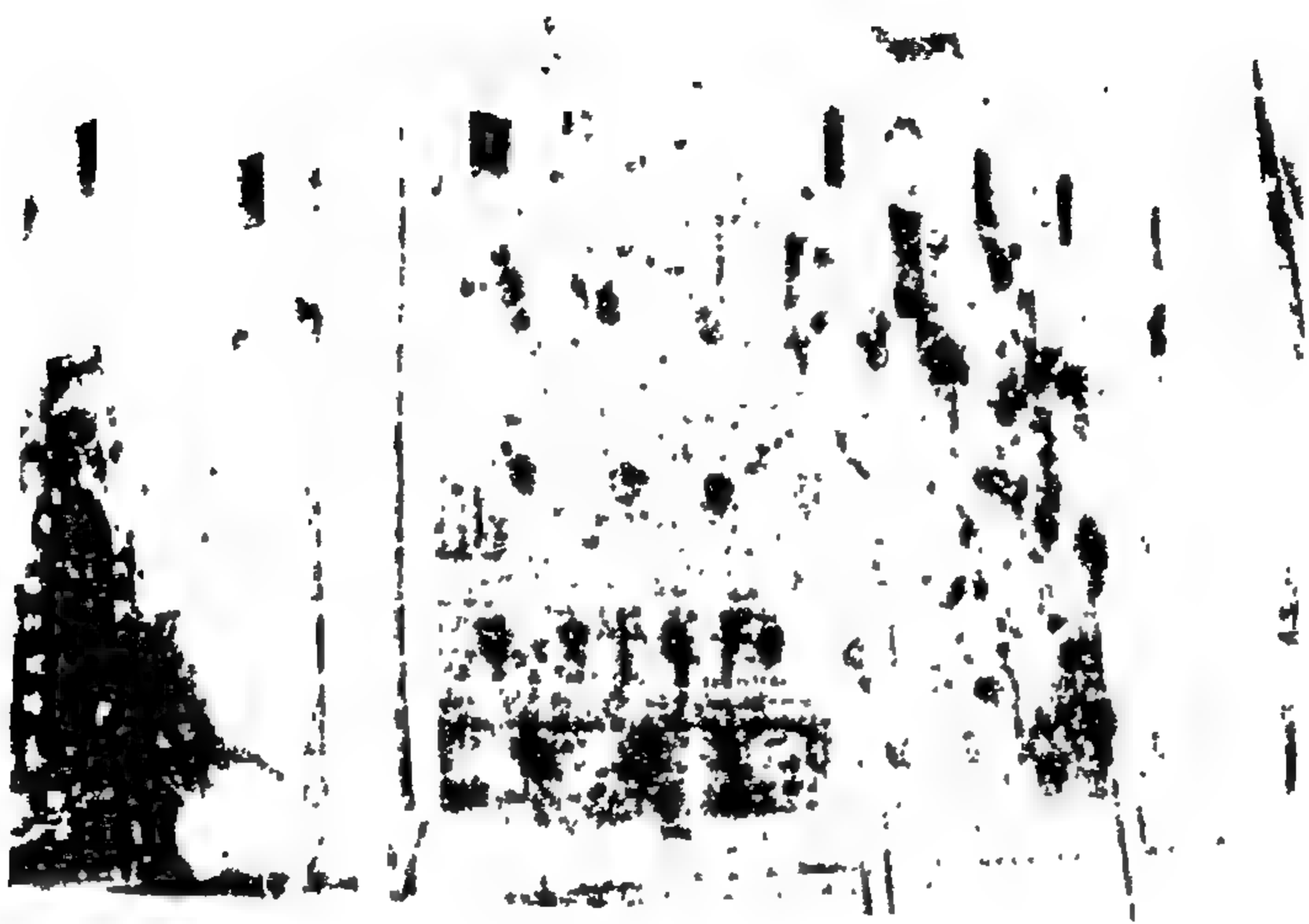
بوابة برج الساعة

« لوحة ٢٢ »



برج السباع : واجهة المدخل

« اوجه ٢٣ »



البناب القبلى من برج السباع

« لوحة ٢٤ »



رج الساع الواجه الشرقه.

١٠ لوحه ٢٥ «



برج السباع : دعبسة مركزية بالداخل



مناظر الشجر بداخل مرجع الشجر

« لرحمة » ٢٧ »



رج السباع : مناخذ المسود بالطابن العلوى

٢١



مظهر غامد الجرج رأس النهر ببناء طرابلس

« لوحة ٢٩ »



برج قايتباي بالاسكندرية وترى الأبراج الأسطوانية الركنه

« لوحه ٣٠ »



جانب من برج رأس النهر

« لوحه ٣١ »



« مركزه أسطوانة الشكل بأحد «الكرار» »

« لوحة ٣٢ »



برج السباع : قبوة متعارضة بالداخل

« لوحة ٣٣ »



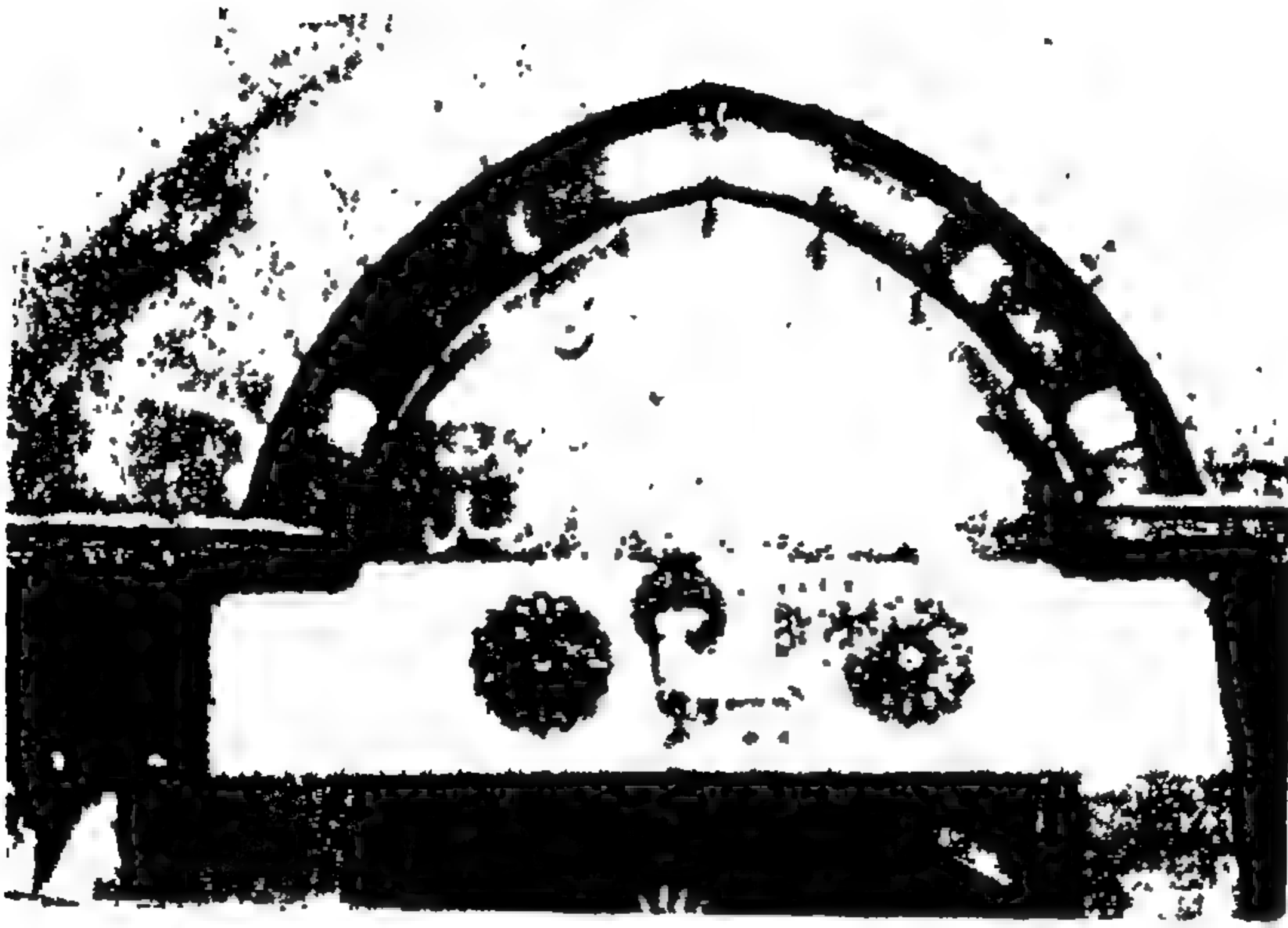
برج قايتباى بالاسكندرية :
فبوات منعارضة بداخل السور الخارجى البحرى

« لوحة ٣٤ »



برج رأس النهر من الداخل

« لوحة ٣٥ »



حساء عز الدين • عقد المدخل والعتب

« لوحة ٣٦ »



اللوحة الانشائية لتربة عز الدين أيبك الموصلى بأعلى النافذة

« لوحه ٣٧ »

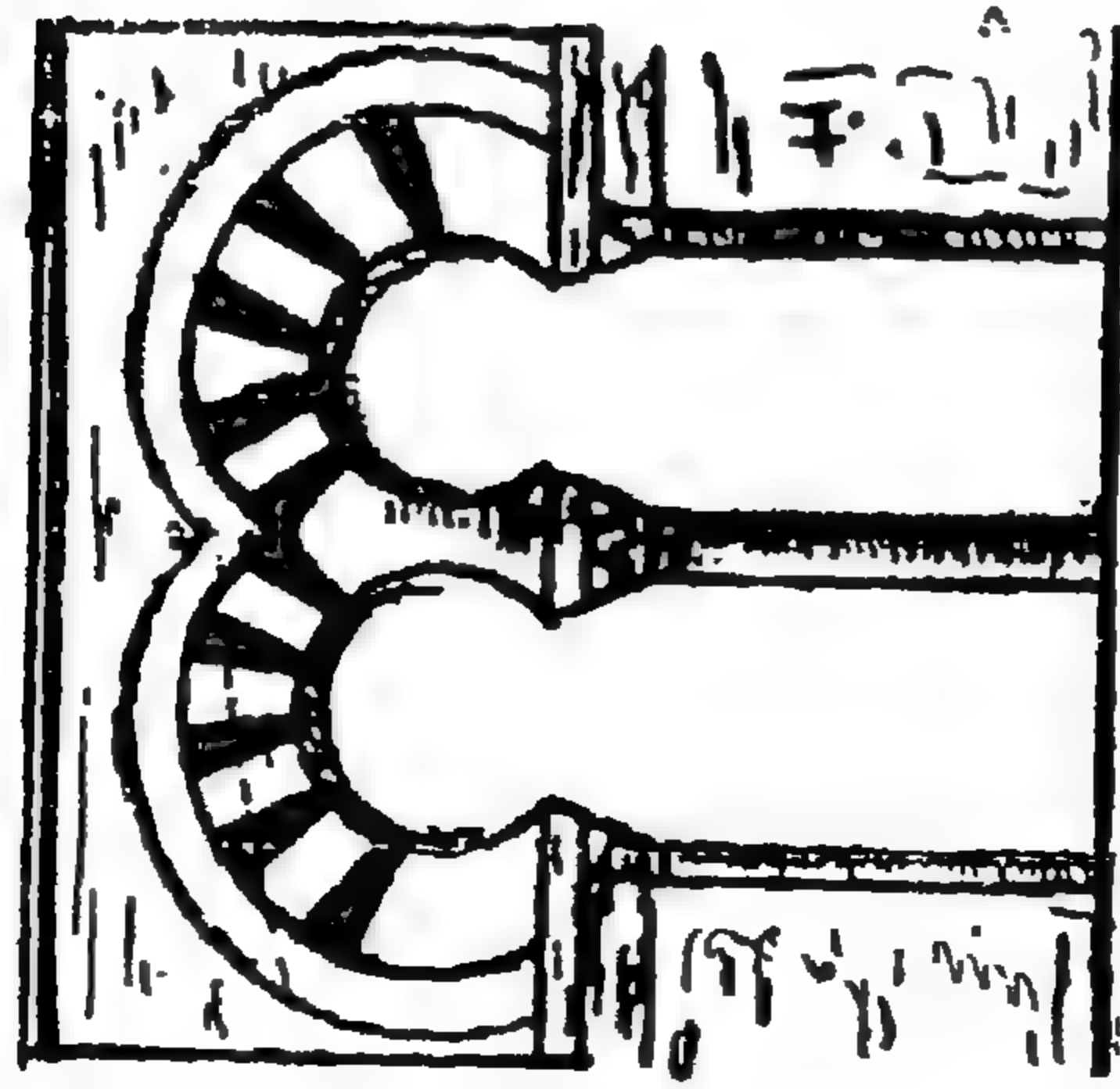


خان الخيامين

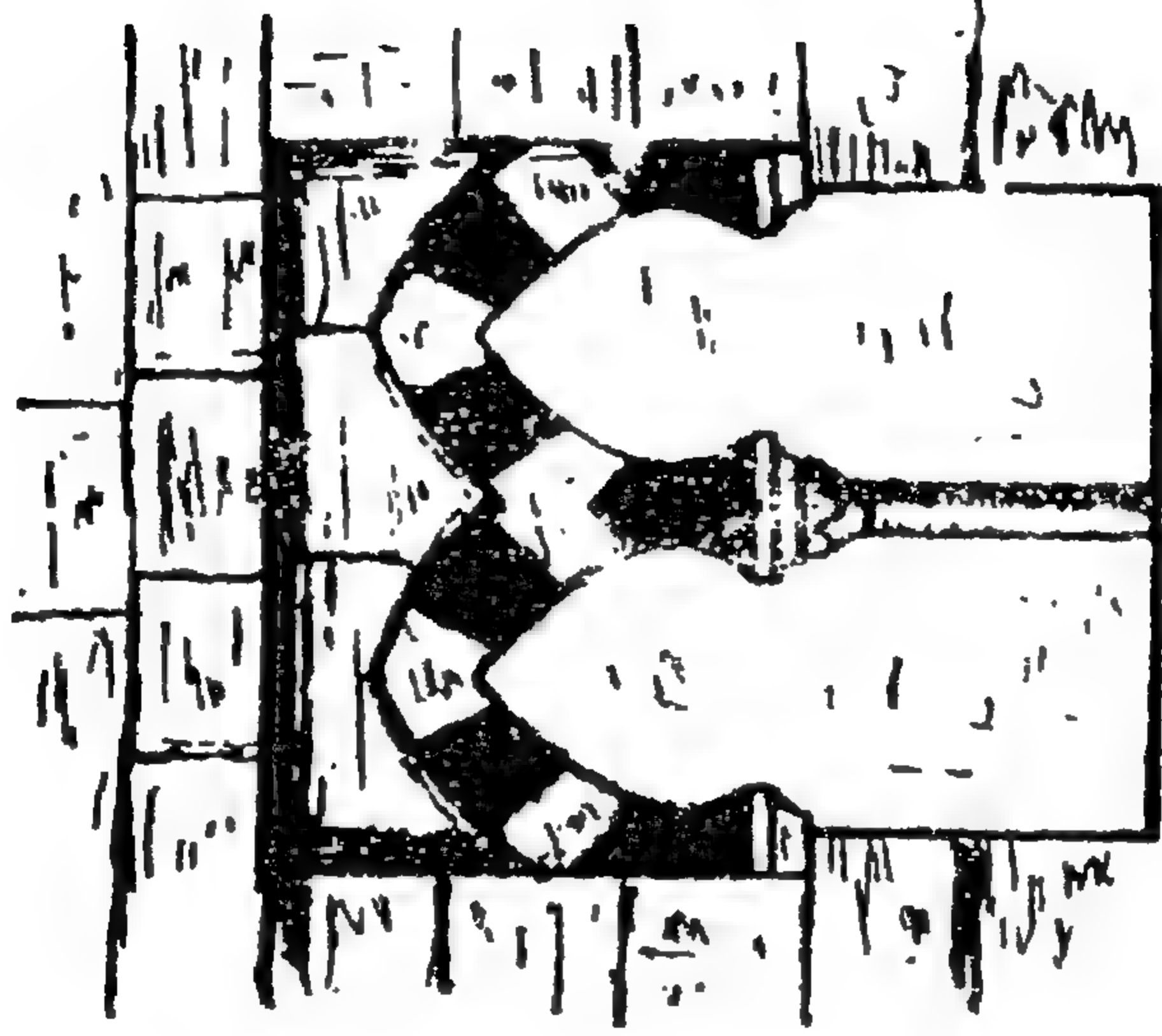
« لوحة ٣٨ »



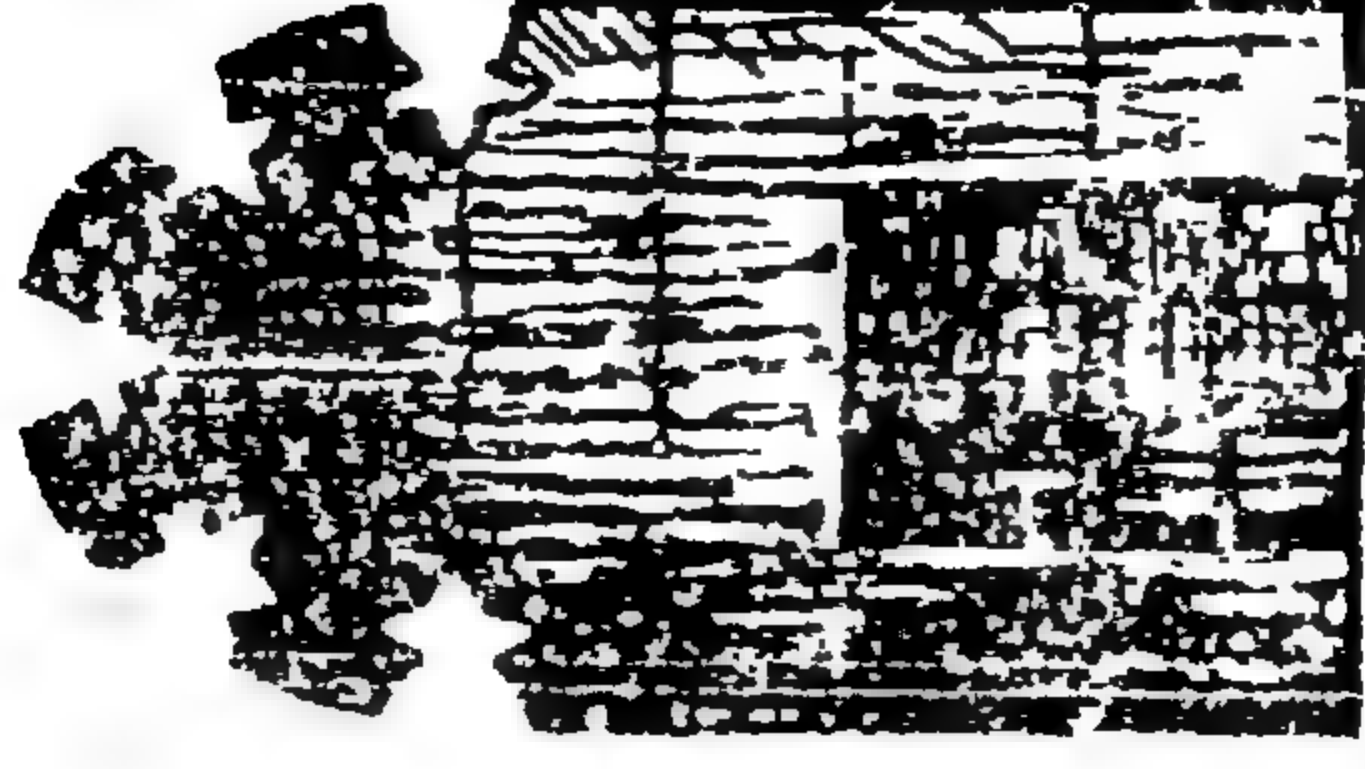
حان العسكر الصحن والمدخل



نافذة مزودة الست بأحدى
بوابات السجدة الجامع بقرطبة

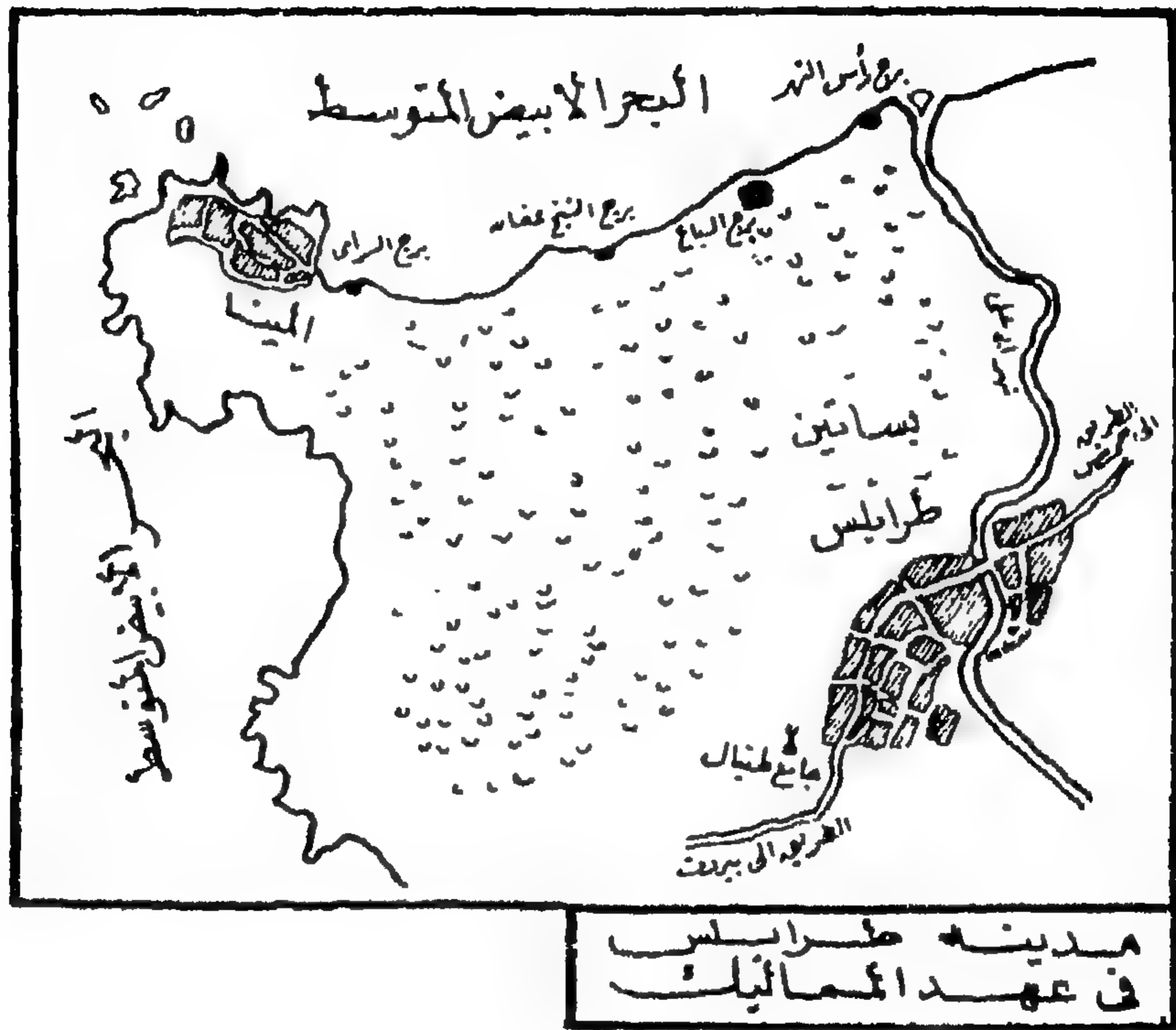


نافذة مزودة الست
بالدريش: في الجامع بقرطبة

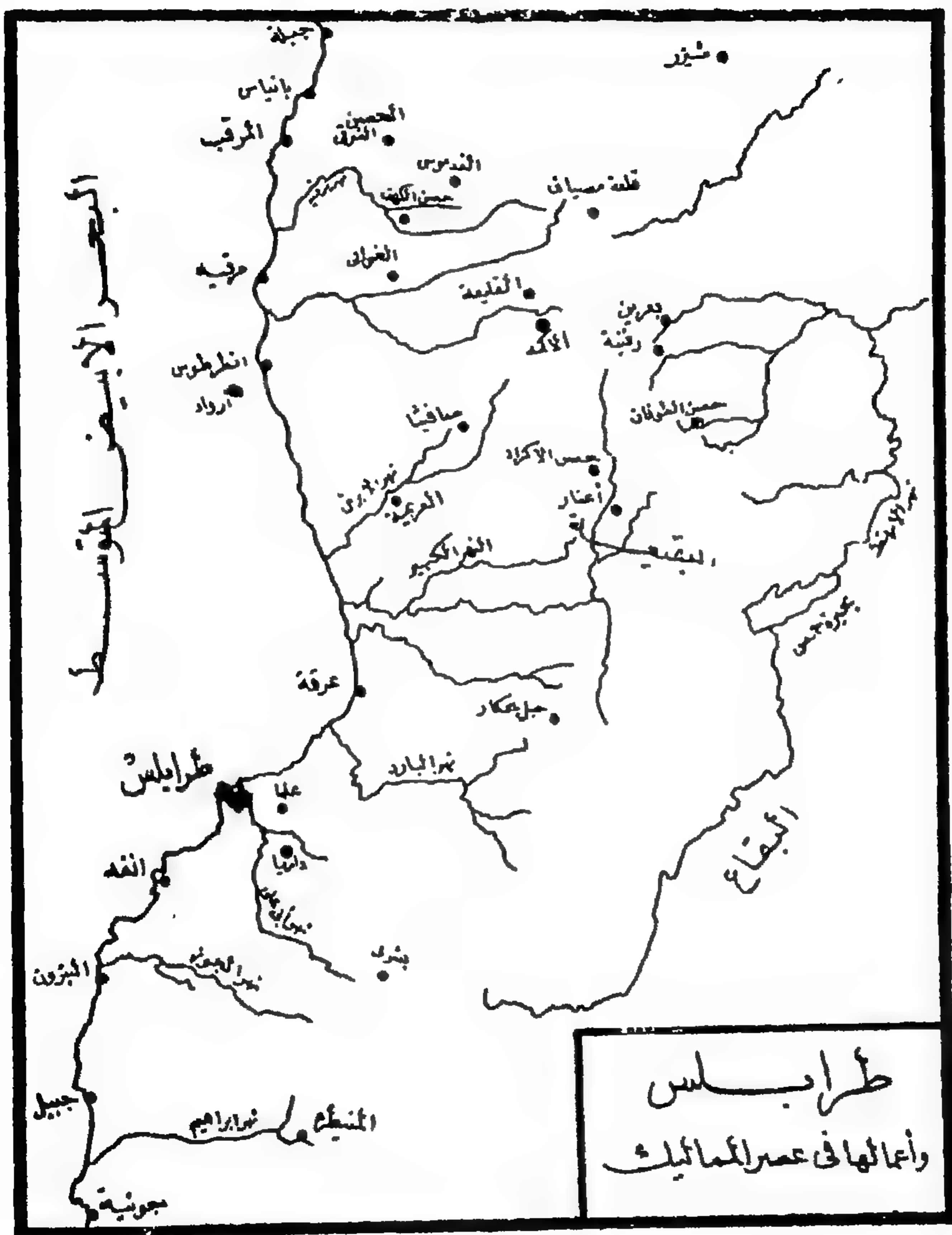


نافذة مزودة الست
بالحرايس

« خريطة رقم ٢ »



« خريطة رقم ٣ »



General Organization of the Alexandrian
Library (GOAL)



